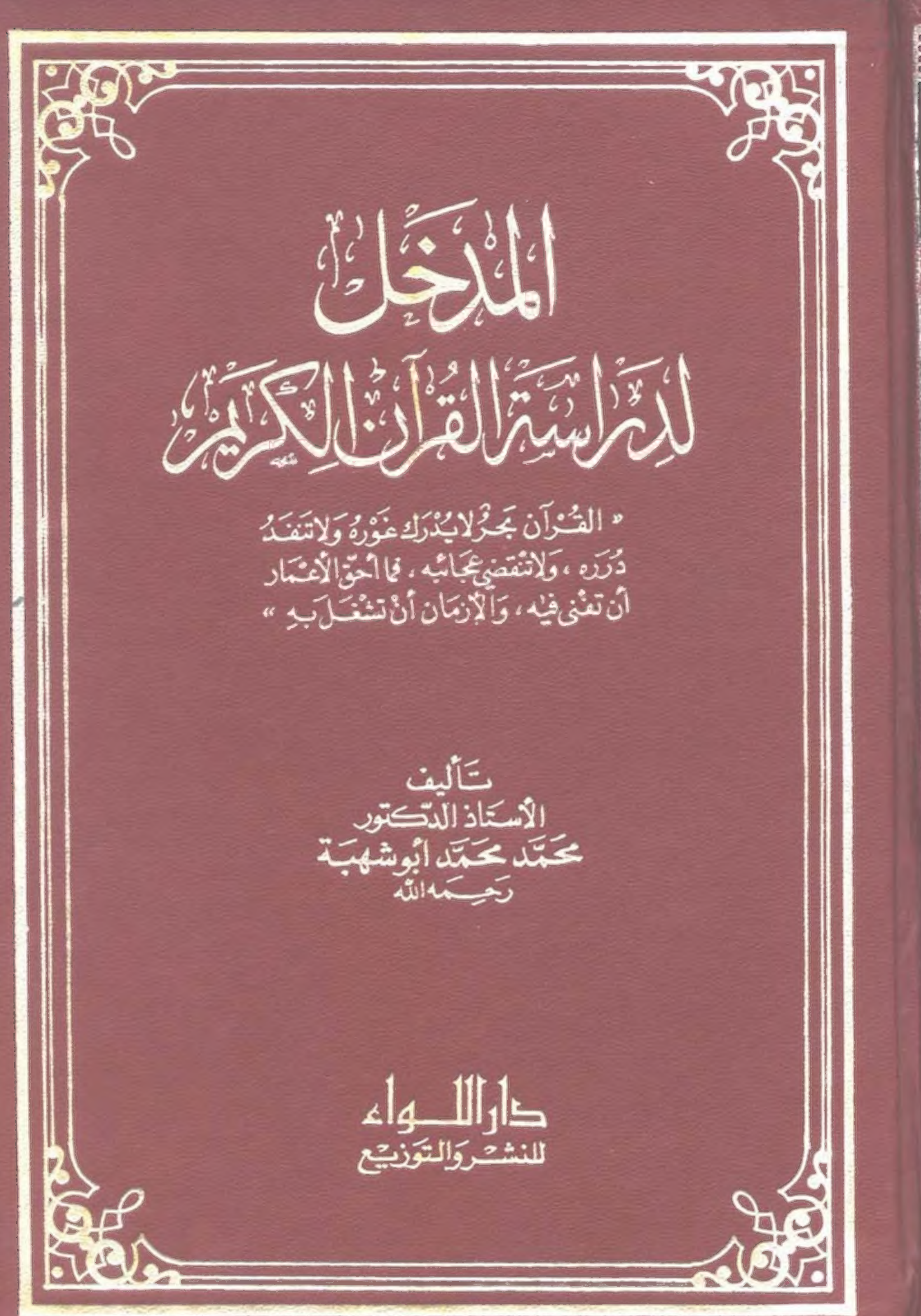


الدكتور محمد
محمد أبو شهبة
المدخل لدراسة القرآن الكريم
دار اللواء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

دار اللـــواء
المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٤٦١
ص. ب : ٢٨٥٦ شارع الملك فيصل
هاتف : ٤٠٢٨٠٨٤-٤٠٥١٧٥٤- برقياً : نشر دار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ، والصلاة والسلام على نبينا محمد القائل « مامن نبى من الأنبياء إلا وآتاه الله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أو تيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »

وعلى آله , وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

« وبعد »

فقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب القويم ، الذى يدور فى فلك القرآن الكريم ، من منذ بضع سنين .

وقد رغب إلى الكثيرون ممن قرأوه، وانتفعوا به ، من طلاب جامعة الأزهر الشريف ، وغيرهم من طلاب المعرفة وعشاق الثقافة الإسلامية الأصيلة ، هذه الثقافة التى تدور حول الأصلين الشريفين : القرآن الكريم، والسنة النبوية المنيفة

وقد رأيت أن تجىء هذه الطبعة الثانية – كما هى سنة الله فى التطور والارتقاء – مشتملة على مزيد من التحقيقات ، ومن الموضوعات التى لا يستغنى عنها الدعاة الذين نصبوا أنفسهم للدعوة إلى الله بالحكمة ،والموعظة الحسنة ولاسيما فيما أورده المستشرقون والمبشرون على القرآن من شبهات ، فقد عرضت للشبه التى أثيرت على الوحى ، ورددتها بالقواعد العلمية الصحيحة لا بالعاطفة والعصبية .

وكذلك زدت بحوثا حول ثبوت النص القرآنى بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وسلامة هذا النص من التحريف والتبديل ،وهى خصيصة للقرآن لم تتوافر لأى كتاب آخر سماوى

وكذلك زدت فيه بحوثا حول القراءات والقراء ، ورد شبه بعض المستشرقين فى هذا ، والكتاب المعاصرين الذين لم يأخذوا من الدراسات القرآنية بحظ وافر .

والله أسال أن ينفع به كما نفع بأصله ، وأن يجعل عملى مقبولا ، وأجرى موصولا ، إنه سميع مجيب . وهو حسبى ! ونعم الوكيل ؟

أبو عمر

محمد بن محمد أبو شهبه

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده «محمد» القرآن مشتملا على الحكم والأحكام والمواعظ والآداب، والصلاة والسلام على سيدنا «محمد» الذى خصه الله بجوامع الكلم، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحابته، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الحساب.

«أما بعد».

فإن أحق ما يشتغل به الباحثون، وأفضل ما يتسابق فيه المتسابقون — مدارسة كتاب الله، ومداومة البحث فيه، والغوص عن لآلئه، والكشف عن علومه وحقائقه. وإظهار إعجازه، وتجلية محاسنه، والدفاع عن ساحته ونفى الشكوك والريب فيه، والقرآن بحر لا يدرك غوره، ولا تنفد درره ولا تنقضى عجائبه. فما أحق الأعمار أن تفنى فيه، والأزمان أن تشغل به وكل ساعة يقضيها الباحث فى النظر فى كتاب الله، والتأمل فيه أو فى البحث فيما يتصل به، فى سبيل الله، وفى سبيل الإسلام.

ولما أسند إلى تدريس «علوم القرآن» بقسم «الدراسات العليا» بكلية أصول الدين من كليات الجامعة الأزهرية رأيت أن أضع فى هذا مؤلفاً وسطاً: لا هو بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل؛ ليكون مرجعاً لطلاب هذا القسم وغيرهم من عشاق القرآن وعلومه.

ولما كانت مباحث هذا العلم مدخلا وسبيلا لدراسة «القرآن الكريم» وفهمه وتدبره لم أجد نفسى فى حاجة إلى أن أتكلف لهذا المؤلف اسماً، وسميته: «المدخل لدراسة القرآن الكريم».

ويعتبر هذا «المدخل» أول كتاب ألف فى هذا الفن، من أحد رجال الطبقة التى تلى طبقة شيوخنا وأول باكورة شهية، لقسم الدراسات العليا شعبة «التفسير وعلومه، والحديث وعلومه» أقول هذا تحدثاً بنعمة الله على ولله الحمد، والمنة

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه، وأن يجعل نفعه عاماً موصولا؟

«أبو عمر» — محمد محمد أبو شهبة

القرآن الكريم

القرآن الكريم : هو كتاب الله — عز وجل — المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين المكتوب فى المصاحف من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة الناس » .

أحكمه الله فأتقن إحكامه ، وفصله فأحسن تفصيله، وصدق الله : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » [1] ، لا يتطرق إلى ساحته نقص ولا إبطال ، وصدق العلى العظيم حيث يقول : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. تنزيل من حكيم حميد » [2]

وهو المعجزة العظمى، والحجة البالغة ، الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية سيدنا « محمد » صلوات الله وسلامه عليه . تحدى به الناس كافة ، والإنس والجن أن يأتوا بمثله ، أو ببعضه فباءوا بالعجز والبهر ، وقد وقع التحدى « بالقرآن » على مرات متعددة ، كى تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، وتنقطع المعذرة.

تحداهم أولا أن يأتوا بمثله فعجزوا وما استطاعوا ، قال عز شأنه فى سورة « الإسراء » المكية الآية (٨٨) « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن .. لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ثم تحداهم : أن ياتوا بعشر سور مثله ، فما قدروا . قال تعالى فى سورة « هود » المكية الآية (١٣ — ١٤) « أم يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات [3] ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم

---

(١) هود — ١ (٢) فصلت ٤١ — ٤٢

(٣) هذا من قبيل التنزل مع الخصم . والمساهلة معه فى الحجاج ، كى يكون الإفحام أدل على الإعجاز ، أى إن كان مفترى — كما تزعمون — فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . والمراد : المماثلة فى الفصاحة والبلاغة وجزالة المعنى وسمو المقاصد والاشتمال على العلوم والمعارف .

يستجيبوا لكم فاعلموا : أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو .. فهل أنتم مسلمون » ؟ أى أسلموا ، فهو طلب برفق ، ولين ، وهو لون من ألوان أدب الخطاب فى القرآن

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أى سورة مهما قصرت ، كسورة « الكوثر » ، فما رفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى لزورة « يونس » المكية الآية (٣٨ - ٣٩) : « أم يقولون افتراه ، قل . فاتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »

وهذا الذى ارتضاه جمهور العلماء وارتضيته فى ترتيب آيات التحدى هو ما يجب أن يصار إليه ومن العلماء من يجعل آية يونس متقدمة على آية هود لتقدم نزول سورة يونس على نزول سورة هود فيجعل التحدى لسورة قبل التحدى بعشر سور (تفسير البغوى ج ٤ ص ٣٤٩) والجواب أنه على فرض تسليم ذلك فلا يمنع من تأخر نزول آية فى سورة متقدمة ، على نزول آية فى سورة متأخرة ، على أن بعض العلماء يرى تقدم سورة هود على سورة يونس وحينئذ يكون ما ذهبنا إليه هو الحق والصواب ، وإذا كان مستقبحا فى الكلام العادى التحدى بشىء فإذا عجز تحداه بعشرة أمثاله فما بالك بأبلغ الكلام ، وأحكمه ؟ .

ثم كرر التحـــدى بسورة ما ، فقال فى سورة « البقرة » المدنية الآية (٢٣ — ٢٤) « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

فألقموا حجراً ، ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة .. !

وبذلك ثبت إعجاز « القرآن » على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب فغيرهم بالعجز أحرى وأولى [1]

القرآن كتاب العربية الأكبر

والقرآن هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى. وجامعتهم العظمى ، وبه اكتسبت لغة العرب بقاءها، وحيويتها؛ وبه صار العرب أمة واحدة مؤمنة موحدة ، متآلفة القلوب متجانسة المزاج ، متحدة اللسان ، متشابهة البيان ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد ، ولولا هذا الكتاب العربى المبين لاستعجمت لغة العرب ، وأضحت فى عداد اللغات الميتة ، فهو الذى يجدد شبابها كلما اعتراها الهرم والضعف ، ويأخذ بيدها إذا ألم بها التخلف والركود ولولا هذا الكتاب لما كانت هذه الثروة الطائلة من العلوم التى تدوو حول القرآن ، ولغة القرآن وتجول فى رحابه الواسعة

وما من عربى — أياكان دينه — إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ووجدانه البيانى، وروحه العربية الصافية الشفافة .

القرآن كتاب الهداية الكبرى

والقرآن . هو هداية الخالق لإصلاح الخلق ، وشريعة السماء لأهل الأرض. وهو التشريع العام .. الخالد ، الذى تكفل بجميع مايحتاج إليه البشر فى أمور دينهم ودنياهم. فى العقائد، والأخلاق وفى العبادات والمعاملات والمدنية ، والجنائية ، وفى الاقتصاد ، والسياسة ، والسلم ، والحرب ،

---

(١) اكتفيت فى هذا الموضع بهذا القدر ، أما إشباع القول فى الإعجاز فلذلك محل اخر ان شاء الله

والمعاهدات ، والعلاقات الدولية وهو فى كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتريه خلل ولا اختلاف ، ولا تناقض وصدق الله . « أفلا يتدبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا[1] » وأصيل غاية الأصالة ، وعدل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة . وصادق غاية الصدق ، وصدق الله . « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم »[2]

فلاعجب .. أن كانت السعادة الحقة لا تنال إلا بالاهتداء بهديه ، والتزام ماجاء به وأن كان الشفاء لأمراض النفوس وأدواء المجتمع ؛ فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، واستضاءت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجراً كبيراً .. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما[3] « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا[4] « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام . . ويخرجهم من الظلمات إلى النـــور – بإذنه – ويهديهم إلى صراط مستقيم »[5]

« القرآن حارب التقليد ، ودعا إلى النظر ، والتأمل فى الكون »

وهو الكتاب الذى فك العقول من عقالها ، وأطلق النفوس من إسارها ، وانحى على التقليد والمقلدين بالذم والتبويخ . « وإذا قيل لهم . اتبعوا ما أنزل الله . قالوا . بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم

---

(١) سورة النساء الآية ٨٣ (٢) سورة الأنعام الآية ١١٥
(٣) سورة الإسراء الآية ٩ — ١٠ (٤) سورة الإسراء الآية ٨٢
(٥) سورة المائدة الآية ١٥ — ١٦

لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »(١) « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون »(٢) ؟ ! .

وهو الكتاب الذى وجه العقول والأنظار إلى النظر فى الأنفس ، وما فيها من عجائب وأسرار وغرائز واستعدادات : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟ »(٣) والنظر فى الآفاق والآيات الكونية علويها وسفليها ، ظاهرها وخفيها وعما تنطوى عليه من حكم ، وما أودع الله فيها من خواص وسنن وأفاض فى ذلك فى غير ما سورة وآية ، وإن شئت اليقين فى ذلك فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى — . « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »(٤) « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٥)

وقد روى : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : لما نزلت « ويل لمن قرأها ولم يتفكر » . وقال الله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »(٦) . وقال — سبحانه — : « أفلا ينظرون إلى الإبل . . كيف خلقت ؟ !

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٠
(٢) سورة المائدة . الآية ١٠٤
(٣) سورة الذاريات الآية ٢١
(٤) سورة البقرة الآية ١٦٤
(٥) سورة آل عمران الآية ١٩٠
(٦) سورة ق الآية ٦ — ٨

وإلى السماء . كيف رفعت ؟ ! وإلى الجبال كيف نصبت ؟ ! وإلى الأرض كيف سطحت ؟ ! فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »(١)؟ وقال : « وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل : صنوان وغير صنوان (٢) يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »(٣) . إلى غير ذلك من الآيات التى لا يحصيها العد .

وقد زخر القرآن العظيم بهذا النوع من الآيات ، وكثرت كثرة زادت على آيات الأحكام ، ولاسيما فى القسم المكى ولذلك سر : ذلك أن هذا النظر ، وذاك التأمل غالبا ماينتهيان بالإنسان العاقل المجرد عن الأهواء والشهوات ، إلى الوصول إلا الإيمان بالخالق - جل وعلا - ووحدانيته وتفرده بصفات الكمال ، والجلال ، والجمال والإيمان بالبعث والمعاد ، وأن هناك حياة أخرى خيرا من هذه الحياة ، والإيمان بالملائكة والرسل الكرام وإذا ما آمن البشر بهذه العقائد سهل عليهم بعد تلقى الشرائع ، والتزامها علما ، وعملا ، وسلوكا ، وخير الإيمان ما كان عن بينة ودليل ، وخير العلم والعمل ما كان عن اطمئنان وبحث ، واقتناع .

« القرآن فتح الباب للعلوم التجريبية » والقرآن حينما دعانا إلى النظر فى الآيات الآفاقية والأنفسية لم يقف بنا عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب . وإنما أراد - إلى ذلك - استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار . والتقصى عما فيها من عجائب وسنن وخواص عن طريق الملاحظة حينا والتجارب أحيانا أخرى ؛ وبذلك يكون القرآن

---

(١) سورة الغاشية الآية ١٧ - ٢٢

(٢) جمع صنو أى نخلات أصلها واحد ونخلات ليست كذلك

(٣) الرعد الآية ٤

فتح أبوابا للعلوم التجريبية من منذ أربعة عشر قرناً من الزمان .

ولو أن المسلمين استفادوا بما فى هذا الكتاب الكريم من توجيهات وإرشادات ؛ لكانوا — كما كان الشأن فى سلفهم الأولين — أسبق الأمم إلى الكشوف العلمية والاختراع والابتداع ، ولصاروا سادة الدنيا ، وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ولم يستفيدوا بهدى القرآن وإرشاداته ، فكانوا على ما ترى . . ! !

« القرآن حارب العنصرية ، والعنجهية الجاهلية »

والقرآن هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على التفرقة العنصرية والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس كافة ، فالناس ربهم واحد وكلهم لآدم « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض » . وإنما التفاضل بالتقوى ، والتقوى جماع كل هدى وحق وخير . وصدق الله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »(١) . فالناس مهما تعددت شعوبهم ، وتباينت أممهم فيجمعهم رباط واحد ، وهو رباط الإنسانية العام ، وهذا أسمى ما يطمع فيه من تشريع !

« القرآن كون أمة مثالية »

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ ، وأقام أمة كانت مضرب الأمثال فى الإيمان والإخاء والعدل والوفاء ، والوفاق والوئام ، وأظل العالم بلواء الأمن والسلام حقبا من الزمان ، وصير من رعاة الإبل والشاء علماء حكماء رحماء ، وسادة قادة فى الحكم والسيادة والحرب ، عقمت الدنيا عن أن تجود بمثلهم .

وهو الكتاب الذى لا تفنى ذخائره ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

---

(١) الحجرات الآية ١٣ .

تزداد منه ـ على ترداده ـ مقة وكل قول ـ على الترداد ـ مملول

وتلك لعمر الحق خصيصة من خصائص « القرآن » . ومن كان فى شك من هذا فليستفت الذوق والوجدان والقلب والآذان ، وليوازن فى هذا بين كلام الله وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اعترف .

ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد إلا جدة وطرافة ولا يزال غضاً طرياً كما أنزل ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجاب وصدق الحق وتبارك وتعالى حيث يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق ، وفى أنفسهم ؛ حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد[1] » بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماداه : أنك لن تجد فى الكشف عن حقيقة هذا الكتاب وخفاياه وفضائله ومزاياه أوفى مما وصفه به نبينا « محمد ابن عبد الله » :

روى الترمذى[2] بسنده عن الحارث الأعور قال : مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على « علىّ » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ قال : أوقد فعلوها ؟

---

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ .

(٢) قال الترمذى فيه : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفى حديث الحارث مقال ولكن ذكره الحافظ « السيوطى » فى الإتقان ، وقال أخرجه الترمذى ، والدارمى وغيرهما ، وسكت عنه ، وكذا ذكره الحافظ « ابن كثير » ، « فضائل القرآن » له ، وتعقب كلام الترمذى بما يدل على اعتماده للحديث ، والمتأمل فيه يجد قبسا من نور النبوة ، وحكما من ينابيع الوحى ، مما يجعل القلب يطمئن إليه .

قلت نعم . قال : أما إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء[1] ولا تلتبس به الألسنة[2] ، ولا يشبع منه العلماء[3] ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم ينته الجن إذ سمعه حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا » ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

إن كتاباً هذا بعض شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه ، ويجعله أنيسه فى خلوته ، ورفيقه فى سفره ، وصديقه الصدوق فى يسره وعسره ومستشاره الأمين فى أمور دينه ودنياه ، وحجته البالغة فى حياته وأخراه .

---

(١) بفتح التاء : أى لا تميل عن الحق باتباعه الأهواء أو بضمها : اى لا تميله الأهواء المضلة عن نهج الاستقامة إلى الاعوجاج . من الإزاغة : بمعنى : الإمالة والباء لتأكيد التعدية .

(٢) أى لا تتعسر عليه ألسنة المؤمنين ، ولو كانوا من غير العرب قال تعالى « ولقد يسرنا القرآن للذكر » وقال « فإنما يسرناه بلسانك » .

(٣) أى لا يحيطون بكنهه إحاطة من يشبع من الشىء ، بل كلما اطلعوا على شىء منه اشتاقوا إلى غيره ، ومعنى « ولا يخلق عن كثرة الرد » يخلق — بفتح الياء وضم اللام ، وبضم الياء وكسر اللام — : من « خلق » الثوب : إذا بلى ، أو من « اخلق » . وعن على بابها : أى لا يصدر الخلق عن كثرة تكراره . وقال الحافظ « ابن حجر » : « عن » : بمعنى « مع » وفى بعض النسخ للترمذى : « على » مكان « عن » . وهو يؤيد ما ذهب إليه « ابن حجر » .

عناية الأمة الإسلامية بالقرآن :

فلا عجب - والقرآن كما سمعت - أن عنيت الأمة الإسلامية به عناية فائقة ، من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، فحفظوا لفظه ، وفهموا معناه ، واستقاموا على العمل به وأفنوا أعمارهم فى البحث فيه ، والكشف عن أسراره ، ولم يدعوا ناحية من نواحيه الخصبة إلا وقتلوها بحثا وتمحيصا ، وألفوا فى ذلك المؤلفات القيمة ، فمنهم من ألف فى تفسيره ، ومنهم من ألف فى رسمه ، وقراءاته ، ومنهم من ألف فى استنباط الأحكام منه ومنهم من ألف فى ناسخه ومنسوخه ، ومنهم من ألف فى أسباب نزوله ، ومنهم من ألف فى إعجازه ، ومنهم من ألف فى مجازه ، ومنهم من ألف فى أمثاله ، ومنهم من ألف فى أقسامه ، ومنهم من ألف فى غريبه ، ومنهم من ألف فى إعرابه ، ومنهم من ألف فى قصصه ، ومنهم من ألف فى تناسب آياته وسوره إلى غير ذلك من العلوم المتكاثرة .

وقد تبارى علماؤنا فى هذا المضمار الفسيح ، وجروا فيه أشواطا بعيدة حتى زخرت المكتبة الإسلامية بميراث مجيد من تراث سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأعلام ، وكانت هذه الثروة - ولا تزال - مفخرة نتحدى بها أمم الأرض ، ونباهى بها أهل الملل فى كل عصر ومصر ، وأضحت هذه العناية بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب وأجلها ، وأبعدها من التحريف والتغيير ، وبذلك هيأ الله الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه ، وهل هذا إلا مصداق قوله - سبحانه وتعالى - : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ؟ .

المبحث الأول
معنى علوم القرآن

يقتضينا منهج البحث التحليلى أن نبين معنى كل من طرفى هـذا « المركب الإضافى » ثم نبين بعد ذلك المراد منه بعد التركيب ثم بعد ماصارفنا مدونا طرفا هذا المركب ، هما لفظ « علوم » ولفظ « القرآن » .

أما « العلوم » : فهو جمع « علم » . والعلم فى اللغة العربية : مصدر بمعنى الفهم والمعرفة ، ويطلق ويراد به : اليقين أيضا (١) .

أما فى الاصلاح .. فقد اختلفت فيه عبارات العلماء باختلاف الاعتبارات ، فعرفه الشرعيون بتعريف ، وعلماء الكلام بتعريف آخر وعرفه الفلاسفة والحكماء بتعريف ثالث(٢) .

وليس شيء من هذه التعريفات بمرادهنا ، وإنما المراد : العلم فى اصطلاح أهل التدوين وعرفهم ، و « العلم » فى عرف التدوين العام عبارة عن : « جملة من المسائل المضبوطة بجهة واحدة » سواء أكانت وحدة الموضوع أم وحدة ، الغاية والغالب أن تكون تلك المسائل كلية نظرية وقد تكون ضرورية وقد تكون جزئية ، مثل: « مسائل علم الحديث رواية» كقولهم : « إنما الأعمال بالنيات ... » بعض قوله صلى الله عليه وسلم .

أما « العلم » بمعنى : « الملكة التى بها تستحصل هـذه المسائل » أو بمعنى « إدراك المسائل » فغير مراد هنا ؛ لأن بحثنا فى « العلم » بمعنى . الفن المدون ،

---

(١) فى « القاموس المحيط » [علمه كسمعه علما ـ بالكسر ـ عرفه ، وعلم هو فى نفسه] وفى المصباح المنير ! « العلم اليقين ، يقال « علم يعلم . إذا تيقن . وجاء بمعنى المعرفة أيضاً » .

(٢) عرفه الشرعيون بأنه « العلم بالله تعالى وما يتعلق به من جليل صفاته وحكيم أفعاله ، ومعرفة حلاله وحرامه » .

وعرفه المتكلمون بأنه « صفة تنكشف بها الأشياء لمن قامت به » .

وعرفه الحكماء بانه « صورة الشىء الحاصلة فى العقل » .

ومعلوم . أن الذى يدون ويؤلف هى « المسائل والقواعد » لا الملكة ولا الإدراك .

وأما « القرآن » :

لفظ « قرآن » قد اختلف فيه العلماء من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموز ، ومن جهة كونه مصدراً أو وصفاً على أقوال نجملها فيما يأتى : —

أما القائلون : بأنه « مهموز » فقد اختلفوا على رأيين —

الأول . قال جماعة منهم « اللحيانى » . القرآن : مصدر « قرأ » بمعنى: تلا ، كالرجحان والغفران ، ثم نقل من هذا المعنى المصدرى ' وجعل اسما للكلام المنزل على نبينا « محمد » صلى الله عليه وسلم ' من باب « تسمية المفعول بالمصدر » ، ويشهد لهذا الرأى ورود القرآن مصدراً بمعنى : القراءة فى الكتاب الكريم ، قال تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرءانه[1]. أى قراءته .

وقول « حسان بن ثابت » يرثى « ذا النورين » عثمان — رضى الله عنه — :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

أى قراءة .

الثـــانى : قال جماعة منهم « الزجاج إنه وصف على « فعلان » مشتق من « القرء » بمعنى الجمع ، يقال فى اللغة : « قرأت الماء فى الحوض، أى جمعته ، ثم سمى به : الكلام المنزل على النبى — صلى الله عليه وسلم — لجمع السور والآيات فيه أو القصص والأوامر والنواهى ، أو لجمعه ثمرات الكتب السابقة .

وهو على هذين الرأيين مهموز ، فإذا تركت الهمزة ، فذلك للتخفيف،

(١) سورة القيامة الآيتان ١٧ ، ١٨ .

ونقل حركتها إلى الساكن قبلها والألف واللام فيه ليست للتعريف ، وإنما للمح الأصل .

والقائلون بأنه غير مهموز اختلفوا فى أصل اشتقاقه .

(١) فقال قوم منهم « الأشعرى » هو مشتق من « قرنت الشىء بالشىء » إذا ضممت أحدهما إلى الآخر وسمى به « القرآن » لقران السور والآيات والحروف فيه .

(٢) وقال « الفراء » : هو مشتق من « القرائن » لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا ، وهى قرائن . أى أشباه ونظائر

وعلى هذين القولين : فنونه أصلية ، بخلافه على القولين الأولين . فنونه زائدة

رأى خامس . مقابل للأقوال السابقة .

وهو أنه اسم علم غير منقول ، وضع من أول الأمر علماً على الكلام المنزل على « محمد » ﷺ وهو غير مهموز . وهذا القول مروى عن الإمام « الشافعى » ، أخرج البيهقى والخطيب وغيرهما عنه . أنه كان يهمز قراءة ، ولا يهمز « القرآن » ، ويقول . « القرآن » اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قراءة ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل .

وبالتخفيف قرأ « ابن كثير » وحده ؛ أما بقية السبعة فقرأوا بالهمزة

وأرجح الآراء وأخلقها بالقبول « الأول » ، ويليه الرأى الثانى

ومما يقوى مذهب القائلين بالهمز . أنهم خرجوا التخفيف تخريجا علميا صحيحاً ، ولا أدرى ماذا يقول القائلون بالرأى الأخير فى توجيه قراءة لفظ « القرآن » بالهمز ، مع أن عليها معظم القراء السبعة ، كما ذكرنا آنفا ؟!.

رأى آخر :

يرى بعض الباحثين(١) . أن « قرآن » مأخوذ من «قرأ» بمعنى « تلا » وهذا الفعل أصله فى اللغة الآرامية ثم دخل العربية قبل الإسلام بزمن طويل ولو صح هذا ، فلا ضير فيه ، لأن هذه الكلمة وأمثالها — وإن كانت فى الأصل أعجمية - فقد صارت بعد التعريب عربية بالاستعمال وبإخضاعها لأصول العرب فى نطقهم ولغتهم ، واندمجت فيها حتى صارت جزءا منها فنزل القرآن بها ، وهى على هذا الحال .

«تعريف القرآن» عند الأصوليين ، والفقهاء ، وأهل العربية

هو كلام الله المنزل على نبيه «محمد» ﷺ المعجز بلفظه ، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر ، المكتوب فى المصاحف ، من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة (الناس) .

وقد خرج بقولنا . المنزل على نبيه (محمد) المنزل على غيره من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور والصحف ، وخرج بالمعجز بلفظه المتعبد بتلاوته الأحاديث القدسية ، على الرأى بأن لفظها من عند الله ، فإنها ليست معجزة ولا متعبداً بتلاوتها . وخرج بقولنا (المنقول بالتواتر .. الخ) جميع ماسوى القرآن المتواتر من منسوخ التلاوة ، والقراءات غير المتواترة سواء نقلت بطريق الشهرة كقراءة (ابن مسعود) فى قوله تعالى فى كفارة الأيمان (فصيام ثلاثة أيام)(٢) بزيادة (متتابعات) ، أو بطريق الآحاد مثل قراءة . (متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان)(٣) بالجمع فإنها ليست قرآنا ، ولا تأخذ حكمه .

---

(١) الأستاذ عبدالوهاب حمودة « مجلة لواء الإسلام» العدد الأول من السنة الأولى ص ٢٨ (٢) المائدة ٨٩

(٣) الرحمن ٧٦

ثم إن العلماء بحثوا فى الصفات الخاصة بـ(القرآن) فوجدوا أنها تنحصر فى الإنزال على — النبى ﷺ — والإعجاز ، والنقل بالتواتر ، والكتابة فى المصاحف ، والتعبد بالتلاوة .

فرأى بعض العلماء زيادة التوضيح والتمييز ، فعرفه بجميع هذه الصفات كما ذكرنا آنفاً .

واقتصر بعضهم على ذكر الإنزال على النبى ، والإعجاز لأن ما عداهما من الصفات ليس من الصفات اللازمة ، لتحقق القرآن بدونها فى زمن النبى ـ ﷺ ـ فقالوا فى تعريفه (هو الكلام المنزل على محمد ﷺ ، المعجز).

واقتصر بعضهم على الإنزال والكتابة فى المصاحف ، والنقل تواتراً ، لأن المراد تعريفه لمن لم يدرك زمن النبوة . وإنزال الألفاظ والكتابة فى المصاحف والنقل تواتراً من أبين اللوازم للقرآن وأوضحها بخلاف الإعجاز فليس من اللوازم البينة . إذ لا يعرفه إلا الخواص الواقفون على أسرار اللغه وأساليبها . كما أنه ليس شاملا لكل جزء . إذ المعجز هو السورة أو مقدارها .

واقتصر البعض على النقل فى المصاحف تواترا ، لأنه كاف فى الغرض المقصود ، وهو تمييز القرآن عن جميع ما عداه . فقد ثبت أن الصحابة — رضوان الله عليهم ـ بالغوا فى ألا يكتب فى المصحف ماليس منه . مما يتعلق به . حتى النقط والشكل . واحتاطوا فى ذلك غاية الاحتياط ـ حتى لا يختلط القرآن بغيره .

واقتصر بعضهم على ذكر الإعجاز فحسب. لأنه وصف ذاتى للقرآن إذ هو الآية العظمى المثبتة لرسالة نبينا «محمد» صلى الله عليه وسلم . ولكون القرآن المنزل عليه من عند الله لا من عند البشر .

ولما كان بحثنا فى هذا العلم . إنما يتعلق بنظمه العربى المبين . فقد آثرت ألا أتعرض للقرآن من حيث كونه كلام الله . وصفة من صفاته . لأن

هذا البحث محله « علم الكلام »(١)

وذهب المحققون من الأصوليين ، والفقهاء ، وأهل العربية : إلى أن لفظ القرآن « علم شخصي » مدلوله : الكلام المنزل على النبي — صلى الله عليه وسلم - من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر سورة « الناس » وعلميته : باعتبار وضعه للنظم المخصوص، الذي يختلف باختلاف المتلفظين، ولا عبرة بتعدد القارئين والمحال .

وعلى هذا فما ذكره « الأصوليون » وغيرهم من تعاريف للقرآن ، ليس تعريفاً حقيقيا ، لأن التعريف الحقيقي لا يكون إلا للأمور الكلية ، وإنما أرادوا بتعريفه : تمييزه : عما عداه مما لا يسمى باسمه ، كالتوراة والإنجيل ، والأحاديث القدسية ، وما نسخت تلاوته .

ويرى بعض العلماء : أن لفظ القرآن موضوع للقدر المشترك بين الكل وأجزائه . فمسماه : كلي . كالمشترك المعنوي .

---

(١) كما بحث المتكلمون في القرآن من جهة كونه كلام والله وصفة له ، بحثوا فيه أيضا من جهة لفظه العربي المنزل على النبي . . وهم في تعريفهم للقرآن من هذه الجهة لم يخرجوا عما ذكره الأصوليون والفقهاء وعلماء العربية في تعريفه وعرفوه من الجهة الأولى بأنه « الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى المتعلقة بالكلمات الحكمية من أول سورة « الفاتحة » إلى آخر « الناس » . وهذه الكلمات الحكمية أزلية مجردة عن المواد مطلقا . حسية كانت أو خيالية أو روحانية . وهي مترتبة غير متعاقبة وذلك مثل الصور تنطبع في المرآة . مترتبة غير متعاقبة . وقالوا : إنها حكمية . لأنها ليست ألفاظا حقيقية مصورة بصورة الحروف والأصوات . وقالوا : إنها أزلية . ليثبتوا لها معنى القدم . وقالوا : إنها مجردة عن المواد مطلقا — أي الحروف اللفظية أو الذهنية أو الروحية — لينفوا عنها أنها مخلوقة ، وقالوا : إنها غير متعاقبة ، لأن التعاقب يستلزم الزمان والزمان حادث .

ويرى فريق ثالث أنه مشترك لفظى بين الكل وبين أجزائه . فهو موضوع لكل منهما بوضع .

والحق : أنه علم شخصى ، مشترك لفظى بين الكل وأجزائه فيقال لمن قرأ اللفظ المنزل كله : قرأ قرآناً . ويقال لمن قرأ بعضه : قرأ قرآنا . وهو ما يفهم من كلام الفقهاء . حينما قالوا : « يحرم على الجنب قراءة القرآن » فإنهم يقصدون : قراءة كله أو بعضه على السواء .

أسماء القرآن :

للقرآن الكريم أسماء كثيرة : أشهرها . (القرآن) ومنها (الفرقان) ، لأنه فارق بين الحق والباطل قال تعالى : (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (١) ومنها (الكتاب) وهو مصدر لكتب بمعنى . الجمع والضم . أريد به القرآن لجمعه العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه ، قال تعالى : «الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً(٢)

ومنها : التنزيل . مصدر أريد به المنزل ، لنزوله من عند الله، قال تعالى « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد(٣) » وغيرها من الآيات كثير

ومنها : « الذكر » سمى به القرآن ، لاشتماله على المواعظ والزواجر . وقيل : لاشتماله على أخبار الأنبياء ، والأمم الماضية . وقيل . من الذكر ، بمعنى : الشرف . قال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك (٣)» أى . شرف

---

(١) سورة الفرقان الآية ١ (٢) سورة الكهف الآية ١ — ٢
(٣) فصلت الآية ٤١ — ٤٢ (٤) فصلت الآية ٤١ — ٤٢
(٥) الزخرف ٤٤

لأنه نزل بلغتكم وقال تعالى . «إنا نحن نزلنا الذكر . وإنا له لحافظون(١)».

وهذه الأربعة هى أشهر الأسماء بعد لفظ «القرآن»، وقد صارت أعلاما بالغلبة على القرآن فى لسان أهل الشرع وعرفهم

وقد تسامح «أبو المعالى» . عزيزى بن عبدالملك» - المعروف: «شيدلة» فى كتابه «البرهان فى مشكلات القرآن» - فى عد ما ليس باسم اسما ،بلغ بها خمسة وخمسين اسما وقد نقل ذلك عنه «السيوطى» فى «الإتقان» ووافقه ثم شرع يوجه ماذكره من الأسماء (٢)، وبلغ بها صاحب «التبيان» نيفا وتسعين اسما.

ومما ينبغى أن يتنبه إليه أن أغلب ماذكروه أسماء للقرآن هو فى الحقيقة أوصاف له ، فمثلا: عدوا من الأسماء لفظ «كريم» أخذا من قوله تعالى . «إنه لقرآن كريم» (٣) ولفظ «مبارك» أخذا من قوله تعالى . «وهذا ذكر مبارك . (٤)» مع أن الظاهر كونهما وصفين للقرآن لا اسمين

كما أن فى بعض ما عدوه اسما للقرآن بعدا وتكلفا فى أن المراد به القرآن وذلك مثل عدهم من الأسماء . «مناديا» ، لقوله تعالى . «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان(٥)» ومثل عدهم من الأسماء «زبورا» ، لقوله تعالى: «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون(٦)» مع أن الظاهر . والذى عليه جمهور المفسرين، أن المراد بالمنادى الرسول وبالزبور الكتاب المنزل على داود - عليه السلام - والذكر التوراة وقيل الزبور جميع الكتب المنزلة ، والذكر . اللوح المحفوظ ، ويكون المراد بالزبور الوصفية لا العلمية ، فهو بمعنى المزبور أى المكتوب (٧)

---

(١) الحجر الآية ٩ .	(٢) انظر الاتقان جـ ١ ص ٥٠-٥١

(٣) الواقعة / ٧٧	(٤) الأنبيـــاء / ٥

(٥) آل عمران الآية ١٩٣	(٦) الأنبياء الآية ١٠٥

(٧) انظر تفسير ابن كثير والبغوى جـ ٥ ص ٥٤١

علوم القرآن بالمعنى الاضافى

والآن وقد وضح لنا المراد من كل طرفى « المركب الإضافى » يتبين لنا المراد من الإضافة التى بينهما . فهى تشير إلى كل المعارف والعلوم المتصلة بالقرآن ، ومن ثم جمع لفظ « علوم » ولم يفرد . لأن المراد شمول كل علم يبحث فى القرآن من أى ناحية من نواحيه المتعددة . فيشمل ذلك « علم التفسير »و « علم الرسم العثمانى » و « علم القراءات » و « علم غريب القرآن » و « علم إعجاز القرآن » و « علم الناسخ والمنسوخ » وعلم « المحكم والمتشابه » و «علم إعراب القرآن» و «علم مجاز القرآن» و «علم أمثال القرآن» . إلى غير ذلك من العلوم الكثيرة التى توسع العلماء فى بحثها ، وأفردوا لها المؤلفات المتكاثرة .

علوم القرآن بالمعنى اللقبى

أى الفن المدون

ثم اختصرت هذه المباحث والعلوم المتعددة ، وجمعت جل أصولها ومسائلها فى كتاب واحد . وصار هذا العنوان « علوم القرآن » [1] علما ولقبا لهذه المباحث المدونة فى موضع واحد ، بعد أن كانت مبعثرة فى عشرات الكتب ، وصار علما واحدا بعد أن كان جملة من العلوم ، وبذلك يمكننا أن نعرف هذا الفن بمعناه «العلمى» - بفتح العين واللام - بأنه .

« علم ذو مباحث ، تتعلق بالقرآن الكريم . من حيث نزوله وترتيبه وكتابته وجمعه وقراءاته وتفسيره وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه

---

(١) ولعل الإبقاء على الجمعية بعد صيرورته علما واحدا لمحا الأصل ، وللإشارة إلى أنه خلاصة علوم كثيرة تجمعت فى مصب واحد وهو هذا العلم

إلى غير ذلك من المباحث التي تذكر في هذا العلم.

وموضوع هذا العلم . القرآن الكريم من أية ناحية من هذه النواحى السابقة فى تعريفه. بخلاف علوم القرآن بالمعنى الإضافى ، فإن موضوع كل علم منها إنما هو « القرآن الكريم » من هذه الناحية فحسب ، فعلم « التفسير » مثلا ؛ موضوعه . القرآن الكريم من حيث بيان شرحه ومعناه والمراد منه بقدر الطاقة البشرية ، وعلم «القراءات» موضوعه . القرآن الكريم من حيث لفظه وأداؤه ، وعلم الرسم موضوعه القرآن الكريم من حيث طريقة كتابته ، وهكذا

وفائدة علوم القرآن .

(ا) إنه يساعد على دراسة «القرآن الكريم» وفهمه حق الفهم واستنباط الأحكام والآداب منه ، إذ كيف يتأتى لدارس القرآن ومفسره أن يتوصل إلى إصابة الحق والصواب ، وهو لا يعلم كيف نزل ؟ ولا متى نزل ؟ وعلى أى حال كان ترتيب سوره وآياته ؟ وبأى شيء كان إعجازه؟ وكيف ثبت ؟ وماهو ناسخه ومنسوخه ؟.. إلى غير ذلك مما يذكر فى هذا الفن ، وإلا كان عرضة للزلل والخطأ .

فهذا العلم بالنسبة للمفسر مفتاح له . ومثله مثل (علوم الحديث) بالنسبة لمن أراد أن يدرس الحديث دراسة حقة . وقد صرح بذلك الإمام (السيوطى) فى مقدمة (الإتقان) حيث قال : (ولقد كنت فى زمان الطلب أتعجب من المتقدمين . إذ لم يدونوا كتابا فى أنواع (علوم القرآن) كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى (علم الحديث) .

(ب) إن الدارس لهذا العلم يتسلح بسلاح قوى حاد . ضد غارات

أعداء الإسلام. التى شنوها على (القرآن الكريم) زورا وبهتانا واختلقوا عليه ما شاء لهم هواهم أن يختلقوا . ولا شك أن الدفاع عن القرآن - الذى هو أصل الإسلام - من أوجب الواجبات على الأمة الإسلامية . ولاسيما علماؤها وأهل الرأى فيها وإنه لشرف عظيم . وفضل كبير أن يكون المسلم منافحا عن هذا الكتاب الجليل .

(ج) إن الدارس لهذا العلم يكون على حظ كبير من العلم بالقرآن . وبما يشتمل عليه من أنواع العلوم والمعارف . ويحظى بثقافة عالية وواسعة فيما يتعلق بالقرآن الكريم وإذا كانت العلوم ثقافا للعقول . وصلاحا للقلوب وتهذيباً للأخلاق . وإصلاحا للنفوس والأكوان . وعنوان التقدم والرقى . وباعثة للنهضات . فنى القمة - من كل ذلك - (علوم القرآن) فالقرآن أحسن الحديث . وأصدقه . وعلومه أشرف العلوم وأوجبها على كل مسلم أياً كان تخصصه وأياً كانت حرفته .

تاريخ علوم القرآن

قبل عصر التدوين :

كان (القرآن الكريم) ينزل على النبى — صلى الله عليه وسلم منجماً على حسب الوقائع والحوادث وحاجات الناس . وقد تكفل الله لنبيه : أن يقرئه (القرآن) ويفهمه معناه ، قال تعالى : (لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه)[1] أى : جمعه فى صدرك . وإثبات قراءته على لسانك . وبيان ما يخفى من معانيه . وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يعلم من القرآن وعلومه ما لا يعرفه أحد . وذلك بسبب الوحى والفيوضات الإلهية التى كانت تلقى فى قلبه . ثم بلغ الرسول ما أنزل عليه

(١) سورة القيامة ١٦ — ١٩

لأصحابه فقرأه على مكث(١) . ليحفظوا لفظه ويفهموا معناه . ويقفوا على أسراره . وشرحه لهم بأقواله . وأفعاله وتقريراته وأخلاقه - أى بسنته الجامعة لكل ذلك - قال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر . لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢) وقال . (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله . .» الآية(٣)

وكان الصحابة — رضوان الله عليهم — يحرصون غاية الحرص على حفظ ما ينزل من «القرآن» على حسب ما يتيسر لكل واحد منهم وتفاوتهم فى الحفظ قلة وكثرة . كما كانوا يعرفون من معانى «القرآن» وعلومه وأسراره الشىء الكثير ، لكونهم عربا خلصا متمتعين بمزايا هذه العروبة ومن صفاء القلوب ، وذكاء العقول ، وسيلان الأذهان ، وقوة الحافظة ولأنهم شاهدوا الوحى والتنزيل ، وعلموا من الظروف والملابسات ما لم يعلمه غيرهم ، وسمعوا من النبى — صلى الله عليه وسلم — ما لم يسمعه غيرهم ، ورأوا من أحواله ما لم يره غيرهم وكان ابن مسعود - رضى الله عنه - من أعلم الصحابة بعلوم القرآن ولا سيما علم أسباب النزول . وعلم المكى والمدنى . وعلم قراءاته روى البخارى بسنده عنه أنه قال : «والله الذى لا إله غيره ما من آية من كتاب الله إلا وأعلم أين نزلت ؟ ، وفيم نزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه المطى لركبت إليه» .

فإن خفى عليهم من القرآن شىء لم يدركوه بفطرتهم اللغوية ، ومعارفهم المكتسبة . رجعوا فيه إلى «النبى» فيعلمهم إياه . فمن ثم تجمع لهم من علم «القرآن» شىء كثير .

---

(١) تؤدة وتمهل ، ومن لوازم ذلك التحقق من اللفظ ، وتفهم المعنى

(٢) سورة النحل الآية ٤٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١٠٥ .

روى أنه لما نزل قوله تعالى : « الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم . أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون »[١] . اهتم الصحابة ، وقالوا أينا لم يظلم ، فبين لهم النبي — صلى الله عليه وسلم — أن المراد بالظلم : الشرك ، أخذا من قوله الله تعالى . (يا بنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم)[٢] .

وروى : أنه لما نزل قوله تعالى : « وكلو واشربوا ، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر[٣] ، عمد « عدى بن حاتم » إلى عقالين ، أحدهما : أبيض ، والآخر : أسود ، ووضعهما تحت وساده حتى بين له النبي — صلى الله عليه وسلم — أن المراد بالخيطين . بياض النهار وسواد الليل . . . وغير ذلك كثير .

ولم يكن هم الصحابة حفظ ألفاظ القرآن فحسب . بل جمعوا إلى حفظ اللفظ فهم المعنى ، وتدبر المراد . والعمل بمقتضى ما تضمنه من الأحكام والآداب . قال «أبو عبد الرحمن السلمى(٤) » . حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن . . كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود . وغيرهما . أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي — صلى الله عليه وسلم — عشر آيات ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . . قالوا . فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا » . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة الواحدة . وهذا هو السر فيما روى

---

(١) سورة الأنعام الآيه ٨٢ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة / ١٨٧ .

(٤) هو « عبد الله بن حبيب بن ربيعة » تلميذ اميرى المؤمنين « عثمان » و « على » واضرابهما من علماء الصحابه . كابن مسعود . وزيد بن ثابت وابى بن كعب وكان من خيار التابعين ، ومن علمائهم بالقرآن .

أن « ابن عمر » أقام على حفظ « البقرة » ثمان سنين ذكره مالك فى «الموطأ» وما يفسر لنا قول «أنس» - رضى الله عنه - . « كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و «آل عمران » جد فى أعيننا (١) » أى . عظم .

وعلى ما كان عليه الصحابة من العروبة الخالصة . والتصرف فى فنون القول . وأخذهم بزمام الفصاحة . فقد خفيت عليهم بعض ألفاظ «القرآن» اللغوية . ولم يعرفوا معناها . أخرج « أبو عبيد » فى «الفضائل» عن إبراهيم التيمى . أن أبا بكر — الصديق — سئل عن قوله تعالى . « وفاكهة وأبا » فقال « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم » .

وأخرج عن «أنس» أن « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه - قرأ على المنبر « وفاكهة وأبا » فقال : « هذه » الفاكهة «قد عرفناها . . فما الأب ؟ » ثم رجع إلى نفسه فقال : « إن هذا لهو الكلف ياعمر ؛ وما عليك يا ابن أم عمر . أن لا تدرى : ما الأب ؟ » لأن عدم معرفة معنى كلمة من القرآن لا تضر المسلم مادام حافظا للقرآن عاملا بكل فيه من الأحكام والآداب

وأخرج أيضاً من طريق « مجاهد » عن « ابن عباس » قال . « كنت لا أدرى . ما « فاطر السموات (٢) ؟ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما . أنا فطرتها ، أى ابتدأتها » . وروى عنه أيضاً أنه قال ، « ما كنت أدرى . ما قوله . « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق » (٣) حتى سمعت بنت « ذى يزن » — وقد جرى بينى وبينها كلام — تقول « تعال أفاتحك » تريد . أقاضيك وأخاصمك (٤) .

---

(١) أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ ط السلفية

(٢) سورة فاطر ١ (٣) الأعراف ٨٩ (٤) الإتقان جـ ١ ص ١١١ .

مقدمة تفسير القرطبي جـ ١ ص ١٤٠١٨ !

وبلغ الصحابة ما حملوه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — من تفسير القرآن وعلومه ، وما فهموه منه باجتهادهم إلى من جاء بعدهم من التابعين ، وبلغه التابعون إلى من جاء بعدهم ، فقد كان المعول عليه فى القرون الأولى ، فى « علوم القرآن » وكذلك الحديث وعلومه — هـو الرواية والتلق عن الغير والمشافهة لا على الخط والكتابة « وقد استمر الأمر على هذا » ، إلى أن جاء عصر التدوين ، فدونت المعارف والعلوم فى الصحف والسطور ، بعد أن كانت مقيدة محفوظة فى الصدور .

عصر التدوين :

لم تكن « علوم القرآن » وغيرها من العلوم مدونة فى « العصر الأول » فى الكتب والصحف . بل كانت مدونة على صفحات القلوب ، وإنما كان المدون والمكتوب هو « القرآن الكريم » فحسب[1] ، وذلك لما ورد فى الصحيح : من النهى عن كتابة القرآن » :

روى مسلم فى صحيحه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه وحدثوا عنى ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » .

---

(١) والقرآن الكريم . مع كونه كان مكتوبا فى عهد النبي . ثم جمع فى عهد « أبى بكر » فى الصحف ، وفى عهد « عثمان » فى المصاحف ، فقد كان يعتمد الحفاظ والقراء على الرواية ، وهى التلقى من الشيوخ ، وأداء ما تلقوه إلى من جاء بعدهم ، ولم يعرف عنهم أنهم كانوا يعتمدون فى الحفظ والاقراء على المكتوب فحسب ، ولم توجد هذه البدعة إلا فى العصر الأخير وإن كان القراء المجيدون لا يزالون فى عصرنا يعتمدون على التلقى الشفاهى ، والأخذ عن الشيوخ .

فمن ثم تحرج الصحابة والتابعون من كتابة وتدوين غير القرآن حتى الحديث الشريف لم يدونوه ، واكتفوا فيـــه وفى علومه بالحفظ والرواية .. إلى أن كان عهد « على » - رضى الله عنه - فأمر « أبا الأسود الدؤلى » بوضع علم « النحو » فكان هذا فاتحة خير لتدوين علوم الدين ، واللغة العربية .

وفى العهد الأموى : اتسعت دائرة التدوين والتأليف عن ذى قبل ، وفى هذا العهد رأى الخليفة الراشد «عمر بن عبدالعزيز» - رضى الله عنه - أن يجمع الأحاديث ؛ فأمر علماء الأمصار بجمع أحاديث الرسول ؛ مخافة أن يذهب شىء منها بذهاب العلماء ، وحتى يتميز الصحيح من السقيم ، والمقبول من المردود .

وفى العصر العباسى : اتسعت دائرة التأليف ، واتسعت حتى شملت معظم علوم الدين واللغة العربية بل وغير علومها كالفلسفة وفروعها ، فقد ترجم كثير من كتب الفلسفة فى هذا العصر .

وهكذا نرى : أن حركة التأليف والتدوين نشطت نشاطاً قوياً فى هذا العصر ، وكان « لعلوم القرآن » من هذا النشاط حظ غير قليل .

التدوين فى علوم القرآن بالمعنى الإضافى أى العام :

وكان من الطبيعى أن يكون أول ما يدون من « علوم القرآن » هو علم « التفسير » ، إذ هو الأصل فى فهم القرآن وتدبره ، وعليه يتوقف استنباط الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام .

فألف فى تفسير القرآن سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ هـ و«سفيان ابن عيينة » المتوفى سنة ١٩٨ هـ . و « وكيع بن الجراح » م سنة ١٩٧ هـ . و « شعبة بن الحجاج » المتوفى سنة ١٦٠ هو « مقاتل بن سليمان » المتوفى سنة ١٥٠ هـ وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين .

ثم تلاهم « محمد بن جرير الطبرى » المتوفى سنة ٣١٠ هـ . فألف تفسيره المشهور ، وهو من أجل التفاسير، وأعظمها ، لأنه أول من تعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض. وبذلك يعتبر أول من حاول مزج التفسير بالمأثور بالتفسير بالرأى والاجتهاد .

وكان تفسير « ابن جرير الطبرى » قطرة تلاها غيث كثير ، فألف فى التفسير بقسميه : المأثور وغير المأثور، خلق لا يحصون ، من أجلة العلماء ، ما بين مطنب ومتوسط وموجز ، وما بين مفسر للقرآن كله ، ومفسر لبعضه .

وقد شملت هذه الحركة التأليفية كل نوع من أنواع علوم القرآن ، تقريباً فألف فى أسباب النزول « على بن المدينى » شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ،

وفى الناسخ والمنسوخ « أبو عبيد القاسم بن سلام » المتوفى سنة ٢٢٤ هـ ، وأبو جعفر أحمد بن محمد النحاس م سنة ٣٣٨ هـ ، وابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

وألف فى « مشكله وغريبه » أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ,

كما ألف فى غريبه ومفرداته « أبو عبيدة معمر بن المثنى » المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، وأبو بكر السجستانى م ٢٣٠ هـ و « الراغب الأصفهانى » المتوفى سنة ٥٠٢ هـ .

وألف فى إعرابه « محمد بن سعيد الحوفى » المتوفى سنة ٤٣٠ هـ وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

كما ألف فى إعجاز القرآن « الرمانى » م ٣٨٤ هـ و « الخطابى » م سنة ٣٨٨ هـ ، و « أبو بكر الباقلانى » المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، وغيرهم .

وفى مجاز القرآن « ابن قتيبة » المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، والشريف الرضى م ٤٠٦ هـ و « العز بن عبد السلام » م سنة ٦٦٠ هـ .

وفى قراءاته (علم الدين السخاوى) م ٦٤٣ هـ ، و (ابن الجزرى) م ٨٣٣ هـ .

وفى أقسامه (ابن القيم الجوزيه) المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

وفى أمثاله :(أبو الحسن الماوردى) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، وألف فى جدله (نجم الدين الطوفى) م ٧١٦ هـ وفى فضائله أبو عبيد (م ٢٢٤) و (النسائى) المتوفى سنة ٣٠٣ هـ ، و (ابن كثير) المتوفى سنة ٧٧٤ هـ إلى غير ذلك من المؤلفات المتكاثرة ، التى تناولت كل نواحى القرآن العديدة .

وقد سلك هؤلاء العلماء فى تآليفهم طريقة الاستعياب والاستقراء لأجزاء الأنواع التى ألفوا فيها . فمن دون فى (مجاز القرآن) يتتبع كل آية فيها مجاز ، ومن يؤلف فى أمثاله يتتبع كل آية فيها مثل ، ومن يؤلف فى أقسامه يتتبع كل آية فيها قسم ، حتى تكونت من كل ذلك ثروة ضخمة فى (علوم القرآن) وبحسبك أن تتناول فهرسا لمكتبة من المكاتب العامة ، وستجد مايبهرك ، وأن المؤلفات التى تدور فى فلك (القرآن) فى العصور المتعاقبة تملأ خزانة كبيرة فسيحة .

علوم القرآن ، بمعنى الفن المدون

وهناك طريقة أخرى فى التأليف ، فقد رأى بعض العلماء أن يجمعوا هذه الأنواع فى كتاب مستقل على غرار ماصنع المحدثون فى « علوم الحديث » فاستخلصوا من هذه العلوم علما واحدا ، يكون كالفهرس لها ، يجمع خصائصها ومقاصدها ، وإن لم يحط بكل مسائلها وأجزائها ، فكان هذا العلم الذى سموه « علوم القرآن » .

وقد جاء التدوين على هذه الطريقة متأخرا عن التدوين على الطريقة

الأولى ثم سارا بعد ذلك جنبا إلى جنب ، فكان بعض العلماء يؤلف في العلم كفن مستقل ، والبعض يؤلف في نوع من أنواعه .

متى ظهر هذا الاصطلاح؟ :

كان المعروف لدى الكاتبين في هذا الفن أن ظهور هذا الاصطلاح كان في القرن السادس الهجري ، على يد «أبي الفرج ابن الجوزي» استنتاجا مما ذكره «السيوطي» في مقدمة «الإتقان» .

ولكني وقفت على مؤلف بعنوان . . «مقدمتان في علوم القرآن» طبع في عام ١٩٥٤ ، ووقف على التصحيح والطبع الأستاذ المستشرق «آرثر جفري» ، وإحدى هاتين المقدمتين لمؤلف لم يعرف ، لفقدان الورقة الأولى من المخطوطة[١] . التي نقل عنها الطابع ، إلا أنه ذكر في الصحيفة الثانية منها : أنه بدأ في تأليف كتابه في سنة أربعمائة وخمس وعشرين ، وسماه «كتاب المباني في نظم المعاني» ، وهو تفسير للقرآن الكريم وقد صدره بهذه المقدمة ، وهي تقع في عشرة فصول ، وهي إحدى المقدمتين المنشورتين ، والأخرى : مقدمة التفسير للإمام «عبد الحق بن أبي بكر» المعروف «بابن عطية» المتوفى سنة ٥٤٣ هـ .

وقد ذكر صاحب كتاب (المباني) في فصول هذه المقدمة العشرة : المكي والمدني ،ونزول القرآن ، وجمع القرآن وكتابة المصاحف ، واختلافها، ورد الشبه الواردة على الجمع والمصاحف وبيان عدد السور والآيات والتفسير والتأويل ، والمحكم والمتشابه «ونزول القرآن على سبعة أحرف إلى غير ذلك من مباحث (علوم القرآن) .

وقد بلغت هذه المقدمة مائتين وخمسين صحيفة من هذا الكتاب المطبوع وتمتاز هذه المقدمة بإشراق اللفظ ونصوع البيان ، وقوة الحجة ،

---

(١) هذه المخطوطة هي الوحيدة من هذا الكتاب، وتوجد في دار الكتب ببرلين تحت رقم ١٠٢ .

مما يلقى ضوءا على أن المؤلف من علماء الأندلس كما استنتج المصحح ، وعسى أن يتاح لى ، أو لأحد الباحثين الوقوف على مؤلف هذا الكتاب — إن شاء الله تعالى — .

وإن أغلب ما ذكره (السيوطى) فى مقدمة (الإتقان) من الكتب المؤلفة فى هذا الفن ، لا يدانى هذه المقدمة ، بل بعضها لا يزيد عن فصل من فصولها فهى جديرة بأن تذكر فى كتب هذا الفن ، وهى — بحق — تعتبر محاولة جدية فى التأليف فى هذا العلم، ولا يغض من قيمتها أنها مقدمة لتفسير ، فكتاب الإتقان الذى هو عمدة كتب الفن، قد جعله مؤلفه مقدمة لتفسيره الكبير كما ذكر .

ولا يفوتنى بهذه المناسبة أن أذكر : أن بعض المفسرين فى القديم والحديث صدروا كتبهم بمقدمات قيمة فى « علوم القرآن » ، لتكون مفتاحا لهذه التفاسير ، ولا تزال إلى اليوم مرجعا للكاتبين فى هذا الفن ، وذلك كما فعل « ابن جرير الطبرى » و« القرطبى »و « الألوسى » فى تفاسيرهم . ولعل أطول هذه المقدمات وأحفلها هى مقدمة تفسير «القرطبى» ، وهى — على طولها — لا تبلغ ما بلغته هذه المقدمة فى طولها ، وتنوع موضوعاتها .

ويرى أستاذنا الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقانى » — رحمه الله وأثابه — فى كتابه «مناهل العرفان» : إن هذا الإصطلاح ظهر فى مستهل القرن الخامس على يد « الحوفى » المتوفى سنة ٤٣٠ فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) . والرأى عندى : إن هذا الكتاب لا يخرج عن كتب التفسير ، التى تتعرض لذكر التفسير ، وأسباب النزول والقراءات ، والوقف والتمام ، ولا فرق بين صنيعه وصنيع (القرطبى) و (الفخر الرازى) فى تفسيرهما ، فكتابه هذا أمس بالتفسير منه بعلوم القرآن ، وإن كانت التسمية تشعر أنه بعلوم القرآن أمس وقد ذكر — رحمه الله — :

أن الجزء الأول مفقود ، ولا أدرى من أين عرف التسمية ؟ ولعله اعتمد على فهرس دار الكتب المصرية وقد رجعت إلى كتاب كشف الظنون (الجزء الأول ص ٢٤٢) فتبين لى إن اسم الكتاب (البرهان فى تفسير القرآن) وبذلك زالت الشبهة فى عده من علوم القرآن ، وثبت أنه كتاب تفسير ، وهو الحق والصواب .

وفى القرن السادس الهجرى . ألف الإمام (أبو الفرج بن الجوزى) المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ كتابا سماه : « فنون الأفنان ، فى علوم القرآن) وكتابا آخر سماه : (المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن [1]) .

وفى القرن السابع : ألف الشيخ (علم الدين على بن محمد السخاوى) المتوفى سنة ٦٤٣ ﻫ كتابا سماه (جمال القراء) . وألف العلامة (أبو شامة) المتوفى سنة ٦٦٥ ﻫ كتابا سماه (المرشد الوجيز . فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز).

وهذه الكتب - كما قال (السيوطى) - : (عبارة عن طائفة يسيرة ، ونبذ قصيرة) بالنسبة للمؤلفات التى ألفت بعد فى هذا العلم .

ثم أهل القرن الثامن : فألف فيه الإمام (بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى) المولود سنة ٧٤٥ والمتوفى سنة ٧٩٤ ﻫ كتابا سماه : (البرهان فى علوم القرآن) ، ذكر فيه سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وقد سردها (السيوطى) فى مقدمة إتقانه ، ثم نقل عن (الزركشى) قوله : « واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لأفرغ عمره ، ثم لم يحكم أمره ، ولكنا اقتصرنا من كل نوع على أصوله ، والرمز إلى بعض فصوله ، فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ، وماذا عسى أن يبلغ لسان التقصير » .

وهو كتاب جليل ، لا يفوقه فى هذا العلم إلا كتاب (الإتقان)

---

(١) هما مخطوطان بدار الكتب .

للسيوطى ، وقد اعتمد عليه السيوطى فى تأليف إتقانه . كما ستعلم فيما بعد.

وللإمام (تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ رسالة فى (أصول التفسير) وهى على وجازتها قيمة جدا ، وقد اشتملت على بعض أنواع (علوم القرآن) .

ثم طلع القرن التاسع : فترعرع فيه هذا العلم ، وخطا خطوات فسيحة، فقد ألف فيه الإمام (محمد بن سليمان الكافيجى) المتوفى سنة ٨٧٣هـ ، كتابا يقول مؤلفه عنه : « إنه لم يسبق إليه » وهو صغير جدا فى بابه ، وقد رتبه على بابين وخاتمه :

الأول : فى ذكر معنى التفسير والتأويل ، والقرآن والسورة والآية .
والثانى : فى شروط القول بالرأى . والخاتمة : فى آداب العالم والمتعلم .

وفى هذا القرن أيضا ، وضع الإمام (جلال الدين البلقينى) المتوفى سنة ٨٢٤ هـ كتاباً أسماه : (مواقع العلوم من مواقع النجوم) قال فى مقدمته . «قد اشتهرت عن الإمام (الشافعى) - رضى الله عنه - مخاطبة لبعض خلفاء بنى العباس[1] ، فيها ذكر بعض أنواع القرآن . يحصل منها لمقصدنا الاقتباس. وقد صنف فى (علوم الحديث) جماعة فى القديم والحديث ، وتلك الأنواع

---

(١) ذلك أنه قد وشى به حساده عند (الرشيد) بأنه يعمل للعلويين، وأنه يؤثر بلسانه ما لا يؤثره المقاتل بسيفه ، فأمر به هرون الرشيد فحمل على بغل وهو مكبل بقيود الحديد حتى قدم عليه ببغداد ، فدافع عن نفسه حتى ظهرت براءته. ولقد كان لغزارة علمه أكبر شافع له فى هذه المحنة فقد تناظر بين يدى الرشيد هو ، ومحمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة فأدهش الحاضرين بحجته وفلجه بالصواب ، ولما أعجب به الرشيد سأله عن علمه بكتاب الله . فقال الشافعى : عن أى كتاب من كتب الله تسألنى يا أمير المؤمنين ؟ فإن الله قد أنزل كتبا كثيرة . فقال الرشيد . قد أحسنت ، لكننى إنما سألت عن كتاب الله الذى أنزل على ابن عمى (محمد) صلى الله عليه وسلم فقال الشافعى . إن علوم القرآن كثيرة . فهل تسألنى عن محكمه ومتشابهه ؟ أو عن تقديمه وتأخيره ؟ أو عن ناسخه ومنسوخه؟

فى سنده دون متنه ، أو فى مسنديه وأهل فنه(١) ، وأنواع علوم القرآن شاملة ، وعلومه كاملة ، فأردت أن أذكر فى هذا التصنيف ما وصل إليه علمى ، مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف » وقد ذكر فى كتابه هذا خمسين نوعا من علوم القرآن وقد سردها (السيوطى) فى مقدمة (الإتقان) .

ثم جاء فارس هذه الحلبة . الإمام « جلال الدين عبدالرحمن بن الكمال الأسيوطى » المولود سنة ٨٤٩ والمتوفى سنة ٩١١ هـ ، فألف كتابا سماه : « التحبير فى علوم التفسير » ضمنه ما ذكره شيخه البلقينى من الأنواع مع زيادة مثلها ، وقد فرغ منه سنة ٨٧٢ هـ ، لكن نفسه التواقة إلى المعرفة والاستقصاء لم تقنع بهذا المجهود ، فعزم على تأليف كتاب جامع يسلك فيه مسلك الإحصاء والجمع ، والضبط مع حسن الترتيب ، والتبويب ، وفى هذه الآونة . . وقف على كتاب « البرهان» للزركشى ولم يكن اطلع عليه من قبل فقوى عزمه على إبراز ما أراد ، وسادع « السيوطى » يتحدث عن نفسه فى هذه الفترة ، التى خطر له فيها تأليف هذا الكتاب الجامع فيقول .

فبينا أنا أجيل فى ذلك فكرى ، أقدم رجلا وأؤخر أخرى(٢) ، إذ بلغنى أن الشيخ الإمام « بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى » ألف كتابا حافلا يسمى « البرهان فى علوم القرآن » فتطلبته ، حتى وقفت عليه ، ثم قال : « ولما وقفت عليه ازددت به سرورا ، وحمدت الله كثيرا ، وقوى العزم على إبراز ما أضمرته ، وشددت الحزم فى إنشاء التصنيف الذى قصدته ،

= أو عن . . أو عن . . . وصار يسرد عليه من علوم القرآن ، ويجيب على كل سؤال بما أدهش الرشيد والحاضرين وهذه القصة تدل على أن مباحث علوم القرآن كانت معلومة للعلماء مركوزة فى نفوسهم قبل أن تدون ، وتقيد فى الكتب .

(١) رجاله وأئمته .

(٢) أى وأؤخرها أخرى كناية عن التردد فى الشىء . فالمفعول محذوف وهو الضمير و «أخرى» صفة لموصوف محذوف أى « وأخرها مرة أخرى »

فوضعت هذا الكتاب العلى الشأن، الجلى البرهان، الكثير الفوائد والإتقان ورتبت أنواعه ترتيباً أنسب من ترتيب البرهان ، وأدمجت بعض الأنواع فى بعض ، وفصلت ماحقه أن يبان،وزدته على مافيه من الفوائد والفرائد والقواعد والشوارد ما يشنف الآذان ،وسميته بـ « الإتقان فى علوم القرآن» وقد جعله مقدمة للتفسير الكبير الذى شرع فيه ، والجامع بين الرواية والدراية ، والمسمى : « مجمع البحرين ومطالع البدرين » .

« الإتقان فى الميزان »

الإمام « السيوطى » - عليه رحمة الله - رجل طلعة باقعة ، (٢) لم يدع شاردة ولا واردة ، إلا اطلع عليها ، فلا عجب أن جاء كتابه كالفهرس لعلوم القرآن ، وقد ذكر فيه خلاصات مئات الكتب المؤلفة فى هذه العلوم ، وفى غيرها ، ويحسبك أن تقرأ أسماء الكتب التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه ، وقد سردها فى مقدمته ، لتتبين صدق هذا القول .

ومن محاسن «الإتقان» أن يذكر فى مقدمة كل نوع من أنواعه الكتب التى ألفت مستقلة فى هذا النوع وهو بهذا يرشد القارىء إلى المراجع ،ويحمله على الاستزادة فى البحث ، والتحرى عن الحقائق ، واستقصاء ما كتب فى الموضوع ، ثم يأخذ فى ذكر نقول ونماذج من هذه الكتب ، توضح ما عنون له، وفى هذه النقول روايات صحيحة وجياد ، لا يرد عليها ، أى طعن ولا يعلق بها غبار ، وفيها مرويات زائفة مدسوسه . وكان الأولى أن ينبه عليها ، أو ينزه كتابه عن ذكرها .

وقد اتخذ المبشرون والمستشرقون ، وأضرابهم المتابعون لهم من هذه الروايات مادة للطعن فى «القرآن» والإسلام؛ فقد صادفت هوى فى نفوسهم المريضة ، فقالوا ما شاء لهم هواهم أن يقولوا من زور وافتراء .

---

(٢) طلعة - بضم الطاء وفتح اللام - كثير الاطلاع ، والباقعة ، الذكى العارف الذى لا يفوته شىء .

والإمام « السيوطى » من حفاظ الحديث ـ ولاريب ـ ومثله أجل من أن يذكر مثل هذه الروايات الواهية الساقطة التى تصل إلى حد الوضع والاختلاق دون التنبيه عليها ، ولعله يرى : أنه مادام ذكر الرواية بسندها أو عزاها إلى مخرجها ؛ فقد أعفى نفسه من التبعة ، وعلى القارىء أن يبحث ويجد فى البحث حتى يصل إلى مفصل الحق فى هذه الروايات المريبة . وهو رأى لبعض حفاظ الحديث .

على أن هناك حقيقة ينبغى التنبه إليها ، وهى أن الإمام « السيوطى » من نقاد الحديث ، المشددين جداً فى الحكم بالوضع أو السقوط ، ومن المتمسكين بحرفية قواعد أصول الحديث ، وربما يرجح هذه الحرفيه على القرائن التى تكاد تنطق بأن هذه الروايات مدسوسة على الحديث ورجاله .

وهناك حقيقة أخرى : وهى أن نقاد الحديث وأئمته ، ليسوا فى درجة واحدة فى أصالة النقد وبعد الغور وشفوف النظرى ، والكشف عن المعايب الخفية ، فمنهم الناقد الجهبذ ، والصيرفى الماهر ، الذى لا يخفى عليه التزييف مهما استتر ، ومنهم الطبيب النطاسى ، الذى يعرف مكمن الداء بمجرد النظر ومنهم من هو دون ذلك ، فمن ثم خفيت هذه الروايات المدسوسة على بعض العلماء دون بعض ، واغتر بها البعض فذكرها فى كتبه ، وتنبه إليها بعضهم ؛ فلم يخدع بها بل نبه على وضعها .

ومن المآخذ التى أخذتها على مؤلف هذا الكتاب أنه يذكر بعض الأقوال الشاذة والآراء الباطلة ، ويمرها من غير أن يفندها ، ويبين بطلانها وليس من شك فى أن ذكر هذه الآراء من غير تمحيص ، وتحقيق ، يضر بالقارىء الذى لم يتعمق فى الدرسات الإسلامية ، وليس له من العلم بأصول الدين ما يعصمه من قبول هذه الآراء الزائفة المنتشرة ، أو على الأقل ما يوقعه فى بلبلة فكرية ، وشكوك علمية .

والكتاب مع هذا « نفيس » ولكنه محتاج إلى التحقيق، والتعليق ،حتى يسلم من هذه العيوب المعدودة ، وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه ! وقد راودتنى هذه الفكرة مراراً .. إلا أن الأحوال لم تكن مواتية والفراغ غير ميسر ، ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهد جهيد وتفرغ ، وعسى أن يقوم بهذا العمل الجليل « قسم الدراسات العليا » بكلية أصول الدين، وبهذا يكون قد أسدى للعلم خدمة تذكر فتشكر .

وقد كان كتاب « الإتقان » - ولا زال - أوفى مرجع فى هذا العلم ، وعليه اعتماد من جاء بعد مؤلفه من العلماء إلى عصرنا هذا ، وبهذا الكتاب توقف التأليف فى « علوم القرآن » أو كاد . . ولم نعلم أن أحداً ألف فى « علوم القرآن » الا ما كان من الامام العلامة الشاه « أحمد » المعروف بولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦ هـ فقد ألف رسالة سماها : « الفوز الكبير فى أصول التفسير » وهى رساله صغيرة . . إلا أنها اشتملت على مباحث قيمة ، وهى مطبوعه فى « الهند » . . إلى أن جاء العصر الاخير .. عصر نهضة العلوم .

عصر نهضة العلوم:

لما نهضت العلوم فى العصر الأخير كان « لعلوم القرآن » من هذه النهضة نصيب ملحوظ ، ونشاط ملموس ، فبدأت الحياة تدب فى « علوم القرآن » من جديد . والذى ساعد على هذا النشاط ، وبعث هذه الحياة ، ما أخذ به « الازهر » فى تطوره فى القرن الأخير من إدخال الدراسات التخصصيه فى منهجه فحظى القرآن الكريم وعلومه ببعض شعب التخصص .

ولم تقف مباحث علوم القرآن عند الأنواع التى عنى بها المؤلفون القدامى ، بل أضيفت مباحث أخرى ، فقد جدت بعض المباحث ، مثل ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبيه ، وقد تناولها العلماء بالبحث ما بين مجوز ومانع ، وألفوا فى الانتصار لآرائهم الكتب والرسائل ، وكذلك جدت بعض الشبه التى أوردها المبشرون والمستشرقون ، ومتابعوهم من الكتاب

المعاصرين ، فرأى الغيارى المخلصون من علماء « الأزهر » وغيرهم أن يناهضوا هذه الحركة الهدامة . التي تتعرض لأقدس ما يقدسه المسلمون ، وهو « القرآن الكريم ، فوضعوا فى الرد على هؤلاء الطاعنين بعض الكتب والرسائل ، وبذلك أضيفت إلى مباحث هذا العلم مباحث أخرى جديدة ، وتضخمت هذه الثروة العلمية أكثر من ذى قبل ومن هؤلاء الذين حملوا شرف الدفاع عن القرآن الكريم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله - أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف فى العصر الأخير ، فقد ألف كتاباً قيما فى الرد على الدكتور طه حسين فيما ذكره فى كتابه « الشعر الجاهلى » من شبهات على القرآن الكريم ، وقد فند شبهاته التى أوردها مع العفة فى القول ، والأصالة فى النقد كما هو شأن العلماء الراسخين، وكذلك صنع العالم الكبير الأستاذ الشيخ محمد عرفه - مد الله فى عمره فى الرد على الدكتور طه فيما كان يلقيه على طلاب الجامعة من محاضرات فيها طعون على القرآن الكريم ، وألف فى ذلك كتاباً صغير الحجم ، ولكنه جم الفائدة ، وسماه « نقد مطاعن القرآن »

المؤلفات فى العصر الأخير :

فى هذا العصر ألفت كتب فى « علوم القرآن » بعضها شامل لجميع أنواعه أو جلها ، وبعضها فى بعض أنواعه ومباحثه ، وبعضها سلك فيه مؤلفه مسلك الاطناب والاستقصاء ، وبعضها متوسط ؛ وبعضها قصير .

فمن المؤلفات التى اشتملت على كثير من أنواعه كتاب « التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن » للعلامه المغفور له الشيخ « طاهر الجزائرى » فرغ من تأليفه سنة ١٣٣٥ هـ وهو مختصر لبعض مباحث كتاب «الاتقان»

وألف المغفور له العلامه الشيخ « محمود أبو دقيقه » من كبار علماء الازهر كتاباً سلك فيه مسلك التوسط . إلا أنه لم يتم .

جاء بعده المغفور له العلامه الشيخ « محمد على سلامه » من كبار العلماء ، فألف كتاباً سماه : « منهج الفرقان فى علوم القرآن » وقد سلك

فيه مؤلفه مسلكا وسطاً ، وقد اشتمل على الكثير من أنواع علوم القرآن.
ثم سار على هذا المنهج وزاد عليه الأستاذ العلامة الشيخ « محمد عبد العظيم الزرقانى » - رحمه الله - فألف كتاباً حافلا فى مجلد كبير سماه « مناهل العرفان فى علوم القرآن . وهو دون سابقه فى إستيعاب أنواع علوم القرآن ، إلا أنه أوسع فيه القول ، وأطنب فى بعض موضوعاته إطناباً مشكوراً ولا سيما فى الرد على الشبه والمشكلات التى أثيرت حول « القرآن » والوحى ، ويظهر أن المؤلف — عليه سحائب الرحمة - كان فى نيته أن يكمل الكتابة عما ترك من الانواع فى جزء ثان ، ولكن المنية عاجلته(١)

« رسائل وكتب فى بعض علوم القرآن » .

كما ألف بعض العلماء والادباء كتباً ورسائل فى بعض أنواعه ، منهم المغفور لهم ، العلامة الشيخ « محمد بخيت المطيعى » مفتى الديار المصرية سابقاً ، وله رسالة سماها : « الكلمات الحسان فى الحروف السبعة وجمع القرآن) . والعلامة الشيخ « محمد حسنين العدوى » ، والعلامة الشيخ « محمد خلف الحسينى » فقد كتبا فى نزول القرآن على سبعة أحرف ، ومنهم أستاذنا العلامة الشيخ « محمد حبيب الله الشنقيطى » رحمه الله . فقد ألف رسالة سماها : « إيقاظ الأعلام فى اتباع رسم المصحف الإمام » وهى رسالة قيمة ، تنم عن علم غزير ومنهم المغفور له الأستاذ الشيخ « عبد العزيز جاويش » فقد كتب رسالة بعنوان : « أثر القرآن فى تحرير العقل البشرى » وألقاها فى « نادى دار العلوم » ومنهم المرحوم الأستاذ « محمد عبد العزيز الخولى » فقد ألف كتيبا بعنوان « القرآن الكريم - وصفه - هدايته - أثره - إعجازه » .
ومنهم الأديب الكبير « مصطفى صادق الرافعى » - رحمه الله - فألف كتابه « إعجاز القرآن » وهو على كثرة ما كتب فى الإعجاز ، يعتبر بدعا فى بابه

---

(١) بعد كتابة هذا وقفت على جزء ثان صغير فى بعض مباحث علوم القرآن وبذلك صار الكتاب فى جزءين .

وقد كشف فيه عن كثير من إعجاز القرآن الأدبى والعلمى والإجتماعى

وللأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز عضو جماعة كبار العلماء رحمه الله وأثابه — كتاب جليل سماه « النبأ العظيم » عرض فيه لإعجاز القرآن ، وأبان عنه بطريقة علمية فنية ، ثم شرع يدلل على إعجاز القرآن البيانى فى سورة من سور القرآن ، وهى سورة البقرة احدى الزهراوين بما لا يدع مجالا للشك فى أن هذا القرآن فوق مستوى قدر البشر، وأنه من عند خالق القوى والقدر

ولو أنه تناول القرآن كله على هذا المنوال لكان ذخيرة من الذخائر القرآنية التى تنتفع بها الأجيال المتعاقبة ، فعسى أن يقيض له الله سبحانه من يقوم بإتمام هذه الدراسة القرآنية على هذا المنهج المستقيم البديع .

« ترجمة القرآن الكريم »

وجدت مسألة ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، وتناولها العلماء والأدباء بالجواز والمنع ، فألف المغفور له الأستاذ الأكبر «محمد مصطفى المراغى » شيخ الجامع الازهر سابقاً رسالة بعنوان « بحث فى ترجمة القرآن الكريم » وأحكامها ذهب فيها إلى جوزا الترجمة وألف المرحوم الاستاذ محمد فريد وجدى رسالة بعنوان « الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وقد أيد فيها الترجمة ورد على المخالفين

وقد انبرى الرد على المجوزين للترجمة المغفور له العلامة الشيخ «مصطفى صبرى» شيخ الإسلام بتركيا سابقاً فى كتاب دقيق سماه «مسألة ترجمة القرآن» كما عارض الترجمة المرحوم الأستاذ الشيخ «محمد سليمان» نائب المحكمة الشرعية العليا سابقاً وسمى كتابه : « حدث الأحداث فى الإسلام . . الإقدام على ترجمة القرآن » وألف الأديب الصحفى «محمد الهياوى» رحمه الله - رسالة بعنوان «ترجمة القرآن الكريم غرض فى السياسة وفتنة فى الدين » .

وقد الف - ولا يزال يؤلف - فى بعض أنواع علوم القرآن كثير من الأحياء من أفاضل العلماء والأدباء .

وقد كان لى شرف أن أدلى بدلوى فى الدلاء ، وأن أشارك فى التأليف فى هذا المضمار الشريف الفسيح ، مضمار الدراسات الأصيلة فى كتاب الله العزيز فكان هذا الكتاب « المدخل لدراسة القرآن الكريم ، وفى النية - إن شاء الله - متابعة البحث والتنقيب عن كنوز القرآن الكريم وعلومه ، حتى أخرج ما تيسر من مباحث هذا العلم المنيف فى بضعة أجزاء ، والله الموفق والمعين وقد استفدت مما كتبه المؤلفون فى القديم والحديث فى علوم القرآن ، وأمكننى أن آتى بجديد لم يسبقنى أحد إليه ، وبتحقيق لبعض مسائله لم يحوم أحد عليه ، وبتهذيب ، وترتيب لبعض مباحثه . وكل ذلك بفضل الله وتوفيقه .

ولبعض الزملاء ، والاقران وبعض التلاميذ والأبناء فى مصر ، وغير مصر ، وفى الأزهر ، وغير الأزهر كتب قيمة ، ورسائل جيدة ، فى الدراسات القرآنية أو إن شئت فقل فى «علوم القرآن» فجازاهم الله خيراً على صنيعهم هذا ، وإنه لمضمار شريف ، وفيه فليتنافس المتنافسون .

وسيظل هذا الكتاب الكريم منهلا عذبا ، ومورداً صافياً ، ومادة خصبة للباحثين والمفكرين ، يدورون فى فلكه الدوار ويستظلون بظله الظليل ، ويستهدون بهديه القويم ، ويسيرون على ضوئه ، ومنارته .
وسيستمر مصدر حركة فكر وباعث حياة شعوب ، ومجدد شباب أمة ، وحارس لغة هى أشرف اللغات ، وأعذبها ، ومشغلة للفكر الإنسانى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

المبحث الثانى

نزول القرآن الكريم

هذا المبحث من المباحث المهمة ، إذ به يعرف تنزلات « القرآن الكريم » ومتى نزل ؟ وكيف نزل ؟ وعلى من نزل ؟ وكيف كان يتلقاه جبريل - عليه السلام - من الله تبارك وتعالى ؟ وعلى أى حال كان يتلقاه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من جبريل ؟ ولا شك أن العلم بذلك يتوقف عليه كمال الإيمان بأن القرآن من عند الله وأنه المعجزة العظمى للنبى ، كما أن كثيراً من المباحثات التى تذكر فى هذا الفن يتوقف على العلم بنزوله ، فهو كالأصل بالنسبة لغيره ، والعلم بالأصل مقدم على بالفرع ، فأقول - ومن الله استمد العون والتوفيق .

معنى النزول :

النزول لغة يطلق ويراد : الحلول ، يقال نزل فلان بالمدينة : حل بها وبالقوم : حل بينهم والمتعدى منه معناه : الإحلال ، يقال : أنزلته بين القوم ، أى أحللته بينهم [1] ، ومنه قوله تعالى . « رب أنزلنى منزلا مباركا . وأنت خير المنزلين » . [2]

ويطلق أيضا . على تحرك الشىء من علو إلى سفل . يقال . نزل فلان

---

(١) فى القاموس : مادة « نزل » [النزول : الحلول ، نزلهم وبهم وعليهم ينزل نزولا ومنزلا - حل . ونزله تنزيلا ، وأنزلا ومنزلا كمجمل ، واستنزله بمعنى ، وتنزل : نزل فى مهلة] وفى المصباح المنير : [نزل من علو إلى أسفل ينزل نزولا ويتعدى بالحرف والهمزة والتضعيف ، فيقال : نزلت به . وأنزلته ونزّلته واستنزلته بمعنى : أنزلته والمنزل : موضع النزول ، والمنزلة مثله ، وهى أيضا المكانة ، ونزلت هذا مكان هذا : أقمته مقامه قال ابن فارس - التنزيل ترتيب الشىء]

(٢) سورة المؤمنون الآية ٢٩

من الجبل ، والمتعدى منه معناه : التحريك من علو إلى سفل ، ومنه قوله تعالى « أنزل من السماء ماء ... الآية »(١) .

وكلا المعنيين اللغويين لا يليقان بنزول القران على وجه الحقيقة ، لاقتضائهما الجسمية والمكانية والانتقال ، سواء أردنا بالقرآن : المعنى القديم القائم بذاته تعالى أو الكلمات الحكمية الأزلية ، أو اللفظ العربى المبين . الذى هو صورة ومظهر للكلمات الحكمية القديمة ، لما علمت من تنزه الصفة القديمة ومتعلقها وهو الكلمات الغيبية الأزلية عن المواد مطلقاً ولأن الألفاظ أعراض سيالة . تنتهى بمجرد النطق بها ، ولا يتأتى منها نزول ولا إنزال .

وعلى هذا يكون المراد بالنزول المعنى المجازى ، والمجاز فى اللغة العربية باب واسع ، فإن أردنا بالقرآن. الصفة القديمة أومتعلقها ، فالمراد بالإنزال الإعلام به بواسطة إثبات الألفاظ والحروف الدالة عليه . من قبيل : إطلاق الملزوم وإرادة اللازم . وإن أردنا اللفظ العربى الدال على الصفة القديمة . يكون المراد : نزول حامله به سواء أردنا بالنزول : نزوله إلى سماء الدنيا . أو على النبي ﷺ ويكون الكلام من قبيل المجاز بالحذف ، وهذا هو ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق لفظ النزول .

وللقرآن الكريم وجودات ثلاثة :

١ — وجوده فى اللوح المحفوظ .

٢ — وجوده فى السماء الدنيا .

٣ — وجوده فى الأرض بنزوله على النبى ﷺ ، ولم يقترن لفظ « النزول » إلا بالوجود الثانى والثالث ، أما الوجود الأول ، فلم يرد لفظ « النزول » مقترنا به قط ، وعلى هذا . فلا ينبغى أن نسميه نزولاً أو تنزلا .

أين كان القرآن قبل النزول ؟

يقول الله تعالى : « بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ » (٢) فقد دلت

(١) سورة الرعد الآية ١٧ (٢) سورة البروج : الآية ٢١، ٢٢

الآية على أن « القرآن » كان قبل نزوله ثابتا وموجوداً فى اللوح المحفوظ وهذا اللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون الذى ذكره الله تعالى فى قوله «إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين » (١) فالظاهر والذى عليه جمهور المفسرين : أن الكتاب المكنون: هو اللوح المحفوظ ، ومعنى « محفوظ » أنه عن استراق الشياطين ، ومحفوظ عن التغيير والتبديل ، ومعنى « مكنون » . مصون محفوظ عن الباطل ، والمعنيان متقاربان .

واللوح المحفوظ : هو السجل العام الذى كتب الله فيه فى الأزل كل ما كان وكل ما يكون . والواجب علينا: أن نؤمن به وأنه موجود ثابت ، أما البحث فيما وراء ذلك ، كالبحث فى حقيقته وما هيته ، وعلى أى حالة يكون ؟ وكيف دونت فيه الكائنات ؟ وبأى قلم كتب ؟ فلا يجب الإيمان علينا به ، إذ لم يرد عن المعصوم ﷺ فى ذلك حديث صحيح ، وكل ما ورد إنما هى آثار عن بعض الصحابة والتابعين لا تطمئن إليها النفس (٢) .

وحكمة وجود « القرآن » فى اللوح المحفوظ : ترجع إلى الحكمة العامة من وجود اللوح المحفوظ نفسه وإقامته سجلا جامعاً لكل ما كان ، وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين ، فهو شاهد ناطق ، ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وعلمه وإرادته ، وواسع سلطانه وقدرته .

ولا شك أن الإيمان به يقوى إيمان العبد بربه ، من هذه النواحى . وبعث الطمأنينة إلى نفسه ، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته ، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القدر والقضاء ، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرائها وسرائها كما قال جل شأنه : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا

---

(١) سورة الواقعة ٧٧ — ٧٩

(٢) أنظر تفسير « القرطبى » و « ابن كثير » و « الالوسى » فى تفسير آية البروج

(٣) سورة الحديد . الآية ٢٢ - ٢٣ .

في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور »(١)

وللإيمان باللوح والكتابة أثر صالح في استقامة المؤمن على الجهاد، وتفانيه في طاعة الله ومراضيه ، وبعده عن مساخطه ومعاصيه ، لإعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه ، مسجلة لديه في كتابه(٢) كما قال جل شأنه. « وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » (٣) .

نزول القرآن الكريم

للقرآن الكريم نزولان الأول . نزول من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . الثاني . نزوله من السماء الدنيا على النبي ﷺ .

وهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وتوضيح .. وإليك البيان .

النزول الأول :

نزول « القرآن الكريم » من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، جملة واحدة وهذا النزول أكان بعد نبوته ﷺ ؟ أم كان قبل ذلك ؟ رأيان للعلماء أرجحهما الأول . وهو الذي تدل عليه الآثار الآتية ، وكان هذا النزول في رمضان ليلة القدر .

والدليل على هذا النزول ما يأتي :

١ — قوله تعالى في مفتتح سورة « القدر » .. إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقال في مفتتح سورة « الدخان » « حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين » وقال في سورة « البقرة » . شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى الفرقان » ، (٤) « والإنزال » أكثر ما يرد في لسان العرب ، فيما نزل جملة واحدة(٥)، بخلاف

---

(١) سورة الحديد . الآية ٢٢/٢٣ . (٢) مناهل العرفان ج ١ ص ٣٥ ط أول

(٣) القمر / ٥٢ ، ٥٣ ومعنى مستطر مكتوب في السطور (٤) البقرة / ١٨٥

(٥) الغالب في التعبير القرآني عما نزل دفعة واحدة بلفظ « الانزال » وما

« التنزيل » فإنه يعبر به فى جانب ما نزل مفرقا؛ فدلت الآيات على أن القرآن « نزل جملة واحدة فى ليلة القـــدر ! أخذاً من سورة « القدر » وهى الليلة المباركة ، أخذاً من آية « الدخان » . وهى من ليلة شهر رمضان أخذاً من آية « البقرة » .

وأيضاً فمن البدهى : أن القرآن نزل على النبى ﷺ - فى سنين لا فى ليلة واحدة ، وأنه نزل فى غير رمضان ؛ كما نزل فى رمضان فدل هذا على أن النزول الذى نوهت بشأنه الآيات غير النزول على النبى مفرقا فى بضـــع وعشرين سنة ، وأن المراد به : هو النزول جملة واحدة.

٢ — قد جاءت الآثار الصحيحة مبينة لهذا النزول وشاهدة عليه .

(ا) فمنها ما أخرجه «النسائى والحاكم والبيهقى من طريق داود بن هند عن عكرمة عن ابن عباس ، أنه قال: « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، ثم قرأ : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيرا » « وقرآنا فرقناه ؛ لتقرأه على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا »

(ب) ومنها ما أخرجه الحاكم والبيهقى من طريق منصور عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أنه قال: « أنزل القرآن فى ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله بعضه فى إثر بعض ».

(ج) وأخرج الحاكم وغيره ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

= نزل مفرقا ! التنزيل ولهذا لما جمع الله بين القرآن والتوراة والإنجيل عبر فى جانب نزول القرآن على النبى بالتنزيل ! وفى جانب التوراة والانجيـــل بالإنزال ! لأنهما نزلا دفعة واحدة ! وهذا ما لا خلاف فيه . قال تعـالى فى سورة آل « عمران » ، « نزل عليك القرآن بالحق مصدقا لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيـــل » والتفريق بين الإنزال والتنزيل أمر غالب ! وليس قاعـــدة مطرده ! ولذا عبرت بلفظ « أكثر » بدليل قوله تعالى ؟ « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . . » الفرقان / ٣٢ فقد استعملوا التنزيل وأرادوا الإنزال

« فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة من سماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ .

(د) أخرج ابن مردويه والبيهقى — فى كتاب « الأسماء والصفات » عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود . فقال : أوقع فى قلبى الشك قوله تعالى «شهر رمضان الذى أنزل فيه القران» وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وهذا أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم ، وصفر ، وشهر ربيع ، فقال ابن عباس أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا (١) فى الشهور والأيام » .

ومعلوم : أن هذا لا يقوله «ابن عباس» بمحض الرأى ، فهو محمول على سماعه من النبي - ﷺ - أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ومثل هذا له حكم المرفوع ، لأن القاعدة عند أئمة الحديث : أن قول الصحابى الذى لم يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال للرأى فيه ، له حكم الرفع ، وبذلك ثبتت حجية هذه الآثار .(٢)

وقد ذكر «السيوطى» فى «الإتقان» (٣) عن القرطبى : أنه حكى الإجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة فى السماء الدنيا .

وهناك قول ثان . وهو أن «القرآن» نزل إلى السماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر ، أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ، (٤) ينزل الله فى كل ليلة منها ما يقدر إنزاله فى كل السنة ، ثم ينزل به جبريل بعد ذلك عن النبي - ﷺ -

---

(١) رسلا . أى رفقا ، وعلى تمهل . «مواقع النجوم» مساقطها ، يريد . أنه نزل على مواقع منجما مفرقا يتلو بعضه بعضا على تؤدة ورفق

(٢) نزهة النظر شرح نخبة الفكر ص ٤٣ (٣) الإتقان جـ ١ ص ٤٠

(٤) هـذا مبنى على الخلاف فى مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة أهى عشر سنوات ، أم ثلاث عشرة ، أم خمس عشرة ، وأصحها أوسطها

فى جميع السنة ، وبه قال «مقاتل بن حيان» .

وهناك قول ثالث : هو أن المراد بالآيات السابقة : ابتداء إنزاله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة على النبى - ﷺ - وبه قال « الشعبى » وكان صاحب هذا القول ينفى النزول جملة واحدة إلى السماء الدنيا .

وقد ذهب إلى هذا الرأى من المتأخرين الأستاذ الإمام الشيخ «محمد عبده» فى تفسير جزء « عم » فقد نقل كلام «الشعبى» وقواه ، وقال إن ماجاء من الآثار الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، مما لا يصح الاعتماد عليه ، لعدم تواتر خبره عن النبى - ﷺ - وأنه لا يجوز الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه ، وإلا كان اتباعا للظن(١)

وأعقب على قول الإمام فاقول : إن مسالة نزول القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليست من العقائد التى يتحتم تواتر الأخبار بها ، والتى لا بد فيها من العلم القطعى اليقينى ، مثل وجود الله وصفاته ، ونحو ذلك من العقائد ، وإنما يكفى فيها الأخبار الصحيحة .. التى تفيد غلبة الظن ورجحان العلم ، ثم إن من قال . إن مثل هـــذه الحقيقة الغيبية لابد فيها من تواتر الأخبار عن النبى ﷺ ؟! إن كثيراً من السمعيات يكتفى فيها بالأخبار الصحيحة التى تفيد رجحان العلم بما دلت عليه ، وعلى هذا جرى العلماء سلفاً وخلفاً ثم إن تأويل الآيات بان المراد . إبتـــداء الإنزان صرف للآيات عن ظواهرها ، وقد بينت . أن ظاهر الآيات يشهد للنزول جملة واحـــدة ؛ والظواهر لا يعدل عنها إلا بصارف ، وأنى هو ؟ ؟

وبعد.. فالقول الأول ، هو الراجح والصحيح الذى تشهد له الآيات والآثار حكمة هذا النزول . والحكمة فى هذا النزول أمران .

تفخيم شان القرآن ؛ وشان من نزل عليه ، وشان من سينزل إليهم ، بإعلام سكان السموات من الملائكة بان هذا آخر الكتب المنزلة ، على خاتم

(١) تفسير جزء «عم» ص ١٢٢ ط. بولاق

الرسل ، لأشرف الأمم ، وهى الأمة الإسلامية ، وفى هذا تنويه بشأن المنزل ، والمنزل عليه ، والمنزل إليهم

(١) تفضيل القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية ، بأن جمع الله له النزولين : النزول جملة واحدة ؛ والنزول مفرقا . وبذلك شارك الكتب السماوية فى الأولى ، وانفرد فى الفضل عليها بالثانيه ، وهذا يعود بالتفضيل لنبينا «محمد» على سائر إخوانه من الأنبياء ، ذوى الكتب المنزلة وأن الله جمع له من الخصائص مالغيره وزاد عليها.

النزول الثانى :

قلنا فيما سبق . إن القرآن الكريم نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، فى ليلة القدر وهـذا هو النزول الأول . وكان النازل به «جبريل» عليه السلام فألقاه على السفرة الكرام البررة ، فقيدوه فى صحفهم المكرمة ، كما قال تعالى «كلا إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهـــرة ، بايدى سفرة ، كرام بررة »(١) وهم الملائكة المختصون بذلك .

وقد بقى القرآن محفوظاً فى هذه الصحف المرفوعـة المطهرة ، بأيدى هؤلاء الملائكة الكرام البررة حتى أذن الله لهذا النور الإلهى أن يسطع فى أرجاء الأرض ، ولهدايته الربانية أن تتدارك الناس ، وتخرجهم من ظلمات الشرك والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمـان والهدى والعرفان ، على يد مخلص البشرية ، ومنقذ الإنسانية سيدنا ونبينا «محمد بن عبدالله» عليه صلوات الله وسلامه ، فانزل عليه «القران» هادياً ومبشراً ونذيراً للخلق أجمعين ، ليكون ايته الكبرى ، ومعجزته الباقية على وجه الدهر ، شاهدة له بالصدق وأنه يوحى إليه من ربه ، وهذا هو النزول الثانى للقرآن .

وشواهد هذا النزول أكثر من أن تحصى ، قال تعالى شانه . «وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك (٢) لتكون من المنذرين

---

(١) سورة عبس الآية ١١ — ١٦

(٢) عبر به للدلالة على أن القلب قد وعاه بعد أن وعته الآذان

بلسان عربى مبين»(١) وقال تعالى: «قل نزله روح القدس(٢) من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا، وهدى وبشرى للمسلمين»(٣) وقال تعالى. «الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا، قيما؛ لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا، ماكثين فيه أبداً، وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولدا»(٤). وقال: «تبارك الذى نزل الفرقان على عبده؛ ليكون للعالمين نذيرا(٥)». وقال تعالى: «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله»(٦).

والذى نزل به على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أمين الوحى «جبريل» عليه السلام، وهو المقصود بالروح الأمين فى آية «الشعراء»، وبروح القدس فى سورة «النحل»، وهو الرسول الكريم ذو القوة المتين الأمين فى قوله تعالى «إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون(٧)»، والقول كما ينسب لقائله الأول، ينسب لمبلغه وحامله إلى المرسل إليه.

وهو شديد القوى. ذو المرة، فى قوله تعالى: «إن هو إلا وحى يوحى، علمه شديد القــوى، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى(٨)». وقد جاء النص على أن النازل بالقرآن هو «جبريل» فى قوله سبحانه: «قل من كان عدواً لجبريل؛ فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه، وهدى وبشرى للمؤمنين، من كان عدواً لله، وملائكته،

---

(١) سورة الشعراء الآية ١٩٢ — ١٩٥ (٢) هو جبــريل الأمين على الوحى

(٣) سورة النحل الآية ١٠٢ (٤) سورة الكهف الآية ١ — ٤.

(٥) سورة الفرقان الآية ١. (٦) سورة البقرة الآية ٢٣.

(٧) سورة التكوير الآية ٩ — ٢٢.

(٨) سورة النجم الآية ٤ — ٧. ومعنى «ذو مرة». ذو هيئة حسنة، وقيل ذو حصانة فى العقل، وإحكام فى الرأى.

ورسله ، وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين[1]» والمراد بهم اليهود .

كيف كان هذا النزول ومدته

وقد نزل به «جبريل» ـ عليه السلام ـ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منجما مفرقا ، على حسب الوقائع ، والحوادث ، وحاجات الناس ، ومراعاة للظروف والملابسات .

وقد اختلف العلماء فى مدة هذا النزول : فقيل : عشرون سنة ، وقيل : ثلاث وعشرون سنة ، وقيل : خمس وعشرون سنة .

ومنشأ هذا الاختلاف . . إنما هو اختلافهم فى مدة مقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ؛ فقيل : عشر سنين ، وقيل : ثلاث عشرة ، وقيل : خمس عشرة .

وأقربها إلى الحق والصواب ، هو أوسطها ، وهو ثلاث وعشرون سنة ، وهذا على سبيل التقريب ، وأبعدها هو آخرها .

ولو راعينا التدقيق والتحقيق ، تكون مدة نزول القرآن « اثنين وعشرين سنة ، وخمسة أشهر[2] ونصف شهر تقريباً ، وبيان ذلك : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبئ على رأس الأربعين من ميلاده الشريف ، وذلك فى شهر «ربيع الأول ، الثانى عشر منه» وقد بدىء الوحى إليه بالرؤيا الصادقة ، ومكث على ذلك إلى السابع عشر من رمضان ، وهو اليوم الذى نزل عليه فيه صدر سورة « اقرأ » أول ما نزل من القرآن ، وجملة ذلك : ستة أشهر وخمسة أيام . وآخر آية نزلت من « القرآن » هى قوله تعالى . « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[3]» ، وقد روى : أن ذلك قبل وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتسعة

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٧ ٩٨ .

(٢) راعيت فى هذا التحديد . ما ذهب إليه الجمهور من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولد فى الثانى عشر ربيع الأول عام الفيل . وتوفى فى الثانى عشر أيضا من ربيع الأول عام إحدى عشرة من الهجرة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨١

أيام ، وقيل : بأحد عشر يوماً ، وقيل بواحد وعشرين يوماً ؛ فلو أخذنا بالمتوسط تكون جملة المدة التى لم ينزل فيها القرآن ستة أشهر وستة عشر يوما .

وجملة عمره « ﷺ » ثلاثة وستون عاما ، لأنه توفى فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، كما عليه الجمهور ، فتكون مدة نبوته: ثلاثا وعشرين سنة ، فإذا أنقصنا منها ستة أشهر وستة عشر يوما، يكون الباقى : اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما. والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . وقد ذكر بعض الكاتبين فى تاريخ التشريع غير هذا وقد بنى حسابه على أن آخر آية نزلت «اليوم أكملت لكم دينكم» ، وهو خطأ مشهور وسنبين الحق فى آخر ما نزل فيما يأتى إن شاء الله

« الدليل على نزول القرآن منجما »

المعروف الثابت : أن « القرآن الكريم » نزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - مفرقا ، ويدل على هذا القرآن ، والسنة الصحيحة .

أما القرآن ، فقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه، لتقرأه على الناس على مكث، ونزلناه تنزيلا» (١) وقوله تعالى « وقالوا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا »(٢) فقد روى : أن المشركين أو اليهود عابوا على النبى - صلى الله عليه وسلم - نزول القرآن مفرقا ، وقالوا : هلا نزل جملة واحدة، كما نزلت التوراة على موسى ، فأنزل الله - سبحانه - هذه الآية ، حاكية لأقوالهم، ورادة عليهم ببيان الحكمة فى إنزاله مفرقا ، أى: أنزلناه مفرقاً ، لنثبت به فؤادك ولمرتله ترتيلا فى خاصة نفسك ، وعلى أصحابك .

---

(١) الإسراء الآية ١٠٦
(٢) سورة الفرقان الآية ٣٢ ، ٣٣

أما السنن الصحيحة، فقد ورد فيها مايدل على نزول «القرآن» منجما مفرقا، ففى الصحيحين وغيرهما . عن عائشة – رضى الله عنها – . « أن أول ما نزل صدر سورة « اقرأ » . . . إلى قوله تعالى : « ما لم يعلم » . وفى الصحيحين – أيضاً – عن جابر . « أن أول مانزل بعد فترة الوحى سورة « المدثر » إلى « والرجز فاهجر » وكذلك روى عن ابن عباس وغيره من الصحابة ، القول فى تقدم نزول بعض السورة والآيات على بعض، وترتيب السور على حسب النزول(١) . إلى غير ذلك من الآثار التى لا تدع مجالا للشك فى نزول القرآن الكريم » على النبى – صلى الله عليه وسلم – مفرقا، وهذه الأحاديث والآثار وإن كانت آحادية إلا أنها بمجموعها تفيد التواتر المعنوى المفيد للقطع واليقين فى هذا .

نزول الكتب السماوية السابقة .

أما الكتب السماوية السابقة ، فالمشهور بين العلماء . أن ذلك كان جملة واحدة حتى كاد يكون هذا الرأى إجماعا – كما قال « السيوطى » .

والدليل على ذلك آية « الفرقان » . « وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة . . » الآية ووجه الدلالة . أن الله – سبحانه – لم يكذبهم فى دعواهم نزول الكتب السماوية جملة ، بل بين لهم الحكمة فى نزوله مفرقاً ولو كانت الكتب السماوية نزلت مفرقة، لكان كافيا فى الرد عليهم أن يقول لهم . ان التنجم سنة الله فى الكتب التى أنزلت على الرسل، كما أجاب بمثل ذلك قولهم . « وقالوا . مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . » الاية(٢) فقال فى الرد عليهم « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق(٣) » فبين لهم . أن ذلك سنن الأنبياء والمرسلين . وكذلك لما قالوا . « هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ »(٤) فرد عليهم . بأن سنته ألا يرسل رسلا من البشر فقال .

---

(١) الإتقان ج ١ ص ٩-١١

(٢) سوره الفرقان الآية ٧ .

(٣) الفرقان الاية ٢٠ .

(٤) الأنبياء الآيه ٣ .

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (١) . ولما قالوا . كيف يكون رسولا ، ولا هم له إلا النساء ؟ رد عليهم فقال . «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزوا جاً و ذرية» (٢) . إلى غير ذلك .

ويدل على ذلك أيضاً . قوله تعالى فى إنزاله التوراة على موسى عليه السلام يوم الصعقة . . فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة » (٣) وقوله . «ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (٤) وقال تعالى . «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظنوا . أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٥) والمراد بالألواح . الألواح التى كتبت فيها التوراة .

فهذه الآيات دالة على إنزاله ـ سبحانه ـ التوراة على « موسى » جملة .

وهناك آثار (٦) صحيحة عن « ابن عباس » تفيد نزول « التوراة » جملة منها ما أخرجه النسائى وغيره عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى حديث النتوق قال ، « أخذ موسى الألواح بعد ما سكن عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله عليهم الجبل ، كأنه ظلة . ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأقروا بها » .

وإذا كانت التوراة ، وهى أعظم الكتب السماوية السابقة ، وأكثرها أحكاما وهداية . وقد ثبت نزولها جملة واحدة . فأحر بغيرها من الكتب السماوية ـ كالإنجيل والزبور وصحف إبراهيم ـ أن تكون قد نزلت جملة واحدة . وآية (الفرقان) ـ كما ذكرنا ـ تدل على هذا التعميم وتؤيده .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧
(٢) سورة الرعد الآية ٣٨
(٣) الأعراف الآية ١٤٤-١٤٥
(٤) سورة الاعراف الآية ١٥٤
(٥) سورة الاعراف الآية ١٧١
(٦) الاتقان جـ ١ صـ ٤٢

«كيف كان جبريل يتلقى الوحى؟»

هذا المبحث من أنباء الغيب . فلا يطمئن الإنسان إلى رأى فيه إلا إن ورد عن معصوم . ولم نطلع فى هذا على نقل من المعصوم — ﷺ — وإنما هى نقول عن بعض العلماء :

١ — منها ماقاله «الطيبى» : «لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفا روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ . فينزل به على النبى ﷺ فيلقيه إليه وكلمة «لعل» لا تفيد القطع ، وإنما تفيد التجويز والاحتمال . وقد ردد الإمام «الطيبى» الأمر بين هذين الاحتمالين ، ولم يقطع برأى

٢ — ماذكره «البيهقى» فى تفسير قوله تعالى . «إنا أنزلناه فى ليلة القدر» قال يريد — والله أعلم — . إنا أسمعنا الملك . وأفهمناه إياه . وأنزلناه بما سمع ، وهذا الرأى أمثل الآراء . وأولاها بالقبول ويشهد له مارواه «الطبرانى» من حديث «النواس بن سمعان» مرفوعا إلى النبى — ﷺ — قال إذا تكلم الله بالوحى أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله . فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا . وخروا سجداً فيكون أولهم يرفع رأسه «جبريل» . فيكلمه الله بوحيه بما أراد . فينتهى به إلى الملائكة فكلما مر بسماء سأله أهلها . ماذا قال ربنا ؟ قال : الحق ، فينتهى به حيث أمر ، والحديث وإن لم يكن نصاً فى القرآن إلا أن «الوحى» يشمل وحى القرآن . وغيره . بل يدخل فيه الوحى بالقرآن دخولا أولياً .

وهذا الرأى هو أحد الاحتمالين الذين جوزهما «الطيبى» ، وهو مراده بقوله . أن يتلقفه تلقفاً روحانياً

والاحتمال الثانى . وهو حفظه من اللوح المحفوظ وإن كان غير مستبعد إلا أن مادل عليه النص أولى . وينبغى أن يصار إليه وهو الأليق بالقرآن الكريم

وفى تلقى «جبريل» — عليه السلام — القرآن من ربه دون وساطة : إعظام للقرآن وتفخيم لشأنه ، وتلبية إلى غاية العناية به ، والحرص والمحافظة عليه ، ومبالغة فى صيانته عن التحريف ، والتبديل .

ألا ترى أن أحد الملوك أو الرؤساء ، أو الأمراء إذا أرسل رسالة مهمة ، فى أمر مهم ، لرجل ، ذى شأن فإنه يتخير لها الرسول ، ويأبى إلا أن يختمها بختمه ، وأن يناولها إليه بيده ، فما بالك بالقرآن الذى هو كلام الله ورسالة الرسالات ؟ وأحق الكتب بالتحوط والصيانة ، والحفاظ عليه .

كيف كان يتلقى النبى القرآن

كان النبى — صلوات الله وسلامه عليه — يتلقى القرآن عن جبريل — عليه السلام — على حالتين :

١ — أن ينسلخ النبى — صلى الله عليه وسلم — من حالته البشرية العادية ، إلى حالة أخرى ، بها يحصل له استعداد ، لتلقى الوحى من «جبريل» عليه السلام ، وهو على حالته الملكية وفى هذه الحالة قد يسمع عند مجىء الوحى صوت شديد كصلصلة الجرس[١] . . وأحياناً يسمع الحاضرون صوتاً عند مجىء الوحى كدوى النحل . . وتأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - حالة شديدة روحانية ، يغيب فيها عما حوله ، ويثقل جسمه ، حتى لتكاد الناقة التى يركبها تبرك ، وإذا جاءت فخذه على فخذ إنسان تكاد ترضها ، ويتصبب عرقه ، وربما يسمع له غطيط كغطيط النائم ، فإذا ما سرى عنه وجد نفسه واعياً لكل ما سمع من الوحى فيبلغه كما سمعه ، وهذه الحالة أشد حالات الوحى على النبى ﷺ ، ويشير إلى هذا قوله تعالى : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »[٢] ؛ وعلى هذه الحالة تلقى القرآن .

٢ — أن يتحول « جبريل » - عليه السلام - من الملكية إلى الصورة البشرية ، فيأتى فى صورة رجل ، فيأخذ عنه الرسول ويسمع منه . . وكثيراً

---

(١) قال الخطابى : والمراد ، أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتثبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد . وقيل : هو صوت خفق أجنحة الملك . والحكمة فى تقدمة ، أن يفرغ سمعه للوحى، فلا يبقى فيه مكانا لغيره . (٢) المزمل ٥

ماكان جبريل - عليه السلام - يأتى فى هذه الحالة فى صورة « دحية الكلبى »[1] أو صورة أعرابى لايعرف[2] . وهذه الحالة أهون الحالين على الرسول .

يدل على هاتين الحالين : ما رواه البخارى ، فى صحيحه بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - : أن الحارث بن هشام - رضى الله تعالى عنه - سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم[3] عنى ، وقد وعيت منه ماقال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت « عائشة » - رضى الله عنها - : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، وأن جبينه ليتفصد عرقاً » . وإنما اكتفى النبى فى الجواب بهاتين الكيفيتين دون غيرهما من الكيفيات والأنواع ، لأن الظاهر أن السؤال كان على الوحى الذى يأتى عن طريق جبريل .

والقرآن الكريم لم ينزل منه شىء إلا عن طريق جبريل - عليه السلام - ولم يأت شىء منه عن تكليم أو إلهام[4] أو منام ، بل كله أوحى به فى اليقظة وحيا جليا ، ولا يخالف هذا ما ورد فى صحيح .. عن أنس - رضى الله عنه - قال : « بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة[5] . . ثم

---

(٢) وذلك كما فى حديث جبريل المشهور الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما ففى رواية لمسلم « بينما نحن عند رسول الله إذ طلع علينا رجل ... ولا يعرفه منا أحد » وفى الصحيحين أن النبى قال لأصحابه « ردوا على الرجل » فذهبوا فلم يجدوه فقال : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »

(٣) الفصم : القطع من غير إبانة ، والتعبير به فى هذا المقام صادف عز البلاغة ، لأنه ينقطع عنه صلى الله عليه وسلم ليعود إليه . أما القصم — بالقاف — فهو القطع مع الإبانة .

(٤) سنفصل الكلام عن الوحى وكيفياته فيما يأتى :

(٥) يقال . أغفى إغفاءة ، أى (نام نومة خفيفة)

رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال . إنه نزل على آنفاً سورة ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » .

إذ ليس المقصود بـ « الإغفاءة فى الحديث . النوم ، وإنما المقصود . الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى ، وهى الغيبوبة عما حوله .

وقد ذكر العلماء . أنه كان يؤخذ عن الدنيا ، وبهذا يفسر أيضاً ما ورد فى بعض روايات هذا الحديث : أنه أغمى عليه .

وقال « السيوطى » فى « الإتقان » [1] بعد أن ذكر : أن من كيفيات الوحى تكليم الله إما فى اليقظة وإما فى المنام . « وليس فى القرآن من هذا النوع شىء ـ فيما أعلم ـ نعم يمكن أن يعد منه آخر سورة « البقرة » لما تقدم [2] ، وبعض سورة « الضحى » و « ألم نشرح » ، فقد أخرج « ابن أبى حاتم ، من حديث « عدى بن ثابت قال . قال رسول الله ﷺ . سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألته ، فقلت . أى رب ، اتخذت إبراهيم خليلا ، وكلمت موسى تكليما ، فقال . يا محمد ، ألم أجدك يتيما فآويت ، وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معى » .

وما أشار إليه فيما تقدم ؛ هو ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال . « لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة المنتهى .. الحديث » وفيه . « فأعطى رسول الله ﷺ منها ثلاثاً . أعطى الصلوات الخمس ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك ـ من أمته ـ بالله شيئا .. المقحمات » . وفى « الكامل » للهذلى . نزلت « آمن الرسول » إلى آخرها بقاب قوسين » [3] .

---

(١) الاتقان حـ ١ ص ٤٥

(٢) يعنى فى كتابه الاتقان

(٣) الاتقان حـ ١ ص ٢٣

وأعقب على ما ذهب إليه الإمام « السيوطى » إمكاناً . بأن رواية « مسلم » ليس فيها تضريح بنزول خواتيم سورة « البقرة » عن طريق تكليم الله . فلعل المراد بإعطائه إياها . إعلام الله له باختصاصه ﷺ وأمته بما تدل عليه ؛ تمنناً عليه فى هـــذا الموقف العظيم .. ألا ترى . أنه أعطى الصلوات الخمس ، وفرضت ؛ مع أنها لم ينزل فيها قرآن هذه الليلة ، وليس فى رواية الهذلى على فرض صحتها التصريح بنزول الآيتين عن طريق التكليم .

وأيضاً فالإسراء والمعراج كان قبل الهجرة بمكة ، وسورة البقرة كلها مدنية ، فكيف تنزل خواتيمها بمكة ؟ !

وأما حديث « عدى بن ثابت » الذى أخرجه ابن أبى حاتم ، فليس فيه أن الله أنزل هذه الآيات وإنما كل ما فيه . التمنن عليه بالمنن التى ذكرت فى هذه الآيات ولا سيما وألفاظ الحديث مغايرة للنص القرآنى للآيات ، مما يستبعد معه أن تكون الآيات نزلت فى هذا التكليم .

فالحق ما قاله الإمام . السيوطى ، أولا ، وهو أنه ليس فى القرآن من هذا النوع شىء .

تلقى النبى القرآن عن جبريل وهو على ملكيته

والذى نقطع به — والله أعلم — أن القرآن الكريم كله نزل فى الحالة الأولى ، وهى الحالة التى يكون فيها جبريل على ملكيته ، وتحول النبى ﷺ من البشرية إلى الملائكية ، وهذا هو الذى يليق بالقرآن الكريم ، ونفى أى احتمال ، أو تلبيس فى تلقيه . ولم أقف قط على رواية تفيد نزول شىء من القرآن عن طريق جبريل ، وهو فى صورة رجل ، وكل ما جاء من ذلك فى الأحاديث الصحاح كحديث جبريل المشهور وسؤاله النبى ﷺ عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، والساعة ، وأشراطها فإنما هو فى وحى السنة لا فى وحى القرآن .

نعم هناك قرائن لا تصل إلى حد الأدلة تدل على نزول القرآن بالطريق

الأول ، فمن ذلك قول الله تعالى ، « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا[1] أى ثقيلا تلقيه ، وثقيلا عليه ، وذلك إنما يكون فى الحالة التى تسود فيها الملائكة عند تلقى الوحى ، وقيل ، ثقيلا العمل به ، والقيام بفرائضه وحدوده ، وقيل ، ثقيل من الوجهين معاً .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى عن ابن عباس فى قوله تعالى « لا تحرك به لسانك لتعجل[2] به » قال : « كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ، وكان مما يحرك شفتيه .... »[3] وهذه الشدة لن تكون إلا فى الحالة الأولى .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سألت النبى ﷺ فقلت . هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ « أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض » رواه أحمد ، وروى ابن جرير أن النبى ﷺ كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جرانها[4] فما تستطيع أن تحرك حتى يسرى عنه ، وعن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى ، فكادت ترض[5] فخذى[6] .

وأيضاً فلو أنزل شىء من القرآن فى الحالة وهى مجىء جبريل عليه السلام فى صورة رجل لكان هذا مثاراً للشك ، والتلبيس على ضعفاء الإيمان ، ولكان فيه مستند للمشركين فى قولهم : « إنما يعلمه بشر .. »

وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا فى قوله حكاية لمقالة المشركين ، ورادّاً عليهم « وقالوا ، لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا

---

(١) المزمل /٥ (٢) سورة القيامة/١٦ (٣) صحيح البخارى — باب كيف بدأ الوحى
(٤) الجران ، باطن العنق (٥) تكسر عظامها
(٦) تفسير ابن كثير ج ٩ ص ٢٧ ، ٢٨

عليهم ما يلبسون[١]،[٢] . فكان من الرحمة بالعباد ، وعدم التلبيس عليهم أن لا ينزل القرآن إلا فى هذا الجو الملائكى ، الروحانى .

ما الذى نزل به جبريل على النبي ؟

الذى نقطع به ، أن « القرآن الكريم » كلام الله سبحانه ، وهو الذى يدل عليه قوله تعالى ، « وإن أحد من المشركين استجارك ، فأجره حتى يسمع كلام الله .. ثم أبلغه مأمنه »[٣] . وأن القرآن لفظه ومعناه من عند الله — سبحانه — قال تعالى ، « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم »[٤]. « حم . تنزيل الكتاب من العزيز العليم »[٥] . وقال ، « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل »[٦] .

وأن الذى نزل به هو أمين الوحى جبريل — عليه السلام — قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين .. بلسان عربى مبين » وأن الذى نزل به جبريل هو هذا اللفظ العربى من غير أن يكون له فيه شىء ما ، ومن غير أن يزيد فيه حرفاً ، أو ينقص منه حرفاً .

وكذلك ليس للنبى ﷺ فى القرآن شىء إلا التبليغ ، وهذا هو الحق ، الذى يجب على كل مسلم أن يعتقده ويؤمن به ، ولا تلتفت إلى ما زعمه بعض مايهرف بما لا يعرف ، أو من يفترى ويختلق ، من أن جبريل أوحى إليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الألفاظ الدالة على المعانى بلغة العرب ثم نزل على النبى كذلك . أو أن جبريل أوحى إلى النبى ﷺ المعنى ، وأن النبى عبر عن هذه المعانى بلفظ من عنده[٧] ، متمسكا بظاهر قوله تعالى : « نزل به

---

(١) سورة الأنعام ٨ ، ٩

(٢) لقضى الأمر بإهلاكهم ، فقد جرت سنة الله مع الكافرين أنهم إذا سألوا أسئلة تعنتية ، ثم أجيبوا أن يهلكهم

(٣) سورة التوبة الآية ٥ (٤) سورة الزمر الاية ١

(٥) سورة غافر الاية ١ ، ٢ ، ٣ (٦) سورة الاسراء الاية ١٠٥

(٧) الإتقان ج ١ ص ٤٣ . وقد ذكر السيوطى ذلك ناقلا ، وفاته أن يعقب عليه بالبطلان .

الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »(١) ، فإنه زعم وحرص لم تقم عليه أثارة من علم ، وما تمسك به هذا الزاعم من الآية لا يشهد له : فإن القلب كما ينزل عليه المعنى ، ينزل عليه اللفظ ، وإنما آثر الحق تبارك وتعالى هذا التعبير للدلالة على أن القرآن كما وعته الأذنان، وعاه القلب اليقظان .

وهذا القول ، خلاف ماتواتر عليه القرآن والسنة ، وانعقد عليه إجماع الأئمة : من أن القرآن ـ لفظه ومعناه ـ كلام الله ، ومن عند الله . ولو جاز هذا الزعم . لما كان القرآن معجزاً ، ولما كان متعبداً بتلاوته .

وهذا الزعم ، لا يقول به إلا جاهل . استولت عليه الغفلة ، أو زنديق يدس فى الدين والعلم ما ليس منه ، ولا تغتر بوجوده فى بعض الكتب الإسلامية فأغلب الظن : أنه مدسوس على الإسلام والمسلمين .

وإنا لنبرأ إلى الله أن يقول هذا عالم ، مسلم ، متثبت .

وقد بلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن كما نزل إلى الأمة من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، ولا كتمان لشىء منه ، ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم كاتما شيئاً من الوحى ، لكتم الآيات التى فيها عتاب له وتنبيه بلطف إلى ترك الأولى فى باب الاجتهاد ، وبحسبك أن تقرأ معى قول الله عز وجل : « يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٢) . وقول الله سبحانه : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا ، أو بدله ، قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى

---

(١) سورة الشعراء ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) سورة المائدة الآية ٦٧ .

أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم »[١] . وقوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين، فما منكم من أحد عنه حاجزين »[٢] .

نزول جبريل بالسنة [٣] :

وما ذكرنا . من محافظة جبريل - عليه السلام - على تبليغ اللفظ كما سمعه ، من غير تغيير . حتى ولو كان اللفظان بمعنى واحد . . إنما هو فيما يتعلق بتبليغ « القرآن » . أما وحى « السنة » فلا يلتزم فيه جبريل - عليه السلام - اللفظ الذى سمعه ، لأن تبليغ « السنة » مبناه . المعنى لا اللفظ ، إذ ليس لفظها معجزاً ، ولا متعبداً بتلاوتها كالقرآن .

وللإمام « الجوينى » فى هذا المقام كلام حسن ، ذكره « السيوطى » فى « الإتقان »[٤] ، وعلق عليه .. وإليك هذا الكلام .

قال « الجوينى » : « كلام الله المنزل قسمان . قسم قال الله لجبريل : قل للنبى الذى أنت مرسل إليه إن الله يقول : افعل كذا — وكذا وأمر بكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ، ثم نزل على ذلك إلى النبى وقال له . ما قاله ربه ، ولم تكن العبارة تلك العبارة . . كما يقول الملك لمن يثق به . قل لفلان . يقول لك الملك . اجتهد فى الخدمة ، واجمع جندك للقتال، فإذا قال الرسول يقول لك الملك . لا تتهاون فى خدمتى ، ولا تترك الجند تتفرق ، وحثهم

(١) يونس الآية ١٥ .

(٢) الحاقة الآية ٤٤ - ٤٧ . ومعنى باليمين : أى لانتقمنا منه بالقوة ، والوتين عرق متصل بالقلب إذا قطع مات الإنسان

(٣) السنة النبوية : بعضها بالوحى وبعضها بالاجتهاد على ما هو التحقيق وكلامنا هنا — فيما كان منها بوحى

(٤) الاتقان : جـ١ ص٤٤

على المقاتلة .. لا ينسب إلى كذب ، ولا تقصير فى أداء الرسالة .

وقسم آخر . قال الله لجبريل . اقرأ على النبى هذا الكتاب ، فنزل جبريل بكلمه من الله .. من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين ، ويقول ، اقرأه على فلان ، فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا .

قال « السيوطى » قلت . القرآن هو القسم الثانى ، والقسم الأول هو السنة ، كما ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا . جاز رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز القراءة بالمعنى لأن جبريل أداه باللفظ ، ولم يبح له إيحاؤه بالمعنى ، والسر فى ذلك . أن المقصود منه ، التعبير بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معانى ، لا يحاط بها كثرة ؛ فلا يقدر أحد أن يأتى بما يشتمل عليه ، والتخفيف على الأمة ، حيث جعل المنزل إليهم على قسمين ، قسم يروونه بلفظه الموحى به ، وقسم يروونه بالمعنى ؛ ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ، أو بالمعنى لم يؤمن التبديل والتحريف ، فتأمل ، وسئل الزهرى عن الوحى فقال ، الوحى ما يوحى الله إلى نبى من الأنبياء ، فيثبته فى قلبه ، فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله ، ومنه مالا يتكلم به ، ولا يكتبه لأحد ، ولا يأمر بكتابته ، ولكنه يحدث به الناس حديثا ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس ويبلغهم إياه

« وحى السنة » أما وحى السنة فمنه ما يكون عن طريق أمين الوحى جبريل ؛ وفى إطار الحالة الأولى ، وهى الحالة الملائكية وذلك كما فى قصة يعلى بن أمية ، روى البخارى فى صحيحه بسنده عن يعلى قال لعمر — رضى الله عنه — أرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يوحى إليه ، قال ، فبينما النبى فى الجعرانة جاءه رجل فقال ، يارسول الله كيف ترى فى رجل أحرم بعمرة ، وهو متضمخ بطيب ، فسكت النبى ساعة ، فجاءه الوحى ، فأشار عمر — رضى الله عنه — إلى يعلى ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوب قد أظل به ، فأدخل رأسه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم

محمر الوجه ، وهو يغط ، ثم سرى عنه ، فقال . أين السائل عن العمرة ، فأتى برجل . فقال . اغسل الطيب الذى بك ثلاث مرات . وانزع عنك الجبة . واصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجتك » .

وبعضه فى إطار الحالة الثانية كما فى حديث جبريل . وبعضه بالمكالمة كما حدث ليلة الإسراء والمعراج . وبعضه بالإلهام والمنام . وبعضه بالقذف فى القلب . وسواء أكانت السنة بوحى جلى . أو خفى فلفظها من عند النبى صلى الله عليه وسلم .

« حكم نزول القرآن منجما مفرقاً »

لنزول القرآن الكريم على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مفرقاً . حكم كثيرة . وأسرار عديدة نجملها فيما يأتى .

الحكمة الأولى .

تثبيت فؤاد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتطمين قلبه وخاطره وهى ما أشار إليها الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى رده على المشركين أو اليهود حيث قال : « كذلك لنثبت به فؤادك . ورتلناه ترتيلا »(١) وهذه الحكمة من أجل الحكم وأعظمها . ولذا ذكرها الله أول ما ذكر فى الرد على هؤلاء . ويندرج تحت هذه الحكمة :

١ ـ تثبيت فؤاد النبى ، وتقوية قلبه . وإلهاب حماسه ، وتسليته ، وذلك بسبب تكرر نزول الوحى ، وتوالى آياته وما اشتملت عليه الآيات من أن رسالته حق لاشك فيها ، وأن العاقبة للمتقين ، والنصر إنما هو للأنبياء وأتباعهم ، وأن الله مؤيده وناصره ، وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيراً ما يتحسر ويحزن ، لعدم إيمان قومه ، كما قال تعالى . « فلعلك باخع نفسك على آثارهم . إن لم يؤمنوا بهذا الحديث

---

(١) سورة الفرقان ٣٢

أسفاً »(١) . فكانت تنزل عليه الآيات ، مسلية له، فتارة تنهاه أن يذهب نفسه عليهم حسرات ، كما قال تعالى : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون »(٢) .

وتارة يبين له : أن هدايتهم إنما هى على الله . وإنما عليك البلاغ كما قال تعالى : « ليس عليك هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء »(٣) « إنك لا تهدى من أحببت .. ولكن الله يهدى من يشاء.(٤) وقال: «فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب(٥) .

وكان كلما آذاه قومه ونالوا منه ، وسفهوا عليه ، نزلت الآيات داعية له إلى التحمل والصبر والثبات عليه ، وأن العاقبة للصابرين ، كما قال تعالى : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل »(٦) « واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون »(٧) وقال : « واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »(٨) :

وتارة تنزل الآيات قاصة على النبى أخبار «الأنبياء» مع أممهم وما لاقوه منهم من عنت ومشقة ، وكيف كان تحملهم من أقوامهم، وما آل إليه أمرهم من الفوز والنصر على الأعداء والمكذبين وذلك .. مثل قصص « نوح » و « إبراهيم » و « لوط » و « وهود » و « صالح » و « موسى » وما لاقاه من بنى إسرائيل . وقد ذكر الله هذا فى قوله : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل . ما نثبت به فؤادك »(٩) .

وحيناً آخر — تنزل الآيات بوعيد المكذبين للأنبياء، والمناهضين لدعوتهم

---

(١) باخع نفسك : قاتلها غما وحزنا . سورة الكهف الآية ٦

(٢) سورة فاطر الآية ٨ (٣) سورة البقرة الآية ٢٧٢

(٤) « القصص الآية ٥٦ (٥) « الرعد الآية ٤٠

(٦) « الأحقاف الآية ٣٥ (٧) « النحل الآية ١٢٧

(٨) « هود الآية ١١٥ (٩) « هود الآية ١٢٠

كما قال تعالى : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا. وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون »[١] . وقال : « فإن أعرضوا ؛ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود »[٢] . « قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وإن يعودوا ؛ فقد مضت سنة الأولين[٣].

وآونة .. كانت تنزل الآيات بالحجج والبراهين، مبطلة لعقائدهم الزائفة، ورادة عليهم ما يتمسكون به من شبه واهية ، كالآيات الواردة فى إثبات الله وصفاته وتوحيده ، واستحقاقه للعبادة ، وإثبات البعث والحشر، وأحوال اليوم الآخر ، وإثبات رسالة الرسل وحاجة البشر إليهم . وكان من ثمرة هذا التثبيت : أن أبدى النبي غاية الثبات والشجاعة ، والوثوق بالله تعالى فى أحرج المواقف ، وأشدها هولا ؛ ألا ترى إلى قوله للصديق فى الغار : « لا تحزن ؛ إن الله معنا » وإلى ثباته يوم « أحد » و «حنين» يدعوا إلى الله ؛ وقد فر عنه الكثيرون فما زاده ذلك إلا إيمانا وثباتا .

٢ — تيسير حفظه وفهمه على النبي - ﷺ - فقد كان النبى حريصا على ذلك غاية الحرص ، ولقد بلغ من حرصه أنه كان لا ينتظر حتى يفرغ «جبريل» من قراءته ، بل كان يتعجل القراءة ، فأنزل الله عليه: « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل ربى زدنى علماً » (٤) وقوله: « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ، ثم إن علينا بيانه » (٥) فضمن الله لنبيه الحفظ والفهم .

وطبعى . . أن نزول القرآن مفرقا أدعى إلى سهولة حفظه وفهمه ، وأيسر وأوفق بالفطرة البشرية .

---

(١) سورة الاعراف الآيه ٩٧ - ٩٨

(٢) « فصلت الآيه ١٣

(٣) « الانفال الآيه ٣٨

(٤) « طه الآية ١١٤

(٥) سورة القيامة الآيه ١٧ — ١٩

وهذا المعنى الذى أراده الحق سبحانه - فيما أراد من حكم لنزول القرآن منجما ومفرقا قطعا قطعا - هو غاية ما وصل إليه أهل التربية فى حفظ النصوص الطويلة ، وتسهيل فهمها . وهذا المعنى التربوى ما كان يجول بخاطر بشر فى هذا العصر ، وفى هذه البيئة البدوية ، مما يدل على أن منزل القرآن على هذه الطريقة البديعة هو الله .. العالم بالطبائع البشرية ، والنفوس وأسرارها ..

الحكمة الثانية :

التدرج فى تربية الأمة دينياً وخلقياً واجتماعياً ، وعلماً وعملا . وهذه الحكمة هى التى أشار إليها الحق - تبارك وتعالى - بقوله : « وقرآنا فرقناه ، لتقرأه على الناس على مكث .. ونزلناه تنزيلا(١) » . ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى : -

١ - التدرج فى انتزاع العقائد الفاسدة ، والعادات الضارة والمنكرات الماحقة ، فقد بعث النبى - ﷺ - إلى قوم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله غيره ، ويسفكون الدماء ، ويشربون الخمر ، ويزنون ، ويغتصبون الأموال ، ويئدون البنات ، خشية العار ، ويقتلون الأولاد خشية الفقر ، ويظلمون النساء ، ويتزوجون نساء الآباء ، ويجمعون بين الأختين ، كما كانوا يتظالمون ، وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب كناقة رعت من حمى ، أو سبق فرس ، أو نحو ذلك . وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتى تأكل الأخضر واليابس ، وكان التكافل والتعاون بينهم يكاد يكون معدوما ، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السادة والعبيد ، ولا بين الأقوياء والضعفاء .

ومعلوم : أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة « وشديد عادة منتزعة » والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهى عنه ، لأن للعقائد - حتى ولو كانت باطلة - وللعادات - ولو كانت مستهجنة - سلطاناً على النفوس ، والناس أسراء ما ألفوا ، ونشأوا عليه ، فلو أن القرآن نزل جملة واحدة ، وطالبهم بالتخلى عما هم منغمسون فى حمأته من كفر وجهل ومنكرات مرة

(١) سورة الاسراء ١٠٦

واحدة لما استجاب إليه أحد ،ولما وفق الرسول فى أداء مهمته، ولعادذلك بالنقض على الشريعة الجديدة .

لذلك اقتضت حكمة الله ـ سبحانه ـ ولله الحكمة البالغة ـ أن يتدرج معهم فى انتزاع هذه العقائد والمنكرات ، فينهاهم عن عبادة غير الله ، فإذا ماأقلعوا عنه ، أخذ فى النهى عن منكر غيره .. وهكذا.

وكذلك كان القرآن يتدرج معهم فى انتزاع المنكر الواحد ، كما حدث فى تحريم الخمر . فقد نزل فيها أول مانزل : « ويسألونك عن الخمر والميسر قل : فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس .. »[1] فشربها قوم ، وتركها آخرون ثم إن بعض المسلمين صنع طعاماً ، ودعا أصحابه ؛ فأكلوا وشربوا ثم قام أحدهم ليصلى بهم ، فقرأ : «قل ياأيها الكافرون ،أعبد ما تعبدون » فأنزل الله ـ سبحانه ـ « ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى. .الآية»[2] فكانوا يتركونها عند الصلوات ، وفى الأوقات القريبة منها..حتى لا يقعوا فى مثل هذا الخلط .

وبذلك . . صار من السهل تحريمها تحريماً باتاً قاطعاً : فقد صنع بعض المسلمين طعاماً ،فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برءوسهم فتقاولوا الأشعار فتشاجروا حتى شبح أحدهم رأس الآخر ، فقال الفاروق «عمر»: .اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافياً ..! » فحرمها الله تحريماً باتاً بقوله : « ياأيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ،لعلكم تفلحون.»[3] إلى قوله «فهل أنتم منتهون» فقال «عمر» :انتهينا[4]

فمن ثم . . اقتضت الحكمة نزول القرآن مفرقا .

٢ — التدرج فى تثبيت العقائد الصحيحة ، والأحكام التعبدية والعملية والآداب والأخلاق الفاضلة،فأمرهم أولا : بالإيمان بالله وصفاته وعبادته

---

(١) البقرة الآيه ٢١٩

(٢) النساء الآيه ٤٣

(٣) سورة المائدة الايه ٩٠ ، ٩١

(٤) أنظر تفاسير : الكشاف ، وابن كثير ، والقرطبى ، والالوسى فى آيات الخمر.

وحده ، حتى إذا ما آمنوا بالله . دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، ثم بالإيمان بالرسل ، والملائكة، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه ، سهل عليهم بعد ذلك تقبل الأوامر والتشريعات التفصيلية ، والأحكام العملية والفضائل والآداب العالية ، فأمروا بالصلاة والصدق والعفاف، ثم أمروا بالزكاة، ثم بالصوم ، ثم بالحج . وبينت لهم أحكام النكاح والطلاق والرجعة والمعاملات : من بيع وشراء ، وتجارة، وزراعة، ودين ورهن.. إلى غير ذلك من المعاملات الصحيحة منها وغير الصحيحة .

ولذلك كان مدار الآيات فى القسم المكى على إثبات العقائد والفضائل التى لا تختلف باختلاف الشرائع . بخلاف القسم المدنى ، فكان مدار التشريعات فيه على الأحكام العملية وتفصيل ما أجمل قبل ذلك .

وقد أشارت السيدة العاقلة ، التى تربت فى منزل الوحى «عائشة» رضى الله عنها - إلى هذه الحكمة ، فقالت - كما ورد فى صحيح البخارى - : «إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه «سورة (١) من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار» حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء «لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا . لقالوا لا ندع الزنا أبداً» (٢)

ولا شك . أن من طبيعة التدرج نزول آيات القرآن ، وسوره بعضها فى أثر بعض ، وقد دل القرآن بهذه السياسة الرشيدة فى إصلاح الشعوب وتهذيبها على أنه معجز ، وأنه من عند الله ، فما كان لبشر - مهما كان ذكياً - أن يتوصل إلى هذه الطرق الحكيمة فى ذلك الوقت ، الذى بعث فيه النبى - ﷺ - وإنما ذلك من صنع الحكيم العليم الخبير.

---

(١) لعل مرادها « سورة » المدثر » فإنها أول ما نزلت بعد فترة الوحى ففيها الأمر بتوحيد الله ، وذكر الجنة والنار ، أو أن مرادها بالسورة الجنس أى سور من المفصل ، وسور المفصل تدور حول تثبيت العقائد والفضائل .

(٢) صحيح البخارى — كتاب فضائل القرآن — باب تأليف القرآن

(٣) تيسير حفظه وفهمه على الأمة ، فقد أوجب الله على المسلمين حفظ ألفاظه ، كما أوجب عليهم فهم معانيه ، قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب »(١) . « أفلا يتدبرون القرآن . . أم على قلوب أقفالها »(٢) .

وقد ابتلى المسلمون فى مكة بالمشركين ، كما ابتلوا فى المدينة باليهود والمنافقين هذا إلى اشتغالهم بأمور معايشهم ، وبإقامة الدين ، ونشر الإسلام ، والدفاع عن دعوته ، فلو نزل القرآن مرة واحدة لما أمكنهم حفظه ولا فهمه مع وجود هذه الملابسات والظروف المحيطة بهم .

لذلك ، اقتضت حكمته أن ينزل القرآن مفرقاً ، حتى إذا ما نزلت قطعة منه أمكنهم أن يحفظوها ويجيدوا فهمها .

(٤) تثبيت قلوب المؤمنين ، وتعويدهم على الصبر والتحمل بذكر قصص الأنبياء ، والسابقين الفينة بعد الفينة ، وتذكيرهم . بأن النصر مع الثبات والصبر وأن العاقبة للمتقين ، والخذلان والخسران للكافرين . إقرأ — إن شئت — قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه ، متى نصر الله . . ؟ ألا أن نصر الله قريب »(٣) ، فقد ذكر « عطاء » أن المسلمين لما هاجروا إلى المدينة ، وتركوا الأهل والوطن والمال ، وآثروا رضاء الله ورسوله ، وتعرضوا لألوان من الإيذاء والجهد والفقر والمرض . ومعاداة اليهود ، والمنافقين لهم . . شق ذلك على نفوسهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »(٤) ، وقال تعالى : « ألم . أحسب الناس أن يتركوا ،

---

(١) سورة ص الآية ٢٩ .
(٢) سورة محمد الآية ٢٤
(٣) سورة البقرة الاية ٢١٤
(٤) سورة آل عمران الاية ١٤٢

أن يقولوا . آمنا ، وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين »(١).

بل اقرأ هذا الوعد الذى يستحث الهمم ، ويقوى العزائم . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً »(٢).

وطبعى .. أن دواعى هذا التذكير والإرشاد والتوجيه لم تكن فى وقت واحد ، بل كانت فى أزمنة متعددة متفاوتة ، فاقتضى ذلك نزول القرآن مفرقا على حسب ذلك.

الحكمة الثالثة :

مجاراة الحوادث والنوازل والأحوال والملابسات فى تفرقها وتجددها وهذه الحكمة هى التى أشارت إليها الآية الكريمة فى قوله تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، وأحسن تفسيراً »(٣) .

ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتى :

١ — بيان حكم الله — سبحانه وتعالى — فى الأقضية والوقائع التى تحدث بين المسلمين ، فقد اقتضت رحمة الله بعباده : أنه كلما وقعت واقعة لم يكن حكمها معروفاً عند المسلمين أن تنزل الآية أو الآيات عقبها ، مبينة حكم الله فيها ، ومثال ذلك : حادثة الإفك ، فقد نزلت فيها آيات من فوق سبع سموات ، ببراءة السيدة الحصان الرزان(٤) « عائشة — رضى الله عنها — وإدانة الذين رموها بدون شهود وبينة ، وبيان حكم الله فيهم ، وهى قوله تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

---

(١) صوره العنكبوت الاية ٢ — ٣

(٢) سوره النور الايه ٥٥

(٣) سوره الفرقان الاية ٣٣

(٤) الحصان : العفيفه ، الرزان : العاقلة.

بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم . . . » إلى قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته . . وأن الله رؤوف رحيم[١] » .

ومثل حادثة « خولة بنت ثعلبة » التى ظاهر منها زوجها « أوس بن الصامت أى قال لها : « أنت على كظهر أمى » ، فجاءت تشتكى إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتقول : « إن أوساً أخذنى وأنا شابة مرغوب فى ،حتى كبر سنى ونثرت[٢] له بطنى ظاهر منى ، وأن لى أولاداً إن ضممتهم إلى جاعوا .وإن ضممتهم إليه ضاعوا » فقال رسول الله : « ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر فى شأنك بشىء » . فجعلت تجادل رسـول الله وتحاوره ، رغبة منها أن يجد لها مخرجا فى عشرة زوجها ، فأنزل الله — سبحانه — أول سورة « المجادلة » ببيان حكم الظهار فى الإسلام : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير » إلى قوله تعالى : « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم[٣] » . وغير ذينك كثير .

وطبعى . . أن الحوادث لم تكن تقع فى وقت واحد ، فنزل القرآن فى هذه الحوادث مفرقاً لذلك .

٢ — إجابات السائلين على أسئلتهم التى كانوا يوجهونها إلى النبى ﷺ سواء أكانت هذه الأسئلة لغرض التثبت والتأكد من رسالته ، أم كانت للاسترشاد والمعرفة .

ومن النوع الأول . قوله تعالى « ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[٤] » وقوله : « ويسألونك عن ذى القرنين قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ... الآيات[٥] » .

(١) سوره النور الآيه ١١ — ٢٠

(٢) أى أنجبت له أولاداً ، وهو من الكنايات البديعة

(٣) سوره المجادلة ١ — ٤ (٤) الإسراء الايه ٨٥

(٥) الكهف الايه ٨٣ وما بعدها

ومن الثانى : قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة . . قل هى مواقيت للناس والحج(١) » وقوله : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير ، فإن الله به عليم(٢) » وقوله : « يسألونك عن الخمر ، والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك : ماذا ينفقون ؟ قل العفو »(٣) .

وطبعى .. أن هذه الأسئلة لم تكن فى وقت واحد ، بل كانت تحدث متفرقة فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

(٣) تنبيه المسلمين من وقت لآخر إلى أخطائهم وأغلاطهم ، وتحذيرهم من معاودتها والوقوع فيها ، وذلك مثل ما حدث فى « أحد » فقد خالف الرماة نصيحة رسول الله ، متأولين ، فكانت النتيجة : أن أتى المسلمون من جهتهم وأن شاعت الهزيمة بينهم ، وشج وجه النبى ، وكسرت رباعيته ، واستشهد منهم عدد كثير ، فأنزل الله فى ذلك آيات عدة ، مسجلة الأغلاط ، ومحذرة لهم من المخالفة ، والفرار عند اللقاء . . اقرأ — إن شئت — قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . . » الآيات(٤) .

ومثل ما حدث فى « حنين » ، فقد اغتر المسلمون بكثرتهم ، حتى قال قائل فى هذا اليوم . « لن نهزم من قلة » . ولم يعتمدوا على الله حق الاعتماد فى طلب النصر ، فكانوا أن منوا بالهزيمة أولا ، ولولا تدارك الله تعالى لهم

---

(١) سوره البقره ١٨٩ (٢) سوره البقرة ٢١٥
(٣) سوره البقره ٢١٩
(٤) سورة آل عمران الايه ١٥٢ وما بعدها .

لهم برحمته ، وثبات النبى ﷺ وحوله فئة قليلة من أبطال أصحابه ، وإنزال الملائكة مثبتة لقلوبهم ومقوية لروحهم لكانت الهزيمة . اقرأ معى قول الله سبحانه « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم »(١) .

وقد كانت « حنين » درساً .. تعلم منه المسلمون : أن النصر ليس بالعدد والعدة فحسب ، وإنما هو من عند الله ، وأن الاغترار ليس من خلق المسلم ، وأن الأسباب العادية لا ينبغى أن تشغل المسلم عن اللجوء إلى الله : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .(٢)

ومثل ما حدث من « حاطب بن أبى بلتعة » قبيل الفتح ؛ فقد كان رسول الله حريصاً على أن تتم غزوة الفتح فى سرية تامة ، ولكن حاطباً كان له أهل فى مكة وكانوا ضعفاء ، فأحب أن تكون لهم يد على قريش كى يكرموا أهله ، فأرسل إلى قريش رسالة فى السر بخبر الغزوة ، ولكن الوحى نزل مخبراً لرسول الله ، فأرسل من أحضر الرسالة ، وقد حاول بعض الصحابة قتله ، زاعماً : أنه بعمله صار منافقاً ، ولكن الرسول ﷺ لما استمع إلى وجهة نظره وعلم صدقه عفا عنه ، فأنزل الله فى ذلك آيات وهو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق : يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ; إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ...»(٣) الآيات .

---

(١) سورة التوبة ٢٥-٢٧ (٢) سورة آل عمرن ١٢٦

(٣) الممتحنه الآيه الاولى وما بعدها .

ومعلوم : أن هذه الأغلاط لم تقع فى وقت واحد : فكان نزول القرآن مفرقاً لذلك .

٤ ـ تحذير المسلمين من المنافقين ، والكشف عن خبيئة نفوسهم فقد كانوا بحكم تظاهرهم بالإسلام ، يختلطون بالمسلمين ، ويطلعون على أسرارهم وأحوالهم فينقلونها إلى الأعداء ، أو يرجفون بها فى المدينة ، فكان ضرر هؤلاء المخالطين المداجين على المسلمين أشد من ضرر الأعداء المكاشفين ، فلا عجب أن كشف الله أستارهم ، وشنع عليهم أشد التشنيع فى كثير من الآيات ، فقد كان لهم بالمرصاد ، فكلما بيتوا أمراً أطلع الله عليه رسوله والمؤمنين ، أو كادوا مكيدة ردها الله فى نحورهم ، أو أخفوا قولا أظهره الله .

وطبعى أن هذه الأمور المبيتة ، والمكايد المدبرة ، والأقوال السيئة التى كانت تصدر عنهم لم تكن فى وقت واحد ، بل كانت فى أزمنة متفرقة ، فمن ثم جاء القرآن مفرقاً .

وإن شئت أمثلة لما كان يفعله المنافقون ويقولونه ، وإظهار الله لحالهم ، فاقرأ معى ـ قول الله ـ سبحانه ـ : ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين . إلى قوله : « إن الله على كل شىء قدير »[1] . وقوله : إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى . . » الآيتين[2] .

وقد أنزل الله فى شأنهم سورة بتمامها ، وهى سورة « المنافقين » كما ذكر الكثير من أحوالهم فى سورة « التوبة » . وما زال الله ـ سبحانه ـ يقول فى هذه السورة ، ومنهم ... ومنهم ... حتى فضحهم أشد فضيحة ، وجعلهم مثلا لسوء الطباع . والأخلاق ، والنذالة ، والدس ، والوقيعة ـ فى الأولين والآخرين .

---

(١) البقرة الاية ٨-٢٠

(٢) النساء الاية ١٤٢ — ١٤٣

الحكمة الرابعة :

بيان إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده ؛ لأن القرآن لو نزل جملة واحدة ؛ لقالوا : شيء جاءنا مرة واحدة ؛ فلا نستطيع أن نعارضه ، ولو أنه جاءنا قطعاً قطعاً لعارضناه فأراد ربك أن يقطع عليهم دابر المعذرة والتعلل ؛ فأنزله مفرقا .

وكأن الله ـ سبحانه ـ يقول لهم ـ بعد نزول قطعة منه ـ : إن كنتم ترتابون فى أن هذا المنزل على هذا الموضع من عند الله ؛ فأتوا أنتم بقطعة مشابهة له.

وقد ذكرنا سابقاً : أن الله تحدى الناس كافة بالقرآن على مراتب متعددة ؛ كى تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، ولو أن القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن تكرر التحدى فى المرة بعد المرة ، وثبوت عجزهم المرة تلو المرة .

وهكذ يتبين لنا : أن القرآن بنزوله منجما قد أعطاهم بعد كل نجم فرصة يعارضون فيها ؛ فإذا ما عجزوا كان ذلك أدل على الإعجاز. وأقطع للمعذرة.

وأيضاً فالقرآن على نزوله مفرقا ، وتباعد ما بين أزمان النزول يكون سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات متآخية الفقرات ، منسجمة الشكل ، لا تنبو كلمة عن كلمة ، ولا تنفر آية من آية بل كله فى غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام ، ولا يسمو بأسلوبه فى بعض الآيات ، وينزل فى البعض الآخر ولا تنبل الغاية والمقصد فى بعض الآيات ، وتسف فى البعض الآخر مما يدل أعظم الدلالة على أنه ليس من عند بشر .

ولو أنك نظرت فى مؤلفات أديب من الأدباء ، مهما بلغ ، فإنك ـ لا شك ـ واجد تفاوتاً بيناً بين ما ألفه فى أول حياته ، وما ألفه فى آخر حياته ، سواء أكان فى لفظه ومعانيه ، أم فى أغراضه ومراميه ، أم فى أسلوبه وتفكيره .

وإذا كان القرآن لم يأت على غرار ما يصنع البشر ، فقد تعين أن يكون من عند الله خالق القوى والقدر .

هذا .. وليست هذه نهاية الحكم ، فهناك لمن أحكم النظر ، وأجال البصر حكم ، وحكم .

تتمة :

الذى استقرىء من الأحاديث الصحيحة وغيرها ، أن القرآن كان ينزل به جبريل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحسب الحاجة : خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر أو أقل .

وقد صح نزول العشر الآيات فى قصة « الإفك » جملة ، وصح نزول عشر آيات من أول سورة « المؤمنون » جملة ، وصح نزول : « غير أولى الضرر ، وحدها ، فى قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين ـ غير أولى الضرر ـ والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم(١) ... الآية » وكذلك قوله : « وإن خفتم عيلة ؛ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء؛ إن الله عليم حكيم (٢)» نزل بعد أن نزل أول الآية ، كما حرره الإمام « السيوطى » فى « أسباب النزول » وقد ورد فى بعض الآثار نزول بعض السور جملة واحدة كسورة « الإخلاص » و « الكوثر » و « المرسلات » .

ولا يخالف ما ذكرنا ما رواه البيهقى فى الشعب بسنده عن عمر قال : « تعلموا القرآن خمس آيات .. خمس آيات ؛ فإن جبريل كان ينزل بالقرآن على النبى ـ ﷺ خمسا .. خمسا » وما أخرجه ابن عساكر من طريق أبى نضرة قال : كان أبو سعيد الخدرى يعلمنا القرآن خمس آيات بالغداة، وخمس آيات بالعشى » ويخبر : أن جبريل نزل القرآن خمس آيات .. خمس آيات» فإن المراد ـ إن صح ـ إلقاؤه إلى النبى ﷺ هذا القدر، حتى يحفظه ،ثم يلقى إليه الباقى . لا إنزاله بهذا القدر خاصة .

(١) سورة النساء الآية ٩٥ (٢) سورة التوبة الآية ٢٨

ويشهد لهذا التفسير ما أخرجه البيهقى عن أبى العالية قال : « تعلموا القرآن خمس آيات ، خمس آيات ؛ فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يأخذ من جبريل خمسا .. خمسا » ، ويصح أن يراد به : أن ذلك هو الغالب الكثير فلا ينافى حصول الوحى بأكثر أو بأقل .

وما كان لنا ـ وقد تكلمنا عن إنزال القرآن ـ أن نغفل الكلام عن « الوحى » إذ الإنزال متوقف على معرفة : معنى « الوحى » وكيفيته ، وإمكانه ووقوعه ، وهو ما سنتكلم عنه الآن .

((الوحى))

ما هو الوحى .. ؟

للوحى معنى فى اللغة ؛ ومعنى فى الاصطلاح ؛ أما فى اللغة .. فإليك ما قاله العلماء فى هذا : ـــ

قال فى « الأساس » : « أوحى إليه ؛ وأومى إليه بمعنى . ووحيت إليه ؛ وأوحيت . إذا كلمته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه ؛ « وأوحى ربك إلى النحل »(١) .

وفى القاموس المحيط : « الوحى : الإشارة والكتابة ؛ والمكتوب والرسالة ؛ والإلهام والكلام الخفى ؛ وكل ما ألقيته لغيرك » .

وقال الراغب : « أصل الوحى : الإشارة السريعة ؛ ولتضمن السرعة قيل : أمر وحى . يعنى : سريع . وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعويض ؛ وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ؛ وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ؛ وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ـ عليه السلام ـ : « فخرج على قومه من المحراب ؛ فأوحى إليهم : أن سبحوا بكرة وعشيا(٢) » ، أى أشار إليهم ولم يتكلم .

---

(١) سورة النحل الآية ٦٨ (٢) سورة مريم الآية ١١

ومنه : الإلهام الغريزى ؛ كالوحى إلى النحل قال تعالى: «وأوحى ربك إلى النحل(١) » ؛ وإلهـام الخواطر بمـا يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة ؛ الطاهر الروح ؛ كالوحى إلى « أم موسى » ؛ ومنه ضده(٢) ؛ وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليـائهم ليجادلوكم(٣) » وقال : « وكذلك جعلنا لـكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ؛ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ! غرورا(٤) »

فالخلاصة فى معنى الوحى اللغوى : أنه الاعلام الخفى السريع ؛ وهو أعم من أن يكون بإشارة أو كتابة أو رسالة ؛ أو إلهام غريزى ؛ أو غير غريزى وهو بهذا المعنى لا يختص بالأنبياء ؛ ولا بكونه من عند الله سبحانه

وأما فى الشرع : فيطلق ويراد به : المعنى المصدرى. ويطلق ويراد به: المعنى الحاصل بالمصدر . ويطلق ويراد به : الموحى به .

ويعرف من الجهة الأولى : بأنه « إعلام الله أنبياءه بما يريد أن يبلغه إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو غير واسطة» فهو أخص من المعنى اللغوى لخصوص مصدره ومورده . فقد خص المصـــدر بالله سبحانه ؛ وخص المورد بالأنبياء

ويعرف من الجهة الثانية : بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ؛ سواء أكان الوحى بواسطة أم بغير واسطة .

ويعرف من الجهة الثالثة : بأنه ما أنزله الله على أنبيائه ؛ وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحـكم . ومنهم من أعطاه كتاباً . ومنهم من لم يعطه » .

---

(١) سورة النحل الاية ٦٨

(٢) الوحى المحمدى . ص ٢٧ (٣) الأنعام الاية ١٢١

(٤) الأنعام / ١١٢

أقسام الوحى الشرعى .. وكيفياته :

ينقسم الوحى باعتبار معناه المصدرى إلى ما يأتى :ـــ

(١) تكليم الله نبيه بما يريد من وراء حجاب ؛ إما فى اليقظة : وذلك مثل ما حدث لموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى : « وكلم الله موسى تكليما » ؛ ومثل ما حدث لنبينا « محمد » ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليلة الاسراء والمعـــراج .

ولأهل السنة قولان فى الكلام المسموع ، فقيل . هو الكلام النفسى القديم المجرد عن الحروف والأصوات . وقيل : هو كلام لفظى يخلقه الله ، بحيث يعلم سامعه : أنه موجه إليه من قبل الله والقائلون بهذا لا ينكرون صفة « الكلام » لله سبحانه ، وهذا فرق ما بينهم ومن المعتزلة الذين لا يقولون بصفة الكلام ،

أما الثانى ، فواضح ، وأما الأول فلا استحالة فيه ، لأن الثابت أن النبى قد خص بمزايا وخصائص لم توجد فى غيره من أفراد نوعه وأن نفسه بأصل فطرتها ـ مستعدة لما لم تستعد له نفوس غيره ، فلا مانع إذاً أن يسمع الكلام النفسى بطريقة غير مألوفة ، ولا معروفة لنا . ويكون ذلك من خوارق النواميس العادية المعروفة لنا .

وإما فى المنام : كما فى حديث « معاذ » مرفوعا : « إتانى ربى ، فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ .. » الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه وقال : حسن صحيح .

(٢) الإلهام أو القذف فى القلب : بأن يلقى الله أو الملك الموكل بالوحى فى قلب نبيه ما يريد ، مع تيقنه : أن ما ألقى إليه من قبل الله تعالى ، وذلك مثل ما ورد فى حديث : « إن روح القدس نفث فى روعى [1] : لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجمـــلوا فى الطلب » رواه الحاكم وصححه عن ابن مسعود .

---

(١) الروع بضم الراء ـ . القلب والخاطر ، وبالفتح . الفزع ، والمراد هنا الأول

(٣) الرؤيا فى المنام : ورؤيا الأنبياء وحى ؛ وذلك مثل : رؤية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أن يذبح ابنه ، ورؤية نبينا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى منامه : أنهم سيدخلون البلد الحرام وقد كان . وفى الحديث الصحيح ، الذى رواه «البخارى» : «أول مابدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ..»

(٤) تعليم الله أنبياءه بوساطة ملك ، والمختص بذلك من ملائكة الله هو أمين الوحى «جبريل» عليه السلام وهذا القسم يعرف بـ « الوحى الجلى »

وقد بين الله ـ سبحانه ـ هذه الأقسام بقوله : « وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا ؛ فيوحى ـ بإذنه ـ مايشاء ، إنه على حكيم »(١) إذ المراد بالوحى فى الآية : الإلهام أو المنام ، لمقابلته للقسمين الآخرين : التكليم من وراء حجاب أو بواسطة رسول .

والوحى الذى بوساطة جبريل .. له حالات ثلاث :

(ا) أن يأتى جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها ، وهذه الحالة نادرة ، وقليلة ، وقد ورد عن السيدة «عائشة» : أن النبى لم ير «جبريل» على هذه الحالة إلا مرتين : مرة فى الأرض ، وهو نازل من غار « حراء » ، ومرة أخرى فى السماء ، عند «سدرة المنتهى» ليلة المعراج رواه أحمد

(ب) أن يأتى جبريل فى صورة رجل كدحية الكلبى ، أو أعرابى مثلا ، ويراه الحاضرون ويسمعون قوله ، ولا يعرفون هويته ، ولكن النبى يعلم علم اليقين : أنه جبريل ، وذلك كما فى حديث جبريل الطويل فى الصحيحين(٢) وحديث أم سلمة ، ورؤيتها رجلا على صورة دحية الكلبى ، فظنته هو ، حتى بين النبى لها أنه جبريل .

---

(١) سورة الشورى . الآية ٥١ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان

صحيح مسلم كتاب الإيمان رباب الإيمان والإسلام والإحسان

(ح) أن يأتى على صورته الملكية، وفى هذه الحالة لا يرى ، ولكن يصحب مجيئه صوت كصلصلة الجرس ، أو دوى كدوى النحل ، وقد دل على هاتين الحالتين حديث سؤال «الحارس بن هشام» النبى ﷺ : عن كيفية مجىء الوحى إليه ؟ وهو فى صحيح البخارى كما تقدم

والوحى بجميع أنواعه يصحبه علم يقينى ضرورى من الموحى إليه بان ماألقى إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا نزعات الشيطان ، وهذا العلم اليقينى لايحتاج إلى مقدمات ، وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية ، كالجوع والعطش والحب والبغض .

إمكان الوحى ووقوعه :

مبنى الوحى ومداره على أمرين :

(١) وجود «موح» وهو «الله» سبحانه وتعالى أو الملك الذى يبلغ الوحى وينقله من الله إلى الرسل . والملك : جسم نورانى لا يرى ، ولكنه قادر على التشكل بالأشكال المختلفة .

(٢) وجود نفس بشرية صافية صالحة لتلقى الوحى من الله أو الملك .

أما الأول : فالله ـ سبحانه ـ قد قام على وجوده وكماله الدليل العقلى وتواترت عليه الأدلة الآفاقية ، والأنفسية ، والتنزيلية . وأما الملائكة ، فقد أخبر بهم الأنبياء وجاءت بوجودهم الشرائع والكتب السماوية ، وقد استفاض القرآن والسنة بالإخبار عنهم بما لا يدع مجالا للشك فى وجودهم ، والفلاسفة ، والعلماء قديماً وحديثاً — إلا الشرذمة المادية — يقرون : بوجود عالم غير محسوس ، وراء هذا العالم المحسوس ، وأن الإنسان ليس هو هذا الجسم المحسوس ، وإنما هو جسم وروح .

وأما الثانى : وهو استعداد النبى للتلقى عن الله أو الملك . فلا بعد فيه ، إذ الأنبياء لهم من سمو فطرتهم ، وصفاء أرواحهم ، وإعداد الله ـ سبحانه ـ لهم إعداداً خاصا : جسمانياً ، وروحياً مايؤهلهم لتلقى الوحى من الله، أو

الملائكة، والفهم منهم، والتجاوب معهم ، وليس لنا فى هذا الأمر أن نقيس الغائب على الشاهد ، أو عالم الروح على عالم المادة .

وإذا ثبت هذان الأمران ، فقد ثبت - لا محالة - إمكان الوحى ، وأنه لا استحالة فيه .

«العلم يؤيد معنى الوحى ، وإمكانه»

وإذا ثبت وجود عالم الروح ، لم يبق مجال إذ لإنكار وجود الملائكة وقد استفاضت الأخبار بوجودهم . عن الأنبياء والشرائع السماوية

وقد تمخض العصر الحديث عن علم يسمى «علم التنويم الصناعى» أو «للتنويم المغناطيسى» وقد أثبت هذا العلم وجود قوة خفية. وراء هذا الهيكل الإنسانى ، وهى الروح ، وبهذه القوة الخفية ، أو الروح يتسلط المنوم - بكسر الواو - على المنوم - بفتح الواو - ويلقى الأول إلى الثانى ما يشاء، ويستجيب الثانى إلا ما يريد الأول وقد أجريت فى هذا تجارب عدة حتى أصبح أمراً مسلماً به ، وهذا يقرب معنى الوحى إلى حد كبير وقد أصبح هذا شجى فى حلوق الماديين ، ولم يجدوا لدفعه سبيلا .

ثم إن بعض المخترعات الحديثة . كاللاسلكى ، والمذياع ، والتليفزيون ونحوها قد أمكن للانسان بوساطتها أن يبلغ كلامه إلى من هو أبعد منه بآلاف الاميال؛ فإذا توصل الإنسان - على عجزه - إلى هذه المخترعات ، أفنستبعد على خالق القوى والقدر ، العليم الخبير - أن يبلغ رسله ما يريد بوساطة ، أو بغير وساطة ؟ وأن يهيء للوحى إليهم من الوسائل ما يجعلهم مستعدين لتلقى الوحى ؟

الدليل على وقوع الوحى

وإذا ثبت أن الوحى ممكن . وقد أخبر بوقوعه الصادق المصدوق ﷺ فقد ثبت أنه واقع وثابت لا محالة .

أما الإخبار بوقوعه : فكثيرة فى القرآن والسنة الصحيحة الثابتة ، فمن

فلك قوله سبحانه وتعالى : « والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى » ومانيطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى(١) » وقوله سبحانه : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء ، إنه علي حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان(٢) .. » وقوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ويونس ، وهرون ، وسليمان ، وآتينا داود زبورا »(٣) وقوله : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا(٤) . » إلى غير ذلك من الآيات

ومن السنة قوله ﷺ « مامن نبي من الأنبياء إلا وأتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان ما أوتيته وحياً أوحاه الله فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » رواه الشيخان وحديث عائشة رضى الله عنها فى الصحيحين « أول مابدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة فى النوم .. » وحديث الحارث بن هشام « سالت رسول الله ﷺ : كيف ياتيك الوحى قال : « أحيانا ياتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فينصم عني وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمني فأعي مايقول » قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد وإن جبنيه ليتفصد عرقا » رواه البخارى إلى غير ذلك من الأحاديث التكاثرة التي تدل بطريق التواتر المعنوى على ثبوت الوعى ووجوده

وأما صدق الرسول : فقد قامت عليه الدلائل المتكاثرة ، والمعجزات المتواترة ، المعنوية والحسية الدالة على صدق دعوته القائمة مقام قول الله ـ سبحانه ـ : « صدق عبدى فيما يبلغ عنى »

وقد أورد الملحدون وأعداء الأديان على الوحى شبهاً وإليك هذه الشبه وردها .

---

(١) سورة النجم ١ — ٤
(٢) سورة الشورى الايتان ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة النساء الاية ١٦٣
(٤) سورة الجن آية ١

« الشبه التى أوردت على الوحى المحمدى »

لقد حاول الماديون الذين لايؤمنون بوجود قوى روحية غيبية وراء المادة ، ومن على شاكلتهم ممن يحملون الحقد والضغن للأسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم - حاول هؤلاء أن يشككوا فى الوحى المحمدى فنفوا أن يكون وحيا من خارج نفس النبى وقالوا : إنه وحى من داخل نفسه فليس هناك ملك تلقى عن الله ثم ألقى ماجاء به على النبى صلى الله عليه وسلم ولاغير ذلك من أنواع الوحى وإليك هذة الشبهة والرد عليها .

(شبهة الوحى النفسى)

قالوا : نحن لا نشك فى صدق محمد فى خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول : إن منبع ذلك من نفسه وليس فيه شىء جاء من عالم الغيب الذى يقال : إنه وراء عالم المادة والطبيعة الذى يعرفه جميع الناس فإن هذا الغيب شىء لم يثبت عندنا وجوده ، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال ، ونحن نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون مالم يثبت ، فهذا الوحى الذى أخبر به محمد إنما هو إلهام كان يفيض من نفس النبى الموحى إليه لا من الخارج : ذلك أن منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية رديئه — يكون لها فى جملتها من التأثير ما يتجلى فى ذهنه ، ويحدث فى عقله الباطن الرؤى ، والأحوال الروحية ، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشادا إلهيا نازلا عليه من السماء بدون وساطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك ، يعتقد أنه من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك فى المنام الذى هو مظهر من مظاهر الوحى عند الأنبياء ، فكل مايخبر به النبى من كلام ألقى فى روعه ، أو عن ملك ألقاه على سمعه ، فهو خبر صادق عنده ، ولكن تفسيره عندنا ما ذكرنا من أن ما تخيله إنما هو نابع من نفسه ومن عقله الباطن .

وضربوا مثلا للوحى النفسى : قصة (جان دارك) الفتاة الفرنسية ؛ التى اعتقدت أنها مرسلة من عند الله لانقاذ وطنها ، ودفع العدو عنه ، وادعت أنها تسمع صوت الوحى ، فأخلصت فى دعوتها وتوصلت بصدق إرادتها إلى رياسة جيش صغير تغلبت به على العدو ، ثم ماتت غب انتصارها لما خذلها قومها ، ووقعت فى يد عدوها فألقوها فى النار حية ، وقد ذهبت تاركة وراءها اسما يذكر فى التاريخ ، وقد حظيت بتعظيم قومها ، وإجلالهم لها ، حتى قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها فيما بعد موتها بزمن (١)

ومما يؤسف أن هذا التصوير الذى يصورون به ظاهرة الوحى قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين ، الذين يقلدون هؤلاء الماديين فى نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها ، وأغلب هؤلاء من المتعلمين الذى تلقوا العلم فى الغرب ، وليس عندهم من الثقافة الإسلامية العميقة ما يعصمهم من الانسياق وراء هؤلاء .

ولأجل أن يؤيدوا فكرة الوحى النفسى ذكروا مقدمات تخيلوها أو تصيدوها زاعمين أنها أساس هذه التشريعات والعلوم التى امتلأ بها عقل النبى الباطن ثم فاضت بها نفسه فقالوا :

(١) إن محمدا كان يصحب عمه أبا طالب فى كثير من رحلاته التجارية وأنه استفاد من هذه الرحلات بما كان يسمعه من الأعراب الذين كانوا يسكنون الديار التى يمر عليها كديار ثمود ، ومدين وغيرهما ، وما كان يسمعه من أحبار اليهود ورهبان النصارى وذلك مثل بحيرى الراهب الذى لقيه فى مدينة (بصرى) بالشام وقالوا . إنه كان نسطوريا من اتباع (آريوس) فى التوحيد ، وينكر ألوهية المسيح ، وعقيدة التثليب وإن

---

(١) الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ٧٦ ط السادسه .

محمدا لا بد أن يكون علم منه عقيدته بل غالى بعضهم فزعم أنه كان معلما للنبى ومصاحباله بعد رسالته .

(٢) إن ورقة بن نوفل كان من منتصرة العرب العالمين بالنصرانية وكان يعرف العبرانيه وله علم بالكتب السابقة ، وكان قريبا لخديجة رضى الله عنها — وهو الذى ذهبت إليه خديجه ومعها النبى لما أخبرهابخبرالوحى وغرضهم بهذا إثبات أن النبى أخذ عنه بعض علم أهل الكتاب .

(٣) ما كان من انتشار اليهوديه والنصرانيه فى بلادالعرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقس بن مساعدة الإيادى وأمية بن أبى الصلت ، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعونه من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبى الذى بشربه موسى وعيسى وغيرهمامن الأنبياء وغرضهم بهذا أن النبى استفاد من هؤلاء ، واستغل البشارة لنفسه

(٤) زعموا أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى وأن كانوا عبيدا أو خدماً ، وكانوا يسكنون أطرافها .

وكان هؤلاء يتحدثون بالكثير من القصص الذى جاءت به كتبهم فسمع منهم النبى ما سمع واستفاد منهم الكثير مما ذكره من قصص الأولين .

(٥) ذكروا ما كان من رحلتى قريش : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام واجتماعهم بالأحبار والرهبان فى كل منهما كلما مروا بدير أو صومعة ، وكان هؤلاء يتحدثون بقرب ظهور نبى من العرب ، فتعلقت نفسه بما سمع ، وظهر ذلك على لسانه بدعوى النبوة .

(٦) قالوا : إن محمداً توصل إلى ما توصل إليه من عقائد بالخلوة فى غار حراء ، والانقطاع إلى عبادة الله وحده ، والتفكر فى خلق السموات والأرض : من نجوم وكواكب وسهول ونجود ، وبحار ذات أمواج ، وليل ونهار ، وكان لهذا التعبد والتفكر أثرهما فى صقل نفس محمد ، وامتلاء قلبه بوحدانية الله ونظامه البديع فى الكون ، وما زال يفكر ويتأمل

وينفعل بما يرى ويسمع . ويتقلب بين الآلام والامال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذى سيبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد فى الرؤيا المنامية ، ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك ويلقنه الوحى فى اليقظة .

وأما المعلومات التى جاء بهافى هذا الوحى فهى مستمدة من تلك الينابيع التى ذكرناها سابقاً ، وما هداه إليه عقله وتفكره فى التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ثم تجلى له أنها نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق جلا وعلا بوساطة الناموس الأكبرملك الوحى جبريل عليه السلام الذى كان ينزل على سلفه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى غير ذلك من الأباطيل والترهات التى أرادوا بها تقريب فكرة (الوحى النفسى) وأن كل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عقيدة ، وتشريع وآداب ، فهى من ذات نفسه وعقله الباطن لا من شيء خارج عن نفسه ، وهو الوحى عن الله جل وعلا .

(تفنيد شبهة الوحى النفسى)

والآن وبعد أن بسطت فكرة الماديين والملحدين فى الوحى المحمدى وذكرت خلاصة المقدمات التى تذرعوا بها للوصول إلى ما يريدون سأكر عليها بالرد العلمى الذى يدعمه العقل السليم ، والنقل الصحيح ، والتاريخ الصادق ، وإذا أبطلنا المقدمات ، فقد بطل ما رتبوه عليها قطعاً ، وهى النتيجة التى ركبوا كل صعب وذلول فى سبيلها .

وبعد إبطال المقدمات سأعرض بالرد على المثال الذى ذكروه وهى قصه (جان دارك) فأقول وبالله التوفيق والسداد .

(الرد على المقدمة الأولى)

إن المعروف الثابت الذى رواه كتاب السيرة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يصحب عمه أبا طالب فى التجارة إلا مرة وهو ابن تسع سنين

وقيل ابن اثنتى عشر سنة وأن الراهب (بحيرى) لما رآه تظلله سحابة من الشمس ، ورأى فيه بعض أمارات النبوة ذكر لعمه أنه سيكون له شأن ، وحذره أن تناله اليهود بشر ، ولم تذكر الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع فى صغره من بحيرى شيئاً ، أو تعلم منه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولما صار رجلا وتاجر للسيدة خديجة فى مالها ذهب إلى بلاد الشام ولم يعرف أنه جاوز مدينة (بصرى) ولا أنه اشتغل فى هذه الأسفار بغير التجارة ، ولا أنه اتصل بأحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، ولو أنه حدث ما زعموا لنقله إلينا الرواة المسلمون الذين لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة مما يتعلق بالسيرة المحمدية إلا ذكروها .

وأما ما زعموه من أن محمداً مر على ديار مدين وتحدث مع أهلها غير صحيح ، وأين مدين من طريق تجارتهم إلى الشام ؟ وليس من المعقول من مثل النبى ، وهو من هو فى رجاجه العقل ، وقوة الفطنة أن يعتمد فى أخبارهم ، وأخبار ثمود وغيرهم من الأمم السابقة ، على أعراب لا علم عندهم ولا تحقيق ، ولم يعرف عن القوافل التجارية أنها كانت تضيع وقتها فى البحث عن الأحبار والرهبان ، وما كان للنبى وقد ذهب مع قافلة أن يشتز عنها ثم يذهب باحثاً عن علماء أهل الكتاب ، ولو أنه فعل لما تمكن من تصريف تجارته ، مع أن المنقول أنه كان تاجراً أميناً ناجحاً ، وأنه كان يربح ربحاً وافراً ، وهذا لن يتأتى فى العادة لمن شغل بغير تجارته ثم لو سلمنا جدلا أنه سمع من أخبار أهل الكتاب ، فهل هذه النتف المبعثرة المشوشة تكون هذا القصص الوافى الدقيق على المنهج الذى جاء به القرآن ؟

(الرد على المقدمة الثانية)

وهى ما زعموه من أن ورقة كان من متنصرة العرب ، وأنه كان قريب خديجه ، وأن النبى أخذ منه بعض معارف أهل الكتاب ، فقد خلطوا فيه الحق بالباطل .

والذى ثبت فى الصحيحين : أن ورقة كان من العرب الذين تنصروا فى الجاهلية ، وكان يعرف العربية والعبرانية ، وكان له علم بالكتب السابقة ، وأن السيدة خديجة لما أخبرها النبى مارأى ، وماسمع بغار حراء ، وجاءها فزعاً خائفاً أخذته إلى ابن عمها ورقة ، فأخبره النبى بما رأى ، فقال له ورقة . هذا هو الناموس(١) الذى كان ينزل على موسى ، ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له النبى . أو مخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى(٢) .

ولم تذكر الروايات أن النبى كانت له صلة به قبل هذا ، بل السيدة خديجة هى التى عرفته به ، ولا أنه أخذ عنه شيئاً من معارف أهل الكتاب ، ولم يعرف عن ورقة أنه كان من دعاة النصرانية المبشرين بها ، ثم أنه لم يلبث أن توفى ، وهذا هو الصحيح المعتمد .

وما روى من بقاء ورقة حتى شهد الدعوة المحمدية ، والصراع بين المسلمين والمشركين ، فغير صحيح ، وهى رواية شاذة ، فهل يعقل أن تكون هذه المقابلة الخاطفة ينبوعاً لما جاء به الوحى المحمدى ؟!!

(الرد على المقدمة الثالثة)

وأما ما زعموه من انتشار اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ، ومن تنصر بعض فصحاء العرب ، وشعرائهم ، كقس بن ساعدة ، وأمية بن أبى الصلت ، ودعوتهم إلى التوحيد ، وإشادتهم بقرب ظهور النبى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وتأثر النبى بهم فى دعوى النبوة فغير صحيح .

---

(١) الناموس رسول الخير وهو أمين الوحى جبريل عليه السلام .

(٢) انظر صحيح البخارى باب كيف كان بدء الوحى .

فاليهودية والنصرانية لم تكن منتشرة فى بلاد الحجاز ، وهى التى بعث منها النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى ، وإنما كان اليهود بجوار المدينة المنورة ، ومع هذا فلم يكن لهم أثر يذكر فى جيرانهم — الأوس والخزرج — بالمدينة ، ولم يتهود من العرب إلا قلة ، والذين تنصروا من العرب أقل من القليل ، وكانت معارفهم كمعارف أهل الكتاب بالمدينة وغيرها من أطراف الجزيرة العربية ، كنجران وبلاد الشام — مشوشة ملفقة محرفة ، بما لا يعقل معـــه أن تكون مصدراً لما جاء به سيدنا محمد من أخبار وقصص تتسم بالصدق والحق ، وعدم التناقض والاضطراب .

وأما قس بن ساعدة فقد مات قبل البعثة ، ولم يعرف أنه تنصر ، وإنما كان من الحنيفيين الذين دعوا إلى التوحيد بفطرتهم ، أو تأثروا بما بقى من شريعة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وماروى من أن النبى صلى الله عليه وسلم رآه قبل البعثه بزمن طويل يخطب الناس فى سوق عكاظ على جمل أورق ! وأن النبى سر بكلامه . قد ضعفه المحدثون . بل طعن فيها الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى بالوضع والاختلاق . ولو سلمنا صحة لقاء النبى له قبل البعثة . فإن ما أثر عن قس من كلمات لا تصلح أن تكون ملهمة للنبى بهذه الرسالة التامة الوافية .

وأما أمية بن أبى الصلت . فقد كان شاعر ثقيف . وكان من الحنيفيين. الذين يدعون إلى التوحيد . وكان علم أنه سيبعث نبى آخر الزمان من بلاد العرب . فترهب وتعبد . ولبس المسوح(١) طمعاً فى أن ينال النبوة . وقد عاش حتى أدرك البنوة . ولكن استبد به الحقد والغضب أن لم تصادفه النبوة فلم يسلم . ولما سمع النبى ﷺ شيئاً من شعره قال « وكاد أن يسلم » وقال : « آمن شعره وكفر قلبه »

ولم يثبت قط أنه لقى النبى قبل البعثة ولا بعدها . وإن كان عاش إلى سنة

(١) جمع مسح — بكسر الميم — وهى لباس الرهبنة .

تسع من الهجرة فكيف يعقل أن يكون النبى فى نشأته تدأخذ عنه وتأثر بأفكاره ؟

(الرد على المقدمة الرابعة)

وهى زعمهم أنه كان بمكة أناس من اليهود والنصارى . وكانوا عبيداً وخدما . ويسكنون خارج مكة . وأن النبى اتصل بهم وسمع منهم . فهى أوغل فى الكذب من سابقتها . وأبعد من نجوم السماء . ولم يكن بمكة يهود ولا نصارى حتى يتعلم منهم النبى . ولو وقع ما زعموه لاتخذه أعداؤه من المشركين حجة يحتجون بها عليه . وأن ما يدعيه من الوحى إنما تعلمه من هؤلاء ، فانهم كانوا يوردون فى معرض الحجاج والخصام ماهو أضعف وأوهن من هذه الشبهة ، فقدكان بمكة قين ـ حداد ـ رومى يصنع السيوف وغيرها فكان النبى ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته ، فطعنوا فى النبى بأنه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله : « ولقد نعلم بأنهم يقولون إنما يعلمه بشر. لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » (١)

لقد كان ذكر القصص بمكة من أقوى البراهين على صدق النبى ؛ لأن البيئة المكية لم تكن بيئة علم ومعرفة ، ولم يكن فيها يهود ولا نصارى بشهادة الواقع التاريخى الصادق ، ولو تأخر ذكر القصص إلى مابعد الهجرة لربما قالوا إنه تعلمه من أهل الكتاب بالمدينة ، وإذا ثبت أن النبى كان أمياً ، وانتفى أخذه عن أهل الكتاب ، فقد تعين أن يكون من عند الله سبحانه وصدق الله حيث يقول : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون »(٢)

وكثيراً مانبه الله عز شأنه إلى ما فى القصص من دلائل على صدق النبى فى دعوته بعد ذكر شيء منها . قال سبحانه بعد ذكر قصة موسى فى مدين

(١) النحل ١٠٣ (٢) العنكبوت ٤٨

من سورة القصص : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين » [1]. وقال بعد قصة نوح من سورة هود : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين» [2] وقال فى آخر سورة يوسف : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب . ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء، وهدى لقوم يؤمنون » [3]

وتأمل فى قوله سبحانه : « ولا قومك من قبل هذا » فإنها ترد على هذا الافتراء المكشوف :

رد المقدمة الخامسة

وهى استفادة العرب من رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام ، بالتقائهم بأهل الكتاب والسماع منهم ، وبالتالى استفادة النبى من ذلك فيظهر تهافتها مما قدمناه فى رد المقدمات السابقة ، وأزيد فاقول . إن هتين الرحلتين لم يكن لهما أثر يذكر فى عقيدة القرشيين ، لأن مقصدهم كان التجارة لا تلقى العلوم والمعارف من اهل الكتاب ، وعلى كثرة تكرار الرحلتين لم نجد احداً من اهل مكة صار يهودياً او نصرانياً ، ومن تنصر فى غير مكة إنما هم قلة لا تكاد تذكر ، فكيف يتأثر النبى بقوم فى شىء هم أجهل الناس به ؟

﴿ رد المقدمة السادسة ﴾

وأما مازعموه من ان خلوة النبى وتعبده فى حراء وتأمله فى الكون علويه وسفليه ، وانه بتعبده وتفكره خيل إليه انه النبى المنتظر ، وانه قد تمكن منه هذا التخيل حتى تراءى له انه يوحى إليه وأن الملك يلقنه —

(١) القصص ٤٤ ، ٤٥ (٢) هود ٤٩ (٣) يوسف ١١١

فدعاوى باطلة ، ومقدمة لا تؤدى إلى ما يريدون من نتيجة ، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد ما كان يدور بخلده انه نبي هذه الامة المبعوث فى آخر الزمان ، وليس أدل على هذا من قول الحق تبارك وتيالى « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك »(١)

فهى صريحة فى أن النبى ما كان يؤمل ذلك ، ولكن ألقى الله اليه بالكتاب رحمة من الله به ، وبالناس كلهم ، لا كسب له فيه بحلم ، ولا عمل ولا رجاء ولا أمل ، والنبوة ليست بالتمنى ولا بالرياضات الروحية ، ولو كانت تنال بذلك لنالها أمية بن أبى الصلت ، وأمثاله ممن ترهبوا وتنسكوا ، وجاهدوا فى سبيل الوصول اليها وأيضاً فغاية التعبد والتفكر فى الكون أن يصلا بصاحبه الى الإيمان بوجود إله خالق مدبر قيوم عالم قادر أما أنهما يؤديان إلى كل هذه العقائد والتشريعات المتنوعة ، والآداب والتوجيهات التى لم تكن تخطر على بال إنسان ، فهذا أمر غير معهود فى سنة الكون ومجرى العادة .

وبعد هذا المطاف تبين لك أيها القارىء الحصيف ان المقدمات التى ارادوا ان يرتبوا عليها فكرة الوحى النفسى مقدمات فاسدة غير مسلمة ودعاوى باطلة ، لا حقائق تاريخية ثابتة ، وإذا بطلت المقدمات ، بطل لزوم النتيجة لها ببداهة العقل ، وما مثلهم إلا كمثل من أراد ان يبنى بيتاً من خيوط العنكبوت ، «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون»(٢)

« رد عام لفكرة الوحى النفسى »

إن فكرة الوحى النفسى كما صوروه مبنية على وجود معلومات وأفكار مدخرة فى العقل الباطن وأنها تظهر فى صورة رؤى ثم تقوى فيخيل لصاحبها أنها حقائق خارجية ، فهل كان الدين الذى جاء به خاتم الأنبياء بعقائده وتشريعاته فى العبادات والمعاملات ، والحدود والجنائيات ، والاقتصاد والسياسة ، والأخلاق والآداب ، وأحوال السلم والحرب

(١) سورة القصص ٨٦ (٢) سورة العنكبوت ٤١

مركوزاً ومدخراً فى نفس النبي صلى الله عليه وسلم ؟

هذا ما تنكره العقول بداهة ، لأن ما جاء به النبي فى العقائد يعتبر مناقضاً لكل ما كان سائداً فى العالم حينئذ من عقائد كالوثنية ، والمجوسية ، والتأليه ، والتثليث والصلب ، وإنكار البعث واليوم الآخر ، وكذلك جاء النبي بتشريعات ما عرفت فى الشرائع السابقة : سماوية وغير سماوية ، واشتمل القرآن على أسرار فى الكون ، والآفاق والأنفس ما كانت تخطر على بال بشر قط ، ولم يظهر تأويلها إلا بعد تقدم العلوم والمعارف فى العصر الأخير ، فكيف تكون هذه الاسرار من داخل نفس النبي صلى الله عليه وسلم وهى لم تخطر له على بال ؟

وأيضاً فإن الوحى بعد نزول صدر سورة (اقرأ) على النبى وهو يتعبد بغار حراء قد انقطع مدة من الزمان ، لم ينزل فيها قرآن . فكيف سكت النبى طوال هذه المدة ، وهو هو صاحب العقل الباطن المملوء بالمعارف ، والوجدان الملتهب ، والنفس المتوثبة للإصلاح ؟ أخبرونا يا أصحاب العقول

ثم إن العقل الباطن على ما يقول علماء النفس ، إنما يفيض بما فيه فى غفلة من العقل الظاهر ، ولذلك لا يظهر ما فيه إلا عن طريق الرؤى والاحلام ، الامراض كالحمى مثلا وفى الظروف غير العادية ، والقرآن الكريم نزل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى اليقظة ، وفى إكتمال من عقله وبدنه ، ولم ينزل منه شىء فى الرؤى والأحلام وهكذا نرى أن ما استندوا اليه من فكرة العقل الباطن لا تساعدهم بل ترد عليهم « وبعد»

فلعلك أيقنت أن ما ذهبوا اليه من فكرة الوحى النفسى إنما قصدوا بها إبطال الوحى المحمدى ، ولكن يأبى الله والراسخون فى العلم ذلك « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا ان يتم نوره ولو كره الكافرون »(١)

---

(١) سورة التوبة ٣٢

«قصة جان دارك»

إن تمثيلهم الوحى المحمدى بمازعمته جان دارك الفرنسية من أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ، وأنها سمعت صوت الوحى يأمرها بذلك تجن على الرساله المحمدية، والوحى المحمدى ، وأين الحصا من نجوم السماء ، بل أين السراب ، من زلال الماء .

إن (جان دارك) لم تدع النبوة ، ولو أنها ادعتها لما صدقت ؛ لأن دعوى النبوة لا تثبت إلا بدليل وهى المعجزة ، وأين ماظهر على يدها من معجزات ؟ وإنما هى فتاة قوية القلب ، مرهفة الحس ، أهاج وجدانها ، وحركة ماكانت تتصف به من شعور دينى كريم ، وماكان يعانيه قومها من ذل وعبودية ، لقد تلاقى شعورها الدينى ،وشعورها السياسى ، فاستنهضت قومها للجهاد ، وقادتهم إلى التخلص من الاستعباد ، وقد صادفت دعوتها هوى فى نفوس قومها ، فأجابوها وخرجوا معها ، وكان لهم النصر على العدو ، وكونها استغلت مزاعمها فى إثارة النفوس وإلهاب الحماس لا يقتضى أنها صادقة فيما زعمت ، وما أسهل تهييج حماس أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات ، وبما هو أضعف منها ، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته عند الأهرام ، فهى لم تزد عن كونها امرأة شجاعة متدينة ، امتلا قلبها بحب بلادها ، ورغبتها فى تخليصها من عدوها ، فقادت جيشا قوامه عشرة آلاف جندى وضابط ، وانتصروا على الأنجليز .

وإليك ماذكره البستانى عنها فى (دائرة معارفه) قال : «كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعى المواشى ، وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت ، وكان الناس فى جوار (دومرى) — يعنى بلدها — متمسكين بالخرافات ، ويميلون إلى حزب (أوليان) فى الانقسامات التى مزقت

مملكة فرنسا ، وكانت (جان تشترك فى الهياج السياسى والحماس الدينى ، وكانت كثيرة التخيل والورع . تحب أن تتأمل فى قصص العذراء ، وعلى الأكثر فى نبوءة كان شائعة فى ذلك الوقت ، وهى أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها ، ولما كان عمرها ثلاث عشرة سنة كان تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعية ، وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ، ورؤى كانت تراها ، ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها أنها قد دعيت لتخلص بلادها ، وتتوج ملكها ، ثم أدفع (البرغنيور) تعديا على القرية التى ولدت فيها ، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خيل لها (١) » .

وكانت انتصارها سنة (١٤٢٩ م) ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية ، ولذلك هوجمت فى السنة التالية (١٤٣٠ م) فانكسرت وجرحت وأسرت .

وهكذا يتبين لنا مما ذكره أن دعوتها شبيهة بدعوات من زعم أنه المهدى المنتظر ، ودعوة الباب الايرانى ، وكذا البهاء والقاديانى ، وأمثالهم ممن زعموا أنهم يوحى إليهم ، ووجدوا من يغتر بدعواتهم .

فأين هذه النوبة العصبية القصيرة الأجل المعروفة السبب ، والتى لا دعوة فيها إلى دين وعلم ولا إصلاح اجتماعى أو اخلاقى ، والتى لم تلبث أن افل نجمها ، وغربت شمسها — اين هذه الدعوة من دعوة الأنبياء ولا سيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذه الدعوة التى قامت فى بيئة هى أبعد ما تكون عن العلم والمعرفة واقوى ما تكون عنادا وصلابة وعنجهية ، والتى تعرضت لتكالب جيوش الشر والغدر ، والحقد والعصبية من العرب والرومان والفرس ، فإذا بها تصرعهم جميعا ، وتهزمهم فى عقر دارهم ،

---

(١) الوحى المحمدى ص ٧٩ — ٨٠ .

وتتمخض عن ميلاد أمة : هى خير أمة أخرجت للناس عقيدة وشريعة ، وعلماً وعملا ، وأخلاقا وفضائل ، وعدلا ورحمة ، وسياسة وقيادة

أما جان دارك ، فلم تصنع بدعوتها أمة ، ولم تقم بها حضارة

بل أين حال هذه الفتاة التى كانت كبارقة أومضت ثم اختفت ، وشمعة أضاءت ثم لم تلبث أن خفتت ، وثورة قدر سرعان مازالت من حال شمس النبوة المحمدية التى أشرقت فأضاءت الأرجاء ، وسطعت فبددت الظلمات. ظلمات الشرك والجهل والفقر والخرافات ، ولا يزال نورها ـ ولن يزال ـ متألق السناء ، ألا ماأبعد الفرق بين الحالين ، وفرق ما بينهما كفرق ما بين الأرض والسماء

﴿ شبهة أخـــرى على الوحى المحمدى ﴾

لقد أسف بعض المستشرقين والمبشرين فزعموا أن الحالة التى كانت تعترى النبى ﷺ عند تلقى الوحى من جبريل ، وهو على حالته الملكية ، وهى الحالة التى كان النبى يغيب فيها عن الناس وعما حوله ، ويسمع له غطيط كغطيط (١) النائم ، ويتصبب عرقه ، ويثقل جسمه هى حالة صرع تتمخض عما يخبر به أنه وحى

وإليك رد هـذه الفرية لترى أنهم طعنوا فى غير مطعن ، وطاروا فى غير مطار

(١) إن النبى ﷺ بشهادة الأعـداء قبل الأصدقاء كان أصح الناس بدنا وأقواهم جسما ، وأوصافه التى تناقلها الرواة الثقات تدل على البطولة الجسمانية . وقد بلغ من قوته أنه صارع ركانة بن عبد يزيد فصرعه،وكان ركانة هذا مصارعا ماهراً ، ماقدر أحد أن يأتى بجانبه إلى الأرض ، ولما عرض عليه النبى الدعـــوة قال . صارعنى فإن أنت غلبتنى آمنت أنك

(١) صوت النائم إذا احتبست أنفاسه

رسول الله ، فصارعه الرسول فغلبه، فقيل إنه اسلم عقب ذلك(٢) والمصاب بالصرع لا يكون على هذه القوة ، وقد شهد للنبى رجل غريب عن الإسلام ولكنه منصف قال الكاتب الأجنبى (بودلى) فى كتابه (الرسول. حياة محمد) مفنداً هذا الزعم : « لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى كان يتمتع بها محمد ﷺ حتى قبل وفاته بأسبوع واحد ، وان كان من تنتابه حالات الصرع كان يعتبر مجنوناً ، ولو كان هناك مايوصف بالعقل ورجاحته . فهو محمد ».

(٢) إن مريض الصرع يصاب بآلام حادة فى كافة اعضاء جسمه يحس بها إذا ما انتهت نوبة الصرع ، ويظل حزيناً كاسف البال بسببها ، وكثيراً مايحاول مرضى الصرع الانتحار من قسوة ما يعانون من آلام فى النوبات فلو كان مايعترى النبى ﷺ عند الوحى صرعا لأسف لذلك وحزن لوقوعه ولسعد بانقطاع هذه الحالة عنده ، ولكن الأمر كان على خلاف ذلك

لقد فتر الوحى عن الرسول مدة فحزن لذلك حزناً شديداً ، وكان يذهب إلى غار حراء وقمم الجبال عسى أن يعثر على الملك الذى جاءه بحراء وبقى محزون النفس من هذه الحاله حتى سرى عنه ربه بوصل ما انفصم من الوحى

(٣) ان الوحى لم يكن يأتى النبى ﷺ على هذه الحال التى قالوا عنها انها صرع إلا احيانا وأحيانا كان يأتيه وهو فى حالته الطبيعية فلا غيبوبة ولا قلق ولا غطيط، وذلك حينما كان يأتيه جبريل فى صورة رجل ، وكان الجالسون لا يعرفون انه جبريل ، ولكن النبى كان يعلم ذلك حق العلم وذلك كما حدث فى الحديث الطويل الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما والذى يعتبر سجلا جامعاً لأصول الإيمان والإسلام والإحسان

---

(٢) الإصابة فى تاريخ الصحابة ج ١ ص ٥٣١ والاستيعاب ج ١ ص ٣١ [هامش الاصابة]

ويدل على حالتي الوحي هتين الحديث الذى رواه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها «ان الحارث بن هشام - رضى الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ قال رسول الله ﷺ احياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو اشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت منه ماقال: واحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول . قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً »(١)

(٤) إن الثابت علمياً ان المصروع حالة الصرع يتعطل تفكيره وإدراكه تعطلا تاماً ، فلايدرى المريض فى نوبته شيئاً عمايدور حوله، ولامايجيش فى نفسه كما انه يغيب عن صوابه ،وتعتريه تشنجات تتوقف فيها حركة الشعور ويصبح المريض بلا إحساس.

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد الوحى يتلو على الناس آيات بينات ، وتشريعات محكمات ، وعظات بليغات ، وأخلاقا عظيمة ، وكلاما بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة تحدى به الناس قاطبة عربهم وعجمهم أن يأتوا بأقصر سورة منه فما استطاعوا فهل يعقل من المصروع أن يأتى بشىء من هذا ؟ اللهم إن هذا أمر لا يجوز إلا فى عقول المجانين إن كانت لهم عقول .

(٥) لما تقدمت وسائل الطب ، واستخدمت الأجهزة والكهرباء فى التشخيص والعلاج . إذا الطب يضيف دليلا لا ينقض ، ويقيم حجة لا تحتاج إلى مناقشة على كذب فرية الصرع ، ويؤكد أن ما كان يعترى رسول الله ﷺ إنما هو وحى من الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر .

لقد ثبت أن نوبات الصرع ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ

---

(١) صحيح البخارى باب كيف كان بدء الوحى الى رسول الله ﷺ

والدليل على ذلك أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية في المخ في أثناء النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجي ، وعلى أية صورة كانت هذه النوبات ومهما ضعفت حدة هذه النوبات ولقد أثبت ، الطب الحديث أخيراً بعد الاستعانة بالأجهزة ، والرسم الكهربائي على أن هناك مظاهر عديدة ، ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعاً لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائيـــة ، وطريقة وسرعة انتشارها ، وأهم أنواع الصرع ما يسمى بالنوبات الصرعية النفسية ، وهو مايشبه أن يكون النوع الذى افتراه الخصوم على الرسول بأنه مصاب به ، وفي هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرئية أو سمعية أو الاثنان معاً وتسمى « بالهلاوس » ، وقد أثبت الطب أيضاً ان الذكريات التي تمر بالمريض لابد أن يكون قد عاش فيها المريض نفسه حتما ، إذ أن النوبة الصرعية ما هي إلا تنبيه لصورة أو صوت مر بالإنسان ثم احتفظ به في ثنايا المخ ، وقد أمكن طبياً إجراء عملية التنبيه

هذه بوساطة تيار كهربائي صناعي ساط على جزء خاص في المخ فشعر المريض بنفس « الهلاوس » التي تنتابه في أثناء نوبة الصرع ، وكلما تكررت نوبة الصرع تكررت نفس الذكريات أو «الهلاوس» ، فهذا مريض يسمع أغنية ، أو قطعة من شعر ، أو حديثاً من أى نوع كان في نوبة صرعه ، ويتكرر سماعه لها في كل نوبة ، ولابد أن يكون ما سمعه من النوبة قد سمعه يوماً في طفولته ، أو شبابه ، أو قبيل مرضه ، وكذلك إذا كانت النوبة تثير منظراً لابد أن يكون قد مر عليه.

وبتطبيق ما قرره الطب الحديث في حقائق الصرع على ما كان يعترى النبي ﷺ نجده يردد آيات لا يمكن إطلاقاً أن يكون قد سمعها من قبل في حياته فهي آيات واردة على لسان الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعمر البشر الأرض مثل قوله سبحانه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك

الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » [١] .

وآيات أخرى فيها قول الله يوم القيامة مثل « حتى إذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون » [٢] وقوله سبحانه « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم [٣] .

وكذلك الآيات التى تحكى عصور ما قبل الإسلام ، والمقاولات والمحاورات التى جرت بين أقوام عاشوا قبل الرسول بآلاف السنين وذلك مثل قوله سبحانه وتعالى : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » [٤] وقوله سبحانه : « قالوا : يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ههنا قاعدون قال : رب انى لا أملك إلى نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » [٥] إلى غير ذلك من الآيات التى تحكى قصص الأولين أو تصف احوال القيامة واليوم الآخر ولما كانت هذه الأحاديث والأحوال لم تمر بالرسول قطعاً فهى لم تختزن بالتالى فى المخ لتثيرها نوبات صرعية فيتذكرها ، وبذلك يقرر الطب الحديث فى احدث إكتشافاته بالنسبة للصرع ان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن ان يكون هناك ادنى شبهة فى إصابته بالصرع إطلاقاً وإن ما كان يعتريه إنما هى حالة نفسية وجسدية لتلقى وحى الله سبحانه وتعالى ، هذا الوحى الذى اخبره الله فيه عما مضى ، وعما يستقبل [٦] .

---

(١) البقره ٣٤ ، ٣٥ (٢) النمل ٨٤ (٣) المائدة ١١٩

(٤) آل عمران ٣٧ (٥) المائدة ٢٤ ، ٢٥

(٦) مجلة منبر الإسلام العدد ٩ السنة ١٩ رمضان سنة ١٣٨١ فبراير ١٩٦٤م

(٦) ثم ما راى هؤلاء الطاعنين وفيهم من ينتمى إلى بعض الأديان فى انهم لا ينالون من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحده ، وإنما ينالون من جميع انبياء الله ورسله الذين كانت لهم كتب او صحف او وحى بهامن عند الله سبحانه فهل تطيب نفوس المقرين بالأديان منهم ان يخرجوا بيوتهم قبل ان يخربوا بيوت غيرهم ؟ ! ! وما رايهم فيما جاء فى كتب العهد القديم والجديد من إيحاءات ونبوءات ؟ وهل يقولون فى وحى نبيى الله موسى وعيسى عليهما السلام ما يقولون فى وحى نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

اللهم إن هذا الطعن لا يفوه به إلا احد رجلين : اما رجل مخرف ، وإما رجل مخرب مدمر يريد هدم الأديان .

إن الرسول ﷺ ليس ببدع من الرسل فى باب الوحى ، وإنه أوحى إليه كما أوحى اليهم وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول :

« إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ، والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما »(١) وقال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء انه على حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور » (٢)

---

(١) النساء ١٦٣ — ١٦٤

(٢) الشورى ٥١ — ٥٣

المبحث الثالث

« أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه »

هذا المبحث .. المدار فيه على النقل عن الصحابة والتابعين ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالترجيح بين الأدلة ، أو الجمع بين ما ظاهره التعارض منها ، ويترتب على العلم بأول ما نزل ، وآخر ما نزل فوائد منها .

(١) معرفة الناسخ والمنسوخ : فيما إذا وردت آيتان أو أكثر في موضع واحد ، وحكم احداهما يغاير الأخرى تغايراً لا يمكن معه الجمع ، فنعرف أن المتأخر منها ناسخ للمتقدم .

(٢) معرفة تاريخ التشريع الإسلامي : وذلك مثل ما إذا عرفنا : أن الآيات التي نزلت في فرضية الصلاة كانت بمكة ، قبل الهجرة . وأن الآيات التي نزلت في فرض الزكاة(١) والصوم كانت في السنة الثانية بعد الهجرة . . وأن الآيات التي نزلت في فرض الحج كانت في السنة السادسة ، على ما هو الراجح ، أمكننا أن نرتبها ترتيباً تشريعياً ، فنقول . إن أول ما فرض الصلاة ، ثم الزكاة والصوم ، ثم الحج .

ومثل ما إذا عرفنا : أن آية : « أذن للذين يقاتلون : بأنهم ظلموا ... »(٢)

---

(١) بعض العلماء يرى أن الزكاة فرضت بمكة ، وإنما الذى كان بالمدينه بيان مصارفها وأنصبتها ، ولكن الأكثر على أنها فرضت بالمدينة في السنة الثانية . وقد اختلف هؤلاء : أكان فرضها قبل الصوم أم بعده ؟ رأيان . ويرجح الثانى ، حديث « قيس بن سعد بن عبادة » عند أحمد ، وابن خزيمة ، والنسائى وابن ماجة والحاكم قال قيس : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقه الفطر قبل أن تنزل الزكاة ثم نزلت فريضه الزكاة فلم يأمرنا ولم ينهنا ونحن نفعله » قال الحافظ ابن حجر . إسناده صحيح (فتح البارى ج ٣ ص ٢٠٧)

(٢) سورة الحج الآية ٢٨

نزلت بالمدينة فى السنة الثانية ، علمنا : أن تشريع الجهاد كان بالمدينة ، بالسنة الثانية وهكذا بقية التشريعات .

(٣) معرفة التدرج فى التشريع ، فتوصل إلى حكمة الله — سبحانه — العالية فى أخذ الشعوب بهذه السياسة الحكيمة فى الإسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا . ترتيب الآيات التى نزلت فى شأن تحريم الخمر ، وقد ذكرنا ذلك آنفاً . ومثل ما إذا عرفنا : أن الايات الداعية إلى أصول العقائد نزلت أولا ، وأن الايات التى نزلت فى التشريعات التفصيلية ، والأحكام العملية نزلت بعدها ، أدركنا أسرار الله فى التربية والتشريع ، فما لم تعرف الأصول ، وتطمئن إليها القلوب ، لا يسهل الأخذ بالفروع .

ثم إن أولية النزول وآخريته . . تارة تكون على الإطلاق : أى بالنسبة للقرآن كله . وتارة تكون مفيدة ، إما بالنسبة لموضع معين ، وذلك مثل أول ما نزل فى الجهاد . وآخر ما نزل فيه ، وإما بالنسبة لمكان خاص مثل أول ما نزل بمكة ، وآخر ما نزل بها ، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها ، وإما بالنسبة لسورة ما ، مثل أول ما نزل من سورة كذا وآخر ما نزل منها .

أما الأولية والآخرية المطلقتان ، فسأتناولهما بالتفصيل ، وأما المقيدتان فسنأ كتفى بضرب بعض الأمثلة ، لأن استيعابهما يحتاج إلى مؤلف خاص .

ولنبدأ بأول ما نزل . . وآخر ما نزل على الإطلاق .

أول ما نزل من القرآن

اختلف العلماء فى هذا على أقوال أربعة :

القول الأول :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق

الإنسان من علق ، اقرأ ، وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم(١)، ويدل لذلك ما يأتى:

(أ) روى عن البخارى ومسلم — واللفظ للبخارى — بسندهما عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها — أنها قالت : « أول ما بدىء به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع(٢) إلى أهله ، ويتزود لذلك(٣) ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى (٤) حتى بلغ منى الجهد(٥) ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت . ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك ، الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (٦) فرجع بها إلى خديجة يرتجف فؤاده ، فقال: زملونى(٧) ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة — وأخبرها الخبر — لقد خشيت على نفسى(٨) ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزنك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل(٩) ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف . . . » الحديث(١٠) وقد سقت الحديث بطوله ،

---

(١) العلق ١ — ٥ (٢) يرجع (٣) أى يأخذ معه زاده

(٤) ضمنى وعصرنى حتى كاد يحبس أنفاسى

(٥) بفتح الجيم ونصب الدال أى غاية الوسع ، وبضم الجيم ، ورفع الدال أى المشقة والحرج أى بلغت من المشقة غايتها (٦) العلق ١ — ٥

(٧) لفونى بالثياب وغطونى حتى يذهب عنى الخوف والرعب

(٨) أى المرض أو الهلاك (٩) الضعيف

(١٠) صحيح البخارى — باب كيف كان بدء الوحى صحيح مسلم —

وشرحته فى كتابى « السيره النبوية » فى ضوء القرآن والسنة . وعائشة ، وإن لم تعاين القصة وتشاهدها ، إلا أنه يحتمل أن تكون سمعتها من النبى بعد ، أو حدثها بها صحابى سمعها من النبى ، وأياً كان الأمر فهو حديث متصل مرفوع .

(ب) وروى الحاكم فى « مستدركه » والبيهقى فى « دلائل النبوة » وصححاه عن عائشة أنها قالت : « أول سورة نزلت من القرآن « اقرأ باسم ربك » ومرادها بالسورة صدرها ، وإلا فباقيها نزل بعد ، كما تدل على ذلك رواية الصحيحين .

(ح) وروى الطبرانى فى « المعجم الكبير » — بسند على شرط الصحيح — عن أبى رجاء العطاردى قال : « كان أبو موسى — يعنى الأشعرى يقرئنا فيجلسنا حلقاً ، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة « اقرأ باسم ربك الذى خلق » قال . هذه أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم .

(د) وأخرج ابن أشته فى كتاب « المصاحف » عن عبيد بن عمير قال . « جاء جبريل إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — بنمط ، فقال . اقرأ ، فقال . ما أنا بقارىء » قال . « اقرأ باسم ربك » فيرون أنها أول سورة أنزلت من السماء .

وأخرج أيضاً عن الزهرى « أن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان بحراء ، إذ أتى ملك بنمط من ديباج(١) فيه مكتوب « اقرأ باسم ربك الذى خلق » إلى « ما لم يعلم(٢) » ولعل هذا — إن صح — يفسر لنا الأمر بالقراءة فى رواية الصحيحين أى اقرأ ما فى هذا النمط إلى غير ذلك من الآثار التى ذكرها الإمام السيوطى فى الإتقان الصحيح ، وعليه جمهور العلماء سلفا ، وخلفاً .

---

(١) النمط . الثوب ، الديباج الحرير وهو معرب

(٢) سورة العلق ١ — ٥

القول الثاني :

إن أول ما نزل هو قوله تعالى: « يا أيها المدثر » إلى والرجز فاهجر». (١)
وهذا القول مروى عن جابر بن عبدالله ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

ويدل لهذا ما رواه الشيخان — واللفظ للبخارى — عن يحيى بن أبى كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن : اى القرآن أنزل أول ؟ فقال: « ياأيها المدثر »فقلت : أنبئت أنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وفى رواية « يقولون : اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال أبو سلمة . سألت جابر بن عبد الله . أى القرآن أنزل أول ؟ فقال . « ياأيها المدثر » فقلت . نبئت أنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق » فقال . « لا أخبرك إلا بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله : جاورت فى حراء(٢) ، فلما قضيت جوارى هبطت ، فاستبطنت الوادى ، فنوديت فنظرت أمامى ، وخلفى ، وعن يمينى ، وعن شمالى ، فإذا هــو(٣) جالس على عرش بين السماء والأرض ، فأتيت خديجة ، فقلت : « دثرونى ، وصبوا على ماء بارداً ، وأنزل على « ياأيها المدثر ، قم فأنذر، وربك فكبر »

وقد أجاب القائلون بالأول عن هذا بأجوبة أحسنها وأخلقها بالقول : أن « ياأيها المدثر » أول ما نزل بعد فترة الوحى ، أما « اقرأ » فهى أول ما نزل على الإطلاق .

ويؤيد هذا التأويل ويقويه ما رواه الشيخان أيضاً عن طريق الزهرى — واللفظ للبخارى(٤) — عن ابى سلمة بن عبد الرحمن ، عن جابر بن

---

(١) المدثر ١ - ٥

(٢) أى أقمت فيه مدة متعبداً ، وكان ذلك قبل النبوة ، وبعدها ، وكان يجاور فيه فى رمضان غالباً .

(٣) أى الذى رأيته قبل هذا فى حراء ، والمراد به جبريل .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة المدثر .

عبد الله رضى الله عنهما قال : سمعت النبى ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فجثثت منه رعباً[١] ، فقلت : زملونى ، زملونى ، فدثرونى ، فأنزل الله تعالى « يا أيها المدثر » إلى « والرجز فاهجر » قبل أن تفرض الصلاة ، وهى الأوثان[٢] فقوله : « وهو يحدث عن فترة الوحى[٣] نص على أن ذلك كان بعد فترة الوحى ، فهى أولية مقيدة لا مطلقة .

وكذلك قوله ﷺ - « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء الخ » يدل على أن هـــذه القصة متأخرة عن قصة حراء ، التى نزل فيها « اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

على أننا نلاحظ أن جابراً استنبط ذلك باجتهاده ، على حسب علمه من روايته ، ولذلك لما روجع لم يجد بداً من ذكر ما سمعه ، ولم يقطع برأى ، ثم لما تبين له الأمر ، وأن ذلك كان بعد فترة الوحى ، ذكر ذلك صراحة كما فى طريق الزهرى بخلاف حديث عائشة فالمتيقن أنه من روايتها ، لا من اجتهادها .

ومن الأجوبة التى أجيب بها .

(١) أن أول سورة « المدثر » مقيد بما نزل متعلقاً بالإنذار ، ولذلك دعا النبى بعدها إلى الله ، بخلاف صدر سورة العلق فهو مطلق غير مقيد بشىء خاص .

---

(١) أى سقطت من الخوف .

(٢) تفسير الرجز .

(٣) وقد اختلف فى هذه الفترة فقيل . أربعين يوما ، وقيل ستة أشهر وقيل السنتان ونصف والأول هو ما اخترته ورجحته فى كتابى « السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ أول ص ٢٦٧ .

(٢) أن سورة « المدثر » أول سورة نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة « اقرأ » فإنها أول ما نزل منها صدرها[١] .

أقول هذا الجواب غير مسلم ، فقد ذكرت آنفاً رواية الصحيحين عن جابر ، وفيها « فأنزل الله يا أيها المدثر - إلى - والرجز فاهجر » .

فكيف يدعى مدع ، أو يقول قائل : إن المدثر أول سورة نزلت بتمامها ؟ ! ! فالحق أنه لا يصلح أن يكون جواباً .

ولذلك لما تعرض الحافظ ابن حجر فى «الفتح» للتوفيق بين الحديثين: حديث عائشة ، وحديث جابر — لم يذكر هذا الوجه[٢] ، وإنما ذكره صاحب الإتقان .

القول الثالث :

إن أول ما نزل سورة « الفاتحة » وقد عزا هذا القول الزمخشرى فى « كشافه » إلى أكثر المفسرين ، ورد عليه الحافظ بن حجر . بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل ، وإلى هذا الرأى مال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسير سورة « الفاتحة » .

وقد استدل الذاهبون إليه بما رواه البيهقى فى «دلائل النبوة» والواحدى بسنده عن أبى ميسرة — عمرو بن شرحبيل — أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : «إنى إذا خلوت ، وحدى سمعت نداء ، فقد — والله — خشيت أن يكون هذا أمراً[٣] فقالت : معاذ الله ! ما كان الله ليفعل بك[٤] ، فوالله : إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له ، وقالت : اذهب مع محمد إلى « ورقة » — يعنى ابن نوفل — فانطلقا ، فقصا عليه ، فقال : « إذا خلوت وحدى سمعت

(١) الاتقان جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) فتح البارى جـ ٨ ص ٥٥٠ ، ٥٥١ .

(٣) يعنى شيئاً أكرهه ، أو يراد به لى الضرر .

(٤) أى شيئاً تكرهه ، أو يلحق به ضرراً ، لأن أخلاقك تبعد عنك أى سوء .

نداء من خلفى : يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً فى الأفق » ! ! فقال : لاتفعل إذا اتاك فاثبت حتى تسمع مايقول ، ثم ائتنى ، فأخبرنى.

فلما خلا ناداه : يامحمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين حتى بلغ « ولا الضالين » الحديث

ويجاب عن هذا القول : بأنه حديث مرسل ، وإن كان رجاله ثقات فلا يعارض حديث عائشة المرفوع ، فالراجح هو الأول

أقول : وليس فيه التنصيص على أن الفاتحة أول مانزلت ، فيجوز — على فرض صحة هذا المرسل — أن تكون من أوائل مانزل ، وإلى هذا ذهب البيهقى قال . «وإن كان - أى المرسل - محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد مانزلت عليه « اقرأ » والمدثر» (١) والظاهر ان الفاتحة من أوائل السور نزولا كما يفهم ذلك من صنيع المرتبين للسور،على حسب نزولها

القول الرابع :

إن اول ما نزل هو قوله تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » واستند القائل بهذا إلى ما اخرجه الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن ، قالا : اول مانزل من القرآن « بسم الله الرحمن الرحيم » واول سورة « اقرأ باسم ربك » واخرج ابن جرير ، وغيره عن ابن عباس قال : اول مانزل جبريل على النبى ﷺ قال : «يامحمد ، استعذ ، ثم قال : « بسم الله الرحمن الرحيم » وقد اجاب السيوطى عن هذا القول ، فقال : وعندى ان هذا لا يعد قولا برأسه ، فإن من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها ، فهى اول آية نزلت على الإطلاق» (٢)

اقول : وهذا الجواب غير مسلم فالأحاديث الصحيحة فى بدء الوحى كحديث عائشة وغيره لم تذكر قط نزول البسملة مع صدرها ، والظاهر انها نزلت بعد عند نزول تمام السورة

---

(١) ، (٢) الإتقان حـ ١ ص ٢٤

وقد ذكر «ابن عطية» فى مقدمة تفسيره عند حكاية هذا القول — ان فى بعض طرق حديث خديجة ، وحملها رسول الله ﷺ إلى « ورقة ابن نوفل» ان جبريل قال للنبى ﷺ - قل : بسم الله الرحمن الرحيم» فقالها، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء» (١) فإذا ثبت هذا يكون مؤيداً لما أجاب به السيوطى

نعم هذه الآثار والأحاديث لا تنهض لمعارضة حديث عائشة المرفوع الذى اتفق عليه صاحبا الصحيحين ، فهو فى أعلى درجات الصحة

« ازالة إشـــكال » لكن يشكل على الوجه الذى رجحناه ، مارواه الشيخان عن عائشة قالت: « إن أول مانزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب إلى الإسلام نزل الحلال والحرام»

لأنه ليس فى صدر سورة اقرأ ذكر الجنة والنـــار ، بل ولا فى السورة كلها .

والجواب : أن «مِنْ» مقدرة فى الكلام « اى من أول مانزل ... » ومرادها — رضى الله عنها - سورة المدثر ، فإنها أول مانزل بعد فترة الوحى، وفى آخرها ذكر الجنة والنار ، فلعل آخرها نزل قبل نزول بقية « إقرأ » وبهذا يزول هذا الإشكال

آخر مانزل من القرآن

ليس فى هذا الموضوع أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ ، وإنما هى آثار مروية عن بعض الصحابة ، والتابعين ، استنتجوها بما شاهدوه من نزول الوحى ، وملابسات الأحوال ، وقد يسمع أحدهم مالا يسمعه الآخر ويرى مالا يرى الآخر، فمن ثم كثر الاختلاف بين السلف والعلماء ، فى آخر مانزل وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء ، وإليك تفصيل القول فى هذا

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٨٩

القول الأول :

إن آخر مانزل من القرآن قوله تعالى فى آخر سورة البقرة « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون(١)» والدليل على ذلك :

(١) روى النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : « آخر مانزل من القرآن «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله .. » الآية

(٢) وروى ابن مردويه بسنده عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « آخر آية نزلت من القرآن «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» الآية

(٣) وأخرج ابن جرير ، عن طريق عطية ، عن أبى سعيد قال : « آخر آية نزلت « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله .. » الآية

(٤) وأخرج ابن أبى حاتم بسنده ، عن سعيد بن جبير قال . «آخر مانزل من القرآن كله : «واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله .. » الاية وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الاية تسع ليال ، ثم مات ليلة الإثنين ، لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول

وأخرج ابن جرير فى تفسيره مثله عن ابن جريج

(٥) وذكر البغوى فى تفسيره عند هذه الاية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « هذه آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ ، فقال له جبريل ضعها على راس مائتين وثمانين ، من سورة البقرة وعاش بعدها رسول الله ﷺ - أحـــداو عشرين يوما ، وقال ابن جريج : تسع ليال وقال سعيد ابن جبير : سبع ليال

(٦) وذكر الإمام الآلوسى فى تفسيره عند هذه الآية . روى أنه قال يعنى رسول الله — . « اجعـــلوها بين آية الربا ، وآية الدين » وفى رواية أخرى أنه ﷺ - قال . « جاءنى جبريل فقال ، اجعلوها على رأس مائتين وثمانين آية من من البقرة »

---

(١) البقرة / ٢٨١

وهذا الرأى هو أرجح الآراء والأقوال ، وهو الذى تركن إليه النفس بعد النظر فى هذه الأحاديث والآثار وذلك لما يأتى:

(ا) لم يحظ قول من الأقوال التى سنذكرها بجملة من الآثار ، وأقوال أئمة التفسير مثل ماحظى به هذا القول

«ب» ماتشير إليه هذه الآية فى ثناياها من التذكير باليوم الآخر ، والرجوع إلى الله ليوفى كلا جزاء عمله ، وهو أنسب بالختام .

«ج» ماظفر به هذا القول من تحديد الوقت بين نزولها ، وبين وفاة النبى ﷺ ولم يظفر قول غيره بمثل هذا التحديد ، ولا يضر الاختلاف فى تحديد المدة ، فالروايات حددت المدة بينها قدر مشترك ، وهو بيان قرب نزول هذه الاية من وفاة النبى ﷺ .

القول الثانى :

ان آخر ما نزل هو قوله تعالى فى سورة البقرة : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله . وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين »(١) .

ويدل لذلك ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : « وآخر آية نزلت آية الربا » وأخرج البيهقى عن عمر مثله ، والمراد بآية الربا الآية التى ذكرناها.

والحق هو الأول ويجاب عن هذا القول :

اما بأنها آخر آية نزلت فى شأن « الربا » واما بأن المراد أنها من أواخر الآيات نزولا .

ويؤيد هذا الجواب الأخير ، وأنها ليست آخر آية على الإطلاق ، ما رواه الإمام أحمد ، وابن ماجه ، عن عمر نفسه قال ؛ « من آخر ما نزل آية الربا » وما ذكره ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : «خطبنا عمر فقال : « إن من آخر القرآن نزولا آية الربا »

والظاهر أن هذا هو مراد ابن عباس أيضاً فى روايته ، وهذا التعبير له نظائر فى اللغة العربية

ويرى بعض العلماء(٢) أن المراد بقول ابن عباس « آية الربا » أى الاية

---

(١) البقرة الآيه ٢٧٨ (٢) شرح المختار من تيسير الوصول ص ٥٢

التى ختمت بها آيات الربا وهى « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله . . . »
وعلى هذا تكون رواية البخارى مؤيدة لما ذكرناه عن ابن عباس فى
القول الاول .

القول الثالث .

إن آخر آية نزلت اية الدين ، وهى قوله تعالى : « يا أيها الذين امنوا
إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ، فاكتبوه ..... » الآية[١] وهى أطول
اية فى القرآن أخرج أبو عبيد فى كتاب « فضائل القرآن » عن ابن شهاب
الزهرى قال : اخر القرآن عهداً بالعرش اية الربا ، واية الدين ، وأخرج
ابن جرير من طريق ابن شهاب ، عن سعيد ابن المسيب « أنه بلغه ان اخر
القران عهداً بالعرش اية الدين » مرسل ، صحيح الإسناد

ويجاب عن هذا القول: بأن هذه الآية اخر ما نزل فى باب « المعاملات »
فهى آخرية مقيدة ، لا مطلقة كالآية الاولى

وقد جمع السيوطى بين هذه الأقوال الثلاثة فقال : « ولا منافاة عندى
بين هذه الروايات فى اية الربا ، واية : « واتقوا يوماً ... » واية الدين
لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ، ولأنها قصة
واحدة ، فأخبر كل عن بعض مانول بأنه اخر ، وذلك صحيح[٢]» ومقتضى
هذا الجمع من الإمام السيوطى أن اية الدين اخر مانزل من القرآن على الإطلاق

ولكنى أقول : إن فى النفس من هذا التوفيق شيئاً ، وما ذكره غير
مسلم له ، فقد سمعت أنفاً قول الفاروق عمر — رضى الله عنه — فى أن اية
الربا من أواخر الايات ، لا اخرها ؛ واستدلال السيوطى بأن الايات
الثلاث فى قصة واحدة - غير مسلم فالاية الاولى فى ترك مابقى من الربا عند
المدينين بعد نزول اية التحريم ، والثانية فى التذكير باليوم الاخر ، وما فيه
من جزاء ، والثالثة فى أحكام تتعلق بالدين ، فكيف يقال إذا إنها فى
قصة واحدة ؟!!

---

(١) سورة البقرة ٢٨٢ (٢) الاتقان جـ ١ ص ٢٧

ومما يضعف هذا الطريق فى الجمع أيضاً ، أن اية الربا نزلت(١) لما اسلمت ثقيف وأرادوا أن يستمروا على رباهم ؛ فاشتكى بنو المغيرة ـ وكانوا مدينين لهم ـ الى عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الاية آمرة لهم أن يتركوا ما بقى لهم من رباهم قبل التحريم ، وإلا فليأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وثقيف إنما كان اسلامهم فى رمضان فى السنة التاسعة ، والظاهر أن هذه القصة كانت بعد اسلامهم ، وأين زمن اسلامهم من زمن اختتام القران قبيل وفاة الرسول ؟ !

وقد ذهب الحافظ ابن حجر فى « الفتح » إلى نحو ماذكرت، ورجح أن اية « واتقوا يوماً ... هى الأليق بالختام فقال . طريق الجمع بين هذين القولين : القول بآية الربا ، والقول بآية « واتقوا يوما » أن هذه الآية هى ختام الآيات المنزلة فى الربا إذ هى معطوفة عليهن . وأما ما سيأتى فى آخر سورة النساء من حديث البراء : « آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ... » الآية.

فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الايتين نزلتا جميعا ، فيصدق أن كلا منهما آخر بالنسبة لما عداها، ويحتمل أن تكون الاخرية فى سورة النساء مقيدة بما يتعلق بالمواريث مثلا بخلاف آية البقرة، ويحتمل عكسه(٢) والأول ارجح لما فى آية البقرة من الإشارة إلى معنى الوفاة المستلزمة لخاتمة النزول ، وحكى ابن عبد السلام أن النبي ﷺ ـ عاش بعد نزول الاية المذكورة ـ يعنى آية البقرة ـ أحداً وعشرين يوما ، وقيل : سبعا »(٣)

وبعد هذا التحقيق يتبين لنا أن الصحيح أن آخر ما نزل على الإطلاق هى آية « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله .. » لما حف بها من دلائل وقرائن

---

(١) أسباب النزول للسيوطى على هامش تفسير الجلالين جـ ١ ص ٦٩

(٢) أى أن تكون آية البقرة أوليه مقيدة بما نزل فى أمور القيامة واليوم الاخر وآية الكلالة هى آخر ما نزل على الاطلاق ولكنه رجح الاحتمال الاول

(٣) فتح البارى جـ ٨ ص ١٦٥ ط البهية

القول الرابع .

إن آخر مانزل هو قوله تعالى . «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة »[١]
وآخر مانزل من السور (براءة)

ويدل على هذا مارواه البخارى ومسلم عن البراء بن عازب أنه قال .
(آخر سورة نزلت (براءة) وآخر آية نزلت يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة . . .)

الويجاب عن هذا بأن سورة براءة آخر مانزل فى شأن القتال والجهاد، أو أن فى الكلام تقديراً ، أى من أواخر السور نزولا سورة براءة وأن آية الكلالة آخر مانزل فى شأن المواريث ؛ وقد سمعت آنفا قول الحافظ ابن حجر فى هذا

القول الخامس .

إن آخر مانزل قوله تعالى . (ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه . واعد له عذابا عظيما)[٢]

واستدل صاحب هـذا القول بما رواه البخارى وغيره عن ابن عباس قال : نزلت هذه الاية « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » هى آخر مانزل ومانسخها شيء[٣] .

ويجاب عن هذا القول : بأنها اخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدا فهى اخرية مقيدة ، ويؤيد هذا قوله فى الحديث « وما نسخها شيء » فهو يدل على نزول شيء بعدها ولكن ليس بناسخ لها ، وقوله فى حديث النضر . عند مسلم — عن ابن عباس قال : « إنها لمن اخر ما أنزلت »[٤] ، وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد النسائى عنه « لقد نزلت فى اخر ما نزل ، مانسخها شيء »[٥] .

---

(١) سورة النساء ١٧٦ ، والمراد بالكلالة من لا ولد له ، أو لم يرثه والد ولا ولد ، وهو رأى الصديق رضى الله عنه ووافق عليه جمهور الصحابة

(٢) النساء / ٩٣ (٣) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ـ باب ـ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم ، (٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٨ ص ١٥٨ .

(٥) الاتقان جـ ١ ص ٢٨ .

القول السادس :

إن آخر ما نزل هو قوله تعالى فى خاتمة سورة براءة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم »(١)

والدليل على ذلك مارواه الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال : « اخر اية نزلت » لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » إلى اخر السورة .

وروى ابن مردويه عن أبى أيضا قال : « اخر القران عهدا بالله هاتان الايتان . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » إلى قوله » وهو رب العرش العظيم » .

ويجاب عنه . بأنها اخر ما نزل من سورة براءة ، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده .

القول السابع .

إن آخر ما نزل سورة المائدة ، واستند صاحب هذا القول إلى مارواه الترمذى ، والحاكم عن عائشة — رضى الله عنها — قالت . « اخر سورة نزلت المائدة فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وماوجدتم من حرام فحرموه »

ويجاب عن هذا القول . بأنها اخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، ولم ينسخ فيها شيء ويشير إلى هذا اخر الحديث .

القول الثامن .

إن اخر سورة نزلت هى . « إذا جاء نصر الله ، والفتح ... » السورة روى هذا مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ، ورواه النسائى أيضا عنه

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩

ويجاب عن هذا القول . بأنها اخر سورة نزلت بتمامها فى حجة الوداع ، فلا ينافى نزول اية أو ايات بعدها .

أو أنها اخر ما نزل مشعرا بوفاة النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ويؤيد هذا مارواه البخارى عن ابن عباس حين سأله عمر ـ رضى الله عنه ـ بمحضر من الصحابة عنها ، فقال « أجل ، أو مثل ضرب لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نعيت اليه نفسه »(١) وفى رواية أخرى للبخارى عن ابن عباس « هو أجل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلمه إياه » (٢) ،

فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ . ما أعلم منها الا ما تقول ، وروى أبو يعلى عن ابن عمر « أن هذه السورة نزلت فى حجة الوداع ، فى أوسط ايام التشريق ، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع»

هذا وقد اوصل السيوطى فى الإتقان الأقوال إلى عشر

وقد عرفت ان القول الأول هو الصحيح الراجح . وعرفت الإجابة عما ورد مخالفاً له ، وان المراد اواخر مقيدة ، لا مطلقة وهذه الطريقة فى التوفيق بين النصوص المتعارضة فى هذا الباب هى اعدل الطرق، وهو المنهج الذى سلكه المحققون من العلماء ولكن القاضى ابا بكر الباقلانى فى كتابه «الانتصار» يذهب مذهبا آخر فى التوفيق فيقول : هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى ﷺ ، وكل قال ماقاله بضرب من الاجتهاد ، وغلبة الظن ؛ ويحتمل ان كلا منهم اخبر عن آخر ما سمعه من النبى ﷺ فى اليوم الذى مات فيه . اوقبل مرضه بقليل . وغيره سمع منه بعد ذلك . وإن لم يسمعه هو

---

(١) بضم النون وكسر العين ، وفتح الياء ، وسكون التاء مبنيا للمجهول ، من كلام ابن عباس وقد وهم بعض الرواة فزعم أن النبي قال لجبريل لما نزل بها عليه « نعيت إلى نفسى » بفتح النون ، والعين ، وسكون الياء ، وفتح التاء خطابا لجبريل [فتح البارى ج ٨ ص ٥٩٨] .

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

ويحتمل أيضا : ان تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ـ ﷺ مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم مانزل معها بعد رسم تلك. فيظن انها اخر مانزل في الترتيب

ومرد هذا التوفيق بين الأقوال إلى غلبة الظن ، والاجتهاد من القائل بناء على ما سمعه أو شاهده من قرائن ، وقد لا يوافق الظن ، والاجتهاد والواقع ونفس الأمر ، وقد تركنا صاحب هذا الرأى بين جملة من الاحتمالات ، من غير أن يقطع برأى.

ويقرب من هذا الرأى فى التوفيق ما ذهب إليه «البيهقى» أيضاً حيث قال : « يجمع بين هذه الاختلافات ـ إن صحت ـ بأن كل واحد أجاب بما عنده » .

(التنبيه الى خطأ مشهور)

من الأخطاء المشهورة على ألسنة العامة ، وبعض الخاصة[١] ما يزعمونه من أن قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا »[٢] هى آخر ما نزل من القرآن ، فإنها تدل على إكمال الدين ، فى ذلك اليوم المشهود ، الذى نزلت فيه ، وهو يوم « عرفة » فى حجة الوداع ، وكان يوم جمعة ، ففهموا منه أن إكمال الدين لا يكون إلا بإكمال نزول القرآن الكريم .

والحق : أن هذا الزعم غير صحيح ، ولم يقل أحد قط من العلماء : إنها آخر ما نزل من القرآن ، والامام السيوطى ، وهو الباقعة الذى لا يخفى عليه قول ، سرد الأقوال فى آخر ما نزل ، ولم ينقل عن أحد مثل هذا القول بل نبه على خطئه ، وزيفه[٣] .

---

(١) وقع فى هذا الخطأ بعض المؤلفين فى تاريخ التشريع الإسلامى كالأستاذ الشيخ الخضرى رحمه الله وتابعه بعض المؤلفين فى كليات الشريعة ، والحقوق .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) الاتقان جـ ١ ص ٢٦ - ٢٨ .

وقد رأيت فى الآثار السابقة التى ذكرناها آنفاً ، أن آية الربا ، وآية الكلالة من أواخر القرآن نزولا . بل آية «واتقوا يوماً . . .» نزلت بعد «اليوم أكملت لكم دينكم . . .» بأكثر من شهرين» فقد حددت رواية ابن ابى حاتم . أن نزولها كان قبل وفاة النبى ﷺ بتسع ليال مما يجعلنا نقطع بأن «اليوم أكملت لكم دينكم . .» ليس آخر القران نزولا . وان هذا الزعم لانصيب له من الصحة

﴿ بم يفسر الإكمال فى الآية ﴾

وقد يقول لى قائل : «وإذا كان الأمر كما ذكرت . فبم تفسر إذاً إكمال الدين . وإتمام النعمة ؟

والجواب أن للعلماء المفسرين فى فهم الاية رأيين :

الأول . ان المراد بإكمال الدين يومئذ . هو إنجاحه ، وإقراره . وإظهاره على الدين كله . ولو كره الكافرون . بفتح مكة . وإتمام حجهم الأكبر . ولا شك أن الإسلام فى حجة الوداع . كان قد ظهرت شوكته وعلت كلمته ، واذل الشرك وأهله ، وأجلى المشركون عن البلد الحرام ، وانفرد المسلمون بالحج ، والطواف بالبيت لم يشاركهم فيهما مشرك ، فأى كمال بعد هذا ؟ وأى نعمة بعد تلك النعمة ؟ وإلى هذا الرأى ذهب العلامة «ابن جرير» الطبرى فى تفسيره حيث قال . الأولى ان يتأول على انه أكمل لهم دينهم ، بإقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون ، لايشاركهم المشركون ، ثم أيده بما رواه بسنده عن ابن عباس قال : «كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت «براءة» نفى المشركون من البيت ، وحج المسلمون ، لايشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان من تمام النعمة «وأتممت عليكم نعمتى» وهذا الرأى فى تفسير الاية لاينفى نزول آيات بعدها فى الحلال ، والحرام ، والوعظ والتذكير

الثانى . أن المراد بإكمال الدين إكمال الأحكام ، والحلال ، والحرام

فلم ينزل بعدها شيء من الفرائض ، والتحليل والتحريم روى هذا عن السدى . وجماعة

وعلى هذا الرأى فلا مانع من نزول ايات بعدها ليست منشئة لأحكام جديدة. بل مقررة لما سبق من الأحكام كآية الربا «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين »

وذلك عند من يرى انها آخر آية نزلت من القرآن(١) فإنها ليست منشئة لتحريم الربا إذ التحريم مستفاد قبل ذلك من آية آل عمران . « ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» وآية البقرة التى هى قبل « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ؛ ذلك بأنهم قالوا . إنما البيع مثل الربا وأحل . . الله البيع وحرم الربا وانما جاءت هذه مقررة ومؤكدة للحرمة

وكآيات التذكير بالاخرة والوعظ والترغيب والترهيب وذلك مثل قوله«واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله . . » فإنها للتذكير باليوم الاخر والترغيب والترهيب

ومن ثم يتبين لنا أن الاية كيفما فهمناها وحملناها لاتدل على انها آخر القرآن نزولا وهو ما قاله ثقات المفسرين وأجمع عليه علماء علوم القرآن

﴿ أمثلة لأوائل وأواخر مقيدة ﴾

هذا الذى قدمناه فى البحثين السابقين انما اريد به الأوائل . والأواخر المطلقة وان كان التحقيق العلمى دعانا الى تنزيل بعضها على انها أوائل وأواخر مقيدة . وكما بحث العلماء فى النوع الأول . بحثوا فى الأوائل والأواخر المقيدة بمحرم خاص . أو بموضوع خاص . وقد ذكروا لذلك أمثلة كثيرة منها .

---

(١) أما عند المحققين فليست آخر آية كما قدمنا

(١) فمن ذلك الآيات التى نزلت فى الخمر . فأول آية نزلت فيها هى قوله تعالى . « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما[١] وآخر مانزل فى التحريم قوله تعالى . « يا أيها الذين الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » إلى قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون[٢] فحرمت الحرم تحريماباتا ، وأراق الناس ماعندهم ، حتى سالت طرق المدينة

(٣) الجهاد: قيل أول مانزل فيه قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغيرحق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة،وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور[٣]

روى هذا الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس

وأخرج ابن جرير ، عن أبى العالية قال : أول مانزل فى القتال بالمدينة «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين[٤]

وقيل : إن أول مانزل فى القتال قوله تعالى« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »[٥] ذكره الحاكم فى « الإكليل »

والذى تركن إليه النفس هو الأول ، إذ فيه التصريح بمبررات الجهاد

---

(١) البقرة / ٢١٩ (٢) المائدة / ٩٠

(٣) الحج ٣٩ - ٤١ (٤) البقرة / ١٩٠ (٥) التوبة / ١١١

وبيان حكمته فى الإسلام ، وأن الغرض منه رد الظلم الواقع عليهم من المشركين ، ودفعه وتأمين العقيدة حتى تجد سبيلها إلى القلوب ، وتأمين أهلها ، ومعتنقيها ، وتأمين الدعوة إلى الله حتى لا يطغى الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، والشر على الخير ، وذكر المبررات ، والحكم ، هو الأليق ببدء التشريع .

أما الآية الثانية فقد ذكر أنها نزلت عام عمرة القضاء(١) ، لما خاف المسلمون أن يباغتهم المشركون ، فأنزل الله الآية مبينة لهم حل الدفاع عن النفس ، والقتال فى هذا الوطن وتشريع الجهاد كان فى السنة الثانية ، وبينهما بضع سنوات .

وأما الآية الثالثة فيبعد كونها أول آية ؛ لأن سورة « براءة » من أواخر القرآن نزولا كما رواه البخارى عن البراء بن عازب ، وهى إلى الترغيب فى الجهاد أقرب منها إلى بدء التشريع وآخر آية نزلت فى شأن الجهـــاد قوله تعالى « وقاتلوا المشركون كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقـــين »(٢) .

(٣) أول ما نزل فى شأن القتل آية الاسراء ، وهى قوله تعـــالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً »(٣) .

رواه ابن جرير عن الضحاك .

وآخر آية نزلت فيه : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما »(٤) .

---

(١) أسباب النزول للسيوطى على هامش الجلالين حـ ١ ص ٤٥ ط الحلبى .

(٢) التوبة ٣٦ (٣) الاسراء ٣٣ (٤) سورة النساء ٩٣

(٤) أول آية نزلت فى « الأطعمة » بمكة : آية « الأنعام » وهى قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا ، أو لحم خنزير ، ؛ فإنه رجس ، أو فسقا أهل لغير الله به ... الآية » (١) .

ثم آية « النحل » : فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً .. الآية »(٢) .

وبالمدينة : آية البقرة « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » (٢) ثم نزلت آية « المائدة » : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به . والمنخنقة . والموقوذة والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع إلا ماذكيتم ، وماذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »(٣) .

(٥) روى عن مجاهد أنه قال : أول ما نزل من سورة « التوبة » قوله تعالى : لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت .. » الآيات(٤)

وعن مسروق ، عن أبى الضحى : إن أول ما نزل من براءة : « انفروا خفافا ، وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم .. الآية » ثم أنزل الله أولها — أى السورة (٥) — ثم أنزل آخرها » .

والايات الأولى نزلت بعد حنين ، وأما الاية الثانية ، فالظاهر أنها نزلت فى « تبوك » وحنين متقدمة على تبوك ، فالراجح هو الأول .

---

(١) سورة الأنعام ١٤٥ (٢) الاية ١٧٣ (٣) الاية ٣ (٤) التوبة ٢٦-٢٨
(٥) وذلك فى السنة التاسعة ، فقد أرسل بصدرها عليا - كرم الله وجهه - ليقرأها على الناس .

وآخر ما نزل من « التوبة » هو قوله تعالى : لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم .. الآيتان » وقد ورد أنهما آخر ما نزل من القرآن وأولنا ذلك : بأنها آخر من نزل براءة .

(٦) أول سورة نزلت بـ « مكة » « اقرأ باسم ربك » أى صدرها إلى .. « ما لم يعلم » وآخر سورة نزلت بها « المؤمنون » ويقال « العنكبوت » .

وأول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقد ذكر الحافظ بن حجر فى « الفتح » : الاتفاق على ذلك ، لكن فى دعوى الاتفاق نظر ، فقد نقل « الواحدى » عن على ابن الحسين : أن أول سورة نزلت بالمدينة : « ويل للمطففين »

وآخر سورة نزلت « براءة » ، وقيل . سورة المائدة ، وقيل . سورة النصر أقول ; والظاهر أن آخر سورة نزلت بالمدينة بتمامها هى سورة « إذا جاء نصر الله والفتح .. » فقد روى أنها نزلت فى حجة الوداع فى أوسط أيام التشريق على النبى صلى الله عليه وسلم ، أما براءة والمائدة فهما من أواخر السور نزولا .

« المبحث الرابع »

أسباب النزول

ينقسم القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه « إلى قسمين » .

(١) مانزل ابتداء من غير سبق سبب نزول خاص ، وهو كثير فى القرآن الكريم ، وذلك مثل الآيات التى اشتملت على الأحكام والآداب ، التى قصد بها ابتداء : هداية الخلق وإرشادهم إلى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

(٢) مانزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة ، وهو موضوع بحثنا الآن ، وليس من قصدنا فى هذا المبحث استيعاب آيات القرآن ، التى نزلت لأسباب خاصة وذكر أسبابها ، إنما قصدنا ذكر مباحث كلية تعين على تفسير كتاب الله ، ومعرفة القواعد والاصطلاحات فى هذا الباب .

وقد ألف فى أسباب النزول على سبيل التفصيل جماعة . منهم « على ابن المدينى» شيخ البخارى ، ومنهم . «الواحدى» و«ابن حجر» و«السيوطى» وله فى ذلك كتاب حافل ، سماه . لباب النقول . . فى أسباب النزول» ، وهو مطبوع على هامش تفسير الجلالين .

« ما هو سبب النزول ؟ »

سبب النزول . هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه ، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه .

والمعنى . أن حادثة وقعت ، أوسؤالا وجه إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل الوحى بتبيان مايتصل بهذه الحادثة ، أو بجواب هذا السؤال ، وذلك مثل . حادثة «خولة بنت ثعلبة » التى ظاهر منها زوجها «أوس بن الصامت» فنزلت بسببها آيات الظهار (١) ، ومثل . ماحدث بين الأوس والخزرج من

---

(١) سورة المجادلة ١ - ٤

خصومة ، بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما ، فقد نزل عقبها قوله تعالى . « ياأيها الذين آمنوا . إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ... » الآيات(١)

وسواء أكان هذا السؤال يتعلق بأمر مضى مثل قوله تعالى فى سورة الكهف . « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل . سأتلو عليكم منه ذكرا ... » الآيات (٢) ، أم يتصل بحاضر مثل قوله تعالى فى سورة الإسراء . « ويسألونك عن الروح ، قل . قل الروح من أمر ربى ، وماأوتيتم من العلم إلا قليلا »(٣) ، أم يتصل بمستقبل وذلك مثل قوله تعالى فى سورة الأعراف « يسألونك عن الساعة . أيان مرساها ؟ قل . إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو ... » الآية(٤) .

والمراد بأيام وقوعه . أن تنزل بعده مباشرة ، أو بعد ذلك بقليل ، مثل الآيات المتعلقه بقصة « أهل الكهف » و « ذى القرنين » ، فقد نزلت بعد خمسة عشر يوما من سؤالهم النبى - صلى الله عليه وسلم(٥) .

وهذا القيد فى التعريف : يخرج الآيات التى تنزل ابتداء ، بينما هى تتحدث عن قصص الأنبياء ، وأحوال الأمم معهم ، أو عن بعض الحوادث الماضية ، كسورة «الفيل» مثلا ، أو تتحدث عن مستقبل كاليوم الآخر وما فيه من نعيم أو عقاب ؛ فان هذه النصوص والأحداث لا تعتبر أسباب نزول .. فتنبه لذلك . ولا تغلط فيه كما غلط بعض العلماء(٦) .

---

(١) آل عمران ١٠٠ - ١٠٣ (٢) الآية ٨٣ ومابعدها .

(٣) الآية ٨٥ . (٤) الأعراف . الآية ١٨٧

(٥) راجع أسباب النزول . للسيوطى على هامش الجلالين جـ٢ ص٣

(٦) قال الواحدى فى تفسيره : إن سبب نزول سورة الفيل قصة قدوم الحبشة لهدم البيت ، وهو وهم لا محالة ، انظر الاتقان جـ ١ ص ٣١

«طريق معرفة سبب النزول»

لا طريق لمعرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح ، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح ، قال . الواحدى فى كتاب « أسباب النزول » . « لا يحل القول فى أسباب نزول القرآن إلا بالرواية والسماع ، ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها ، وجدوا فى الطلاب» .

فالمعول عليه فى أسباب النزول : هم الصحابة ، ومن أخذ عنهم من التابعين

ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا . وكثيراً مايجزم بعضهم بالسبب ، وربما لم يجزم بعضهم ، فقال : أحسب هذه الآية نزلت فى كذا ، كما قال «الزبير» فى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . . » الآية روى الشيخان فى صحيحيهما عن عروة بن الزبير عن أبيه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير فى شراج الحرة التى يشقون منها النخل فقال الأنصارى : سرح الماء يمر ، فأبى عليه فاختصما عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير : « اسق يازبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك » فغضب الأنصارى ثم قال : يارسول الله ؛ أن كان ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال للزبير : « يازبير احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر فقال الزبير . والله أنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » زاد البخارى « فاستوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه ، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزبير رأياً أى أراد سعة له وللأنصارى ، فلما حفظ رسول الله ﷺ استوعى رسول الله ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم ، فقال الزبير والله ما احسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك (١)

---

(١) أسباب النزول للسيوطى ج ٢ ص ٣ ، صحيح البخارى كتاب التفسير — تفسير سورة النساء .

وقول الصحابى فى سبب النزول . له حكم المرفوع ، كما نبه على ذلك الحاكم وابن صلاح وغيرهما ، من أئمة علوم الحديث ، لأنه قول فيما لا مجال للرأى فيه ، ويبعد كل البعد أن يقول ذلك من تلقاء نفسه ، فهو محمول على السماع أو المشاهدة .

وقول التابعى فى سبب النزول . له حكم المرفوع إلا أنه مرسل ، فقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان من أئمة التفسير ، الآخذين عن الصحابة . كمجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ؛ أو اعتضد بمرسل آخر ، ونحو ذلك

وممن كان عالماً بذلك من الصحابة «عبد الله بن مسعود» - رضى الله عنه - روى البخارى فى صحيحه عنه قال . « والله .. الذى لا إله غيره، ماأنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم . أين نزلت ؟ (١) ولا أنزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم . فيمن نزلت ؟ (٢) - ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله .. تبلغه الإبل ، لركبت إليه ».

وينبغى التثبت فى سبب النزول .. وإلا دخل القائل تحت قوله - ﷺ - «واتقوا الحديث على إلا ماعلمتم ؛ فان من كذب على معتمداً ، فليتبوأ مقعده من النار . . ومن كذب على القرآن - بغير علم - فليتبوأ مقعده من النار » رواه أبو داود

وكان السلف الصالح يتحرجون من القول فى سبب النزول بغير علم ، قال محمد ابن سيرين . « سألت عبيدة عن آية من القرآن ، فقال . اتق الله، وقل سداداً ، ذهب الذين يعلمون . فيم أنزل القرآن ؟ » .

---

(١) يريد المكى والمدنى (٢) يريد أسباب النزول

فوائد معرفة سبب النزول

لمعرفة سبب النزول فوائد كثيرة .. منها : -

الفائدة الأولى . الاستعانة على فهم الآية ، وإزالة الإشكال عنها . قال الواحدى - فى كتاب أسباب النزول - . «لا يمكن معرفة الآية دون الوقوف على قصتها ، وبيان نزولها » . وقال ابن دقيق العيد . « معرفة سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن » .

وقال ابن تيمية . « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب .. ولذلك أمثلة كثيرة منها :

(ا) أنه أشكل على «عروة بن الزبير» - رضى الله عنهما - أن يفهم فرضية السعى بين الصفا والمروة من قوله تعالى . « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما الاية[1] وذلك لأن الاية نفت (الجنـاح) ونفى الجناح لا يدل على الفرضية ، حتى سأل خالته السيدة (عائشة) - رضى الله عنها - عن ذلك ، فأفهمته . أن نفى الجناح ليس نفياً للفرضية ، إنما هو نفى لما وقر فى أذهان المسلمين يومئذ من التحرج والتأثم من السعى بين الصفا والمروة ، لأنه من عمل الجاهلية .

وقد روى فى سبب هـذا التحرج . أنه كان على الصفا صنم يقـال له . (إساف) وعلى المروة صنم ، يقال له . (نائلة) ، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما ، فلما ظهر الإسلام ، وكسرت الأصنـام تحرج المسلمون أن يطوفوا بينهما لذلك ؛ فنزلت الاية ، لنفى هذا الحرج .

وقيل : السبب أن بعض الأنصار كانوا يهلون لـ (مناة)[2] الطاغية عند

---

(١) مناة . اسم صنم كان فى الجاهلية . قال ابن الكلبى . كانت صخرة نصبها (عمرو بن لحى) لهذيل . وكانوا يعبدونها . والطاغية : صفة لها إسلامية .

والمشلل: — بضم الميم وفتح الشين ، واللام الأولى مفتوحة مشددة — موضع قريب من قديد وقديد . على صيغة المصدر . قرية بين مكة والمدينة كثيرة المياه قاله أبو عبيد البكرى (٢) البقرة/١٥٨

(المشلل) ، فكان من أهل منهم لمناة : يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة ، تعظيما لها ، فلما أسلموا سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذا التحرج . فأنزل الله الآية لرفع هذا التحرج.

وقد جاء بهذا وذاك الروايات الصحيحة فى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ولا منافاة بين الروايات ، لأن فريقاً منهم كان يطوف بينهما فى الجاهلية فلما جاء الإسلام تحرج من ذلك ، وبعضهم ما كان يطوف بينهما ، ويتحرج من ذلك فى الجاهلية ، تعظيما لصنمهم ، فلما جاء الاسلام استمروا على تحرجهم واستفهموا عن هذا ، فأنزل الله هذه الآية . . مزيلة لحرج الفريقين(١) .

وأياً ما كان الأمر ، فالآية لا تنافى الفرضية ، كما قالت السيدة عائشة العالمة ، ولو أراد الله ذلك لقال : « فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، كما قالت فى ردها على ابن أختها وقد تأكدت فرضية السعى بين الصفا والمروة بفعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوله : خذوا عنى مناسككم » . وقالت عائشة ـ أيضا ـ . قد سن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما » . ومعنى « سن » شرع أو فرض ، بدليل من السنة ، لا من الكتاب ، فلولا معرفة سبب النزول لما زال الاشكال ، ولفهم البعض الآية على غير وجهها .

(ب) ومن ذلك قوله تعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ـ إن ارتبتم ـ فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن . . . » فقد أشكل معنى هذا الشرط على بعض الأئمة . حتى قال الظاهرية : بأن الآيسة لا عدة عليها إذا لم ترتب ، وقد أزال هذا الاشكال سبب النزول ، ذلك أنه لما نزلت الآية التى فى سورة « البقرة » فى عدد النساء ، قالوا : قد بقى عدد

---

(١) انظر فتح البارى جـ ٣ ص ٣٩٢ وما بعدها : ففيه تحقيق الحق فى هذا المقام .

ـ بفتح العين ـ من عدد النساء لم يذكرن : الصغار والكبار ، فنزلت الآية .
أخرجه الحاكم ، عن أبى ، فعلم بهذا : أن الآية خطاب لمن لم يعلم : ماحكمهن
فى العدة وارتاب : أعليهن عدة أم لا ؟ وأعدتهن كاللائى فى سورة
البقرة . . . أم لا ؟ ، فظهر بهذا : أن المعنى ، إن ارتبتم ـ أى إن أشكل
عليكم حكمهن ، وجهلتم . كيف يعتدون ـ فهذا حكمهن .

(ج) ومن هذا قوله تعالى : «ولله المشرق والمغرب . . فأينما تولوا فثم
وجه الله»[1] . فلو تركت على ظاهرها لاقتضت : أن المصلى لا يجب عليه
استقبال القبلة . سفراً ولا حضراً ، وهو خلاف الاجماع ، فلما عرف
سبب نزولها علم أنها فى نافلة السفر ، أو فى من صلى بالاجتهاد وبان له الخطأ .
على اختلاف الروايات فى ذلك ، فلولا معرفة السبب لبقيت الآية مشكلة .

(د) ما حكى عن قدامة بن مظعون[2] وعمرو بن معديكرب أنهما كانا
يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى : « ليس على الذين آمنوا
وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا ، وعملوا الصالحات
ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين »[3] ولو أنهما
علما سبب النزول لما قالا ذلك ، ولكن خفى عليهما ، فوقعا فى هذا الرأى
الشاذ ، فقد روى « أن ناسا قالوا ، لما حرمت الخمر : كيف بمن قتلوا فى
سبيل الله . وماتوا . وكانوا يشربون الخمر . وهى رجس فنزلت ، فدل

---

(١) البقرة ١١٥ (٢) هذا هو الصحيح أنه «قدامة» ، وفى البرهان للزركشى .
ونقله عنه السيوطى فى الإتقان أنه « عثمان بن مظعون » ، وهو غلط لا محالة . لأنه ـ رضى
الله عنه ـ توفى عقب بدر . أما أخوه قدامة فهو الذى طالت به الحياة إلى خلافة
الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وكان يتأول الآية على هذا . وقد جلده الفاروق
عمر على شربه الخمر . ثم استرضاه فى آخر حياته .

ذلك أن عمر حج . وحج معه قدامة . وهو مغاضب له . فلما قفلا من حجهما
نام عمر بالسقيا ـ مكان ـ فلما استيقظ قال : عجلوا بقدامة . فو الله لقد

(٣) المائدة ٩٣

سبب التحريم على أن ذلك كان قبل التحريم . وأن الآية لا تصلح دليلا لذلك . وأيضاً فكيف تجامع التقوى شرب الخمر . ولذلك لما حاج سيدنا عمر قدامة . وصاحبه قال : « كيف يجامع شرب الخمر التقوى » ؟ !

(هـ) ومن ذلك ماروى فى الصحيح عن مروان بن الحكم أنه أشكل عليه قوله تعالى « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا . ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب . ولهم عذاب أليم[1] فبعث إلى ابن عباس فسأله . لئن كان كل امرىء فرح بما أوتى . وأحب أن يحمد بمالم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون !! فقال ابن عباس . إن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره . وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه . واستحمدوا بذلك إليه رواه الشيخان . ومقتضى جواب ابن عباس أن اللفظ وإن كان عاما الا أنه أريد به خاص .

وقد علق بعض العلماء على جواب ابن عباس — رضى الله عنهما — ما بين موافق . ومخالف قال الزركشي فى البرهان : لا يخفى عن ابن عباس

أتانى آت فى منامى فقال لى : سالم قدامة . فإنه أخوك . فجىء به فكلمه . واستغفر له الإصابة جـ ٥ ص ٣٢٣ وكانت وفاة قدامة فى خلافة على سنة ست وثلاثين وهو ابن ثمان وستين سنة . وقد نبهنا إلى هذا الغلط أستاذنا الشيخ المحدث محمد حبيب الله الشنقيطى — رحمه الله — ونحن نقرأ عليه كتاب « الإتقان » ومن العجيب أن الذين علقوا على البرهان وزعموا أنهم حققوه قدفات عليهم هذا الغلط

(١) آل عمران /١٨٨ وقد قرىء قوله تعالى « أتوا » بفتح الهمزة بغير مد ، وفتح التاء ، وهى القراءة السبعية ، أى بما جاءوا به وفعلوه ، ومنه قوله تعالى : إنه كان وعده مأتيا » أى جائيا من إطلاق اسم المفعول ، وإرادة اسم الفاعل ، وقرىء بضم الهمزة والواو ، مبنية للمجهول ، من « آتى » بمعنى أعطى ، وهى قراءة السلمى ، وسعيد بن جبير ، والأولى هى التى توافق تفسير ابن عباس ، والثانية توافق سؤال مروان .

رضى الله عنه ـ أن اللفظ أعم من السبب . لكن بين أن المراد باللفظ خاص ونظيره تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك[١] فى قوله تعـــالى . « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ... »

وقال بعض العلماء . هذا الجواب مشكل لأن اللفظ أعم من السبب. ويشهد له قوله صلى الله عليه وسلم « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» وانما الجواب أن الوعيد مرتب على أثر الأمرين المذكورين . وهما الفرح وحب الحمد ، لا عليهما أنفسهما ، إذ هما من الأمور الطبيعية التى لا يعلق بها التكليف أمراً ونهيا وقال الخازن فى تفسيره . وهذه الآية وإن كانت قد نزلت فى اليهود أو المنافقين خاصة ، فإن حكمها عام فى كل من أحب أن يحمد بما لم يفعل من الخير والصلاح أو ينسب إلى العلم وليس هو كذلك[٢].

أقول . ولعل القول بالعموم أولى ليشملهم ، وكل من على شاكلتهم إلى يوم القيامة ، وليس من شك فى أن من فرح بما فعل من إنكار الحق ، ومحاولته ستره وجحوده ، أو بما أعطى فرح بطر وأشر ، وحبه أن يحمد بما لم يفعل وبما ليس فيه من الصفات ـ ليس بمنجاة من عذاب الله لأنها من الرذائل الخلقية التى لا يرضا الاسلام .

ومن قال : إن هتين الرذيلتين اللتين تضمنتها الآية لا يسلم منها إنسان ؟!! أنا لا أوافق مروان على هذا ، ولا سيما فى العصور الأولى الفاضلة ، فقد كان معظم المسلمين ممن تأبى أخلاقهم هذا . أما ما رآه ابن عباس فهو اجتهاد منه ، وكأنه رأى فى سبب النزول صارفاً للفظ عن عمومه استقطاعاً لما استفظعه مروان، ولا حجر فى الإسلام على الاجتهاد ،ولكل وجهة هو موليها. نستجيز مخالفة مالك فى حصر المحرمات ، فيما ذكرته الاية،وهذا قد يكون من الشافعى أجراه مجرى متأويل »

---

(١) البرهان حـ ١

(٢) تفسير الخازن حـ ١ ص ٤٠٩ , وانظر تفسير الآلوسى عند هذه الآية .

الفائدة الثانية .

أنه يعين على فهم الحكمة ، التى يشتمل عليها التشريع ، وفى ذلك فائدة للمؤمن ، وغير المؤمن ، أما المؤمن : فيزداد إيماناً وبصيرة بحكمة الله فى تشريعه فيدعوه ذلك إلى شدة التمسك بها ، وأما غير المؤمن : فيعلم . أن الشرع قام على رعاية المصلحة ، وجلب المنفعة ، ودفع المضرة . فيدعوه ذلك إن كان منصفا إلى الدخول فى الاسلام ، وذلك مثل ما إذا عرفنا سبب تحريم الخمر ، عرفنــا الحكمة فى التحريم ؛ إذ أنها توقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وتذهب العقل والوقار ، وتضر بالصحة ، وتفنى الأموال فى غير طائل .

الفائدة الثالثة :

رفع توهم الحصر : قال الشافعى - ما معناه - فى قوله تعالى « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه .. الآية(١) » : إن الكفار لمــا حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة ، والمحادة ، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه . نازلا منزلة من يقول : لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول له . لا آكل اليوم إلا حلاوة . والغرض : المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة ، فكأنه قال : لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به .

ولم يقصد حل ما وراءه ، إذ القصد : إثبات التحريم لا إثبات الحل ، قال إمام الحرمين « وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لمــا كنا

الفائدة الرابعة .

معرفة اسم من نزلت فيه الآية « وتعيين المبهم فيها ، وفى ذلك إسناد

الفضل لأهله ، ونفى التهمة عن البرىء الذى ألصق به ماهو براء منه،وذلك مثل ماروى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنهما ـ . أنها ردت على «مروان ابن الحكم » حينما اتهم أخاها « عبد الرحمن بن أبى بكر » بأنه الذى نزل فيه قوله تعالى . « والذى قال لوالديه . أف لكما ، أتعدانني أن أخرج ، وقد خلت القرون من قبلى ، وهما يستغيثان الله ، ويلك آمن . . . » الاية (١) وقالت . « والله ماهو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته » .

ومثل ما إذا عرفنا سبب النزول فى قوله تعالى . «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات ، والله رءوف بالعباد»(٢) عرفنا . أن صاحب الفضل هو سيدنا «صهيب بن سنان» الرومى ـ رضى الله عنه ـ . وكذا إذا عرفنا سبب نزول قوله تعالى . « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت عليه. أمسك عليك زوجك ، واتق الله ..» الاية (٣) علمنا . أن هذا المنعم عليه هو سيدنا «زيد بن حارثة» ـ رضى الله عنه

الفـائدة الخامسة .

معرفة سبب النزول غير خارج من حكم الاية فيما إذا كان لفظ الاية عاماً ، وورد مخصص لها؛ فبمعرفة السبب يكون التخصص قاصراً على ماعداه لقيام الإجماع على دخـــول صورة السبب ، ولو لم نعرف السبب لجاز أن يكون مما خرج بالتخصيص ، مع أنه لايجوز

الفائدة السادسة .

تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى . أن العبرة بخصوص السبب ، لابعموم اللفظ ؛ فعند هؤلاء . مالايعرف السبب لايمكن معرفة المقصود بالحكم ، ولاالقياس عليه ، وتبقى الاية معطلة خالية من الفائدة

---

(١) الاحقاف الاية ١٧ (٢) البقرة الآية ٢٠٧ (٣) الاحزاب الاية ٣٧

الفائدة السابعة .

تثبيت الوحى ، وتيسير الحفظ والفهم ، وتأكيد الحكم فى ذهن من يسمع الاية ؛ إذ عرف سببها ، وذلك لأن ربـــط الأسباب بالمسببات ، والأحكام بالحوادث ؛ والحوادث بالأشخاص ؛ والأزمنة والأمكنة. كل ذلك من دواعى تقرر الأشياء ؛ وانتقاشها فى الذهن؛ وسهولة استذكارها عند تذكر مايقارنها وذلك هو فيما يعرف فى علم النفس بقانون «تداعى المعانى»

التعبير عن سبب النزول

للعلماء فى ذلك طريقتان ، استفيدتا من تتبع عباراتهم فى هذا المقام .

الأولى . قولهم . سبب نزول هذه الاية كذا ، وهذه العبارة نص فى بيان السبب ؛ ولا تحتمل غيرها ومثل هذه العبارة أن يذكر الراوى سؤالا أو حادثة ثم يقول . فأنزل الله كذا ، فهـــذه نص أيضاً . وقد لا يصرح بالإنزال . ولـكن يفهم من فحوى القصة . أن هذه الاياعه أو الاية نزلت بسبب هذا السؤال أو الحادثة . وذلك مثل رواية «ابن مسعود» الاتية فى سبب نزول آية الروح .

الثانية . قولهم . نزلت هذه الاية فى كذا ، وهذه العبارة ليست نصا فى السببية ، بل تحتمل السببية ، وتحتمل بيان المعنى ، وما تضمنته الاية من الأحكام . والقرائن هى التى تعين أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه .

قال العلامة « تقى الدين ابن تيمية » . «قولهم . نزلت الاية فى كـذا ، يراد به تارة ، سبب النزول، ويراد به تارة ، أن ذلك داخل فى الاية،وإن لم يكن السبب كما تقول ، عنى بهذه الاية كـذا ، وقد تنازع العلماء فى قول الصحابى : نزلت هذه الآية فى كذا . هل يجرى مجرى المسند كما ذكر السبب الذى أنزلت لأجله ؟ أو يجرى مجرى التفسير منه الذى ليس بمسند ؟

فالبخارى : يدخله فى المسند . وغيره : لا يدخله فيه ، وأكثر المسانيد

على هذا الاصطلاح كمسند أحمد ، وغيره . بخلاف ماإذا ذكر سببا نزلت عقبه ، فانهم كلهم يدخلون مثل هذا فى المسند .

وهذا الذى ذكره ابن تيمية وغيره من أن الآثار التى ذكر فيها سبب النزول صراحة لها حكم المسند المرفوع هو الذى ذهب أئمة علوم الحديث إليه. قال الحاكم فى « علوم الحديث » : إذا أخبر الصحابى الذى شهد الوحى ، والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا ، فإنه حديث مسند » ومشى على هذا ابن الصلاح وغير ، من أئمة الفن ، قال ابن الصلاح فى مقدمته :

وقال « الزركشى » فى البرهان : « قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية فى كذا ، فانه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السبب فى نزولها ، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالاية . لا من جنس النقل لما وقع » .

قول التابعى فى سبب النزول .

قد علمت ما تقدم من أن قول الصحابى فى سبب النزول له حكم السند . المرفوع ، وأما قول التابعى فى أسباب النزول فهو مرفوع أيضا ، لكنه مرسل لحذف الصحابى ، وقد يقبل إذا صح السند إليه ، وكان الراوى من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كما هو ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير أو اعتقد بمرسل آخر ، أو نحو ذلك .

تفريع على ما تقدم :

وعلى هذا : إذا وردت روايتان أو أكثر ؛ وكانت إحدهما نصا فى بيان سبب النزول ؛ والثانية ليست نصا فيه ، أخذنا فى السببية بما هو نص ، وحملنا الأخرى على بيان المعنى ، مثل ذلك ماأخرجه «مسلم» فى صحيحة عن جابر قال : « كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله سبحانه . «نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى

شئتم(١) . . . » الاية أى من أى جهة شئتم ، أو على أى حال شئتم ، فأنى للكيفية ، والحال ، لا للمكان .

وما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال . أنزلت « نساؤكم حرث لكم ... » فى إتيان النساء فى أدبارهن . يعنى فى تحريم ذلك .

فالمتعمد عليه فى بيان السبب هى رواية «جابر» لكونها نصا فى ذلك ، أما رواية « ابن عمر » فتحمل على بيان المعنى، وحكم إتيان النساء فى أدبارهن وهو التحريم ، استنباطا منه .

وأما إن قال ـ كل من الراويين أو الرواة ـ نزلت هذه الآية فى كذا، فهذه العبارة ليست نصا فى السببية كما ذكرنا، بل تحتمل بيان التفسير والمعنى، فإن كان اللفظ يحتمل قول كل حمل على الجميع ، وإلا ترجح ما يقتضيه اللفظ أو يشهد له السمع ، أو تؤيده الأدلة .

وأما إذا كانت كل من الروايتين أو الروايات نصا فى بيان السبب ، فهنا يكون البحث والنظر ، ولنفرد لذلك عنواناً ، فنقول : —

تعدد الأسباب ، والمنزل واحد

إذا ذكر كل من الراويين أو الرواة عبارة هى نص فى السببية ، فلذلك أحوال أربعة ، لأنها:

(١) اما أن تكون احدى الروايتين صحيحة، والأخرى غير صحيحة. (٢) إما أن تكون كل منهما صحيحة، ولكن يمكن الترجيح. (٣) واما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح ، ولكن يمكن نزول الآية عقبها . (٤) واما أن تكون كل منهما صحيحة ، ولا يمكن الترجيح، ولا نزول الآية عقبها .

واليك حكم كل حالة من هذه الحالات ، وذكر أمثلتها .

---

(١) البقرة ٢٢٢ .

الحالة الأولى :

أن تكون إحدى الروايتين صحيحة، والأخرى غير صحيحة، فالمعتمد عليه فى السبب : هى الصحيحة وترك الأخرى غير الصحيحة ، مثال ذلك: ما أخرجه الشيخان وغيرهما ، عن جندب قال : « اشتكى النبى - ﷺ - فلم يقم ليلة ، أو ليلتين، فأتته امرأة فقالت : ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله : « والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وما قلى »

ما أخرجه الطبرانى ، وابن أبى شيبة ، عن حفص بن ميسرة ، عن أمه ، عن أمها ـ وكانت خادم رسول الله ـ ﷺ ـ أن جروا دخل بيت النبى، فدخل تحت السرير ، فمات فمكث النبى ـ ﷺ ـ أربعة أيام لاينزل عليه الوحى ، فقال : ياخولة ، ماحدث فى بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتينى ! فقلت فى نفسى. لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو ، فجاء النبى ـ ﷺ ـ ترعد لحيته ـ وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته فأنزل الله . « والضحى .. » إلى قوله فترضى » .

فالمعتمد عليه هو الرواية الأولى ، لأنها صحيحة . أما الثانيــة ففى إسنادها من لا يعرف قال الحافظ ابن حجر فى « الفتح » قصة أبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفى إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما فى الصحيح » .

الحالة الثانية

أن تكون كلتا الروايتين صحيحة ، ولإحداهما مرجح ، لكون إحدى الروايتين أصح من الأخرى ، أو لكون الراوى حاضر القصة ، أو نحو ذلك من وجوه الترجيح ، فالحكم أن نأخذ من بالسبب بالرواية الراجحة ، دون المرجوحة . مثال ذلك . ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال . « كنت أمشى مع النبى - ﷺ - بالمدينة ، وهو يتوكأ على عسيب ،

فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه ؟ فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ، ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه ، حتى صعد الوحى ، ثم قال(١) « قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وأخرج الترمذى ، وصححه عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل — يريدون النبى ﷺ . فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه . فأنزل الله « ويسألونك عن الروح ... الآية(٢) .

فالأولى تدل على أن السائل اليهود ، وأن نزولها بالمدينة , والثانية . تدل على أن السائل الكفار ، وأنها نزلت بمكة . والأولى أرجح لأمرين .

(١) أنها من رواية البخارى ، وهى أصح من رواية الترمذى .

(٢) أن الراوى فى الأولى ، وهو ابن مسعود كان حاضر القصة ، ومشاهدا لها . أما الثانيه فليس فيها أن الراوى لها — وهو ابن عباس — كان مشاهداً لها ، ولا شك أن للشاهدة قوة فى التحمل(٣) .

الحالة الثالثة :

أن تكون كل من الروايتين أو الروايات صحيحة ولا يمكن الترجيح ،

---

(١) هذه الرواية وإن لم تصرح بالسبب إلا أن السببية مفهومة من فحوى القصة ، لأن ذكر الحالة التى يكون عليها النبى عند نزول الوحى ، ثم ذكر الآيه عقب ذلك ، كالنص على السببية . وهذه الرواية هى ما أردت التمثيل بها لما ذكرته آنفاً فى التعبير عن سبب النزول .

(٢) الإسراء ٨٥ .

(٣) يرى ابن كثير الجمع بينهما بتكرر النزول . وكذا قال ابن حجر . وأما الترجيح : فهو رأى السيوطى فى الاتقان . وأسباب النزول أنظر الاتقان حـ ١ ص ٣٢ وأسباب النزول جـ١ ص ٢٢٦ هامش الجلالين .

ولكن يمكن نزول الآية أو الآيات عقب السببين أو الأسباب، لعدم العلم بالتباعد، فيحمل ذلك على تعدد السبب والمنزل واحد.

مثال ذلك: ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة، عن ابن عباس: أن هلال ابن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء[1]. فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ البينة أو حد فى ظهرك، فقال: يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا، ينطلق يلتمس البينه؟ فجعل النبي ﷺ ـ يقول: البينة، أو حد فى ظهرك. فقال هلال: والذى بعثك بالحق إنى لصادق، ولينزلن الله ما يبرىء ظهرى من الحد؛ فنزل جبريل، وأنزل الله: «والذين يرمون أزواجهم ...» فقرأ حتى بلغ «... إن كان من الصادقين»[2]

وروى مسلم فى صحيحه بسنده، عن أنس بن مالك قال: «إن هلال بن أمية، قذف امرأته بشريك بن سحماء، وكان أخا للبراء بن مالك لأمه، وكان أول رجل لاعن فى الإسلام .. الحديث.

وهذه الرواية تدل أيضا، لكن لا بطريق التصريح على أن الآية نزلت بسبب «هلال».

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال: «جاء «عويمر» إلى عاصم بن عدى: فقال: اسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا .. أيقتله؟ فتقتلونه؛ أم كيف يصنع به؟. فسأل عاصم رسول الله، فكره رسول الله المسائل، فأخبر عاصم عويمراً، فقال: والله لآتين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلأسألنه، فأتاه فسأله، فقال: إنه قد

---

(١) ـ سحماء ـ بالسين ثم الحاء المهملتين. اسم أمه، ثم اسم أبيه. عبدة بن مغيث بن الجعد بن عجلان البلوى حليف الأنصار) الاصابة جـ ٢ ص ١٥٢). وقد ذكر فى الاتقان. ابن سمحاء ـ بتقديم الميم ـ وهو خطأ مطبعى لا محالة.

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ سورة النور.

أنزل الله فيك ، وفى صاحبتك القرآن .. ، الحديث .

فهتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لأحدهما ، ويمكن الجمع بينهما بأن أول من سأل « هلال بن أمية » ثم سأل « عويمر » أيضا قبل الإجابة ، فأنزل الله آيات اللعان ، إجابة لهما معا .

وهذا التوفيق بين الروايتين أولى من ردهما ، إذ لا يصار إليه إلا عند تعذر الجمع ، أو الأخذ باحداهما دون الأخرى ، لما فيه من الترجيح بلا مرجح وهو غير جائز .

وإلى هذا .. جنح الإمام النووى ، فقال : « ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً ، فلعلهما سألا فى وقتين متقاربين ، فنزلت الاية فيهما»[1] .

وسبقه الخطيب فقال : « لعلهما اتفق لهما ذلك فى وقت واحد» ، وهذا مارجحه السيوطى فى الاتقان ، وأسباب النزول .

وإذا انضم إلى هاتين الروايتين ما رواه البزار عن حذيفة قال : : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر : لو رأيت مع أم رومان رجلا . .

---

(١) شرح النووى على مسلم جـ ١٠ ص ١٢٠ .

وقال الحافظ فى الفتح ما خلاصته . وقد اختلف الائمة فى هذا الموضـــع منهم من رجح . أنها نزلت فى شأن عويمر ومنهم من رجح . أنهـا نزلت فى شأن هلال . وجاء عويمر ، ولم يكن علم بما وقع لهلال . وما أنزل الله بشأنه فأخبره النبى بالحكم وبنزول آيات فى ذلك . ومنهم من جمع بينهما . بأن أول من وقع له هلال . وصادف مجىء عويمر أيضا فنزلت فى شأنهمـا معا فى وقت واحد . ثم ذكر أن القرطبى جنح إلى تجويز تكرر النزول (الفتح جـ٨ص٢٦٣) ولعل ماذهب اليه السيوطى فى الجمع بينهما هو الأولى والأسلم .

وقال الحافظ فى الفتح (جـ٩ ص ٢٧١) فى شرح أحاديث اللعان . وقد قدمت اختلاف أهل العلم فى الراجح من ذلك . وبينت كيفية الجمع بينهما فى تفسير سورة «النور» . بأن يكون هلال سأل أولا ثم سأل عويمر فنزلت فى =

ما كنت فاعلا ؟ قال : شراً . قال : فأنت يا عمر ؟ قال : كنت أقول : لعن الله الأعجز ، وإنه لخبيث ، فنزلت ».

وعلى هذا تكون الايات نزلت عقب هذه الأسباب كلها. قال الحافظ « ابن حجر » فى الفتح : « لا مانع أن تتعدد القصص ، ويتحد النزول » .

الحالة الرابعة :

استواء الروايتين أو الروايات فى الصحة ، ولا مرجح لأحدهما ، ومع عدم إمكان نزول الاية عقبهما ، لتباعد الزمان ، فالحكم . أن يحمل الأمر على تكرر النزول ، ولا مانع من تكرر النزول ؛ بل له حكم . قال (ابن الحصار) . « قد يتكرر نزول الاية تذكيراً وموعظة » ، وقال (الزركشى) فى البرهان . « قد ينزل الشيء مرتين ؛ تعظيما لشأنه ، وتذكيرا به عند حدوث سببه ، وخوف نسيانه » .

ومثال ذلك . ما أخرجه البيهقى والبراء عن أبى هريرة « أن النبى - صلى الله عليه وسلم - وقف على (حمزة) حين استشهد ، وقد مثل به ، فقال . لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل - والنبى واقف - بخواتيم سورة (النحل) « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ... » إلى آخر السورة » .

وأخرج الترمذى ، والحاكم ، عن أبى بن كعب قال « لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة ، منهم . حمزة ، فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار . لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله - سبحانه - وإن عاقبتم فعاقبوا ... » الآية[1]

= شأنهما ، وظهر لى الآن : احتمال أن يكون عاصم سأل قبل النزول ثم جاء هلال بعده فنزلت عند سؤاله ، فجاء عويمر فى المرة الثانية التى قال فيها : إن الذى سألتك عنه ... قد ابتليت به . فوجد الآية نزلت فى شأن هلال . فأعلمه النبى بأنها نزلت فيه . يعنى : أنها نزلت فى كل من وقع له ذلك . لأن ذلك لا يختص بهلال .

(١) النحل ١٢٦ — ١٢٨

فالأولى . تفيد أن الايات نزلت عقب أحد . والثانية . تفيد أنها نزلت يوم الفتح ، وبين أحد والفتح حوالى خمس سنين ، فيبعد نزول الايات عقبهما ، مع التباعد فى الزمن ، وإذا : فلا مناص من القول . بتعدد النزول مرة يوم أحد ومرة يوم الفتح .

وهذا على أن سورة « النحل » مكية إلا خواتيمها كما روى .

وقد ذهب البعض . إلى أن سورة « النحل » كلها مكية بما فيها هذه الايات . وعلى هذا الرأى . تكون نزلت ثلاث مرات . مرة بمكة ، ومرة ثانية عقب أحد ، ومرة ثالثة يوم الفتح .

وفى هذا التكرار . تذكير الله لعباده بما اشتملت عليه الايات من الإرشادات والاداب العالية ، وهى . تحرى العدالة والإنصاف عند الانتصار للنفس ، وكبح جماح شهوة التشفى والإسراف فى الانتقام عند النصر والظفر بالأعداء ، وضبط النفس عند الغضب ، والتذرع بالصبر عند وقوع المكروه ، والتحلى بسعة الصدر ، وجمال التقوى فى جميع الحالات .

وقد جهل « ابن كثير » و « ابن حجر » من هذا القسم آية الروح ، وكأنهما لا يريان الجمع بين الروايتين بالترجيح كما بينا ، ويريان الجمع بينهما بتكرر النزول .

ومما ذكر من هذا القبيل . سورة « الاخلاص » ، فقد روى أنها نزلت جوابا للمشركين ، وروى أنها نزلت جوابا لأهل الكتاب بالمدينة ، فحمل على تكرر النزول .

ومن ذلك سورة « الفاتحة » ، فقد ذكروا أنها نزلت مرتين . مرة بمكة ومرة بالمدينة .

وقد أنكر بعض العلماء كون شىء من القرآن تكرر نزوله . . وعلله

بأن تحصيل ما هو حاصل لا فائدة فيه . وهو مردود بما ذكرنا من الفوائد والحكم (١) .

تنبيـــــه

قد يكون فى إحدى القصتين : « فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذا » فيغلط الراوى فيقول : فنزل كذا ، فيظن : أن ذاك سببا للنزول وليس كذلك ، فينبغى التنبه لذلك ، وتحرير لفظ الرواية ، وبذلك يسهل علينا الوصول إلى الحق والصواب فى أسباب النزول .

مثاله : ما أخرجه الترمذى وصححه ؛ عن ابن عباس قال :« مر يهودى بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : كيف تقول يا « أبا القاسم » إذا وضع الله السموات على ذه ، والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل الله : « وما قدروا الله حق قدره ! والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ... » الآية(٢) وقد وهم الراوى فى قوله : « فأنزل » والحديث ورد فى الصحيح بلفظ « فتلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » وهو الصواب ؛ ومما يؤيد هذا . أن الآية مكية لا مدنية :

ومن أمثلته . ما أخرجه البخارى ، عن أنس قال . « سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأتاه ، فقال . إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى » .

١ - ما أول أشراط الساعة ؟ .

٢ — وما أول طعام أهل الجنة ؟ .

٣ — وما ينزع الوالد إلى أبيه ، أو إلى أمه ؟ .

قال . أخبرنى بهن جبريل ـ عليه السلام ـ آنفا ، قال جبريل ؟ قال نعم

---

(١) الاتقان جـ ١ ص ٣٦ (٢) الزمر ٦٧

ذلك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية . « من كان عدوا لجبريل ، فإنه نزله على قلبك بإذن الله ، مصدقا لما بين يديه ... » الاية . قال « ابن حجر » - فى شرح البخارى . « ظاهر السياق. أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ الاية رداً على اليهود ، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ . قال . وهذا هو المعتمد ، فقد صح فى سبب نزول الاية قصة غير قصة « ابن سلام »[١] .

وهكذا يتبين لنا . أن . « فتلا كذا » أو « فقرأ كذا » لاتدل على أنها نزلت حينئذ ويكون ذكرها عقب القصة ، للاستشهاد كما فى الأولى ، أوللرد كما فى الثانية .

« تعدد المنزل ، والسبب واحد »

قد يكون الأمر الواحد سببا لنزول آيتين أو آيات متعددة متفرقة ، وذلك عكس ما تقدم . ولا إشكال فى ذلك ، ولا بعد ؟ فقد ينزل فى الوقعة الواحدة آيات عديدة فى سور شتى ، تبيانا وإرشادا للخلق ، وإقناعا للسائل .

من أمثلة ذلك - السبب الواحد تنزل فيه الايتان - . ما أخرجه البخارى من حديث زيد بن ثابت . « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمل عليه « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله . . . » ، فجاء ابن أم مكتوم وقال . يا رسول الله ؛ لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله . « غير أولى الضرر »[٢]

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن زيد بن ثابت أيضاً قال . « كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم فإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمر بالقتال فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينظر ماينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال . كيف لى يارسول الله . . وأنا أعمى ، فأنزل الله . « ليس على الضعفاء . . » الاية (٣) .

---

(١) أنظر أسباب النزول للسيوطى ج ١ ص ١٨ ، ١٩ هامش الجلالين .

(٢) النساء الآية ٩٥ ، ٩٦

(٣) التوبة . الاية ٩١ .

ومن أمثلته أيضاً ـ السبب الواحد تنزل فيه أكثر من آية ـ ، أخرجه الترمذي والحاكم ، عن أم سلمة أنها قالت . « يارسول الله، لاأسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله . « فاستجاب لهم ربهم . انى لا أضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو أنثى ، بعضكم من بعض .. » الاية(١) .

وأخرج الحاكم عنها ـ أيضاً ـ قالت . « قلت . يا رسول الله ، تذكر الرجال ولا تذكر النساء ، فأنزل الله . « إن المسلمين والمسلمات ... » الاية(٢) ، وأنزلت . « أني لا أضيع عمل عامل منكم. من ذكر وأنثى.. » الاية.

وأخرج أيضاً عنها . أنها قالت « تغزو الرجال ، ولا تغزو النساء ، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله ـ سبحانه ـ « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض »(٣) وأنزل . « إن المسلمين والمسلمات . . الاية » .

فالظاهر . أن واقعة السؤال واحدة . وأن الايات الثلاث نزلت بعد هذا السؤال ؛ ولا يبعد هذا اختلاف صيغة السؤال ؛ لجواز أن يكون سؤالها عاما شاملا لكل ماروى ، ولكن الراوى اقتصر على السؤال دون بعض . أو تذكر بعضه ونسى البعض .

عموم اللفظ وخصوص السبب

هذا الموضوع من الموضوعات التى عنى بها الأصوليون فى كتبهم وذلك لأنهم ينظرون فى حال الأدلة من حيث إفادتها للأحكام من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد ونحو ذلك . وقد يكون الدليل عاما مع خصوص السبب فيحتاج الأصولى إلى بيان حال الدليل من حيث كونه يتخصص بسببه أو يعم باعتبار لفظه . ولا نظر للسبب إلا من حيث أن الأفراد التى يتنا ولها

---

(١) آل عمران ١٩٥ .

(٢) الأحزاب الاية ٣٥ .

(٣) النساء : الاية ٣٢ .

الدليل العام تكون من نوع ذلك السبب ، وهو مع كونه من مباحث علم الأصول ، فهو بسبب وثيق من مبحث أسباب النزول الذى هو من أنواع «علوم القرآن» .

وقبل أن نفصل الخلاف فى هذا الموضوع نذكر أحوال كل من السبب واللفظ النازل عليه من عموم وخصوص فنقول : القسمة العقلية تقتضى أربع صور وهى :

١ — أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه خاصاً .

٢ — أن يكون كل من السبب واللفظ النازل عليه عاما .

وهذان القسمان ليسا محل خلاف بين العلماء لأن المطالبة حاصلة بين السبب الذى هو بمنزلة السؤال وبين اللفظ المنزل عليه الذى هو بمنزلة الجواب له .

٣ — أن يكون السبب عاما واللفظ النازل عليه خاصاً وهذا القسم وإن صح عقلا لكنه لا يجوز بلاغة لعدم وجود التطابق بين السبب الذى هو بمنزلة السؤال واللفظ النازل عليه الذى بمنزلة الجواب له فيكون بمنزلة من يقول هل للمسلمين أن يفعلوا كذا فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك حال الباقين ، ومن ثم لم يقع هذا فى الكلام البليغ كالقرآن والسنة .

٤ — أن يكون السبب خاصاً واللفظ النازل عليه عاما وهذا القسم جائز عقلا وواقع فعلا إذ لا ضير فيه ولا خلل بل هو أتم وأوفى بالمقصود قال الزمخشرى فى تفسيره سورة الهمزة «يجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح وليكون ذلك جاريا مجرى التعريض» .

وهذا القسم هو محط اختلاف العلماء ، فذهب الجمهور من العلماء إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لحادثة خويلة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها «أوس بن الصامت» كانت سبباً لنزول آيات الظهار وهى قوله

تعالى « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم(١) . فاللفظ النازل عام لأنه اسم موصول وهو من صيغ العموم ويدخل تحت هذا العموم خولة ومن كان على شاكلتها ممن يظاهر منهن ، وحادثة هلال بن أمية الذى رمى امرأته بشريك بن سحماء قد نزل بسببها آيات اللعان وهى « والذين يرمون أزواجهم » الآيات(٢) . فاللفظ النازل عام وهو شامل لمن نزلت فيه الاية ولغيره ممن هو شاكلته ، هذا هو رأى الجمهور .

وذهب غير الجمهور إلى أن العبرة بخصوص السبب يعنى . أن لفظ الاية يكون قاصراً على من نزلت بسببه الآية ، فآيات الظهار مثلا لفظها خاص بخولة بنت ثعلبة ومظاهرة زوجها منها . وآيات اللعان لفظها خاص بهلال بن أمية . أما حكم غيرهما ممن يشبههما فلا يكون مستفاداً من لفظ الاية . أنما يستفاد بطريق القياس أو بالاجتهاد لدخوله تحت القاعدة المعروفة عند عند الأصوليين وهى « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة(٣) .

تنبيهات :

١ — ينبغى أن يلاحظ أن هذا الخلاف القائم بين الجمهور وغيرهم محله إذا لم تقم قرينه على تخصيص لفظ الاية العام بسبب نزوله أما إذا قامت تلك القرينة فأن الحكم يكون مقصوراً على سببه لا محالة بإجماع العلماء .

---

(١) سورة المجادلة الايات ٢-٤ .

(٢) سورة النور الاية ٦-٩ .

(٣) جرت كتب الأصول على عد هذا الكلام حديثاً وهو بهذا اللفظ لا يعرف ولا يثبت على النبى صلى الله عليه وسلم وإنما هو فى معنى حديث رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . والنسائى وابن ماجه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى مبايعة النساء « أنى لا أصافح النساء وما قولى لامرأة واحدة الا كقولى لمائة امرأة » أنظر . كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس جزء ١ ص ٢٦٤

٢ — لا يتوهمن متوهم أن غير الجمهور يقولون بعدم عموم أحكام الايات النازلة على أسباب خاصة فالكل من الجمهور وغيرهم متفقون على عموم أحكام هذه الايات غير أن الجمهور يقولون أن العموم مستفاد من اللفظ أما غير الجمهور فيقولون أن صورة السبب معلومة من اللفظ قطعاً أما غير صورة السبب فحكمها مستفاد بالقياس أو الاستدلال كما ذكرنا.

قال الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية فى «أصول التفسير» (١) ما ملخصه « قد يجىء كثير من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت فى كذا لاسيما إذا كان المذكور شخصاً لقولهم إن آية الظهار نزلت فى امرأة ثابت بن قيس ابن شماس (٢) ، وأن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله ، وأن آية «وأن احكم بينهم بما انزل الله» نزلت فى بنى قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة ، أو فى قوم من اليهود والنصارى ، او فى قوم من المؤمنين فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا ان حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم فأن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الأطلاق والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ فلم يقل احد ان عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال: انها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ. والآية التى لها سبب معين إن كان أمـــراً او نهياً فهى متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته ».

مقدمة فى أصول التفسير ص ١٢ - ١٣ الإتقان جزء ١ ص ٣

(٢) المعروف أن آية الظهار نزلت فى امرأة أوس بن الصامت ، وهذا هو الذى تظاهرت عليه الروايات فى كتب التفسير وأسباب النزول . وقيل أنها نزلت بسبب سلمة بن صخر الأنصارى لما ظاهر من زوجته ، والحق هو الأول وأن لسلمة قصة أخرى ، وعلى كثرة التحرى والبحث لم أجد أحداً روى أنها نزلت فى امرأة ثابت بن قيس بل رجعت إلى تواريخ الصحابة على أجد فى ترجمة ثابت =

وثمرة هذا الخلاف ترجع إلى امرين :-

١ – ان الحكم على افراد غير السبب مدلول عليه بالنص النازل فيه عند الجمهور وذلك النص قطعى الثبوت اتفاقا وقد يكون مع هذا قطعى الدلالة أما غير الجمهور فالحكم عندهم على غير افراد السبب ليس مدلولا عليه بالنص بل بالقياس او الاستدلال بالكلمة المعروفة عند الأصـــوليين وكلاهما غير قطعى .

٢ – أن أفراد غير السبب يتناولها الحكم عند الجمهور ما دام اللفظ قد تناولها أما غير الجمهور فلا يسحبون الحكم الا على ما استوفى شروط القياس دون سواه إن أخذوا فيه بالقياس

أدلة الجمهـــور

استدل الجمهور على ماذهبوا إليه بأدلة نكتفى منها بما يأتى :

الدليل الأول : احتجاج الصحابة وغيرهم من الأئمة المجتهدين فى جميع الأعصار فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة ، وهذا أمر شائع ذائع بينهم ولم يعرف عنهم أنهم لجأوا إلى قياس أو استدلال بغير لفظ الآيات ، فدل ذلك على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ومن ذلك احتجاجهم بآية السرقة فى قطع يد كل سارق مع نزولها فى حادثة خاصة وهى سرقة المجن أو رداء صفوان واحتجاجهم بآيات حد القذف على حد كل قاذف مع أنها نزلت بسبب الذين رموا السيدة الحصان عائشة رضى الله عنها بالإفك ؛

= مايدل على ذلك فلم أجد فتأكدت أن هذا سهو من الإمام – رحمه الله والسهو من طبيعة الإنسان ، ولاسيما والإمام بن تيمية كان جل اعتماده فى كتبه على الذاكرة والإلقاء على تلاميذه ، ومريديه ، ولم يكن عنده من الاستقرار وفسحة الوقت مايجعله يراجع ما أملاه ، ويتدارك ماعسى أن يكون فيه من سهو واسيار والعصمة لله وحده .

وكذلك بآيات اللعان وبآيات الظهار مع نزولها على أسباب خاصة على ماذكرت لك آنفاً وهكذا .

ومما يدل على اعتبار الصحابة ومن بعدهم للعموم ما رواه ابن أبى حاتم بسنده عن نجدة الحنفى قال . سألت ابن عباس عن قوله تعالى « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جـزاء بمـا كسبا نكالا من الله » أخاص هو أم عام ؟ قال عام .

وروى ابن جرير بسنده عن أبى معشر نجيح قال سمعت سعيداً المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى فقال سعيد : أن فى بعض كتب الله أن لله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للنـاس مسوك الضأن من اللين يجترئون الدنيا بالدين قال الله تعالى : أعلى يجترئون وبى يغترون ! ؟ وعزتى : لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران ، فقال محمد بن كعب القرظى هـذا فى كتاب الله ، فقال سعيد وأين هو من كتاب الله ؟ قال قول الله عز وجل . « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام(١) وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها . . » الآية (٢)

فقال سعيد : فقد عرفت فيمن أنزلت فقال محمد بن كعب . إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد .

قال ابن كثير(٣) : وهذا الذى قاله القرظى حسن صحيح .

---

(١) شديد الخصومه والعداوة للمسلمين .

(٢) البقرة الآية ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ١ ص ٦٤٧ ط المنار ، الإتقان جزء ١ ص ٢٩ وقد جاء نص هذا الأثر فى الإتقان مصحفاً محرفاً وقد إعتمدت فيما نقلته على تفسيرى ابن جرير وابن كثير وفى تفسير القرطبى أن هـذا الأثر رواه الترمذى أيضاً والمسوك جمع مسك بفتح الميم وهو الجلد .

الدليل الثانى : قالوا لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ للزم استعمال العام فى الخاص وفى هذا صرف له عما وضع له بغير قرينة مانعـــة من العموم واللازم باطل فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بعموم اللفظ

فإن قال قائل إن خصوص السبب مانع من حمل اللفظ على العموم فهو قرينة صارفة . قلنا : أن خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من متناول اللفظ فلا يصلح إذاً أن يكون صارفا عن استعمال العـام فى معنـاه الموضوع له وهو أفراده التى منها صورة السبب وغيره .

وبهذا ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ادلة غير الجمهور

استدل غير الجمهور بأدلة نكتفى منها بما يأتى :

الأول . قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لجـاز إخراج صورة السبب بالتخصيص لكن التالى باطل فبطل ماأدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب .

أما وجه الملازمة فإن اللفظ العام يجوز إخراج أى صورة منه بالتخصيص فتكون صور السبب كغيرها فى جواز إخراجها من اللفظ العام ، وأما وجه بطلان التالى فلأن الإجماع منعقد على عدم جواز إخراج صورة السبب من اللفظ العام وأجيب عن هذا الدليل بأن عدم جواز إخراج صورة السبب إنما جاء من دليل آخر وهو الإجماع لا من جهة كونه غير عام ودليلهم إنما يتم لهم الاستدلال به لو أن عدم الجواز جاء من جهـة كون اللفظ غير عام وليس الأمر كذلك وعلى هذا فالملازمة غير مسلمة وباطلة وثبت أن هذا الدليل لا ينهض للاحتجاج به فلا تثبت به الدعوى .

الثانى . قالوا لوكانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لما كان لذكر

السبب فائدة لكن التالى ـ وهو عدم الفائدة ـ باطل فبطل ماأدى إليه ـ وهو مافرضناه من أن العبرة بعموم اللفظ ـ وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

وأجيب عن هذا بأننا لا نسلم لكم انتفاء الفائدة مطلقاً إذ لا يلزم من نفى الفائدة المعينة وهى تخصيص الحكم بالسبب نفى الفائدة المطلقة بل هناك فوائد كثيرة غير هذه وقد تعرضنا للكثير منها فى صدر البحث وبهذا لا يصلح هذا الدليل للاحتجاج فلا تثبت به الدعوى .

الثالث : قالوا لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لكان اللفظ الذى هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب الذى هو بمنزله السؤال لكن عدم المطابقة باطلة لأنه ينافى كون القرآن فى أعلى درجات البلاغة فبطل ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ وقد أجيب عن هذا بمنع الملازمة وهى عدم المطابقة إذ المطابقة حاصلة وزيادة الجواب عن السؤال لا تخرجه عن المطابقة لأنه اشتمل على المقصود وزاد عليه ومثل هذا الأسلوب لا ضير فيه ولا يخل بالبلاغة بحال من الأحوال وإنما يخل بها لو كان الجواب خاصاً والسؤال عاماً لعدم المطابقة حينئذ ، وعلى هذا فلا يصح هذا الدليل فلا تثبت به دعواكم .

وإذ قد بطلت أدلة غير الجمهور وبقيت أدلة الجمهور قوية سالمة من البطلان كان رأيهم هو المعول عليه

مثال للفظ خاص نزل على سبب خاص

ماذكرنا من خلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو فى لفظ له عموم ونزل على سبب خاص أما إذا كانت آية نزلت بسبب خاص ولا عموم للفظها فإنها تقصر عليه قطعاً وقد مثل الامام السيوطى فى الاتقان(١) لذلك بقوله تعالى

(١) الإتقان جزء ١ ص ٣٠

« وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى [١]» فإنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ـ بالأجماع[٢] قال : « وقد استدل بها الامام فخر الدين الرازى مع قوله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم » على أنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووهم من ظن أن الآية فى كل من عمل عمله اجراء له على القاعدة وهذا غلط ، فإن هذه الآية ليست فيها صيغة عموم اذ الألف واللام ـ يعنى قوله «الاتقى» ـ انما تفيد العموم اذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع زاد قوم : أو مفرد بشرط أن لا يكون هناك عهد ، واللام فى «الاتقى» ليست موصولة ، لأنها لا توصل بأفعل التفصيل اجماعاً ، واللائق ليست جمعاً بل هو مفرد ، والعهد موجود خصوصاً مع مايفيده صيغة أفعل من التميز وقطع المشاركه فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضى الله عنه

وبعض المفسرين يرى احتمال الآية للعموم مع قولهم ، أنها نزلت فى الصديق رضى الله عنه فتكون له ولغيره ممن هو على شاكلته وفسروا الأتقى بالتقى كما فسروا « الأشقى » ، وهو أمية بن الخلف بالشقى فتشمله وتشمل غيره ممن يعمل بمثل عمله ومن هو على صفته واستدلوا لقولهم هذا بقول طرفة

تمنى رجال أن أموت وأن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى واحد ووحيد « وتوضع أفعل موضع فعيل نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير « وهو أهون عليه » أى هين [٣]» وممن يحمل الآية على العموم العلامة ابن كثير فى تفسيره قال[٤] « وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن

---

(١) سورة الليل الآية ١٧ — ١٨

(٢) الأكثرون من العلماء على هذا وقيل نزلت فى أبى الدحداح — كما قاله عطاء والسدى ـ ولا يأتى الاجماع الا إذا اسقطنا من الاعتبار رأى المخالف .

(٣) تفسير القرطبى جزء ٢٠ ص ٨٨ .

(٤) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ٩ ص ٢٢٦ .

هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حتى أن بعضهم[١] حكى الاجماع من المفسرين على ذلك ولا شك أنه داخل فيها وأولى الامة بعمومها فأن لفظها لفظ العموم وهو قوله « وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الاوصاف الحميدة ، فأنه كان صديقا تقياً كريما جواداً بذالا لأمواله فى طاعة مولاه ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لاحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله واحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل » .

وأياما كان المراد من لفظ الأتقى فالآيات نص فى الدلالة على فضل الصديق الأكبر رضى الله عنه وأرضاه ؛ لأن السبب يدخل فى الآية دخولا أولياً

شبيه بالسبب الخاص مع اللفظ العام

قد تنزل بعض الآيات على الأسباب الخاصة اوتوضع مع ما يناسبها من الآى العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق وتناسب الآيات فيكون ذلك الخاص قريباً من صورة السبب فى كونه قطعى الدخول فى العام وقد اختار الإمام ابن السبكى فى «جمع الجوامع» أنه رتبه متوسطة دون السبب وفوق التجرد ومثاله قوله تعالى « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً »[٢]

فقد نزلت هتان الآيتان فى كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود

---

(١) لعل مراده الإمام الرازى (٢) النساء الآية ٥١ — ٥٢ .

لما قدموا مكة بعد بدر (١) ليحرضوا قريشا على قتال النبي ﷺ والأخذ بالثأر فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان بن حرب فأحسن مثواه ونزل بقية اليهود دور قريش فقال سفيان لكعب : أنك أمرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم أينا أهدى طريقا نحن أم محمد ؟ فقال كعب أعرضوا على دينكم فذكر له أبو سفيان بعض فضائلهم فقال كعب أنتم - والله - أهدى سبيلا مما عليه محمد وأصحابه !!!

قال هذا مع علمه هو ومن معه من اليهود بما في كتابهم التوراة من نعت النبي الأمي العربي المبعوث في آخر الزمان ، وأخذ المواثيق عليهم أن يؤمنوا به ويصدقوه ولا يكتموا أوصافه ؛ فكان هذا أمانة لازمة لهم وعليهم أن يؤدوها ، وكان قول كعب بن الأشرف ومن وافقه خيانة لهذه الأمانة التي ائتمنوا عليها وأمروا بأدائها إذا حان وقتها وقد وبخهم الله سبحانه على خيانتهم هذه ولعنهم وتوعدهم عليها وقد اقتضى هذا التوعد واللعن الأمر بمقابل خيانتهم وهو أداء الأمانة الخاصة التي هي بيان صفة النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يجدون نعته عندهم مكتوبا في التوراة ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم بل أشد ، ثم جاء بعده الأمر بأداء الأمانات عامة في قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا

---

(١) هذا ماذكره السيوطي في الاتقان وفي تفسير الجلالين وما ذكره الجلال المحلي في شرحه على جمع الجوامع .

وفي تفاسير البغوي والقرطبي والألوسي أن قدوم كعب وأصحابه كان بعد أحد في الصحيح الأول فقد قتل كعب بن الأشرف قبل أحد على الصحيح (البداية والنهاية لابن كثير جزء ٤ ص ٥ ومابعدها) نعم قد جاء في رواية أخرى أن الآيتين نزلتا في الوفد من اليهود الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله وذلك أنهم لما قدموا على قريش سألوهم هذا السؤال فأجابوهم بهذا الجواب ولم يكن في هؤلاء كعب قطعا فلعل من ذكر أن الآية نزلت بسبب الوفد الذين قدموا بعد أحد أراد هذه القصة ولكن وهم في ذكر كعب بن الأشرف في الوافدين .

حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيرا»(١)

فكانت المناسبة رائعة حقاً ، والاتصال وثيقاً ، والانتقال فى غاية الحسن والجمال ، إذ أن آية الأمانة عامة فى كل أمانة ، وما تقدم كان فى أمانة خاصة ، والعام تال للخاص فى الرسم متراخ عنه فى النزول ، وهذه المناسبة تقتضى دخول ما دل عليه الخاص فى العام دخولا أولياً ، فهو كسبب فى كونه قطعى الدخول فى اللفظ النازل بسببه ولا يجوز خروجه بالإجماع .

وقد اعتبر الإمام ابن السبكى هذا النوع مرتبة متوسطة دون السبب وفوق التجرد أما كونه دون السبب فلأن الأولى ليست سببا فى الثانية اصطلاحا وأما كونه فوق التجرد فلهذه المناسبة القوية بين الخاص والعام ودخول الأول فى الثانى .

ولا يرد على ما ذكرنا تأخر الآية الثانية عن الأولى بنحو ست سنين لأن الزمان إنما يشترط فى سبب النزول لا فى المناسبة لأن المقصود منها وضع الآية فى الموضع الذى يناسبها ، والآيات كانت تنزل على أسبابها ويأمر النبى صلى الله عليه وسلم بوضعها فى المواضع التى علم من الله أنها مواضعها ، وهذا الكلام الذى قاله ابن السبكى ونقله عنه السيوطى فى الاتقان من الحسن بمكان ، وقد نبه إلى هذه المناسبة البديعة بين الآيات الإمام القرطبى فى تفسيره(٢) حيث قال « وجه النظم بما تقدم أنه ـ تعالى ـ أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم إن المشركين أهدى سبيلا ، فكان ذلك خيانة منهم فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات » .

---

(١) النساء ٥٨ .

(٢) تفسير القرطبى جزء ٥ ص ٢٥٧ .

المبحث الخامس

(نزول القرآن على سبعة أحرف)

هذا المبحث من المباحث التى تناولها العلماء فى تآليفهم . بل وأفردها بعضهم بالتأليف . وقد اختلفت فيه آراؤهم وأنظارهم اختلافا كثيراً وكثرت فيه الأقوال كثرة ظاهرة . حتى لقد بلغ بها «السيوطى فى الاتقان - نقلا عن ابن حبان ، خمسة وثلاثين قولا .

وليس من شك فى أن هذا البحث شائك ، ودحض مزلة ، والباحث فيه يحتاج إلى شىء غير قليل من البصر بموضع قدمه . ومن الأناة والصبر . ولا تعجب إذا خفى المراد على بعض العلماء فعد الحديث مشكلا ، وتوقف عن بيان المراد منه . وبعضهم جعل حقيقة العدد غير مقصودة ، وأن المراد التكثير من غير حصر . وأتى بعضهم بآراء ما أنزل بها من سلطان !

ولكى نصل إلى بيان الحق والصواب ، نرى لزاماً علينا ذكر الروايات الثابتة فى هذا المعنى بشىء من التفصيل كى تكون لنا نبراسا نهتدى على ضوئه لمعرفة المراد .

الحديث متواتر :

ويحسن أن ننبه قبل هذا التفصيل إلى أن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف ، ورد من رواية جمع كثير من الصحابة ، حتى نص الإمام «أبو عبيد القاسم بن سلام » على تواتره ، فقد رواه من الصحابة : أبى بن كعب ، وأنس بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن أرقم ، وسمرة ابن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبدالرحمن ابن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبى سلمة ، وعمرو بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبو بكرة ، وأبو جهم

وأبو سعيد الخدرى ، وأبو طلحة الأنصارى ، وأبو هريرة ، وأم أيوب الأنصارى - امرأة أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنهم أجمعين ؛ فهؤلاء أحد وعشرون صحابياً [١] .

وأخرج الحافظ «أبو يعلى» فى مسنده : أن عثمان قال على المنبر : (أذكر الله رجلا سمع النبى - ﷺ - قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، كلها كاف شاف » لما قام ، فقاموا حتى لم يحصوا ، فشهدوا بذلك فقال : وأنا أشهد معهم) . وهذا يدل على أن الحديث كان معروفا مشهوراً غاية الشهرة فى زمن الصحابة ولكن هل نقله عنهم فى كل طبقة جماعة كثيرون ممن يثبت بهم التواتر ؟ هذا ما يحتاج إلى إثبات ، وإلا فغاية أمره أنه مشهود

الروايات الواردة

١ — روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال . (أقرأنى جبريل على حرف ؛ فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحـــرف) . زاد مسلم فى روايته ، قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف .. إنما هى فى الأمر يكون واحدا ، لا يختلف فى حلال ولا حرام [٢] . يريد أن المعنى واحد ، وأن اختلفت الألفاظ .

٢ — وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، بسندهما عن ابن شهاب الزهرى قال : أخبرنى عروة بن الزبير . أن المسور بن مخرمة ، وعبدالرحمن ابن عبد القارى أخبراه : أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة «الفرقان» فى حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته ؛ فإذا

---

(١) الاتقان جـ ١ ص ٤٥ ، وفى بعض نسخ الاتقان المطبوعة « أبو أيوب » بدل «أم أيوب» ، وأغلب الظن انه من الطباعة ، وفى النشر لابن الجزرى «أم أيوب»

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ١٩ ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٦ ص ١٠١

هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله ؛ فكدت أساوره[١] في الصلاة فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ قلت : كذبت[٢] ؛ فإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ماقرأت ؛ فانطلقت به ، أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ ياهشام ؛ فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ؛ فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر ؛ فقرأت القراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ؛ إن القرآن أنزل على سبعة أحرف . فاقرأوا ماتيسر منه »[٣]

٣ — وروى مسلم في صحيحه ، بسنده عن أبي بن كعب : أن النبي ﷺ كان عند أضاة[٤] بني غفار . قال : فأتاه جبريل عليه السلام ـ فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لاتطيق ذلك ، ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف ؛ فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا » .

٤ — وروى مسلم بسنده ، عن أبي بن كعب قال : كنت في المسجد ،

---

(١) أواثبه وأمسك به .

(٢) أي أخطأت بلغة الحجاز . أو بني ذلك على غلبة ظنه واعتقاده .

(٣) فتح الباري ج ٩ ص ١٩/ ٢٠ . مسلم بشرح النووي ج ٦ ص ٩٩ ومابعدها

(٤) أضاة ـ بفتح الهمزة . وبضاد معجمة ـ : الماء المستنقع كالغدير ، وجمعه : أضا ، كحصاة وحصا . وإضاء كأكمة وإكام . وكانت بموضع من المدينة النبوية ينسب إلى بني غفار ، لأنهم نزلوا عنده .

فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه؛ ثم دخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ؛ فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ،ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرءا ، فحسن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شأنهما ؛ فسقط فى نفسى من التكذيب[١] ولا اذ كنت فى الجاهلية فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما قد غشينى ضرب فى صدرى ففضت عرقا ، وكأنما أنظر إلى الله ـ عز وجل ـ فقال لى : ياأبى، أرسل الى : أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت عليه : أن هون على أمتى ، فرد الى الثانية : اقرأه على حرفين ؛ فرددت اليه : أن هون على أمتى ، فرد إلى الثالثة[٢] : اقرأه على سبعة أحرف ،ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألينها فقلت : اللهم اغفر لأمتى ، اللهم اغفر لأمتى ؛ وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ـ صلى الله عليه وسلم » . وقد بين الطبرى فى روايته : أن المقروء كان من سورة « النحل » .

---

(١) يعنى أن الشيطان وسوس له من التشكك فى النبوة ما أوقعه فى حيرة ودهشة ، وشوش عليه أمره ، وعظم عليه ماليس عظيما فى الواقع ونفس الأمر. إلا أن هذه الوسوسة لم تعد أن تكون خاطرا من الخواطر التى لا يؤاخذ عليها الإنسان ، ونزعة شيطانية غير مستقرة لم تلبث أن زالت حين ضرب النبى فى صدره فتبخر فى قلبه ما حاك فيه من شك وتردد فانشرح صدره ، وثبت قلبه على الحق واليقين ، وإنما فاض عرقا استحياء من ربه لما تمثل هذا الخاطر الذى لا يليق بمثله ، ومثل هذه الخواطر والنزعات غير المستقرة لا تخل بايمان أو عقيدة، بل هى إمارة من إمارات قوة الإيمان . وفى صحيح مسلم : أن الصحابة قالوا للنبى : وانا لنجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أوجد تموه ؟ قالوا : نعم قال : ذلك صريح الإيمان » .

(٢) المراد بالثالثة الأخيرة ، وهى الرابعة فسماها الثالثة مجازاً، بدليل الرواية السابقة .أو يكون أسقط من هذه الرواية بعض المرات فجاءت الرابعة فى العد ثالثة .

٥ — وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعود : « أنه سمع رجلا يقرأ آية ، سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ خلافها ، فأخذت بيده ، فانطلقت به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كلا كما محسن ، فاقرءا ».

قال شعبة - راوى الحديث - : أكبر علمى قال : « فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكوا » .

وقد روى هذا الحديث بأوسع من هذا اللفظ ابن حبان والحاكم ، وفيه : وإن هذه الإية من سورة من ال « حم » . وفى المبهمات للخطيب : أنها « الأحقاف » [١] .

٦ — وروى الترمذى ، بسنده عن أبى بن كعب قال : « لقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل فقال : يا جبريل ؛ إنى بعثت إلى أمة امية ، منهم العجوز ؛ والشيخ الكبير ، والغلام والجارية ، والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط ، فقال لى : يا محمد ، « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، قال : هذا حديث صحيح .

٧ — وروى أحمد ، عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص ، عن عمرو : أن رجلا قرأ آية من القرآن ، فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا ، فذكر ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فأى ذلك قرأتم أصبتم ، فلا تماروا فيه [٢] إسناده حسن.

٨ — وروى الطبرى ، والطبرانى ، عن زيد بن أرقم قال : جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أقرأنى ابن مسعود سورة اقرأنيها زيد ، وأقرأنيها أبى بن كعب ، فاختلفت قراءتهم ؛ فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى إلى جنبه ؛ فقال « ليقرأ كل إنسان منكم كما علم ؛ فإنه حسن جميل » .

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٨٣ — ٨٤ . (٢) فتح البارى جـ ٩ ص ٢١ .

٩ — وروى النسائى، وابن جرير الطبرى - واللفظ له - بسندهما عن أبى بن كعب، وفى حديثه. أن النبى ﷺ قال: «إن جبريل وميكائيل — عليهما السلام - أتيانى فقعد جبريل عن يمينى، وميكائيل عن يسارى، فقال جبريل: اقرأ القرآن على حرف واحد، وقال ميكائيل: استزده حتى بلغ سبعة أحرف وكل شاف كاف» [1]. وفى رواية لأبى بكر: فنظرت إلى ميكائيل فسكت، فعلمت أنه قد انتهت العدة» [2]

(١٠) وروى أحمد والطبرانى، من حديث أبى بكر قال: يامحمد، اقرأ القرآن على حرف، قال ميكائيل: استزده حتى بلغ سبعة أحرف، قال: كل شاف ما لم تخلط آية عذاب برحمة، أو رحمة بعذاب، نحو قولك: تعال وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وعجل».

قال السيوطى: هذا اللفظ رواية أحمد، وإسناده جيد، وأخرج أحمد والطبرانى أيضا، عن ابن مسعود نحوه، وروى الطبرانى عن أبى بكر نحوه مقتصراً على قوله: «هلم، وتعال». وبحسبنا هذا القدر فى هذا المقام.

ما يستخلص من الروايات

نستخلص من الروايات السابقة الأصول الآتية:

١ — لو نزل القرآن على حرف واحد لشق ذلك على الأمة العربية؛ فقد كانت متعددة اللغات واللهجات، وما يتسهل النطق به على البعض لا يسهل على البعض الآخر، وكانت تغلب عليها الأمية، فلا عجب أن حرص النبى صلى الله عليه وسلم على الاستزادة من الحروف حتى بلغت سبعة أحرف. يدل على هذا قوله - فى حديث أبى -: ثلاث مرات «أسأل الله معافاته ومغفرته، وأن أمتى لا تطيق ذلك». وقوله - فى حديث الترمذى -: «إنى بعثت إلى أمة أمية ..» الحديث.

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٢ (٢) الاتقان جـ ١ ص ٤٦

فكان من رحمة الله بهذه الأمة أن أنزل القرآن على سبعة أحرف، رفعاً للحرج، وتيسيراً لقراءته وحفظه، وفهمه وتدبره.

٢ — أن هذه التوسعة إنما كانت فى الألفاظ، ولم تكن فى المعانى والأحكام وأنها كانت فى المعنى الواحد يقرأ بألفاظ مختلفة؛ بدليل أن النبى ﷺ أقرأ كلا من المختلفين على قراءته، بل واستحسان قراءة كل بقوله: «كلاكما محسن»، وليقرأ كل منكم كما علم، فإنه حسن جميل».

وغير معقول أن يكون اختلافهم فى المعانى والأحكام، ثم يوافق النبى كلا على قراءته ويستحسنها.

٣ — أن هذه التوسعة والإباحة فى القراءة بأى حرف من الحروف السبعة إنما كانت فى حدود مانزل به «جبريل»، وماسمعوه من النبى ﷺ؛ وذلك بدليل أن كلا من المختلفين كان يقول. أقرأنيها رسول الله»، وأن النبى كان يعقب على قراءة كل من المختلفين بقوله: «هكذا أنزلت»، كما فى حديث «عمر وهشام»، ومايفيده لفظه الإنزال الذى جاءت به جميع روايات الحديث. وليس ذلك إلا التوقيف بالسماع من الرسول، وسماع الرسول من جبريل.

ولا يتوهمن متوهم. أن التوسعة إنما كانت باتباع الهوى والتشهى؛ فذلك ما لا يليق أن يفهمه مسلم، فضلا عن عاقل؟ إذ الروايات الواردة ترده وتبطله؛ ولو كان لكل أحد أن يقرأ بمايتسهل له من غير تلق وسماع من النبى ﷺ وأن يبدل ذلك من تلقاء نفسه لذهب إعجاز القرآن، ولكان عرضة أن يبدله كل من أراد حتى يصير غير الذى نزل من عند الله، ولماتحقق وعدالله سبحانه ـ بحفظه فى قوله: «إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون» واللوازم كلها باطلة؛ فبطل ما أدى إليها، وثبت نقيضه وهو أن التوسعة كانت فى حدود ما أنزل الله.

وكيف يتفق هذا الوهم الباطل، وقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: «وقال الذين

لا يرجون لقاءنا : إئت بقرآن غير هذا أو بدله . قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ؛ إن اتبع إلا مايوحى الى ؛ إنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون »(١) .

٤ — أن الأمة كانت مخيرة فى القراءة بأى حرف منها من غير إلزام بواحد منها . وأن من قرأ بأى حرف منها فقد أصاب . بدليل قوله . صلى الله عليه وسلم فى حديث « عمر » : « فاقرءوا ما تيسر منه » . وقول جبريل - عليه السلام - فى حديث المراجعة : « فأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا »

وأيضاً .. فالنبى - صلى الله عليه وسلم - قد أقر كلا من المختلفين على قراءته . ولم يرجح قراءة واحد على الآخر . بل استحسن قراءة كل .

٥ — ان التوسعة على الأمة لم تكن فى مبدأ الدعوة . بل كانت بعد الهجرة وبعد أن دخل فى الإسلام كثير من القبائل غير قريش . فكانت الحاجة ماسة إلى هذا التسهيل . وتلك التوسعة . . يشهد لهذا حديث مسلم : « أن النبى كان عند أضاة بنى غفار ... » الحديث وهى بالمدينة النبوية . كما ذكرنا آنفاً (٢) .

٦ — أن هذه التوسعة مظهر من مظاهر الرحمة والنعمة . فلا ينبغى أن تكون مصدر اختلاف ونقمة : أو أن تكون مثيرة للشك . أو مضعفة لليقين . فقد حذرهم الرسول - صلوات الله عليه - من الاختلاف . كما فى حديث « ابن مسعود » . ومن الشك فى القرآن كما فى حديث عمرو بن العاص « فلا تماروا فيه » . وفى رواية لابن جرير الطبرى . من حديث أبى جهم : « فلا تماروا فى القرآن : فإن المراء فيه كفر » .

---

(١) سورة يونس . الآية ١٥،١٦ .

(٢) فتح البارى ج ٩ ص ٢٣ .

٧ — حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - البالغ على القرآن الكريم، وغاية تحوطهم فى المحافظة عليه، ونفى الريب والتغيير والتبديل عنه؛ وبحسبك شاهدا على هذا ما كان من الفاروق «عمر» - رضى الله عنه - مع هشام بن حكيم حتى هم أن يأخذ بتلابيبه وهو فى الصلاة. وما كان من «أبى» وابن مسعود، وعمرو بن العاص مع غيرهم؛ وأن الصحابة إنما اختلفوا وتنازعوا فى قراءة بعض الألفاظ، ورفعوا الأمر إلى رسول الله - ﷺ - قبل أن يعلموا: أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فلما علموا بهذه الحقيقة اطمأنوا، وقطع بينهم دابر الشقاق والمراء.

الاقوال فى المراد من الاحرف السبعة

اختلف العلماء فى المراد بالأحرف السبعة على أقوال كثيرة، وقد أوصلها «ابن حبان» إلى خمسة وثلاثين قولا، ونقلها عنه «السيوطى» فى الاتقان. وسنذكر أشهر هذه الأقوال وأهمها، ونناقش كل قول مناقشة موضوعية خالية من التعصب لقول، أو التحيف على آخر، على ضوء ما قدمنا من روايات، وما استنتجناه من أصول، ومن غير نظر إلى قائله ومنزلته، والحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق، ومن الله نستمد التوفيق والعصمة من الزلل.

القول الأول

إن الحديث من المشكل الذى لا يدرى معناه؛ لأن الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء، وعلى الكلمة، وعلى المعنى، وعلى الجهة، فهو مشترك لفظى لا يدرى أى معانيه هو المراد؟

وهذا القول نسب إلى «أبى جعفر. محمد بن سعدان النحوى»، ونحا نحوه الحافظ السيوطى فى شرحه(١) على سنن النسائى حيث قال - بعد ذكر

---

(١) أما فى الاتقان فقد نقل الاقوال وجعل همه السرد ولم يتعرض للترجيح ولا للاختيار.

الحديث - : « فى المراد به أكثر من ثلاثين قولا ، حكيتها فى الإتقان - والمختار عندى : أنه من المتشابه الذى لا يدرى تأويله » .

وهذا الرأى بمعزل عن التحقيق ؛ فإن مجرد كون اللفظ مشتركا لفظيا لا يلزم منه الإشكال ولا التوقف ، وإنما يكون ذلك لو لم تقم قرينة تعين بعض المعانى ، أو ترجح بعضها على بعض ، وهنا قامت القرينة التى تعين المراد ؛ إذ لا يصح إرادة حرف الهجاء ؛ لأنه مركب من جميع حروف الهجاء ، ولا يصح إرادة الكلمات لأن كلماته تعد بالألوف ، ولا يصح إرادة المعنى ، لأن معانيه تزيد عن سبعة فتعين أن يكون المراد : الجهة .

والجهة تأتى بمعنى الوجه(١) ، ويشهد لهذا الاستعمال بمجىء الحرف بمعنى الوجه قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » فقد قال بعض المفسرين فيه : على ضعف من العبادة ، أو على وجه واحد : وهو أن يعبده على السراء دون الضراء كما فى تفسير القرطبي » .

وإذا كان معنى الحرف غير مشكل فليبحث عن المراد منه فى حدود المنقول والمعقول .

القول الثانى

وهو أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد ، بل المراد التيسير والتوسعة ، ولفظة « السبعة » يطلق على إرادة الكثرة فى الآحاد ، كما يطلق السبعون فى العشرات والسبعمائة فى المئين ، ولا يراد العدد المعين .

وهذا الرأى أيضا بعيد من الصواب ، إذ لا تشهد له رواية من الروايات

---

(١) قال فى القاموس : « والجهة - بالكسر والضم - : الناحية كالوجه والوجهة - بالكسر - » وقال فى المصباح المنير : « والوجه بالكسر - قيل : مثل الوجه . وقيل : كل مكان استقبلته ، وتحذف الواو فيقال : جهة مثل عدة . ثم قال وقوله تعالى : « فثم وجه الله » أى جهته التى أمركم بها .

التى أسلفناها ، ويرده ما ورد فى حديث الصحيحين : « فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » وحديث النسائى ، وفيه : فقال ميكائيل : « استزده حتى بلغ سبعة أحرف » وفى حديث أبى بكرة : فنظرت إلى ميكائيل فسكت ، فعلمت أنه قد انتهت العدة » ، فهذه الروايات صريحة فى أن المراد حقيقة وانحصار الحروف فى سبعة .

القول الثالث

أن المراد سبعة أوجه من المعانى المتفقة بألفاظ مختلفة ، وإن شئت فقل : سبع لغات من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة ، تختلف فيها الألفاظ والمبانى مع اتفاق المعانى ، أو تقاربها ، وعدم اختلافها وتناقضها ، وذلك مثل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلىّ ، ونحوى ، وقصدى ، وقُرْبى ، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد ، وهو طلب الإقبال .

وليس معنى هذا : أن كل كلمة كانت تقرأ بسبعة ألفاظ من سبع لغات ، بل المراد : أن غاية ما ينتهى إليه الاختلاف فى تأدية المعنى هو سبع ، فالمعنى هو سبع ، فالمعنى الذى تتفق فيه اللغات فى التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بهذا اللفظ فحسب ، والذى يختلف التعبير عنه بلفظين ، وتدعو الضرورة إلى التوسعة يعبر عنه بلفظين ، وهكذا إلى سبع :

ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله تعالى : إن كانت إلا صيحة واحدة ...[1] وقد قرأ ابن مسعود : « إلا زقية واحدة » ، وقوله . فاسعوا إلى ذكر الله » قد قرأ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : فامضوا إلى ذكر الله »[2] ، مثل ما روى ورقاء عن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ،

---

(١) يس : الآية ٢٩ .

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٢٢٢ .

عن أبى بن كعب : أنه كان يقرأ « للذين آمنوا انظرونا » ، « الذين آمنوا أمهلونا » ، « الذين آمنوا أخرونا » ، « الذين آمنـوا أرقبونا » ؛ وبهذا الإسناد عن « أبى » أنه كان يقرأ : « كلما أضاء لهم مشوا فيه » ، « سعوا فيه » [١] .

ولا يقال أن بعض هـذه الحروف لا يقرأ بها اليـوم ؛ لأنا نقول : إن هذا هو معنى الأحرف السبعة ، ونحن لا ندعى بقاءها كلها إلى اليوم كما ستعلم عن قريب .

وهذا الرأى يتفق هو والروايات السابقة الدالة على اختلاف الصحابة فى كلمات من القرآن ، وتنازعهم ، ورفع الأمر إلى رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ثم إقرار الرسول كلا على قراءته ، ويوافق الأصول التى استنتجناها من هذه الروايات ؛ فالغرض من النزول على سبعة أحرف التيسير ، ورفع الحرج عن الأمة بالتوسعة فى الألفاظ مادام المعنى واحداً ، فقد كانوا أمة أمية ، وكانت لغاتهم متعددة ، وكان يشق على كل ذى لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات ، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة ، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان ، وتغيير للعـادة ؛ فمن ثم جعل الله لهم متسعاً فى اللغات بقراءة المعنى الواحد بألفاظ مختلفة

وقد استمر الأمر على هذا حتى كثر فيهم من يقرأ ويكتب ، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ وهو لسان قريش ، ولا سيما بعد أن صارت لقريش السيادة الدينية والدنيوية معاً ، وقدروا على النطق بلغة قريش ، التى هى أعذب اللغـات وأسهلها وأطوعها للألسنة ؛ فلم يسعهم أن يقرأوا بخلافها ، ولا سيما وقد زالت الضرورة وأصبحت التوسعة فى القراءة بالأحرف السبعة مثار اختلاف وتنازع ؛ فقد حدث فى عهد الخليفة الثالث « عثمان » رضى الله تعالى عنه ـ أن اجتمع أهل الشام مع أهل العراق فى غزوة « أرمينية »

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٤٢

وكانت قراءاتهم مختلفة، فصار يخطىء بعضهم بعضاً، ويقول كل منهم: «حرفى الذى أقرأ به خير من حرفك»، فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا فى كتابهم اختلاف اليهود والنصارى، وحدث أيضاً: أن كان المعلم يعلم قراءة الرجل، والآخر يعلم قراءة رجل آخر، فصار الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع هذا الخلاف إلى المعلمين، وكاد أن يكفر بعضهم بعضاً، فقال عثمان: «أأنتم عندى تختلفون، فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافا»، فرأى الخليفة الراشد «عثمان» - ونعم ما رأى - على ملأ من الصحابة، ومشورة من أهل الرأى منهم أن يجمع الناس على حرف واحد.. حتى تضيق شقة الخلاف، ويقل التنازع بجمع المصحف، وكتبه على حرف واحد وهو حرف قريش، ونسخ منه نسخاً أرسل بها إلى الأمصار، وحرق ماعدا هذا المصحف الذى أمر بجمعه، وعزم على كل من كان عنده مصحف مصحف يغاير المصاحف العثمانية أن يحرقه، فاستوثقت له الأمة بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية. فالتزمت القراءة بحرف قريش؛ وتركت القراءة بالأحرف الستة الباقية، التى عزم عليها إمامها العادل الراشد أن تتركها امتثالا لأمر الإسلام. فى طاعة أولى الأمر، ورعاية منهم لمصلحتهم ومصلحة الأمة ممن يأتى بعدهم حتى درست معرفة هذه الأحرف الستة من الأمة وتعفت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها، لدثورها، وعفاء آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها. من غير جحود منهم لصحتها وصحة شىء منها. فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح. دون ما عداه من الأحرف الباقية [1]

وإلى هذا الرأى ذهب الجماهير من سلف الأمة وخلفه. فذهب إليه الأئمة سفيان بن عيينة. وابن جرير الطبرى. ودافع عنه دفاعا حارا فى مقدمة تفسيره

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٢٠-٢٢

والطحاوى ، وابن وهب ، وخلائق كثيرون ، واختاره القرطبى ، ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء ، وهذا الرأى هو الذى أختاره وأميل إليه .

ولكى يخلص لنا هذا الرأى ممحصا مصفى ، سنذكر بعض التوضيحات له ، والشبه التى أثيرت حوله ، ونجيب عليها . حتى يتبين لنا : أنه الرأى المرَوِّى والمختار[١] .

الشبهة الأولى : قال قائل . فى أى موضع من القرآن نجد حرفاً واحداً مقروءا بسبع لغات مختلفات الألفاظ ، متفقات المعانى . حتى يصح لنا أن نفسر الحروف السبعة بوجوه ولغات سبع ؟ .

والجواب : أننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم ، وإنما قلنا : هذا هو معنى الحديث . ثم جدت ظروف وضرورات اضطرت الأمة بسببها أن تقتصر على حرف واحد منها ، وهى حرف قريش .

وإنما لم أقل فى الجواب . إن فى القرآن ما يقرأ على سبعة أوجه مثل : « وعبد الطاغوت » ، « ولا تقل لهما : أف » و « جبريل » ، لأن الاختلاف فى هذه اختلاف قراءات : وهو أداء اللفظ الواحـــد بطرق مختلفة الأداء ، وليس اختلاف حروف ، أى ألفاظ وكلمات على ما بينا فى المذهب المختار ، والقراءات الثابتة على اختلافها وتنوعها ترجع إلى حرف واحد ، وهو حرف قريش ، الذى جمع عثمان عليه المصاحف .

الشبهة الثانية : إن قيل : أين ذهبت الأحرف السبعة الباقية مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بها ، وأمرهم بقراءتها ، وأنزلهن الله من عنده على نبيه ؟ أنسخت هذه الأحرف الستة البـاقية فرفعت ؟ وإذا كان . . فما الدليل على نسخها ورفعها ؟ .

---

(١) اعتمدت فى هذا غالبا على ما ذكره العلامة « ابن جرير » فى تفسيره ، مع التلخيص والتوضيح .

والجواب : أن الأحرف الستة الباقية لم تنسخ ولم ترفع ، ولم تضيعها الأمة وإنما الأمة أمرت بحفظ القرآن ، وخيرت فى حفظه وقراءته بأى تلك الأحرف السبعة شاءت ، كما أمرت إذا حنثت فى يمين وهى موسرة : أن تكفر بأى الكفارات الثلاث شاءت : إما بعتق ، أو إطعام ، أو كسوة ، فلو أجمعت الأمة جميعها على التفكير بواحدة من الكفارات الثلاث ، دون حظر ما عداها كانت مصيبة ؛ مؤدية فى ذلك الواجب عليها من حق الله ، ووصفت بأنها مطيعة لا عاصية فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته ، وخيرت فى قراءاته بأى الأحرف السبعة شاءت ، فرأت لعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد — قراءته بحرف واحد ، وترك ما عداه .

فإن قيل ، فما العلة ؟ قلنا : هى ما قدمنا من أن الأحرف السبعة ، التى جعلت للتيسير ، ورفع الحرج أضحت سببا للنزاع والاختلاف ، بل والتفكير على نحو ما فعلنا آنفا .

الشبهة الثالثة :

إن قيل : كيف يلتئم هذا الرأى الذى اخترتموه فى تأويل الحديث مع ما أثر عن عثمان — رضى الله عنه — أنه قال للرهط القرشيين الذين كانوا مع « زيد بن ثابت » فى نسخ المصاحف : « ما اختلفتم فيه — أنتم وزيد — فاكتبوه بلسان قريش ! فإنما نزل بلسانهم » .

قلنا فى الجواب : إن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله ، وهو الحرف الأول الذى نزل به جبريل ، وطلب النبى ﷺ الزيادة عليه ، فقد نزل جبريل بهذا الحرف أولا ، ثم كان يأتى بالحروف فى عرضاته القرآن مع النبى كل عام فى رمضان ، فكان ينزل الله — سبحانه — فى هذه العرضات ما شاء أن ينزل من ألفاظ اللغات الأخرى ، التى تدعو إليها الحاجة ، ثم كان أن استقر الأمر آخرا بعد زوال الضرورة على هذا الحرف ، وهو لغة قريش .

أويكون مراد عثمان : أن معظمه وأكثره نزل بلغة قريش .

نقل الإمام «أبو شامة» عن بعض الشيوخ أنه قال : « أنزل القرآن أولا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء . ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم ، التي جرت عاداتهم باستعمالها ، على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب ، ولم يكلف أحد منهم الانتقال من لغة إلى أخرى للمشقة . ولما كان فيهم من الحمية ولطلب تسهيل فهم المراد . كل ذلك مع اتفاق المعنى . وعلى هذا .. يتنزل اختلافهم فى القراءة كما تقدم ، وتصويب رسول الله كلا منهم » .

قال الحافظ « ابن حجر » معلقا : وتتمة ذلك أن يقال : إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى ، أى أن كل واحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته ، بل المراعى فى ذلك السماع من النبى - ﷺ - ويشير إلى ذلك قول كل من عمر وهشام فى حديث الباب : أقر أنى النبى - ﷺ [(١)] .

الشبهة الرابعة :

قالوا : لو كانت الحروف السبعة هى لغات سبع من لغات العرب المشهورة ، فكيف اختلفت قراءة « عمر بن الخطاب » وهشام بن حكيم - رضى الله عنهما - وهما قرشيان ، ولغتهما واحدة ؟

والجواب : أن العبرة فى القراءة بالحروف هو السماع من النبى - ﷺ - لا أن يقرأ كل واحد بهواه ، على حسب ما يتسهل له من لغته ، وإنكار بعضهم على الآخر لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس من لغته فأنكره ، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبى - ﷺ - وجائز جداً : أن يكون أحدهما سمع من النبى - ﷺ - حرفا بغير لغة قريش فحفظه ، وسمع الآخر حرفا بلغة قريش فحفظه ، وثبت كل واحد منهما على ما سمع من النبى ، فمن ثم اختلفا مع كونهما قرشيين . وكون بعض الناس يعرف غير لغته الأصلية ،

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٢٢ .

ويتسهل له ، وينطلق بها كما ينطق بها أهلها أمر مشاهد معروف ، وهل قال أحد : إن كل واحد من العرب كان يلتزم القرآن بلغته دون غيرها .. حتى يستشكل ذلك ؟؟

ولو كان الأمر كذلك لقال عمر لهشام : لقد قرأت بغير لغة قومك ، ولكنه لم يحدث ، وإنما أنكر عليه حروفا لم يقرئه إياها رسول الله - ﷺ -

الشبهة الخامسة :

كيف تقولون : إن الحرف الذى استقر عليه الأمر آخراً هو حرف قريش مع أن فى القرآن كثيراً من الكلمات بغير لغة قريش مثل : «الأرائك» فقد قيل : إنها بلغة اليمن . ومثل : « أفلم ييأس الذين آمنوا » أى : أفلم يعلموا بلغة هوازن . و « مراغماً متفسحاً بلغة هذيل . . إلى غير ذلك من الكلمات . وقد ذكر «السيوطى» فى الإتقان فى النوع السادس والثلاثين الكثير من ذلك (١) ؟

والجواب عن هذا :

(ا) أن ماورد من هذه الألفاظ ، وإن كانت فى الأصل من غير لغة قريش لكن قريشاً أخذتها واستعملتها حتى صارت قرشية بالاستعمال . ومعروف أن مركز قريش هيأ لها أن تأخذ من اللغات الأخرى أعذبها وأسلسها .

(ب) أن هذه الكلمات التى ذكرتموها مما توافقت فيه لغة قريش وغيرها إلا أنها عند غير قريش أشهر وأعرف ، وتوافق اللغات فى بعض الكلمات أمر غير مستنكر ولامستغرب . وأياً كان الحال فوجود هذه الكلمات فى القرآن لاينافى كون القرآن بلغة قريش .

ومثل هذه الكلمات التى جاءت فى القرآن ، وقيل إنها غير عربية فى الأصل كالمشكاة . والقسطاط . واستبرق ونحوها ، فإنها : إذا ماصارت

---

(١) الإتقان ج ١ ص ١٣٣ - ١٣٥

عربية بالاستعمال أو أنها مما توافقت فيها لغـة العرب وغيرهم ، ولم يطعن وجودها فى كون القرآن عربياً مبيناً .

الشبهة السادسة :

إن قيل : ما هى اللغـات السبعة التى نزل بها القرآن ؟ ومن أى ألسن العرب كانت ؟

قلنا : لا حاجة بنا اليـوم إلى معرفة الألسن الستة الأخرى ، ولا إلى القراءة بها بعد أن اندرست وعفت آثارها، وبحسبنا هذا اللسان الباقى وهو لغـة قريش وقد قيل : إن خمسة منهـا بلسان العجز من هوازن ، واثنـين لقريش وخزاعـة ، روى ذلك عن ابن عباس ؛ إلا أنه لا يصح عنه[1]

وكل ماقيل فى تعيين اللغات السبع لم يثبت بطريق صحيح .

وقد اختلف فى تعيينها اختلافا كثيراً ، ومن أراد معرفة ذلك فليرجع إلى الإتقان[2] .

والذى نراه : أنه كان نزل على سبـع لغات من لغات العرب المشهورة وأفصحها ، وليس فى البحث عن تحديدها كبير عنـاء ، مادام أن الحرف الباقى وهو حرف قريش أفصحها وأعذبها وأسلسها .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٢٣

(٢) الإتقان جـ ١ ص ٤٧/٤٩

منزلة اللغة القرشية بين لغات العرب

ولكى تزداد يقيناً بأن قريشاً أفصح العرب، ولسانهم أفصح الألسنة وأعذبها ننقل لك بعض ماقاله الأئمة فى هذا المقام:

قال «ابن فارس» فى فقه اللغة، عن اسماعيل بن أبى عبيد الله. قال (١):
«أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم: أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم نبى الرحمة «محمداً» ﷺ فجعل قريشاً قطان حرمه. وولاه بيته. فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج. ويتحاكمون إلى قريش فى أمورهم. وكانت قريش تعلمهم مناسكهم. وتحكم بينهم. ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميتها أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد اسماعيل — عليه السلام — لم تشبهم شائبة. ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة. فضيلة من الله — جل ثناؤه — لهم وتشريفا. إذ جعلهم رهط بيته الأدنين. وعترته الصالحين.

وكانت قريش — مع فصاحتها. وحسن لغاتها. ورقة ألسنتها — إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم. وأصفى كلامهم فاجتمع ماتخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب. ألا ترى أنك لا تجد فى كلامهم عنعنة تميم. ولا عجرفة قيس ولا كشكشة أسد. ولا كسكسة ربيعة(٢). ولا الكسر تسمعه من أسد وقيس. مثل «تعلمون» — بكسر التاء — و «نعلم» — بكسر النون — ومثل: «شعير وبعير» — بكسر الأول منهما —».

---

[١] التبيان ص ٥٢.

[٢] عنعنة تميم أبدالهم العين من الهمزة، والعجرفة جفوة فى الكلام والكشكشة ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث كعليش فى «عليك». والكسكسة الحاقهم بكاف المؤنث سيناً عند الوقف يقولون فى بك «بكس».

وقال الفراء :

« كانت العرب تحضر الموسم فى كل عام ؛ وتحج البيت فى الجاهلية وقريش يسمعون لغات العرب . فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب . وخلت لغتهم من مستبشع اللغات . ومستقبح الألفاظ .

وقال أبو نصر الفارابى . فى أول كتابه المسمى « الألفاظ والحروف

« كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح . وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا . وأبينها إبانة عما فى النفس . والذين عنهم نقلت العربية . وبهم اقتدى . وعنهم أخذ اللسان من بين قبائل العرب هم : قيس وتميم . وأسد . فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتسكل فى الغريب . وفى الإعراب والتصريف . ثم هزيل وبعض كنانة . وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

وبالجملة : فإنه لم يؤخذ عن حصرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فانه لم يؤخذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية ولا من تغلب : فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر ، لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد قيس ، وأزدعمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهنظوا الحبشة ولا من بنى حنيفة ، وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ـ قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم .

والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء ، وأثبتها فى كتاب[1] فصيرها علما وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب .

القول الرابع

إن الأحرف السبعة هى لغات سبع متفرقة فى القرآن كله . وهذه السبع قيل : إنها من لغات العرب كلها . وقيل . من لغات مضر .

وليس معنى هذا القول : أن يكون فى المعنى الواحد سبع لغات بألفاظ مختلفة كالرأى السابق ، بل هذه اللغات متفرقة فى القرآن كله ، فبعضه بلغة وبعضه بلغة أخرى ، وهكذا .. إلى سبع ، فيكون المنزل لفظا واحدا ، لمعنى واحد من لغات متفرقة ، وقد استند القائلون بهذا الرأى ما يأتى :

١ — وجود ألفاظ فى القرآن المقروء اليوم بغير لغة قريش .

٢ — ما روى عن ابن عباس ، وعمر - رضى الله عنهما - من عدم فهمهما لبعض الكلمات القرآنية ، فقد خفى على ابن عباس معنى قوله تعالى « فاطر السموات والأرض » حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها . أى ابتدأتها ، فعلم معناها ، وكذلك خفى عليه معنى : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق . وأنت خير الفاتحين » حتى سمع بنت ذى يزن تقول : تعالى أفاتحك . تريد أقاضيك وأخاصمك . فعلم معناها . وكذلك خفى على الفاروق معنى (تخوف) فى قوله تعالى : « أو يأخذهم على تخوف » . والمراد بـ (الأب) فى قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » مع أنهما قرشيان . فدل ذلك على أن القرآن فيه ألفاظ بغير لغة قريش .

---

(١) التبيان ص ٥٣

وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب . وأبو حاتم السجستانى واختاره ابن عطية(١) وقال الأزهرى فى (التهذيب) : إنه المختار . وقد ذكر (السيوطى) : أن الزهرى ممن قال بهذا : وهو غير صحيح . فظاهر مقالة الزهرى المروية فى صحيح مسلم تشهد لاختياره للقول السابق الذى رجحناه(٢) .

واليك ما قال أبو عبيد فى تحرير هذا القول : « ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات . بل اللغات السبع متفرقة فيه . فبعض بلغة قريش : وبعض بلغة هذيل . وبعض بلغة هوازن . وبعض بلغة اليمن وغيرهم . وبعض اللغات أسعد به من بعض . وأكثر نصيبا » .

وبهذا التحرير يتبين لنا فرق ما بين هذا القول والقول السابق .

وقد اختلف القائلون بهذا فى بيان اللغات السبع . فقيل : انها متخيرة من لغات أحياء العرب كلها ، وقيل : كانت فى (مضر) خاصة ، وقيل : فى قريش قال الحافظ فى الفتح : « قيل : نزل بلغة مضر خاصة ، لقول عمر : نزل القرآن بلغة مضر . وعين بعضهم - فيما حكاه ابن عبد البر - : السبع من مضر إنهم : هذيل ، وكنانة . وقيس . وضبة . وتيم الرباب بن خزيمة . وقريش . فهذه قبائل مضر تستوعب سبع لغات .

وقال أبو حاتم السجستانى : نزل بلغة قريش . وهذيل . وتيم الرباب والأزد . وربيعة . وهوازن . وسعد بن بكر .

واستنكره ابن قتيبة واحتج بقوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » فعلى هذا تكون اللغات السبع فى بطون قريش وبذلك جزم أبو على الأهوازى » .

---

(١) الفتح ج ٩ ص ٢٢ (٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج٦ ص ٩٩ ، ١٠٠

وهكذا نرى أن بعض العلماء يرى : أن اللغات السبع فى العرب كلها . وقيل : فى مضر وقيل : فى قريش . وأنهم اختلفوا فى تعيين السبعة. مما يدل على أن ليس فى هذا نقل صحيح تطمئن اليه النفس وما احتج به (ابن قتيبة (لقوله غير مسلم . فقومه هم العرب لا قريش خاصة والله قال « إنا أنزلناه قرآنا عربياً » ولم يقل . قرشياً .

وهذا القول ـ الرابع ـ مردود بما يأتى .

١ ـ أن هذا القول بعيد غاية البعد عن الروايات التى ذكرناها فى صدر البحث . كما أنه لا يتفق هو والأصول التى استنتجناها منها . لأنه يقتضى أن القرآن أبعاض . كل بعض بلغة وهذا لا يتأتى فيه رفع الحرج والمشقة . والتيسير والتسهيل . إذ كل قبيلة مكلفة شرعا بقراءة القرآن جميعه . وفهمه والعمل به . فهو لا يحقق الغرض الذى لأجله نزل القرآن على سبعة أحرف .

٢ ـ وأيضا . فلو كانت الحروف السبعة على ما ذكروا لما تأتى اختلاف بين الصحابة فى الألفاظ على ما جاءت به الروايات من اختلاف عمر . وهشام وأبى بن كعب وابن مسعود وعمرو بن العاص مع آخرين .

وكيف يتأتى اختلاف إذا كان المنزل لفظا واحد . والمقروء واحدا؟

فهذا القول يلزم منه رد كل الرويات الصحيحة الواردة فى هذا الباب ، ودون ذلك خرط القتاد وصعود السماء ؟

٣ ـ ما استند إليه القائلون به من أن القرآن يشتمل على ألفاظ غير لغة قريش لا يصلح أن يكون دليلا . لأننا كما قلنا سابقاً إن هذه الكلمات مما تخيرتها قريش من لغات غيرها . واستعملتها . فصارت بالاستعمال قرشية . أو أن هذه الالفاظ مما توافقت فيها لغة قريش ولغة غيرهم .

٤ ـ ما استندوا إليه من عدم فهم ابن عباس . وعمر لبعض الألفاظ القرآنية لا يصلح دليلا لهم أيضا . إذ اللغة واسعة وليس بلازم أن يحيط الإنسان بكل معانى لغته وألفاظها . وقد قال الإمام الشافعى فى « الرسالة » « لا يحيط باللغة إلا نبى(١) » .

على أننا قد ذكرنا . أن فى القرآن ألفاظاً كانت فى الأصل غير قرشية . ثم صارت قرشية بالاستعمال فجائز جداً أن تكون بعض الألفاظ ليست كثيرة الاستعمال عند قريش . وليست معروفة لبعضهم فمن ثم خفيت على بعضهم دون بعض

القول الخامس

إن المراد بالسبعة الأحرف : الوجوه التى يرجع إليها اختلاف القراءات وقد ورد فى هذا آراء متقاربة لأربعة من العلماء . وسنعرض هذه الاراء الأربعة ثم نناقشها بمرة ، إذ جميعها تجمعها رابطة قوية، ووشيجه متشابكة

قال ابن قتيبة فى أول تفسير « مشكل القرآن »(٢)

« وقد تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءات فوجدتها سبعة :

الأول : ما تتغير حركته . ولا يزول معناه ولا صورته مثل : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » بفتح الراء وضمها (٣)

الثانى : ما يتغير بتغير الفعل مثل قوله تعالى : ربنا بعد بين أسفارنا »

---

(١) الاتقان ج١ ص٣٦

(٢) الاتقان ج١ ص٤٦ فتح البارى ج٩ ص٢٣ .

(٣) الأول على أن لا ناهية . والثانى على أنها نافية

« وربنا باعد بين أسفارنا » الأول بصيغة الطلب . والثانى بصيغة الماضى .

الثالث : ما يتغير بنقط بعض الحروف المهملة مثل : « ثم ننشرها .. ثم ننشزها » الأولى بالراء المهملة والثانى بالزاى .

الرابع ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج من الآخر مثل : « طلح منضود » و « طلع منضود » .

الخامس : ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : « وجاءت سكرة الموت بالحق » « وجاءت سكرة الحق بالموت » .

السادس : ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل : « وما خلق الذكر والأنثى » « والذكر والأنثى »

السابع : ما يتغير بإبدال كلمة بكمة ترادفها مثل : « كالعهن المنفوش » « كالصوف المنفوش » .

قال ابن قتيبة : وكل هذه الحروف كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

قال ابن الجزرى (١) : وهو حسن إلا أنه قد فاته كما فات غيره — أكثر أصول القراءات كالإدغام والإظهار ، والإخفاء والإمالة والتفخيم ، والمد والقصر وغير ذلك مما هو من اختلاف القراءات . وتغاير الألفاظ . وقد اختلف فيه أئمة القراء . وقد كانوا يترافعون بدون ذلك إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — ويرد بعضهم على بعض .

« ولكن يمكن أن يكون هذا من القسم الأول . فيشمل الأوجه السبعة على ما قررناه »

---

(١) القراءات واللهجات ص ١٨

القول السادس

ما قاله فى بيان وجود الاختلاف الإمام ابو الفضل الرازى فى كتاب « اللوائح » .

قال . « الكلام لايخرج عن سبعة أوجه فى الاختلاف .

الأول . اختلاف الأسماء من أفراد و تثنية وجمع . او تذكير و تأنيث.

الثانى . اختلاف تصريف الأفعال من ماض . ومضارع وأمر .

الثالث . وجوه الإعراب :

الرابع ، النقص والزيادة

الخامس . التقديم والتأخير .

السادس . الإبدال

السابع : اختلاف اللغات كالفتح و الإمالة.والترقيق والتفخيم والإدغام والاظهار ونحو ذلك

قال الحافظ فى الفتح . وقد أخذ ـ الرازى ـ كلام ابن قتيبة ونقحه .

القول السابع

قول القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى . قال : (١) « تدبرت الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعاً :

الأولى : ماتتغير حركته ولايزول معناه ولا صورته مثل : « هن أطهر لكم » ـ بضم الراء وفتحها ـ .

الثانى : ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل : « ربنا باعد بين أسفارنا » بإسكان الدال وفتحها .

---

[١] تفسير القرطبى جـ١ص٤٥ . فضائل القرآن لابن كثير ص ٣٦

الثالث : ماتتغير صورته ومعناه باختلاف الحروف مثل قوله « ننشزها » و « ننشرها » .

الرابع : ماتتغير صورته ويبقى معناه مثل : ك « العهن المنفوش » وكالصوف المنفوش »(١) .

الخامس : ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وطلح منضود » و « طلع منضود »(٢)

السادس : التقديم والتأخير كقوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق » وجاءت سكرة الحق بالموت » .

السابع : الزيادة والنقصان مثل قوله : « تسع وتسعون نعجة أنثى » و « تسع وتسعون نعجة » .

القول الثامن

قال ابن الجزرى : قد تتبعت صحيح القراءات ، وشاذها ، وضعيفها ومنكرها ، فإذا هى يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه . لايخرج عنها . وذلك

إما باختلاف فى الحركات . بلا تغير فى المعنى والصورة . نحو « قرح » بفتح القاف وضمها .

(٢) أو فى الحركات بتغير فى المعنى فقط . نحو : « فتلقى آدم من ربه كلمات » برفع كلمات ونصبها . أى على أنها فاعل . أومفعول .

(٣) أو فى الحروف بتغير فى المعنى لا الصورة نحو : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » قرىء : « تبلو » و « تتلو » وهما سبعيتان .

(٤) أوعكس ذلك : أى يتغير فى الصورة لا المعنى نحو: « الصراط »

---

(١) القراءة بلفظ الصوف غير متواترة .

(٢) قراءة مطلع : طلع . شاذة لايثبت بها القرآن . وتخالف رسم المصحف وبعض مامثل به من هذا القبيل .

و « السراط »

(٥) أو بتغيير هما : أى المعنى والصورة نحو : « فاسعوا إلى ذكر الله » وقرىء « فامضوا ».

(٦) وإما بالتقديم والتأخير نحو : «فيقتلون ويقتلون» الأولى بفتح الياء على البناء للفاعل . والثانية بضم الياء للمفعول . وبالعكس .

(٧) وإما بالزيادة والنقصان نحو : « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب » وقرىء «وأوصى» .

فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها : قال : وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتفخيم والترقيق والنقل ؛ فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فيه فى اللفظ والمعنى، لأن هذه الصفات المتنوعة فى أداء اللفظ لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً ؛ ولئن فرض فيكون من الوجه الأول الذى لا تتغير فيه الصورة والمعنى ،

وقد رجح هذا القول بعض كبار العلماء ، وأئمة الفتوى ، وهو المغفور له الشيخ بخيت المطيعى ، وسوى بينه وبين مذهب ابن قتيبه . بل حاول جاهداً أن يرجع معظم الأقوال التى ذكرها « السيوطى » فى الاتقان ، وذكرناها هنا - إليه(١) وهو تكلف لا نوافقه عليه .

كما رجح هذا القول أيضاً بعض الباحثين ، وأرجع إليه الأقوال الثلاثة الأخرى(٢) ، وبين أنها جميعها ترجع إلى رأى واحد .

ورجح رأى « الرازى » بعض أجلة العلماء(٣)، وبالغ فى الانتصار له ، وبين ما بين رأى الرازى وغيره من الآراء الثلاثة من فروق .

---

(١) الكلمات الحسان ص ٧٧ .

(٢) القراءات واللهجات ص ١٣ وما بعدها .

(٣) مناهل العرفان جـ ١ ص ١٣٢ .

ولكنى مع هذا . . لم أركن إلى واحد من هذه الآراء ، ولا رأى أنها المقصودة بالحديث وأضع بين يدى القارىء هذه النقود .

نقد هذه الآراء

يمكننا إجمال النقد فيما يأتى :

١ — إن القائلين بهذا الرأى ـ على اختلاف أقوالهم ـ لم يذكر واحد واحد منهم دليلا ، إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدها لا تخرج عن سبع .

وهذا التتبع لا يصلح أن يكون دليلا على أن المراد بالأحرف السبعة : الوجوه التى يرجع إليها اختلاف القراءات .

ولا يقال : كيف لا يعتبر التتبع ـ وهو لا يخرج عن كونه استقراءاً ؟

لأنا نقول : إنه استقراء ناقص ، بدليل أن طريق تتبع « ابن الجزرى » مخالف لطريق تتبع « ابن قتيبة » و ابن « الطيب » و « الرازى » . وليس أدل على ذلك من أن الرازى ذكر الوجه السابع ، ولم يذكره واحد من الثلاثة الآخرين ، بل برر « ابن الجزرى » إهماله ، مما يدل على أنه يمكن الزيادة على سبع ، وأن الوجه الأول عند « الرازى » ؛ والثانى والسادس ترجع ثلاثتها إلى الوجه الخامس عند « ابن الجزرى »(١) ، مما يدل على أن هذه الوجوه يمكن أن يتداخل بعضها فى بعض ، وأن تعينها إنما هو بطريق الاتفاق لا الاستقراء الصحيح .

وعلى هذا يكون الحصر فى الوجوه السبعة غير مجزوم به ، ولا متعين ، فهو مبنى على الظن والتخمين .

٢ — إن الغرض من الأحرف السبعة إنما هو رفع الحرج والمشقة عن

---

(١) القراءات واللهجات ص ١٩ .

الأمة ، والتيسير والتسهيل عليها ، والمشقه غير ظاهرة فى إبدال الفعل المبنى للمعلوم بالفعل المبنى للمجهول ، أو العكس ، ولا فى إبدال فتحة بضمة ، أو حرف بآخر ، أو تقديم كلمة وتأخيرها ، أو زيادة كلمة أو نقصانها ، فإن القراءة بأحدهما دون الآخر لا توجب مشقة يسأل النبى - صلى الله عليه - منها المعافاة ، وأن أمته لا تطيق ذلك ، ويراجع جبريل مراراً . ويطلب التيسير فيجاب بإبدال حركة بأخرى . أو تقدم كلمة وتأخيرها .

فالحق : أنه مستبعد أن يكون هذا هو المراد بالاحرف السبعة .

٣ — إن أصحاب هذه الاقوال اشتبه عليهم القراءات بالاحرف ، فالقراءات غير الاحرف لا محالة وان كانت مندرجة تحتها . وراجعة اليها .

القول التاسع

إن المراد بالاحرف السبعة سبع قراءات .

واننا لنناقش هؤلاء .. فنقول لهم : ان أردتم أن كل كلمة تقرأ بقراءات سبع . قلنا لكم : ان ذلك نادر وقليل جداً .

وان أردتم ان بعض الكلمات تقرأ بوجه . وبعضها بوجهين . وبعضها بثلاث .. وهكذا الى سبع . فذلك مردود أيضاً بما يأتى : -

١ - إن بعض الكلمات تقرأ على أكثر من سبعة أوجه ، قال فى « منار الهدى . فى الوقف والابتداء » : « قد جاء فى القرآن ما قرىء بسبعة أوجه ، وعشرة أوجه . كمالك يوم الدين » . وفى البحر : أن فى قوله : « عبد الطاغوت » اثنتين وعشرين قراءة . وفى « أف » لغات أوصلها « الرمانى » إلى سبع وثلاثين لغة .

وقد أجاب الحافظ ابن حجر : « بأن غالب ذلك ؛ إما لأنه لا يثبت الزيادة ؛ وإما أن يكون من قبيل الاختلاف فى كيفية الأداء كما فى المد والإمالة ونحوها .

والحق : إنه جواب لا يدفع الإشكال . لأن دعوى : أنه لا يثبت الزيادة على السبع مكابرة بعد ما نقلناه عن أئمة القراء ، وكونه من قبيل الاختلاف فى الأداء لا يمنع أنه من القراءات التى تثبت بهـا الزيادة على سبع ، إذ لا فرق بين ما ذكر وبين الاختلاف فى « عبد الطاغـــوت » . « ولا تقل لهما أف » ، فجعل هذا الاختلاف من القراءات دون الاختلاف فى الأداء كالمد والإمالة تحكم ظاهر(١) .

٢ - إن هذا القول مبنى على أن القراءات هى الأحرف . والحق : - كما قلناه آنفا - أنها ترجع إليها ، وليست ذاتها ، ولا حقيقتها .

الأحرف السبعة ليست القراءات السبع

وأشد من هذا القول بطلانا من يزعم : أن الأحرف السبعة هى القراءات السبع المشهورة . وهو غاية الجهل . قال أبو شامة . «ظن قوم: أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث . وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل » .

ولذلك لام كثير من العلماء «ابن مجاهد »(٢) على اقتصاره على السبعة . لأنه أوقع من لا يعلم فى هذا الوهم . قال أبو العباس بن عمار : لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغى . فأشكل الأمر على العامة . بإيهامه كل من قل نظره . أن هذه القراءات هى المذكورة فى الحديث . وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة . أو زاد ليزيل الشبهة .

وقال أبو بكر بن العربى : ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبى جعفر . وشيبة . والأعمش ونحوهم . فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم :

---

(١) الكلمات الحسان فى الحروف السبعة وجمع القرآن ص ٥٣ .

(٢) هو أبو بكر أحمد بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

وكذا قال غير واحد. منهم : مكى بن أبى طالب، وأبو العلاء الهمذانى . وغيرهم من أئمة القراء [١] .

وقال القرطبي فى تفسيره[٢] . « قال كثير من علمائنا كالداودى . وابن أبى صفرة وغيرهما : هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبة ليست هى الأحرف السبعة . التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها . وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من هذه السبعة . وهو الذى جمع عليه « عثمان المصحف . ذكره ابن النحاس وغيره » .

وهكذا يتبين لنا : أن القراءات الثابتة المتواترة ليست منحصرة فى السبع المشهورة وإنه لايجوز بحال من الأحوال أن تكون مرادة من الحديث وكيف يمكن أن تكون القراءات السبع المشهورة هى المرادة من الحديث . . وهى إنما عرف كونها سبعاً من قبل أن رواتها المشهورين سبعة . وهذا شىء علم بعد زمن النبى - صلى الله عليه وسلم - بثلاثة قرون تقريباً . على يد » ابن مجاهد » ؟ فغير معقول أن يخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن على حروف لم تعرف . ولم تشتهر إلا بعده بقرون .

وقد علمت : أن حصر القراءات الثابتة فى إنما كان أمراً اتفاقياً فحسب .

القول العاشر

ذهب البعض إلى أن المراد بالأحرف السبعة : سبعة أصناف من الكلام . وقد اختلف القائلون به فى تعيين هذه السبعة . فقيل . إنها أمر ونهى ، وحلال . وحرام . ومحكم . ومتشابه . وأمثال .

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٢٥ . .

(٢) ج ١ ص ٤٦ .

واحتجوا بمـا أخرجه الحاكم ، البيهقى ، عن ابن مسعود ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كان الـكتاب الأول ينزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجر وآمر وحلال ، حـــرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه ، وقولوا : آمنا به كل من عند ربنا » .

وهذا الرأى مردود من جهة الرواية والدراية . والعقل بما يأتى .

١ – أن هذا الحديث غير ثابت ، فلا يصح الاحتجاج به . قال الإمام أبو عمر بن البر . « هذا حديث لا يثبت ، لأنه من رواية أبى سلمة بن عبد الرحمن عن ابن مسعود ، ولم يلق ابن مسعود » .

وقال الحافظ فى « الفتح » (١) : « وقد صحح الحديث المذكور « ابن حبان ، والحاكم » وفى تصحيحه نظر ، لانقطاعه بين أبى سلمة وابن مسعود » . ومعروف : أن المنقطع من قبيل الضعيف ، فلا يحتج به فى مثل هذا .

٢ ـ لو سلمنا جدلا أن الحديث ثابت ، فليس تأويله كما قال هؤلاء ، وإنما له تأويلات أخر :

(ا) وذلك إما أن يكون قوله فى الحديث : زاجر ، وآمر . . . الخ استئناف كلام « ولنس بياناً للأحرف . قال أبو العلاء الهمدانى ، وأبو على الأهوانى : « إن قوله : زاجر ، وآمر استئناف كلام آخر ، أى هو زاجر ـ القرآن ـ « ولم يرد به تفسير الآحرف السبعة» وإنما توهم ذلك من توهمه من جهة الاتفاق فى العدد .

ويؤيده أنه جاء فى بعض طرقه : زاجراً ، وآمراً ـ بالنصب ـ أى نزل على هده الصفة من الأبواب السبعة » .

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٢٤ .

(ب) وإما أن تكون بياناً للأبواب السبعة لا للأحرف السبعة . قال العلامة أبو شامة . « يحتمل أن يكون التفسير المذكور للأبواب لا للأحرف السبعة . أى هى سبعة أبواب من أبواب الكلام وأقسامه ، وأنزله على هذه الأصناف . لم يقتصر منها على صنف واحد كغيره من الكتب » .

وعلى هذه التأويلات لا يكون الحديث صالحاً للاحتجاج به على ما ذهب إليه هؤلاء .

(ج) وقال البيهقى : « المراد بالسبعة الأحرف هنا : الأنواع التى نزل عليها والمراد بها فى تلك الأحاديث : اللغات التى يقرأ بها » . وكذلك قال القاضى « أبو بكر الباقلانى » .

٣ — هذه الأنواع لا تصلح أن تكون تفسيراً للأحرف السبعة لأن الغرض منها كان التوسعة على الامة والتيسير بالتغيير فى القراءة بأى حرف منها . وما ذكروه من الأنواع لا يتأتى فيه البتة التوسعة والتيسير لان التوسعة لم تقع فى تحليل حرام ولا فى تحريم حلال ولا فى إبدال أمر بنهى ولا نهى بأمر ولا محكم بمتشابه ولا عكسه . وهكذا .

فكل هذا مما أجمع العلماء قاطبة على أنه لايجوز قال ابن عطية(١) : « هذا القول ضعيف لان هذه لا تسمى أحرفا فالإجماع على أن التوسعة لم تقع فى تحريم حلال ولا تحليل حرام ولا فى تغيير شىء من المعانى المذكورة » .

ولعلك على ذكر من مقالة الإمام الزهرى التى ذكرناها فى صدر البحث من حديث مسلم .

٤ — هذا القول يلزم منه رد كل الاحاديث الصحيحة التى قدمناها فى صدر المبحث والتى تدل على اختلاف الصحابة ، ورفع الامر إلى

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦٥

الرسول ، وإقرار كل واحد على قراءته وحرفه ، إذ مستحيل أن يقر النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ الامر نهيا ، أو النهى أمرا ، أو قرأ بدل الامثال أحكاما ، ومن قرأ بدل الاحكام أمثالا . وهكذا . وهو أمر تنزه عنه أى عاقل . فضلا عن أعقل العقلاء .

ورد كل هذه الروايات الصحيحة الموثوق بها لاجل رواية ضعيفة ليس من قواعد البحث العلمى الصحيح فى شىء : ولعل فى حمل هذا الحديث على ما ذهب اليه البيهقى . والقاضى الباقلانى ما يربأ بالقائلين بهذا القول عن هذه السقطة التى لا لعالهم منها[1] وهو ما يليق بحالهم كعقلاء . فإذا كان هذا مقصدهم فقد كفانا الله وإياهم شر الجدال والنزاع .

أقوال أخرى

وهناك أقوال أخرى فى بيان الاصناف السبعة وإليك بعضها (٢):
فقيل : وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج .
وقيل : محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص

وقيل إظهار الربوبية : وإثبات الوحدانية وتعظيم الالوهية والتعبد لله ومجانبة الإشراك والترغيب فى الثواب والترهيب من العقاب .

وقيل إنها فى أسماء الرب مثل : الغفور الرحيم ، السميع العليم ، العليم الحكيم وهكذا . . . يعنى فى إبدال بعضها ببعض .

وكلها أقوال باطلة وليس عليها أثارة من علم أو برهان ومردودة بما رددنا به القول العاشر .

---

(١) يقال : لا لعاً لفلان أى لا إقالة لعثرته :

(٢) ومن أراد استقصاء هذه الآراء الزائفه فليرجع إلى الاتقان ح١ ص ٤٨ — ٤٩ .

وإن لنا لوقفة عند هذا الرأى الأخير ، المجوز لتبديل فواصل الآى بعضها ببعض مما هو من صفات الرب ، فإن هذا خلاف الإجماع ، ويؤدى إلى ذهاب بعض الإعجاز ، فإن من أعجاز القرآن . هذا التناسب والترابط القــوى بين الآية وخاتمتها ، فلو جاز إبدال خاتمة بأخرى لعاد بالخلل على إعجاز القرآن .

قال القاضى عياض — نقلا عن المازرى — قال : « وقول من قال . المراد خواتيم الآى فيجعل مكان « غفور رحيم ، سميع بصير » فاسد أيضا للإجماع على منع تغيير القرآن للناس[1] .

إزالة شبهة فى هـــذا المقام :

فإن قيل : فما تقول فيما ذكره « السيوطى » فى الإتقان[2] . حيث قال « وعند أبى داود[3] عن أبى قلت . سميعا عليما ، عزيزاً حكيما مالم تخلط آية عذاب برحمة ، أو رحمة بعذاب .

وعند أحمد من حديث أبى هريرة : « أنزل القرآن على سبعة أحرف . عليما حكيما ، غفوراً رحيما » وعنده أيضا من حديث عمر : « بأن القرآن

(١) شرح النووى على صحيح مسلم جـ ٦ ص ١٠٠

(٢) الاتقان جـ ١ ص ٤٧

(٣) فى سنن ابى داود باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » قال : حدثنا أبو الوليد الطيالسى أخبرنا همام بن يحيى ، عن قتادة ، عن يحيى بن يعمر ، عن سليمان بن صرد الخزاعى ، عن أبى بن كعب قال : قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يا أبى إنى اقرئت القرآن ـ فقيل لى ـ . على حرف أو حرفين فقال الملك الذى معى . قل على حرفين . قلت . على حرفين . فقيل لى . على حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذى معى . على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف . ثم قال . ليس منها إلا شاف كاف . إن قلت . سميعاً عليما ، عزيزاً حكيما مالم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب » .

كله صواب ، ما لم تجعل مغفرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة ، قال ، أسانيدها جياد ».

قلت : على فرض ثبوت الروايات قد تأول العلماء هذه الأحاديث على غير ظاهرها . لوجود الصارف لها ، وهو ما قدمناه من الإجماع على عدم جواز ذلك .

قال الإمام ابن عبد البر - في رواية أبي داود - : إنما أراد ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها . أنها معان متفق مفهومها ، مختلف مسموعها[1] ، لا يكون في شيء منها معنى وضده ، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافا ينفيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده » .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : وهذه أيضا سبعة غير السبعة التي هي وجوه وطرائق ، وغير السبعة التي هي قراءات ووسع فيها ، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى . وإذا ثبتت هذه الرواية - رواية أبي - حمل على أن هذا كان مطلقا ثم نسخ ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالفه »[2] . وهو تأويل كما ترى .

وشكك في صحتها بعض العلماء فقال صاحب التبيان[3] . وكأن بعض الحفاظ ينكر صحة هذه الراوية ، فإنه قال - في إثبات ما ذهب إليه من عدم جواز الرواية بالمعنى - . وبرهان ذلك : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - علم « البراء بن عازب » دعاء ، وفيه . . ونبيك الذي أرسلت ، فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على النبي - صلى الله عليه وسلم - قال . « ورسولك الذي أرسلت » فأمره - عليه السلام - أن لا يضع « رسول » في موضع لفظه « نبي » وذلك حق لا يحيل معنى وهو - عليه السلام -

---

(١) يريد أنها دالة على ذات واحدة وإن اختلفت ألفاظها .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٦٧ .

(٣) التبيان ص ٥٨ .

رسول ونبى ، فكيف يسوغ للجهال المغفلين أن يقولوا . إنه ـ عليه السلام ـ كان يجيز أن يوضع فى القرآن مكان عزيز حكيم ، غفور رحيم ، أو سميع عليم . وهو يمنع من ذلك فى دعاء ليس قرآناً ، والله يقول ـ مخبرا عن نبيه ـ . « ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى » ولا تبديل أكثر من وضع كلمة موضع أخرى » .

أقول . ومما ينبغى أن يعلم أن مخالفة المروى للقرآن أو لما اشتهر من السنة أو لإجماع العلماء مما يقلل الثقة بالرواية ويجعلها فى عداد الروايات الواهية التى لا يحتج بها .

وأما رواية أبى هريرة فليس فيها مايدل على وضع أحدهما مكان الاخر .

والظاهر . أن المراد بالحرف فى هذا الحديث غيره فى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف المشهور ، فالمراد به هنا : سبعة أوجه من أسماء الله تعالى ، وبمثل هذا قال القاضى الباقلانى فى الحديث السابق .

وأما حديث « عمر » فليس فيه ما يدل على جواز إبدال فاصلة بأخرى ، ومراد النبى بقوله . إن القرآن كله صواب « يعنى فى حدود المنزل من عند الله على نبيه ، وما تلقاه المسلمون عن النبى ، فهو مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الرواية الأخرى . فأى حرف قرءوا عليه ، فقد أصابوا » .

والدليل على أن هذا التأويل هو المتعين فى حديث « عمر » هى القصة التى ورد بسببها هذا القول . ذلك أن « عمر »(١) اختصم مع آخر بسبب قراءة كلمة من القرآن فذهبا إلى النبى ، فصوب قراءتيهما ، وبين أن الكل من عند الله ، فدخل قلب « عمر » من ذلك شىء ، فضرب النبى فى صدره وقال : أبعد شيطاناً . ثم قال . ياعمر ، القرآن كله صواب مالم تجعل رحمة عذاباً .. الخ » ويكون المقصود بقوله «مالم تجعل .. الخ » النهى عن

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٣١ ، تفسير الطبرى ج ١ ص ١٠ .

وضع شيء ما موضع آخر من غير نظير إلى تخصيص ذلك بالرحمة والعذاب.

إزالة شبهة أخرى:

فإن قال قائل: لقد ذكرت فى صدر المبحث استنتاجا من الروايات الحديثة: أن التوسعة فى الأحرف إنما كانت فى حدود المسموع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .. وأكثرت من تثبيت هذا المعنى فى تضاعيف كلامك .. فما تقول فيما ورد من آثار ظاهرها يفيد جواز إبدال اللفظ القرآنى بآخر — وإن لم يسمع — ما دام المعنى واحداً؟ مثل ما روى عن ابن مسعود: أنه علم رجلا قوله تعالى: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» فقال الرجل: طعام اليتيم. فأعاد عليه ابن مسعود الصواب، وأعاد الرجل الخطأ؛ فلما رأى «ابن مسعود» أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أما تحسن أن تقول طعام الفاجر قال بلى. قال فافعل. وروى عن أبى الدرداء مثل ذلك وما رواه الأعمش قال: قرأ أنس ابن مالك. «إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا» فقيل له: إنها «وأقوم قيلا» فقال: أقوم، وأصوب، وأهيأ واحد. وكذلك روى أن أبا سوار الغنوى كان يقرأ: «فحاسوا خلال الديار»[1] - بالحاء غير المعجمة فقيل له: إنما هى «فجاسوا» فقال: «حاسوا وجاسوا واحد».

والجواب: إن هذه الروايات وماشابهها مصروفة عن ظاهرها لامحالة؛ لوجود الأدلة القطعية من القرآن والسنة الصحيحة على عدم جواز تبديل كلمة بأخرى فى معناها، من غير توقيف وسماع.

وأيضاً فقد أجمع علماء الأمة على هـذا، وإن شذ عن هذا الإجماع مفسر[2]، ونحوى[3] فاغترا بظاهر الروايات، وهو قول ساقط عن الاعتبار

---

(١) الإسراء آية ٥.

(٢) هو الزمخشرى أنظر تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٦٣

(٣) هو ابن جنى انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ٣٣٧.

إذا قيس بإجماع العلماء المحققين الجامعين بين المعقول والمنقول ، وكأنى بك تقول : إذا كانت الروايات مصروفة عن ظاهرها لا محالة . . فما المراد منها إذا . . ؟

قلت : لك فى ذلك طريقان . . وإليك البيان .

١ — إما أن نقول : إن هذه كانت أحرفا يقرأ بها ، وكانت منزلة من عند الله للتوسعة على العرب فى أول الأمر ، ثم نسخت فيها نسخ فى العرضة الأخيرة التى عرضها جبريل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

أو أنها تنوسيت واندثرت فيما تنوسى واندثر من الاحرف الستة ، غير حرف قريش الذى جمع عليه عثمان المصاحف وعلى هـــذا يكون ابن مسعود قد سمع القراءتين عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما تعذر على الرجل أحدهما اقرأه الاخرى ، وكذلك « أنس » سمع كلا من الالفاظ الثلاثة ، وأبو سوار الغنوى سمع كلا من اللفظين .

وقد قرأ « فحاسوا » ـ بالحاء ـ أبو السمال ، وطلحة بن مصرف مما يدل على أنها منزلة وليست بالهوى .

٢ — وإما أن يقول : « إن ماجاءت به الروايات تفسير وتوضيح للفظ القرآن ، فابن مسعود لم يرد اقراء الرجل لفظ القرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى له ؛ كى يكون ذلك وسيلة إلى النطق بالصواب ، وهو اللفظ القرآنى المتلقى عن الرسول . وذلك أن ابن مسعود بين أمرين ، إما أن يدعه يقرأ لفظ « اليتيم » فيكون فى ذلك إخلال باللفظ وإفساد للمعنى ، وفى ذلك ضرران محققان ، وأمران محظوران ؛ وإما أن يقرئه المعنى بلفظ يستقيم به لسانه ؛ فيستقيم المعنى ، ويبقى الإخلال باللفظ ريثما يتسهل له النطق بالاصل ففيه ضرر واحد . ولا شـــك أن ارتكاب أخف الضررين ، وأهون

المحظورين - عند الضرورة - أولى من ارتكابهما معاً :

قال القرطبى فى تفسيره[1] - نقلا عن أبى بكر الانبارى - . ولا حجة فى هذا للجهال من أهل الزيغ . أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره ؛ لان ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلم ، وتوطئة له للرجوع إلى الصواب ، واستعمال الحق ، والتكلم بالحرف على إنزال الله ، وحكاية رسول الله - صلى الله عليه وسلم » .

وقال صاحب الانتصاف تعقيبا على قول الزمخشرى : « قال أحمد : لا دليل لذلك وقول أبى الدرداء محمول على أيضاح المعنى ، ليكون وضوح المعنى ، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزل . . . على هذا حمله القاضى أبو بكر فى كتاب « الانتصار » وهو الوجه » .

وكذلك أنس - رضى الله عنه - لم يرد أن هذا قرآن ، وإنما أراد توضيح المعنى ، وتفسير لفظ القرآن. قال الإمام الرازى فى تفسيره (٢) بعد أن ذكر رواية أنس ، واستدلال ابن جنى بها على الجواز : « وأنا أقول : يجب أن نحمل ذلك على أنه إنما ذكر تفسيراً للفظ القرآن ، لا على أنه جعله نفس القرآن ، إذ لو ذهبنا إلى ماقاله ابن جنى لارفع الإعتماد عن ألفاظ القرآن ولجوزنا أن كل أحد عبر عن المعنى بلفظ رآه مطابقاً لذلك المعنى ، ثم ربما أصاب فى ذلك الاعتقاد ، وربما أخطأ ، وهذا يجر إلى الطعن فى القرآن ، فثبت أنه يجب حمل ذلك على ما ذكرنا » .

ومثل ذلك يقال فى « فحاسوا » فهى تفسير للفظ القرآن « فجاسوا » وربما كانوا يفعلون ذلك فى القرآن ؛ اعتماداً على أن اللفظ القرآنى معروف

---

(١) جـ ١٦ ص ١٤٩ .

(٢) جـ ٨ ص ٢٢٧ .

ومتحقق ، ولا يأتى فيه الالتباس والاشتباه . على أن أمر أنس منقطع فلا يحتج به ولا سيما فيما يتعلق بالقرآن وقراءاته.

وقال ابن الأنبارى (١) ـ بعد أن ذكر رواية الأعمش ، عن أنس ـ : « وقد ترامى ببعض هؤلاء الزائغين إلى أن قال : من قرأ بحرف يوافق إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . معنى حرف من القرآن ، فهو مصيب إذا لم يخالف معنى ، ولم يأت بغير ما أراد الله ، وقصد له . واحتجوا بقول أنس . وهو قول لا يعرج عليه ولا يلتفت إلى قائله . . . إلى أن قال : والحديث الذى جعلوه قاعدتهم فى هذه الضلالة لا يصح عن أحد من أهل العلم لأنه مبنى على رواية الأعمش ؛ عن أنس ، فهو مقطوع(٢) ليس بمتصل ، فيؤخذ به من قبل أن الأعمش رأى أنسا ، ولم يسمع منه » .

ولعلك بعد هذا البيان الشافى ازددت يقينا واطمئنانا إلى أن الإجابة فى أحرف القرآن وقراءاته ، إنما كانت فى حدود المسموع ، المتلقى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن جبريل عن رب العزة ـ جل وعلا ـ وأن هذا إجماع من العلماء المحققين المتثبتين .

« زعم باطل لبلاشير .. ورده »

وقد تلقف بعض المستشرقين هذه الرواية الباطلة التى عرضنا لها ، والروايات التى لها محامل صحيحة ، ولكنهم حرفوا معانيها إلى محامل باطلة فزعموا أنها تدل على جواز قراءة القرآن بالمعنى ، وهذه سمة معظم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٩ ص ٤٠ .

(٢) مراده منقطع بدليل مابعده وبعض العلماء يطلق لفظ المقطوع على المنقطع ؛ أنظر مقدمة ابن الصلاح ص ٥١ . والمنقطع من قبيل الضعيف فلا يحتج به فيما دون هذا ، فكيف يعول عليه فى مثل هذا ؟ !

المستشرقين : أنهم يصحح‍ون الموضوع ، ويحرفون الصحيح عن معناه كى تساعدهم على أغراضهم من الطعن فى القرآن الكريم .

ومن هؤلاء « بلاشير » فى كتابه « المدخل إلى القرآن » وفى ترجمته للقرآن التى أقحم فيها على النص القرآنى بعض الآيات الموضوعات[1] ، وها هو بلا شير يعرض زعمه فى موضوع ' القراءة بالمعنى ، قال : « خلال الفترة التى تبدأ من مبايعة على عام ٣٥ ﻫ حتى مبايعة الخليفة الأموى الخامس « عبد الملك » عام ٦٥ ﻫ كانت جميع الإتجاهات تتواجه ، فالمصحف العثمانى قد نشر نفوذه فى كل البلاد إذ كان مؤيدا بنفوذ من شاركوا فى عمله ؛ وقد كانوا يشغلون مناصب مهمة فى الشام وربما كان هذا هو الوقت الذى نشأت فيه نظرية معينة ، تدل على أن إصلاح عثمان كان قد أصبح ضروريا فبالنسبة إلى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ، وإنما روحه ومن هنا ظل أختيار الوجه (الحرف) فى القراءات التى تقوم على الترادف المحض أمرا لا بأس ولا يثير الإهتمام هذه النظرية التى يطلق عليها القراءة بالمعنى كانت دون شك من أخطر النظريات إذا كانت تكل تحديدالنص إلى ؛ هوى كل إنسان[2] .

ومن الغريب والمؤسف حقا أن يجىء بعد بلا شير رجل مسلم وهو

---

(١) فقد أدخل فى ترجمته لسورة النجم بعد قوله تعالى أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى « هذه العبارة المختلفة المدسوسة « تلك الغرانيق العلا » وإن شفاتهن لترتجى اعتمادا على ذكرها فى بعض كتب أسباب النزول التى لا يعتبر مؤلفوها من المحدثين الذين يميزون بين الصحيح وغيره والتى زعموا أنها كانت سببا فى نزول قوله تعالى : وما أرسلنامن قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . . » الاية وقد فندت ذلك من جهة العقل والنقل فى كتابى السيرة النبوية ؛ القسم الأول ص ٣٧٥ — ٣٨٧ ، فليرجع إليه من يشاء (٢) المدخل ٦٩ — ٧٠ عن تاريخ القرآن للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٨٤ — ٨٥ .

الدكتور مصطفى مندور فيتابع أستاذه بلا شير على رأيه . بل ويزيد الطين بلة بما أضاف من تخرصات أخرى فعقد فصلا فى رسالة الشواذ ، - وهى رسالة تكميلية لنيل درجة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بجامعة باريس - بعنوان « القراءة بحسب المعنى » قال فيه : هنالك على الأخص نقطة وقع عليها أتفاق كثيرين هى ان القرآن ربما قرىء بأوجه كثيرة ، ولكن الأساس هو أن يحترم المعنى « وقد أيدت نصوص كثيرة هذه الفكرة فينسب إلى عمر قوله : القرآن كله صواب مالم تجعل عذاباً ، أو عذابا مغفرة . . . . ثم ذكر نصوصا لا تشهد لما أدعاه ثم قال ؛ « من هذه الوجوه التفسيرية نشأت فكرة « القراءة بحسب المعنى » وهناك أمثلة ترينا إلى أى حد تبع المؤمنون كلام الله بحرفه ... » ثم بسوق أخبارا يستدل بها على انتشار هـــذه النظرية فى المجتمع الإسلامى فيقول: « وقد علم عمر بن عبد العزيز أن رجلا كان يقرأ القرآن فيقلب نظام الآيات فلما قوطع فى قراءته ادعى أنه لا ذنب فى هذا ولا جريرة ما دام يذكر كل النص ، فى أى نظام ، كما روى أن مسلما آخر استبدل بعض الكلمات بمرادفاتها » ثم ذكر مرجعا له كتاب الاغانى (جـ ٣ ص ٦١) ، وما هو فيه ، ولعله اعتمد فيما نقله على بعض كتب الادب ككتاب ومحاضرات الادباء ، وأمثاله من الكتب[1] التى لا اعتداد بها فى باب الرواية عند العلماء المحدثين الأصلاء فى النقد ، والذين إليهم المرجع فى معرفة الغث من السمين والصحيح من الضعيف من الموضوع المختلق على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابه رضوان الله عليهم .

والرد على هذه المزاعم

وإليك الرد على هذه المزاعم التى زعمها « بلاشير » ومتابعة « مندور » لا تثبت أمام النقد العلمى النزيه ومعظمها روايات باطلة المعنى واهية الإسناد والاعتماد على أمثال هذه الروايات التى ليس لها زمام ولا خطام تجن على

(١) رسالة الشواذ للدكتور مندور ص ١١٣ ومابعدها نقلا عن كتاب « تاريخ القرآن ص ٨٦ ، ٨٧ وقد يعقب الدكتور عبد الصبور شاهين بلاشير وتلميذه مندور فى ما زعماه ، وفند ما ارتأياه ، وأبان عن أن منهجهما ليس بمنهج علمى صحيح .

العلم وعلى الحقيقة ، ولولم يكن فى نقد هذه المرويات إلا أنها مخالفه للمعقول وما صح من المنقول ، وما أجمع عليه المسلمون من عهد الصحابه إلى يومنا هذا مما هو منقول نقلا متواترا ، لا يتطرق إليه الشك والارتباك ، لكفى فما بالك وهى معلوله الأسانيد وصدق ابن الجوزى الناقـــد حيث قال : « ما أحسن قول القائل :

كل حديث رأيته تخالفه العقول ، وتناقض الأصول ، وتباينه النقول فاعلم أنه موضوع » وقد عرضنا لهذه المرويات آنفا ، وبينا أن معظمها لا يصح للاحتجاج به ، وبعضها على تسليم صحته فله مخارج صحيحه

٣ ـ إن مثل هذه البحوث التى تتعلق بكتاب الله، الذى توفرت له كل وسائل الثبوت واليقين والتحوط البالغ لسلامه النص من التحريف والتبديل والتغيير لا يجوز ولا يليق بباحث أن يعتمد فيها على روايات تذكر فى كتب الأدب أو التاريخ ، أو يتندر بها بعض الناس فى مجالسهم من غير أن يكون لها أسانيد ثابته ، ولكن المستشرقين وأبواقهم فى سبيل تحقيق مزاعمهم يصححون الضعيف ، ويعتمدون على المكذوب ، على حـــين نجدهم يضعفون الصحيح من الأحاديث ولا حامل لهم فى هـــذا وذاك . إلا الهوى والتشهى والتجنى الاثم على النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى القرآن الكريم .

٣ ـ إن هذه التوسعه فى الحروف السبعه لم تكن بالهوى والتشهى وانما كانت فى حدود المنزل من عند الله بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم عقب سماعه قراءة كل من المختلفين « هكذا أنزلت » وقد نبهت على ذلك آنفاً فكن على ذكر منه .

٤ ـ إن للبحث العلمى الصحيح الذى يكون القصد منـــه إصابه الحق والصواب يلزم الباحث النزيه فيما إذا وردت روايات متعارضه أن ينقدها

من ناحية السند ـ النقد الخارجي ـ ومن ناحية المتن ـ النقد الداخلى ـ ولا يزال يمحص الروايات ، ويوازن بينها مع ملاحظه ما يوافق البيئة منها ، وما لا يوافق ، حتى يهتدى إلى الحق والرشاد ، أما أن يأخذ ما يشاء على حسب هـــواه فتلك خيانة للبحث العلمى الصحيح ، ثم ان جاز هذا من باحث متعصب « كبلا شير » فكيف جاز ذلك من باحث مسلم كمصطفى مندور ؟ ! ! .

٥ ـ ان المعول عليه فى حفظ القرآن الكريم هو التلقى الشفاهى فعن النبي صلى الله عليه وسلم تلقاه ألوف الصحابة العدول الضابطين، وعن الصحابه تلقاه ألوف الألوف من التابعين ولم يكن المعول عليه فى الحفظ الصحف أو المصاحف وإنما كانت الكتابة فى الصحف والمصاحف لزيادة التوثق والاطمئنان ولا يزال الاعتماد فى حفظ القرآن على الشيوخ الحافظين المتقنين إلى يومنا هذا وهذا القرآن المكتوب فى المصاحف ثبت بحفظ الألوف الذين لا يحصيهم العد وأجمع عليه المسلمون فى كل عصر وقطر ، فكل ما جاء من روايات مخالفه مخالفته صريحه أو ضمنية فاضرب بهذه الروايات عرض الحائط ، وارم بهما دبر أذنيك فانها لا تساوى المداد الذى تكتب به . والروايات الأحادية وإن صحت لا تعارض ما ثبت بالتواتر ، فما بالك إذا كانت الروايات الاحادية ضعيفة .

٦ ـ فى كلام «بلاشير» ومتابعة (مندور) تناقض ودعاوى وافتراضات لم يقم عليها دليل فمن ذلك ما ذكر « بلاشير » من أن مصحف عثمان قد بسط نفوذه ... فكيف يتفق هذا وقوله (فبالنسبه الى بعض المؤمنين لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم ؟ ! ثم كيف ضرب عن الروايات الصحيحة المتكاثرة صفحاً وزعم أن نظرية القراءة بالمعنى كانت تكل تحديد النص الى (هوى كل انسان) ؟! .

ثم ما قيمه التخمينات والافتراضات فى بحث يتصل بكتاب يعتبر عند

المنصفين خير الكتب السماوية وأفضلها بل الأرضية ؟ ثم أين النصوص الكثيرة التي أيدت فرية «قراءة القرآن بالمعنى» ياد كتورمندور وماذ كرت إلا بضعة نصوص ضعيفة متهالكة متهافتة ، وقعت عليها فى كتب الأدب ونحوها التي لا اعتبار لها فى موازين أهل النقد والروايه ؟ ! ثم من هم الكثيرون الذين زعمت أنهم أتفقوا على جواز القراءة بالمعنى ؟!! وصدق القائل :
والدعاوى مالم تقيموا عليها بينات أجاؤها أدعياء .

جملة الأقوال فى الأحرف السبعة

وقد بلغ بها «السيوطى» - نقلا عن ابن حبان - إلى خمسة وثلاثين قولا ثم قال : قال ابن حبان : فهذه خمسه وثلاثون قولا لأهل العلم واللغة فى معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف. وهى أقاويل يشبه بعضها بعضاً ، وكلها محتملة ويحتمل غيرها» .

وقال أبو العباس المرسى : « هذه الوجوه أكثرها متداخلة، ولا أدرى مستندها ولا عمن نقلت ؟ ولا أدرى لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعه بما ذكر ؛ مع أنها كلها موجودة فى القرآن؛ فلا أدرى معنى التخصيص؛ ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة ، وأكثرها معارضة حديث عمر ، وهشام بن حكيم ، الذى فى الصحيح ؛ فإنهما لم يختلفا فى تفسيره، ولا أحكامه وإنما اختلفا فى قراءة حروفه . وقد ظن كثير من العوام ؛ أن المراد بها القراءات السبع وهو جهل قبيح » .

أما ما استشكله من حديث « عمر » وهشام ، فقد بينا مفصل الحق فيه بما يزيل الإشكال ويطمئن القلب ، وبحسبنا ماذ كرنا من الأقوال فى هذا المقام فقد أعرضنا عن القشور ، واكتفينا باللباب .

---

(١) مراده منقطع بدليل ما بعده وبعض العلماء يطلق لفظ المقطوع على المنقطع . أنظر مقدمة ابن الصلاح ص ٥١ ، والمنقطع من قبيل الضعيف فلا يحتج به فيما دون هذا ، فكيف يعول عليه فى مثل هذا ؟ !

موقف الشيعة من حديث الأحرف السبعة

أما موقف الشيعة من حديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » فكانوا على فريقين فمنهم من يرى صحة الحديث ، ولم يطعن فيه ، وذكر بعض الوجوه فى تأويله ، ويمثل هذا الفريق الأستاذ الشيخ أبو عبدالله بن الميرزا نصر الله الزنجانى — رحمه الله — فى كتابه « تاريخ القرآن » فقد ذكر بعض الأحاديث التى رواها البخارى وغيره فى هذا الباب ، ثم قال : « دلت هذه الروايات على أن النبى ﷺ كان يقرىء القرآن بعض عظماء الصحابة ، ويهتم بأن يحفظوه حتى قال لأبى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك ... » ودلت أيضاً على أن الصحابة كانو يهتمون بحفظ نصوص الآيات بحيث كان زيادة حرف « واو » ونقصيتها أمراً مهتما به مع أن ذلك لا يغير المعنى كثيراً ، وكذلك عرض لبيان المراد بالأحرف السبعة ، ومال إلى ما رآه الإمام محمد بن جعفر بن جرير الطبرى فى تفسيره[1] وهو ما رجحنا آنفاً .

ويمثل الفريق الثانى — وهم الأكثر — السيد أبو القاسم الموسوى الخوئى فى كتابه « البيان فى تفسير القرآن »[2] فقد عرض لبعض الروايات الثابتة الصحيحة التى ذكرناها فى صدر البحث وقد حاول أن يثبت أنها أحاديث مضطربة متناقضة وأنها ضعيفة الأسانيد من غير أن يقيم على ذلك بينة غير أنها واردة من طرق أهل السنة فهى مرفوضة فى نظره وهى أيضا مخالفة لصحيحه زرارة بن أعين عن أبى جعفر قال : « إن القرآن واحد ، نزل من عند واحد ، ولكن الاختلاف يجىء من قبل الرواة » وأن الصادق عليه السلام حكم بكذب الرواية المشهورة بين الناس « نزل القرآن على سبعة أحرف » وقال : « ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد .

---

(١) تاريخ القرآن للزنجانى من ص ٣٥ - ٣٨

(٢) البيان جـ١ ص ١١٩ وما بعدها عن « تاريخ القرآن »

ولاأدرى كيف يستسيغ إخواننا الشيعة أن يردوا حديثا متواترا عن عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية واحدوعشرين صحابياعدولاضابطين، بروايات مقطوعة[1] على التابعين، ومن بعدهم، وليس مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولاموقوفة[2] على الصحابي ومهما بلغ شأن التابعي أوتابع التابعي فلن تبلغ روايته مبلغ الرواية المسنده إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا تصلح أن تكون معارضة لهابل لووردت رواية عن بعض الصحابة وورد عن النبي مايخالفها أخذنا بالرواية المرفوعة ورفضنا الموقوفة، وهذا هوالمنهج الصحيح الذى لاينبغى أن يختلف شيعى أوسنى وهذاهو المنهج العلمى الصحيح الذى وضعه أئمة هذا العلم النبوى فى كل عصرومصر من لدن الصحابة إلى يومنا هذا.

وماذا نملك للشيعة مادام مذهبهم رفض كل المرويات التى رويت فى كتب أهل السنه مهما بلغت من الصحه، وثقات رواتها ؟!! إذا عارضت ماروى عن أهل البيت.

يقول السيد الخوئى: «ولاقيمه للروايات إذا كانت مخالفه لما يصح عنهم (أى عن أهل البيت) ولذلك لا يهمنا أن نتكلم عن أسانيد هذه الروايات، وهذا أول شىء تسقطبه الروايةعن الأعتباروالحجيه»[3]وهذا المبدأ أبعد مايكون عن المنطق والصواب فأى راومهمابلغ من العلم أوالنسب غير معصوم، ومادام الأمر كذلك فلتوزن هذه الروايات وغيرها بالميزان الذى وضعه «أئمه الجرح والتعديل» وليتعرف صحيحها من سقيمهامن موضوعها بالقواعد التى وضعها أئمه أصول الحديث، والتى تعتبر «ميزان المنقول» كما أعتبر المنطق «ميزان المعقول» ولكى تكون على بينه مما ذكره السيد الخوئى ومنزلته من الحق والصواب أذكر لك بعض المثل مما إنتقدبه المرويات

---

(١) المقطوع: هو ماروى عن التابعين من أقوالهم وأفعالهم

(٢) الموقوف. هو ماروى عن الصحابة من أقوالهم وأفعالهم

(٣) البيان جـ ١ ص ١٢٣

يقول : « فمن التناقض أن بعض الروايات دل على أن جبريل أقرأ النبى على حرف فاستزاده النبي فزاده ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، وهذا يدل على أن الزيادة كانت بالتدريج ، وفى بعضها أن الزيادة كانت مرة واحدة فى المرة الثالثة ، وفى بعضها أن الله أمره فى المرة الثالثة أن يقرأ القرآن على ثلاثة أحرف ، وكان الأمر بقراءة سبع فى المرة الرابعة ، وفى الحق أن هذا لا يعد تناقضا ولا اضطرابا ترد به الروايات لأن إمكان الجمع بينهما سهل يسير لجواز أن لا تكون هذه الأحاديث فى قصة واحدة ، بل تكون فى أوقات متعددة ، أما كون ذلك وقع فى المرة الثالثة أو الرابعة فذلك يرجع إلى أن بعض الرواة قد يقتصر على بعض المرات ، والبعض يستوفى المرات، وقد علقت على الروايات فيما سبق بنحو ذلك على أن الامور اليسيرة السهلة لا تطعن فى صحة الحديث نفسه مادامت الروايات كلها فى النهاية تتفق على ذلك . وكل ما ذكره من تناقض أو اختلاف فهو أهون شأنا من هذا .

أما الطعن فى الحديث بأن الزيادة على الحرف الواحد إنما جاءت من الرواة ، فلا أدرى أنصدقه فيما زعم ، ونرفض ما رواه الائمة العدول الضابطون ، وما يكاد تجمع عليه الامة سلفها وخلفها من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا ؟ ! وفيهم الصحابة الاجلاء ، والائمة العلماء الذين حكموا بتواتر هذا الحديث ، ومعروف أن الحديث المتواتر يفيد القطع واليقين فى نسبته الى قائله ! ! والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف .. ؟

اختلف العلماء فى ذلك على أقوال ثلاثة :—

١ – ماذهب إليه الطبرى ، ومن وافقه على رأيه فى الأحرف السبعة : إلى أن المصاحف تشتمل على حرف واحد منها ، وهو حرف قريش الذى جمع عثمان عليه المصاحف . قال الحافظ ابن حجر فى الفتح : « وهو المعتمد »

وهذا الرأى هو الذى يوافق ماذهب إليه الطبرى وموافقوه فى الأحرف السبعة ، وبسطناه فيما سبق غاية البسط : وهو مذهب المحققين .

٢ – وذهب جماعة من الفقهاء والمتكلمين إلى أنها مشتملة على جميع الأحرف السبعة ، وقالوا : إنه لايجوز على الأمة أن تهمل نقل شيء منها ، وقد أجمع الصحابة على نقل المصاحف العثمانية من الصحف التى كتبها أبو بكر ، وكانت بجميع الأحرف السبعة ، وأجمعوا على ترك ماسوى ذلك .

وقد أجيب عنه : بماذكره ابن جرير : من أن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة ، وإنما كان جائزا لهم ، ومرخصاً لهم فيه ، فلما رأى الصحابة أن الأمة قد تفترق وتختلف إذا لم يجمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً ، وهم معصومون من الضلالة ؛ ولم يكن فى ذلك ترك واجب ولا فعل حرام .

٣ – وذهب جماهير من السلف والخلف إلى أنها مشتملة على مايحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى – صلى الله عليه وسلم – على جبريل متضمنه لها ، لم تترك منها حرفاً واحداً .

قال ابن الجزرى . « وهذا هو الذى يظهر صوابه » . قلت لأنه هو الذى يوافق اختياره فى الأحرف السبعة .

قال فى الفتح – بعد ذكر بعض هذه الأقوال – : « والحق أن الذى جمع فى المصحف هو المتفق على إنزاله . المقطوع به ، المكتوب بأمر النبى – صلى الله

عليه وسلم - وفيه بعض مما اختلف فيه الأحرف السبعة لا جميعها . كما وقع في المصحف المكي : « تجري من تحتها الأنهار » في آخر سورة « براءة » . وفي غيره بحذف «من» وكذا ما وقع فيه من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة « واوات » ثابتة في بعضها دون بعض ، وعدة « هاءات » وعدة « لامات » ونحو ذلك . وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معا ، وأمر — النبي صلى الله عليه وسلم — بكتابته لشخصين ، أو أعلم بذلك شخصاً واحدا أو أمر بإثباتهما على الوجهين . وما عدا ذلك مما لا يوافق الرسم ، فهو مما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسهيلا ؛ فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن « عثمان » ، وكفر بعضهم بعضا .. اختاروا الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته ، وتركوا الباقي .

وقال البغوي « في شرح السنة » : « المصحف الذي استقر عليه الأمر هو آخر العرضات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمر عثمان بنسخه في المصاحف وجمع الناس عليه ؛ وأذهب ماسوى ذلك . قطعاً لمادة الخلاف : فصار ما يخالف المصحف في حكم المنسوخ والمرفوع كسائر مانسخ ورفع ؟ فليس لأحد أن يعدو في اللفظ الى ماهو خارج عن الرسم » .

والتحقيق : أن كون المصاحف مشتملة على الأحرف السبعة أو بعضها متوقفه على معرفة المراد بالأحرف السبعة ، فمن قال ان المراد به سبع لغات في كلمة واحدة . تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني كابن جرير ، ومن وافقه قال . ان مابقي في المصاحف منها هو حرف قريش

ومن قال : ان المراد بالأحرف السبعة : الوجوه التي يرجع اليها اختلاف على ماذهب اليه ابن قتيبة ، ومن لف لفه . قال : ان المصاحف العثمانية مشتملة على مايحتمله رسم المصحف منها . بمعنى ؛ أنها اشتملت من كل واحد منها على ما وافق رسم المصحف منه ، لم تخل عن وجه منها بالكلية ، وان كان بعض هذه الوجوه قد نسخ بعضه .

وقد تكفل ببيان ذلك تفصيلا أحد كبار العلماء (١) الكاتبين فى هذا الموضوع .

ومما ينبغى أن يعلم . أن غالب مايمثل به هذا الفريق للأحرف السبعة إنما هو فى نظر الفريق الأول فريق الطبرى ، ومن تبعه — قراءات لاحروف فهم يرون : أن القراءات ترجع إلى الحروف،وهى منها،وليست عينها ،مما يجعل الباحث غيرمطمئن إلى الاحتكام إلى ماهوموجودفى المصاحف العثمانية فى الواقع ، ونفس الأمر اليوم .

يوضح ذلك ما أخرجه ابن أبى داود فى المصاحف عن أبى الطاهر ابن أبى السرح قال : سألت سفيان بن عيينة عن اختلاف قراءة المدنيين والعراقيين . هل هى الأحرف السبعة ؟ قال : لا ، وإنما الأحرف السبعة مثل : هلم ، وتعال ، وأقبل . أى ذلك قلت أجزأك : قال لى ابن وهب: مثله (٢) .

وبعد . فلعلنا بعد هذا المطاف الطويل نكون قد وفقنا إلى عرض هذا البحث عرضاً علمياً صحيحاً خالياً من التعصب لأحد ، أو التحيف على آخر إلا مادل عليه الدليل وقامت الحجة .

ولعلك ـ أيها القارىء ـ تكون قد اقتنعت بما اقتنعنا به : من أنه الحق والصواب فى بيان المراد بالأحرف السبعة ، وإلا .. فأنت واختيارك فقد عرضنا الأقوال وذكرنا ما لها وماعليها .

والحمد لله الذى وفقنا إلى ما انتهينا إليه ؛ فى هذا المبحث العويص ، الشائك ، وبيان الحق فى الروايات الموهمة المشكلة ، التى زلت أقلام بعض العلماء بسببها وماتوفيقى إلا بالله : عليه توكلت وإليه أنيب.

---

(١) الكلمات الحسان : ص ١٤ - ١٧

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ٢٤

المبحث السادس

المكى والمدنى

معرفة المكى والمدنى من المباحث المهمة التى يحتاج إليها المفسر لكتاب الله ومن نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء كى يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب قال أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابورى فى كتاب « التنبيه على فضل علوم القرآن » من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى المكى ، وما نزل بالجحفة ؛ وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف بالحديبية ، وما نزل ليلا ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيعاً ، وما نزل مفردا ، والآيات المدنيات فى السور المكية ؛ والآيات المكيات فى السور المدنية ؛ وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مجملا ، وما نزل مفسراً وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مكى ، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها ، لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله تعالى »[1] . قال السيوطى : وقد أشبعت الكلام على هذه الأوجه فمنها ما أفردته بنوع ومنها ما تكلمت عليه فى ضمن بعض الأنواع .

وقد أفرد المكى والمدنى بعض العلماء ، كمكى والعز الدرينى ، وليس من شأننا فى هذا البحث تتبع الجزئيات واستقراء السور والآيات المكية والمدنية فذلك بالتأليف المستقل ألصق وإنما قصدنا ذكر أحكام كلية وسمات وخصائص

(١) الإتقان ج ١ ص ٨

للمكي والمدني ومعارف متصله بهما من شأنها أن تنير الطريق لدارس القرآن ورد الشبه التي أورها على المكي والمدني بعض المبشرين والمستشرقين ومتابعيهم من الكتاب المعاصرين .

فوائد العلم بالمكي والمدني . ومن فوائد العلم بها :

١ — أنه يعرف به الناسخ والمنسوخ فيما لو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والأخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها ،

٢ — أنه يعين على معرفة تاريخ التشريع والوقوف على سنة الله الحكيمه في تشريعه وهي التدرج في التشريعات بتقديم الأصول على الفروع والإجمال على التفصيل وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت على الدعوة الإسلامه بالقبول والإذعان والانتشار .

الطريق إلى معرفة المكي والمدني .

والعمدة في معرفة المكي والمدني النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل ، والتابعين الآخذين عنهم ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول ، وقد علل ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني « في الانتصار » فقال : ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وأن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ؛

ولعل التعليل ؛ بأن المسلمين في زمانه صلى الله عليه وسلم لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان لأنهم يشاهدون الوحي والتنزيل ويشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله ـ أولى من ذاك التعليل(١).

وقد اشتهر بمعرفة المكي والمدني من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ

---

(١) مناهل العرفان جـ ١ ص ١٧٠ .

عبد الله ابن مسعود ـ رضى الله تعالى عنه ـ روى البخارى بسنده عنه أنه قال « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله ألا وأنا أعلم فيم أنزلت ؟ ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » وقال أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال : نزلت بسفح الجبل وأشار إلى سلع(١) . أخرجه أبو نعيم فى الحليه .

تعريف المكى والمدنى

للعلماء فى تعريفهما اصطلاحات ثلاثة :

الأول : ما عليه جمهور العلماء وهو : المكى ما نزل قبل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة ويدخل فيه ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر الهجرة .

والمدنى : ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينه ويدخل فيه ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد الهجرة كسورة الفتح فقد نزلت على النبى منصرفه من الحديبية .

وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان ، وعليه فقوله تعالى . « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » الاية مدنى وإن كانت نزلت بمكه والنبى صلى الله عليـــه وسلم فى جوف الكعبة عام الفتح ، وقولى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » مدنى وإن كانت نزلت بعرفة فى حجة الوداع وهذا التقسيم حاصر وضابط ومطرد إذ تنعدم على القول به الواسطة ولا يرد عليه ماينقضه فلذا كان الراجح المقبول .

الاصطلاح الثانى : المكى ما نزل بمكة ويدخل ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديبية .

---

(١) بفتح السين وسكون اللام جبل بالمدينه .

والمدنى : ما نزل بالمدينة ويدخل فى المدينة ضواحيها كالمنزل عليه ببدر وأحد وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان ؛ ويرد على هذا التعريف أنه غير حاصر لأنه يثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا مدنيا وذلك مثل ما نزل بتبوك وهو قوله تعالى « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة » الآية[١] ومثل آية التيمم التى فى سورة النساء فأنها نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره[٢] .

الثالث : المكى ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة ، ويحمل على هذا ما نقل عن ابن مسعود أنه قال : « ما كان فى القرآن — يا أيها الذين آمنوا — أنزل بالمدينة ، وما كان يا أيها الناس فبمكة : وما نقل عن ميمون بن مهران أنه قال : ما كان فى القرآن يا أيها الناس أو يا بنى آدم فإنه مكى ، وما كان يا أيها الذين آمنوا فأنه مدنى : وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المخاطب ويرد على هذا الرأى أن التقسيم عليه غير حاصر فهناك آيات كثيرة جدا فى القرآن الكريم ليس فيها يا أيها الناس ولا يا أيها الذين آمنوا كما يرد عليه أنه غير مطرد إذ هو منقوض بسورة البقرة المدنيـــة وفيها يا أيهـا الناس اعبدوا ربكم » وبسورة النساء المدنية ومفتتحها « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ، وبسورة الحج[٣] فإنها مكية عند جماعة من العلماء وفى أواخرها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ».

---

(١) التوبة ٤٣ (٢) الإتقان جـ ١ ص ١٨ .

(٣) اختلف فى هذه السورة فقيل أنها مكية ألا « هذان خصمان اختصموا فى ربهم إلى ست آيات » وقيل مدنية ألا قوله تعالى « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الآية » وقيل هى مختلطة فيها مكى ومدنى وهو قول الجمهور وعلى القائلين بأنها مكية أن يستثنوا أيضا قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا الآيات » لأن فيها الاذن بالجهاد وهو لم يشرع الا بالمدينة قطعا فالاعتراض بهذه السورة أنما يتجه على القول الأول .

قال الإمام الرازى فى تفسيره[١] تعقيبا على هذا الاصطلاح الأخير : قال القاضى : أن كان الرجوع فى هذا إلى النقل فسلم وأن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف إذ يجوز أن يخاطب المؤمنين بصفتهم وباسم جنسهم ويؤمر من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها والازدياد منها فالخطاب فى الجميع ممكن : فإن قال قائل : أن مراد هؤلاء بمقالتهم هذه أن الغالب والكثير كذلك قلنا : أن ذلك لا يفيد فى التقاسيم والتعاريف إذ مبناها على الضبط والانحصار والاضطراب .

« أنواع السور المكية والمدنية »

القرآن الكريم على أربعة أنواع : (١) مكى خالص . (٢) مدنى خالص . (٣) مكى بعضه مدنى . (٤) مدنى بعضه مكى .

أما المكى الخالص فمثل سورة اقرأ والمدثر والقيامة ، وأما المدنى الخالص فمثل سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ، وأما المكى الذى بعضه مدنى فمثل سورة الأعراف فإنها مكية إلا قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » الاية[٢] إلى خمس آيات أو ثمان بعدها فإنها مدنية ومثل سورة الإسراء فإنها مكيه إلا قوله تعالى « ويسألونك عن الروح » الاية[٣] فإنها مدنية كما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود وقد تقدم فى أسباب النزول ومثل سورة هود فإنها مكية إلى قوله تعالى « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » الاية[٤] فقد صح أنها نزلت بالمدينة فى قصة أبى اليسر

وأما المدنى الذى بعضه مكى فمثل سورة الأنفال فإنها مدنية إلا قوله

---

(١) ج ١ ص ٣٠٢ .
(٢) الأعراف ١٦٣
(٣) الإسراء ٨٥
(٤) هود ١١٤

تعالى « وإذ يمكر بك الذين كفروا » الاية[١] فقد روى عن مقاتل أنها مكية واستثنى أيضا قوله تعالى « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » إلى غاية آية (٣٦) فمكيات[٢] وقد روى عن ابن عباس أن آية « وإذ يمكر » نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة تذكيرا له بنعمة الله عليه فهى مدنية .

ومثل سورة براءة فهى مدنية إلا قوله تعالى « وماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى » الآيه[٣] ، فالصحيح أنها نزلت فى قول النبى لعمه أبى طالب : « لاستغفرن لك ما لم أنه عنك » (٤)

والذى يظهر أن أعتمادهم فى وصف السورة بكونها مكية أو مدنية إنما يكون تبعا لما يغلب فيها أو تبعاً لفاتحها ، فقد ورد عن ابن عباس : أنه إذا نزلت فاتحه سورة بمكه كتبت مكيه ثم يزيد الله فيها ما شاء . وقال البهيقى فى الدلائل : « فى بعض السور التى نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها » وقال ابن الحصار : « كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل » وقال ابن حجر فى الفتح : قد اعتنى بعض الأئمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة فى السور المكية . . . وأما عكس ذلك وهو نزول شىء من سورة بمكة تأخر نزول تلك السورة إلى المدينة فلم أره إلا نادراً ، فقد أتفقوا على أن الأنفال مدنية ، لكن قيل : إن قوله « وإذ يمكر . . . » الاية نزلت بمكة » .(٥)

---

(١) الأنفال ٣٠

(٢) أسباب النزول للسيوطى ج ١ ص ٧٧ على هامش الجلالين الاتقان ج ١ ص ١٥

(٣) براءة / ١١٣

(٤) أسباب النزول ج ١ ص ٢١٠ هامش (٥) فتح البارى جـ ٩ ص ٣٣، ٣٤

وترتيب الآيات القرآنية ليس على حسب نزولها ، وترتبها الزمنى ، إنما يرجع إلى المناسبات التى تقوم على ارتباط المعانى وتماسكها ، ووحدة الفكرة أو تجاحها ، فلا عجب إذاً أن يكون فى بعض السور المكية آيات مدنية أو العكس .

وليس أدل على هذا من أن بعض الايات وضعت بجانب بعض الايات الاخرى مع وجود فاصل زمنى بينهما نحو بضع سنين كما قدمنا فى أسباب النزول .

« المكى والمدنى من السور »

قد اختلف العلماء فى بيان المكى والمدنى من السور على أقوال كثيرة ذكرها السيوطى فى اتقانه(١) ، ومن السور ما اتفق العلماء على مكيتها أو مدنيتها ، ومنها ما اختلفوا فى كونه مكيا أو مدنيا ، ولا يهولنك تشعب الاختلاف فى هذا فمرد معرفة المكى والمدنى إلى الأحوال والقرائن والملابسات ، ومثل هذه مما تختلف فيها الأنظار ، وتتنوع الاستنتاجات ، ولعل أوفق هذه الأقوال وأقربها إلى الصواب ما ذكره أبو الحسن ابن الحصار قال : أن المدنى باتفاق عشرون سورة والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة ، وما عـــدا ذلك مكى ، وقد نظم ابن الحصار ذلك فى منظومة له نقلها السيوطى فى الإتقان ، وخلاصة ما تضمنه هذا النظم .

أن السور المدنية باتفاق هى . (١) البقرة(٢) وآل عمران (٣) والنساء (٤) والمائدة (٥) والأنفال (٦) والتوبة (٧) والنور (٨) والأحزاب (٩) ومحمد (١٠)والفتح (١١) والحجرات (١٢) والحديد (١٣) والمجادلة (١٤) والحشر (١٥) والممتحنة (١٦) والجمعـــة (١٧) والمنافقون (١٨) والطلاق (١٩) والتحريم (٢٠) والنصر .

أما المختلف فيها فهى (١) الفاتحة (٢) والرعد (٣) والرحمن (٤) والصف

---

(١) ١ ج ص ٩ — ١٤

(٥) التغابن (٦) والتطفيف (٧) والقدر (٨) ولم يكن (٩) وإذا زلزلت (١٠) والإخلاص (١١ ؛ ١٢) والمعوذتان .

وأما المكي فهو ما عدا ذلك ، وهى اثنتان وثمانون سورة .

أقول : إن بعض ماذكره ابن الحصار غير مسلم ، لأن على رأيه تكون سوة الحج مكية باتفاق مع أنه روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أنها مدنية ، وهو الأرجح ، وليس من المستساغ أن نعتبر أن هذا الخلاف كلا خلاف إلا إذا سرنا على منهجه حيث قال فى آخر منظومته :

وليس كل خلاف جاء معتبرا ∴ إلا خلاف له حظ من النظر

ولا أدرى كيف لا يكون له حظ من النظر؟ وهو الراجح

« المكى والمدنى على ترتيب النزول »

وكما عنى العلماء ببيان المكى والمدنى من السور عنوا أيضاً بترييب السور المكية والمدنيـــة على حسب النزول فقد أخرج ابن الضريس فى (فضائل القرآن) رواية عن ابن عباس فى هذا الترتيب [١] وقد سقط من هذه الرواية فاتحة الكتاب فيما نزل بمكة ، كما أخرج أبو بكر محمد بن الحارث بن أبيض فى جزئه المشهور رواية عن جابر بن زيد [٢] وجابر بن زيد من علماء التابعين بالقرآن ، وقد أعتمد البرهان . الجعبرى على هذا الأثر فى قصيدته التى سماها (تقريب المأمول فى ترتيب النزول) وتكاد تتفق الروايتان فيما ذكرناه من ترتيب ولم تفترقا إلا فى القليل .

ومما يؤخذ على هاتين الروايتين أنهما اتفقتا على أن أول مانزل « اقرأ » ثم ن والقلم ثم يا أيها المزمل ثم يا أيها المدثر . . وهو يخالف ماحققناه سابقا من أن أول ما نزل بعد صدر سورة اقرأ هو صدر سورة المدثر وكان ذلك بعد فترة الوحى : ولعل النظرة الفاحصة فى أوائل ن والمزمل والمدثر تهدينا إلى أن المدثر هى الأنسب بالتقديم . عن أختيها إذ قد اشتمل

---

(١) انظر الاتقان ج ١١ ، ص ١١٠ . (٢) المرجع السابق ص ٢٥ .

صدرها على الأمر بالأنذار وهو الأليق بالتقديم . ولعل هذا النقد الذى ذكرته هو ما أشار إليه الإمام السيوطى حيث قال بعد أن ذكر رواية جابر بن زيد (هذا سياق غريب وفى هذا الترتيب نظر) .

« الضوابط التى يعرف بها المكى والمدنى »

لمعرفة المكى والمدنى طريقان (١) سماعى (٢) وقياسى .

أما السماعى فالنقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمكة أو بالمدينة أو قبل الهجرة أو بعدها .

وأما القياسى فضوابط كلية لمعرفة كل منها وهذه الضوابط مبناها على التتبع والاستقراء المبنى على الغالب والكثير .

« ضوابط المكى »

(١) كل سورة فيها « كلا » مكية . وقد وردت فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير قال الدرينى : رحمه الله .

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى

قال العمانى : وحكمة ذلك أن النصف الأخير نزل أكثره بمكة ، وأكثر أهلها جبابرة فتكررت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والانكار عليهم بخلاف النصف الأول ، وما نزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم (١) .

(٢) كل سورة فى أولها حروف المعجم فهى مكية سوى البقرة وآل عمران فانهما مدنيتان باتفاق ، وفى الرعد خلاف .

(٣) كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى البقرة .

(٤) كل سورة فيها سجدة مكية. سوى الحج ، عند من يقول أنها مدنية

---

(١) الاتقان ج ١ ص ١٨ .

(٥) كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الماضية مكية سوى البقرة

« ضوابط المدنى »

(١) كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض مدنية

(٢) كل سورة فيها ذكر المنافقين وأحوالهم مدنية سوى سورة العنكبوت فأنها مكية ألا إحدى عشرة آية من صدرها فأنها مدنية وهى التى ذكر فيها المنافقون .

(٣) كل سورة فيها الإذن بالجهاد أو الأمر به وأحكامه الصلح والمعاهدات فهى مدنية ، سوى سورة « الحج » عند من يرى أنها مكية

« مميزات المكى والمدنى »

قد امتاز كل من المكى والمدنى غير ما تقدم من الضوابط بأمور كثرت فيه وسمات بارزة تميزه عن غيره وهذه المميزات ترجع إلى المعنى والموضوع والخصائص البلاغية فهى أدل وأدق وأشمل من الضوابط لأن غالبها يرجع إلى اللفظ والشكل :

« مميزات المكى »

١ ــ الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإيمان بالله واليوم الاخر ومافيه من البعث والحشر والجزاء والإيمان بالرسالة وإقامة الأدلة العقلية والكونية والأنفسية على ذلك وهذه الثلاثة وأدلتها هى التى يدور عليها غالبا الحديث فى السور المكية ؛ وذلك لأن القوم كانوا منغمسين فى حمأة الشرك والوثنية وكانوا لا يقرون بالنبوات ولا بالبعث ومابعده ويقولون : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومانحن بمبعوثين : فكان اللائق بحالهم دعوتهم أولا إلى الإيمان بهذه الأصول فإذا ما آمنوا بها خوطبوا بالفروع والتشريعات التفصيلية .

٢ ــ محاجة المشركين ومجادلتهم وإقامة الحجة عليهم فى بطلان عبادتهم

الأصنام وبيان أنها بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة وأنها لا تضر ، ولا تنفع ولا تخلق ، ولا تحس ، ولا تعى أى شىء ودعوتهم إلى استعمال عقولهم ونبذ التقليد بغير حجة وعلم « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون » الزخرف ٢٢ — ٢٤ وإقامة الأدلة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله وقد وقع التحدى بالقرآن فى ثلاث سور مكية ولم يقع التحدى به فى القسم المدنى إلا فى سورة البقرة .

٣ — الدعوة إلى أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل الثابتة التى لا تتغير بتغير الزمان والمكان ولاسيما ما يتعلق منها بحفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب وهى الكليات الخمس التى تتفق فيها جميع الشرائع السماوية وذلك كالحث على الثبات على العقيدة والاستهانة بكل شىء فى سبيلها والأمر بالصلاة والصدقة ، والصدق ، والعفاف ، وبر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعفو ، والعدل ، والإحسان والتواصى بالحق ، والخير ، والصبر والنهى عن القتل ، ووأد البنات ، والظلم ، والزنا وأكل أموال الناس بالباطل وذلك مثل قوله تعالى فى أواخر سورة الأنعام « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم الآيتين ، وفى سورة الأعراف « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وفى سورة النحل « إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » وفى سورة ن « ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم » الآيات

٤ — ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ليكون فى قصصهم عبر وعظة لأولى الألباب ، لبيان أن دعوة الرسل جميعاً واحدة وأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الأنبياء وأتباعهم لاقوا كل أنواع الإيذاء فى سبيل عقيدتهم ومع ذلك صبروا وثبتوا

على عقائدهم وكان النصر والعاقبة لهم والهزيمة والخذلان لأعدائهم إلى غير ذلك ولقد كان القصص فى القسم المكى من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب قال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين »[١]

٥ — قصر أكثر آياته وسوره وذلك لنزوله بمكة وأكثر أهلها يومئذ يمتازون بعلو كعبهم فى الفصاحة . والبلاغة ، وتملكهم لناصية القول ، والخطابة ، والشعر وبلوغهم الغاية فى لطف الحس ، وذكاء العقل، والالمعة وسرعة الخاطر فكان المناسب لهم النذر القارعة ، والعبارات الموجزة ، والفقر القصيرة ذات اللفظ الجزل ، والجرس القوى ، والمعنى الفحل فتصخ الآذان وتستولى على المشاعر وتعقل ألسنتهم عن المعارضة وتدعهم فى حيرة ودهشة مما يسمعون فلا يلبث البليغ منهم بعد سماعها من أن يلقى عصا العجز ويرسلها قولة صريحة تشهد بالإعجاز كما قال الوليد بن المغيرة القرشى لما سمع القرآن « والله لقد سمعت كلاماً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة وأن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وأن أعلاه لمثمر وأن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر وأنه ليعلو ولا يعلى »[٢]

ولما أحزنت المشركين مقالته وأكرهوه على أن يقول فى القرآن قولا ينقض قولته الأولى لم يسعه بعد الصراع النفسى العنيف وتكلف الخروج عن فطرته العربية وملكته الأدبية إلا أن يقول « إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر » ولكى تتأكد أن الرجل لم يقل ذلك إلا مكرها أقرأ عليك قول الله « إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ... »[٣] فانظر كيف صور القرآن حالته النفسية هذا التصوير .

---

(١) هود / ٤٩ (٢) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ـ ١

(٣) المدثر ١٨ — ٢٥

الدقيق ولقد كان البليغ منهم - على كفره - يسمع القرآن فيخيل إليه أن العذاب كأنه واقع بهم فلا يجد مندوحة عن أن يناشد النبي ﷺ الله والرحم أن يكف عن قراءته ، وكان القرشيون يتواصون فيما بينهم أن لا يستمعوا إليه وأن يضعوا أصابعهم فى آذانهم ، ويستغشوا ثيابهم ، حذرا أن ينفذ إلى قلوبهم فإذا هم بعد قليل تغلب عليهم فطرتهم اللغوية فيتناسون الوصية ويلقون إليه بآذانهم وقلوبهم لما يجدون فى استماعه من لذة وإرضاء لملكاتهم الأدبية(١)

« مميزات القسم المدنى »

١ — التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات كأحكام الصلاة ، والصيام ، والزكاة ؛ والقصاص ، والنكاح والطلاق ، والبيوع والمداينات ، والربا ، والحدود كحد الزنا ، والسرقة والكفارات ككفارة القتل الخطأ والظهار ، والأيمان إلى غير ذلك مما اشتملت عليه السور المدنية كما فى سورة البقرة والنساء والمائدة والنور ، وذلك لأن حياة المسلمين فى المدينة بدأت فى الاستقرار وأصبح لهم كيان ودولة وسلطان ومن شأن الجماعة التى لها رابطة تربطها أن تكون فى مسيس الحاجة إلى تشريع يتكفل بما تحتاج إليه فى دينها ودنياها وأيضاً فالتشريعات العملية مرتبطة بسلطان الحكم التنفيذى فلا تشريع لمن لا يملك حكم التنفيذ فمن ثم جاءت المدنية على ما ذكرنا .

٢ — محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم فى عقائدهم التى ضاهوا بها أسلافهم من زائغى الأمم السابقة كقولهم بالتثليت أو الحلول أو الأبنية أو الصلب والإنعاء عليهم باللائمة لتحريفهم كتبهم ولا سيما البشارة بالنبى الأمى المبعوث فى آخر الزمان وتغيير بعض الأحكام التى لا تلائم أهواءهم واتخاذهم هذا التغيير وسيلة لابتزاز أموال الناس بالباطل فاليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى غلوا فى عيسى فقال بعضهم : إنه الله وقال بعضهم :

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ ١

ابن الله وقال آخرون : ثالث ثلاثة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وغير اليهود الرجم إلى الجلد أو تسخيم الوجه والتشهير طمعا فى المال أو الزلفى إلى الإشراف وقد جادلهم القرآن بالحسنى والحجة الدامغة والمنطق السليم ، وذلك كما ترى فى سورة المائدة وآل عمران والبقرة والنساء والتوبة .

٣ — بيان ضلال المنافقين وإظهار فضائحهم والكشف عن خبيئة نفوسهم وإظهار ما بهم من سوء الطباع والجبن والهلع وأنهم لا يبتغون إلا عرض الحياة الدنيا ولا يهمهم أمر الاسلام ونصره كما فى سورة البقرة والتوبة التى ما زالت تقول ومنهم ، ومنهم حتى فضحتهم وقد أنزل الله سورة من المفصل فى شأنهم وهى « المنافقون » .

٤ — قواعد التشريع الخاصة بالجهاد، وحكمة تشريعه ،وذكر الاحكام المتعلقة بالحروب ،والغزوات ، من الصلح ،والمعاهدات، والغنائم ،والفىء وفك الاسارى وذلك كما فى سورة البقرة والانفال وبراءة والقتال والفتح والحشر

٥ — طول أكثر آياته وسوره لاشتمالها على الأشياء السابقة وهى تقتضى البسط والأطناب وإطالة النفس كما أن أهل المدينة لم يكونوا فى درجة أهل مكة فى البلاغة والفصاحة ولا سيما اليهود الذين كانوا يساكنونهم فى المدينة فكان الحال باعثا على الإطالة ، والأطناب فى مقام الأطناب لازم والايجاز فى مقام الإيجاز واجب ووضع أحدهما مكان الآخر ليس من البلاغة فى شىء وقد سلك القرآن كلتا الطريقتين مع كونه فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة

« الشبه التى أثيرت حول المكى والمدنى »

اعتاد الملاحدة والمبشرون واعداء الإسلام أن يتلمسوا المطاعن فى القرآن ، وغرضهم بذلك التشكيك فى القرآن وقداسته كى يتوصلوا إلى هدم الإسلام واضعاف المسلمين بصرف أنظارهم وقلوبهم عن القرآن الذى هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم ، ولما كانوا يصدرون فى هذه الطعون عن هوى متبع وعصبية دينية ممقوتة فقد جافاهم الحق والصواب .

ومما يؤسف له أن بعض الذين تسموا بأسماء المسلمين ، وصنعتهم أوربا بيديها وربتهم على عينيها ومن على شاكلتهم ممن لم يتعمقوا فى الدراسات الإسلامية قد استهوتهم هذه الأباطيل فصاروا ينشرونها ويذيعونها فى دروسهم وقد حمل كبر هذا الأفك أديب معروف(١) كان يدرس الأدب بالجامعة المصرية حقبة من الزمان وقد تلقف هذا الأديب هذه الأباطيل مما كتبه المبشرن والقسس وإن كانوا - والحق يقال - كانوا أعف منه فى بعض الأحيان ؟ ومن عجب أن يسوق هذه الطعون على أنها من بنات أفكاره ومبتكراته فكان كلابس ثوبى زور ، ومن عجب أيضا أن يعتبر هذا التجنى على القرآن العظيم حرية فى البحث وجراءة فى التفكير فيقول : لا شك أن الباحث الناقد ، والمفكر الجرىء الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب آخر(٢) ... الخ ما قال ولمن يلقى هذا الكلام ؟ لطلاب لم يعرفوا من الدين إلا قشورا ومن اللغة العربية إلا حظاً يسيراً ثم يطلب إليهم أن ينقدوا كتاب العربية الأكبر الذى خرت لبلاغته جباه البلغاء . وخرست عن معارضته ألسنة الفصحاء من كل جنس ، وفى كل عصر ، وكيف يتهيأ لمن لا يكاد يبين أن ينقد كتابا عربياً مبيناً ؟ !

وقد قيض الله لهذه الشبه من علماء الأمة (٣) الذين تذوقوا بلاغة القرآن ووقفوا على أسرار أعجازه من زيفها على أساس من المنطق السليم ، والحجة الدامغة والحق الظاهر ، والواقع التاريخى الثابت .

---

(١) هو الدكتور طه حسين

(٢) انظر نقض مطاعن القرآن من ص ٤ - ٨

(٣) من خير من رد عليه هذه المطاعن فى القرآن الكريم الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفه عضو جماعة كبار العلماء - مد الله فى حياته - وخير من رد عليه فى كتابه فى الشعر الجاهلى ، الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - شيخ الأزهر السابق فى كتاب سماه « نقض كتاب . فى الشعر الجاهلى »

وهذه الطعون ـ فضلا عن كونها كفرا دينيا ـ هى كفر بقواعد البحث العلمى الصحيح التى طالما تمسحوا بها وأكثروا من ترديدها فى كتاباتهم ، ومحاضراتهم وسنقصر ردنا على ما يتعلق بالمكى والمدنى من القرآن .

« الشبهة الأولى »

قال : إن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكره ، واقتضاب المعانى ، وقصر السور وقصر الآيات ، وأما القسم المدنى فهو طويل السور طويل الآيات وأفكاره منسجمة متسلسلة ، وعزا ذلك إلى تأثر محمد ـ صلى الله عليه وسلم بالبيئة فأهل مكة قوم أميون لا يقدرون على إنشاء العبارات الطويلة أما أهل المدينة فهم أهل كتاب أو متصلون بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة ، وغرضه التشكيك فى أن القرآن من عند الله سبحانه .

وللرد على هذه الشبهة نقول :

١ — إن القول بأن القسم المكى يمتاز بتقطع الفكرة واقتضاب المعانى بخلاف القسم المدنى قول من لم يتمعن فى القرآن ولم يعن بدراسته ومن يرسل القول على عواهنه ، ولم يأخذ من اللغة العربية وأسرارها وآدابها بحظ وافر أما من قرأ القرآن قراءة باحث مستبصر غير ذى هوى ورزق التبحر فى اللغة والوقوف على أسرار البلاغة فإنه يصل ولا محالة إلى علم اليقين فى هذا وهو أن القرآن كعقد منظم تناسقت حباته ، وتآلفت لآلئه ، ونظم فى سلك من الذهب الخالص والقرآن كله ـ مكيه ومدنيه ـ معانيه متآلفة وأفكاره منسجمة وآياته متآخية آخذ بعضها بحجز بعض لا تنقطع آية عن سابقتها ولاحقتها ولا ينفر معنى من آخر ولو أن هذا الناقد تناول بعض السور المكية وبين لنا بطريقة فنية ما فيها من اقتضاب وتفكك لبينا له ما فيها من ترابط وتماسك ولظهر وجه الحق لذى عينين ، أما وقد أرسلها قولة مجردة فهى لا تخرج عن كونها دعوى عارية عن البرهان .

وقد عنى العلماء المحققون فى القديم والحديث ببحث المناسبات بين الآى والسور وأتوا فى ذلك بالعجب العجاب وقد اشتملت بعض كتب التفسير وكتب البلاغة وأسرارها من ذلك على شى. كثير وألف بعضهم فى ذلك كتبا مستقلة كما فعل البقاعى فى كتابه « لقط الدرر فى تناسب الآى والسور » والسيوطى فى كتابه « أسرار التنزيل » وبحسبنا هذا الإجمال الآن وعسى أن تكون لنا عودة للبحث التفصيلى فى موضعه إن شاء الله .

٢ — أن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذى هو عماد البلاغة العربية ، وليس تابعاً للبيئة ولا الوسط وقد بينت آنفا السر فى سلوك القرآن الكريم العبارات القصيرة حينا والطويلة حينا آخر ، فكن على ذكر منه.

٣ — القرآن الكريم قد تحدى العرب قاطبة فى بعض السور المدنية كما تحداهم فى السور المكية ، وقد جاء التحدى فى المدينة بسورة مهما قصرت وأما فى مكة فقد وقع التحدى بالقرآن كله ثم بعشر سور منه ثم بسورة واحدة أى سورة ، فلو أن أهل المدينة ـ كما زعم الناقد ـ كانوا أقدر على إنشاء العبارات الطويلة من أهل مكة وأن القرآن كان متأثراً بهم فى الإطالة لكانوا أقدر على معارضته والإتيان ولو بأقصر سورة منه ، ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة ، ورضوا لأنفسهم السكوت وباءوا بالعجز بل عجزهم أشد من عجز أهل مكة ثم أى دارس للأدب تسول له نفسه أن يفضل أهل المدينة على أهل مكة فى البلاغة والفصاحة والتصرف فى فنون القول والقدرة على إنشاء العبارات ؟

ومعروف أن قريشاً كانت أوسط العرب دارا وأبرعهم فى الخطابة والشعر والتفنن فى الأساليب ، وإليها كان يحتكم العرب فى شعرهم ونثرهم ، وقد ساعدها على هذا اجتماع العرب فى مواسم الحج والمجامع الأدبية الحافلة والأسواق السنوية التى كانت تعقد بالقرب من دارهم فى عكاظ

ومجنة وذى المجاز ، فكانوا يتخيرون من لغتهم ماخف على اللسان، وحسن فى الأسماع وجاد من الأساليب .

(الشبهة الثانيـــة)

قال : إن القسم المكى يمتاز بمميزات الأوساط المنحطة أما القسم المدنى فتلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ،فالقسم المكى ينفرد بالعنف والشدة والقسوة والسباب والوعيد والتهديد مثل : « تبت يدا أبى لهب وتب » السورة ، والعصر إن الإنسان لفى خسر » ، « فصب عليهم ربهم سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد» ، «كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم » ، أما القسم المدنى : « فهادىء لين وديع مسالم يقابل السوء بالحسنى» ، والرد على ذلك نقول :

١ — إن القسم المكى فيه ثقافة واستنارة أيضاً وفيه سمو ورفعة ووقار وجلال ولين وهو إن قسا فعلى الكافرين والمفسدين وإذا لان فللأخيار والصالحين وهو فى كلا الحالين يدعو لخير الإنسانية جمعاء وعباراته مهذبة غاية التهذيب ، وكيف لا يكون فيه ثقافة واستنارة وقد تحدث أكثر ما تحدث عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وعن الفضائل والآداب الإنسانية السامية وبحسبك أن تقرأ أى سورة من السور المكية لتعلم ذلك علم اليقين ثم ماذا يريد هذا الطاعن بالسباب ؟؟ إن أراد البذاءة والفحش من القول فقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا وان أراد ما اشتمل عليه من الوعيد والأنذار والتقريع فهذا لا يسمى سبابا إلا فى دماغ قائله وكنا نحب من الناقد المخرب أن يربأ بنفسه وأدبه عن هذا الإسفاف فى التعبير حينما يتحدث عن كتاب كالقرآن العظيم .

٢ — دعواه أن القسم المكى اشتمل على الوعيد والشدة دون القسم المدنى دعوى من لم يطلع على القرآن الكريم أو اطلع ولكن أعمته

عصبيته عن إدراك الحق المبين . فالقسم المدنى اشتمل على الوعيد والإنذار كما أن القسم المكى اشتمل على الدعوة إلى اللين والعفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان .

استمع إلى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة المدنية الآية ١٧٤ « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » ، وقوله فى سورة آل عمران المدنية الآية ١٠ : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار » ، وفى سوره النساء المدنية الآية ٤٦ . « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا

لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا » . وفى سورة المائدة الآية ٧٨ - ٨١ : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم الآيات » ، إلى غير ذلك من آيات الوعيد فى القسم المدنى ثم استمع إلى ما جاء فى السور المكية حثا على اللين والعفو والتسامح قال تعالى فى سورة الأعراف المكية الآية ١٩٩ : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، وقال فى سورة فصلت المكية الآية ٤٤، ٣٥ : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن » وفى سورة الشورى المكية الآية ٣٦ - ٤٣ : « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ، إلى قوله : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » فأى لين وعفو بعد هذا ؟

وهكذا نرى القرآن الكريم يسلك مسلك الوعيد والشدة متى اقتضى المقام ذلك ويسلك مسلك اللين والعفو والصفح إذا اقتضى الحال ذلك وهذا

هو الأسلوب الحكيم ويرحم الله القائل :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما　　　فليقس أحيانا على من يرحم

والقائل :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا　　　مضر كوضع السيف فى موضع الندى

٣ — هذه السور والآيات التى ذكرها الطاعن ليس فيها رائحة سباب. ولو علم سبب النزول والمراد بالآيات لما رمى بهذه القولة الجائرة وإليك ماورد فى سبب نزول سورة أبى لهب أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال: لما نزلت «وأنذر عشيرتك الأقربين» صعد النبى صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر . يابنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش . فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم ماجربنا عليك إلا صدقاً قال : «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا فنزلت تبت يدا أبى لهب وتب . . . وأخرج ابن جرير أن امرأة أبى لهب كانت تأتى بأغصان الشوك فتطرحها فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كانت تنقل الحديث وتمشى بالنميمة بين الناس فالسورة إذا نزلت ردا على أبى لهب فى دعائه على النبى وإيذائه له وإنذاراً له ولزوجه بأنهما سيصليان النار الشديدة جزاء لهما على ماصنعا ولا شك أن فى هذا الوعيد ردعا لأبى لهب وزوجه وأمثالهما ممن يناهضون رسالات الرسل ويسعون فى الأرض بالفساد ولا أدرى فى أى عرف أو ذوق يعتبر إنذار مثل هذا المعوق عن الخير والحق أمراً خارجا عن المألوف وسباباً وشدة ؟ وماذا كان ينتظر هذا الطاعن فى الرد على أبى لهب وزوجه ؟ أكان ينتظر من منزل القرآن الحكيم أن يظهر له الرضا على مقالته ويقول له بخ بخ فيزداد بطرا وأشرا ؟ !

وأما سورة « والعصر » فليس فيها مايشتم منه السباب وليس فيها عنف

ولا شدة وكل ماعرضت له السورة أن الناس قسمان :

(١) قسم ناج من الخسران والعذاب فائز برضوان الله وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة وهى الإيمان بالله والعمل الصالح ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

(٢) قسم غارق فى الخسران مآله إلى الهلاك والعذاب وهم الذين لا يقرون بإله ولا يدينون بشريعة ولا يعملون صالحا : فهم جرائيم شرور ، ولا يتواصون بحق ؛ فالحق بينهم مضيع ، ولا يتواصون بصبر ؛ فهم فى هلع وجزع ومما لا يقضى منه العجب أن يستشهد هذا الناقد بهذه السورة التى أقر بكفايتها وغنائها الأئمة فى القديم والحديث قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ـ رحمه الله ـ «ثم تراها لم تدع شيئا ألا أحرزته فى عباراتها الموجزة حتى قال الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم ! أو قال : لو لم ينزل الله من القرآن سواها لكفت الناس ! ولجلالة ماجمعت روى أنه كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة «والعصر» ثم يسلم أحدهما على الآخر ؛ ذلك ليذكر كل منهما صاحبه بما يجب أن يكون عليه فإذا رأى منه شيئاً ينبغى أن ينبه إليه فعليه أن يذكره له»(١)

وأما قوله تعالى فى سورة الفجر «فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد» فلا سباب فيه ولا عنف وكل مافيه إخبار من الحق عز شأنه ، بأن عاداً وثمود وفرعون لما طغوا فى البلاد وظلموا العباد وأكثروا من الفساد أنزل الله بهم العقاب جزاء لهم على ظلمهم وإفسادهم ، فالمراد بصب السوط إنزال العقوبة الشديدة بهم وهو من المجازات البديعة ، ومعنى «إن ربك لبالمرصاد» أنه القائم بتدبير الأمور الرقيب على عباده لا يفوته من شئونهم شىء وهو مجازى كل عامل بعمله فلا يفلته أحد ، فلا يظن أهل

---

(١) تفسير جزء عم ص١٥٤

الطغيان الذين يفسدون فى الأرض أن يفلتوا من الله وعقابه ، وفى هذا الإخبار تحذير للموجودين والمخاطبين أن يفعلوا مثل ما فعلوا فيعاقبوا مثل ما عوقبوا ، فانظر — أيها القارىء الفطن — كيف اشتملت هاتان الآيتان على وجازتهما على هذه المعانى الثرية والتحذيرات النافعة المفيدة .

وأما سورة « ألهاكم التكاثر » فغاية مافيها أن يترك الناس التفاخر بالأحساب والأنساب والتكاثر بالأموال والأولادوالتلهى بما لا يفيد وأن يقبلوا على الاشتغال بما ينفع من الإيمان والعمل الصالح ، أما التلهى بالتكاثر والتفاخر فلن يكون من ورائه إلا خسران الدنيا والآخرة ، فلا عجب أن يردعهم الله وأن يكرر الردع والزجر فقال « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ، ولو علم اللاهون المتكاثرون علم اليقين لأعرضوا عما فيهم ، وأقبلوا على الأعمال الصالحة لأنهم سيرجعون إليه فى يوم يحاسبون فيه ويجازون على أعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر « كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم فالسورة لاتخرج عن كونها وعيداً وتحذيراً وإرشاداً وتعليما .

الشبهة الثالثة

قال : إن القسم المكى يمتاز بالهروب من المناقشة وبالخلو من المنطق والبراهين فيقول . « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون » إلى « لكم دينكم ولى دين » بخلاف القسم المدنى فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين . فيقول « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ويستدل بهذا على تأثر القرآن بالبيئة والوسط وغرضه التشكيك فى أن القرآن من عند الله

وهذا الكلام منقوض بما يأتى :

١ — أنه لايجرؤ على هذه المقابلة إلا أحد رجلين إما جاهل أغرق فى

جهله فلا يكاد يميز بين المكى والمدنى وإما زنديق أعمته زندقته عن إدراك الحق الظاهر وقد سقط هذا الباحث الناقد والمفكر الجرىء سقطة لا إقالة له منها ولا يكاد يقع فيها الطلاب المبتدئون فضلا عن الباحثين ؛ ولو تناول مصحفاً وأمر القارىء له أن يقرأ ما كتب قبل مفتتح سورة الأنبياء لوجد سورة الانبياء مكية وآياتها ١١٢ : ولو تناول كتاباً من كتب الفن لعلم أن سورة الأنبياء مكية بلا استثناء عند جمهور العلماء وباستثناء آية أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ، عند البعض ، ومهما يكن من شىء فالاية التى استدل بهـا مكية بالإجماع وكيف تتفق هذه السقطة التى لا تكون من مبتدىء وما أضفاه على نفسه من الصفات الطنانة والعبارات الجوفاء ؟ الحق أنه قدم لنا الخنجر للإجهاز عليه .

وأن نظرة بسيطة فى السور المكية لترينا أنها استفاضت بالأدلة والبراهين القطعية ، اقرأ إن شئت فى إثبات الإله قوله تعالى فى سورة الغاشية «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت الآيات[1] وقوله تعالى فى سورة الواقعة نحن خلقناكم فلولا تصدقون أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون إلى قوله « فسبح باسم ربك العظيم(٢)

واقرأ أيضاً فى إثبات الوحدانية فى سورة الأنبياء المكية « لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا(٣) ومهما أسهب الفلاسفة وعلماء الكلام فى إقامة الأدلة والبراهين على الوحدانية فلن يخرجوا عن فلك هذه الاية على وجازتها وقصرها . وفى سورة « المؤمنون » المكية « ماتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق » الاية(٤) وفى سورة النحل « أمن خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان

---

(١) الغاشية ١٧ — ٢٠ (٢) الواقعة ٥٧ — ٧٤
(٣) الأنبياء ٢٢ (٤) المؤمنون ٩١

لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون، إلى قوله «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »(١)

واقرأ إن شئت فى التدليل على إمكان البعث فى سورة يس المكية « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، إلى آخر السورة (٢) وقوله تعالى فى سورة الاحقاف المكية الاية ٣٣ « أولم يروا أن الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير »

وكذلك يعرض القرآن فى السور المكية لإثبات الرسالة بالمنطق السليم والحجج الدامغة فيقول فى جواب المشركين لما قالوا « وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق» ، « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ألا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق» الفرقان الاية ٢٠ ، ولما قالوا « هل هذا إلا بشر مثلكم » قال فى جوابهم : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »(٣)

ولو تتبعنا الادلة والبراهين التى زخر بها القسم المكى لطال المقام وبحسبنا هذا المقدار .

أما ماذكره الطاعن من سورة « قل يا أيها الكافرون» فلا يصلح أن يكون دليلا لان السورة لم تسق مساق الدليل وإنما سيقت للرد على كفار قريش لما رغبوا إلى النبى أن يعبدوا آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأنزل الله على نبيه هذه السورة تأييساً لهم وقطعاً لاطماعهم ولبيان أنهم قوم مخادعون ولن تكون منهم عبادة لله الواحد القهار ، وقد جاءت السورة على هذا النسق البديع « لا أعبد ما تعبدون » نفى أن تقع منه عبادة لآلهتهم ثم قال « ولا أنا عابد ما عبدتم » فأتى بالجمله الإسمية لإفادة أن عدم عبادته لالهتهم ثابت مستمر ففيه قطع لاطماعهم على أبلغ وجه وآكده ومثل هذه السورة سورة الإخلاص

---

(١) النمل ٦٠ — ٦٤ (٢) يس ٧٩ — ٨٣ (٣) الانبياء ٧

فقد أجمل الله فيها العقيدة الخالصة من غير إستدلال ، لأنها نزلت جواباً للمشركين ، أو لليهود لما قالوا للنبي ﷺ : أنسب لنا ربك ، أى بين لنا ذاته وصفته فأنزل الله السورة، ولا يغرب عن أذهاننا أن السورتين بمنزلة النتيجة لمئات الادلة والبراهين التى أقامها الله على إثبات الصانع جل وعلا ووحدانيته وصفاته واستحقاقه التفرد بالعبادة ، ولعل من اللطائف وقوعها فى الترتيب الكتابى فى آخر القرآن كما تقع النتيجة من مقدماتها فلا عجب أن جاءتا على هذا الوضع .

الشبهة الرابعة

قال : إن القسم المكى خال من التشريعات التفصيلية والقوانين أما القسم المدنى فينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث ، والوصايا والزواج ، والطلاق ، والبيوع وسائر المعاملات ؛ ولا شك أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن . وغرضه بهذا التشكيك فى أن القرآن من عند الله .

وللرد على هذا نقول :

(١) إن هذا الفرق بين المكى والمدنى قد عرضنا له لما تحدثنا عن خصائص المكى والمدنى وقد تنبه العلماء إلى هذه الظاهرة منذ مئات السنين، ولكن ليس السبب ماذكره من تأثر القرآن بالبيئة ، وإنما السبب فى هذا أن أهل مكة كانوا ينكرون أصول الإيمان والشرائع ، فكان الملائم لهم دعوتهم إلى هذه الأصول حتى إذا ما استضاءت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه كلفوا بالتشريعات التفصيلية وهذا ماكان .

وأن من خطل الرأى أن نأتى لهم بالفروع والأحكام العملية قبل أن يؤمنوا بالأصول فكان نهج القرآن معهم وهو الملائم للفطر وبدائه العقول.

(٢) كيف يصح فى العقول أن يكون النبى والمسلمون قد أخذوا عن أهل

الكتاب من اليهود وتثقفوا بثقافتهم مع أن القرآن الكريم نص عليهم فى غير ما آية وسورة ، كفرهم ، وفسقهم ، وجراءتهم على الله وسفاهتهم على رسله وبين جحودهم للحق ، وانكارهم له مع معرفتهم وتحريفهم للتوراة ، وكانعى عليهم حسدهم وظلمهم وبغيهم وسوء طويتهم وخبث طباعهم وخيانتهم وتضييعهم للأمانة وعدم تناهيهم عن المنكر إلى غير ذلك مما لا يجهله من قرأ القرآن واطلع عليه ، وقد لعن القرآن الكريم اليهود فى غير موضع وأمر النبى ﷺ أن يتحداهم كما فى قوله تعالى ، قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» البقرة الآية ٩٤ ، وقوله « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» آل عمران الآية ٩٣ .

فلو أن النبى أخذ عن أهل الكتاب وتعلم منهم وتأثر بثقافتهم لأظهروا ذلك دفاعاً عن أنفسهم ولقالوا : كيف نعلمك وتسفهنا وترمينا بالكفر والفسق والكذب ؟ وكيف نثقفك وتلعننا وتتطاول علينا ؟

ولكنهم لم يفعلوا بل ألقموا حجراً وباؤا بالخزى والذلة والتشريد ، وهكذا يتبين لنا أن موقف القرآن من اليهـــود كان موقف المعلم والناقد والناعى والموبخ والمتحدى لا موقف المتعلم والآخذ والمستفيد وهو شىء يقتلع هذا الطعن من أساسه ويرمى به فى مهامه الضلال والشكوك .

(٣) أن الفرق بين التشريع الإسلامى الذى عرضت له السور المدنية والتشريع الإسرائيلى عظيم جدا فالإسلامى أرقى وأعلى وأشمل من الإسرائيلى من كل وجه ، وناهيك بكونه تشريعا عاماً لجميع البشر وفى جميع الأزمنة والأمكنة ومن أسسه المساواة فى الحق والعدل بين جميع الشعوب والقبائل والأفراد لا تمييز فيه بين ملك وسوقة ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين قوى وضعيف ولا بين غنى وفقير .

والتشريع الإسرائيلى كان خاصاً بشعب خاص وموقوتاً بوقت خاص

فلا يصلح أن يكون أساساً لتشريع عام خالد وهو تشريع الإسلام الذى انتشل الانسانية من وهدتها وأضاء النفوس بعد ظلمتها وحرر العقول بعد إسارها وملأ الأرض هداية وعلماً وعدلا ورحمة بعد أن ملئت كفراً وضلالا وجهلا وظلماً وقسوة وتجبراً وكيف يجوز فى العقول أيضاً أن يستمد السابقون الأولون من المهاجرين ثقافتهم وتشريعاتهم من اليهود وهم الذين أصلحوا جميع الشعوب بهداية القرآن والتأسى بأكمل الخلق على الاطلاق وشهدت لهم أعمالهم وأخلاقهم بأنهم خير أمة أخرجت للناس وقد أجمع المؤرخون من الافرنج وغيرهم على أن أعظم أسباب نجاح الإسلام فى انتشاره السريع وفتوحاته المظفرة الكثيرة ما كان عليه أهل الملل كلها من فسوق وفساد والدول كلها من ظلم واستبداد وإغراق فى الملذات .

الشبهة الخامسة

قال : إن القسم المكى يكثر فيه القسم بالضحى ، والشمس ، والقمر ، والنجوم والفجر ، والعصر ، والليل ، والنهار ، والتين ، والزيتون إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

أما القسم الثانى فقد خلا من القسم بهذه المحسوسات : وغرضه تأثر القرآن بالبيئة ليصل إلى التشكيك فى القرآن وهذا الكلام مردود بما يأتى:

١ ـ دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ماوراء الحس، دعوى لم يقم عليها دليل ، ويكذبها الواقع ، والتاريخ الصحيح، فقد كان أهل مكة أوفى ذوقاً ، وأرهف شعوراً ، وأذكى عقولا من أهل المدينة . وأن فيما قصة القرآن عنهم من مجالات وخصومات وما اشتمل عليه القسم المكى من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام ، وكيف يفهم هذه البراهين من لا يسمو نظره عن المحسوسات والتاريخ الصحيح أعدل حاكم وخير شاهد على امتياز قريش عن سائر القبائل فى عهد نزول القرآن ، ولكى تكون على

بينة من ذلك سأذكر لك قصة ذلك أنه لما نزل قوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» قال ابن الزبعرى والله لو وجدت محمداً لخصمته قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزيز وعيسى ابن مريم كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا ؟ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « إنهم إنما يعبدون الشيطان ، ومن أمرهم بعبادته (فأنزل الله سبحانه) إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) وأنزل الله أيضاً (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو؟ ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون(١) وتأمل فى قوله سبحانه (خصمون) وهل يجيد الجدل الجاهل الساذج ؟

٢ — إن الله سبحانه أقسم فى القسم المكى بالمعقول كما أقسم بالمحسوسات فمن ذلك قسمه بالقرآن فى قوله (يس ، والقرآن الحكيم) وأقسم بالملائكة فى قوله (والنازعات غرقاً والناشطات نشطا الآيات) وأقسم بالنفس الناطقة فقال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)(٢) وأقسم بحياة الرسول فى قوله (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون(٣)، وأقسم بذاته تعالى فقال فوربك لنسألنهم أجمعين(٤)، فلا أقسم برب المشارق والمغارب(٥) وأقسم بما لا يقع تحت الحس والمشاهدة فقال (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون(٦) .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ١٧ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٢) سورة والشمس ٧ ، ٨
(٣) سورة الحجر ٧٢ .
(٤) الحجر ٩٢ .
(٥) المعارج ٤٠ .
(٦) الحاقة ٣٨ ، ٣٩ .

وأقسم بالزمن فقال (والعصر) وهكذا يتبين لنا أن الله أقسم فى القسم المكى بالمعقولات كما أقسم بالمحسوسات .

٣ — إن القسم بهذه الأشياء لا لكونها محسوسة ، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عليه من إحكام فى الخلق والصنعة وما تنطوى عليه من أسرار وعجائب نعم وآلاء فيؤدى النظر فيها إلى الايمان بخالقها وموجدها، والاذعان لما جاء به الرسول ، كما فى القسم بالشمس ، والقمر، والنجوم والليل والنهار أو إلى استخدامه فى النافع وعدم تضييعه كما فى القسم بالعصر، وبعض ما أقسم الله به مما هو محسوس قد يقصد به التذكير بما وراء الحس كما فى القسم بالتين والزيتون الخ .

قال الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير(١) «والتين والزيتون» ماخلاصته وقد يرجح أنهما — التين والزيتون — النوعان من الشجر ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا بل لما يذكران من الحوادث العظيمة التى لها الآثار الباقية فى أحوال البشر قال صاحب هذا القول : أن الله أراد ان يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الانسانية الطويل من أول نشأته إلى يوم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فالتين إشارة إلى عهد الانسان الأول فإنه كان يستظل فى تلك الجنة التى كان فيها بورق التين ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح فقد ارسل بعض الطيور لعله يأتى بخبر انكشاف الماء عن الأرض فغاب ولم يأت بخبر ثم ارسل آخر فجاء إليه يحمل ورقة من الزيتون، فاستبشر وسر وعرف ان غضب الله قد سكن وقد اذن للأرض ان تعمر وطور سنين إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية وظهور نور التوحيد فى العالم بعد ما تدنست جوانب الأرض بالوثنية ، ثم لما طال الأمد على البشرية حتى كادت ان تطمس معالم التوحيد والحق والشرائع من الله على البشر بداية تاريخ ينسخ جميع تلك التواريخ ويفصل بين ما سبق من اطوار الانسانية

---

(١) تفسير جزء عم ص ١١٩ .

وبين مايلحق وهو عهد ظهور النور المحمدى من مكة المكرمة وإليه الإشارة بذكر البلد الأمين وقد يكون القسم بالشىء لمنزلته وإظهار كرامته عند الله كما فى القسم بحياة الرسول والملائكة والقرآن توافق عجيب بين المقسم به والمقسم عليه قد يخفى على غير ذى العقل الذكى والنظر الشفاف والحس الدقيق الذى يحكم على الأشياء بادىء الرأى من غير روية وتفكير .

وقد ألف العلماء فى أقسام القرآن كتباً مستقلة ، ولعل أحفلها وأجلها ـ فيما أعلم ـ التبيان فى أقسام القرآن » لابن القيم ، فمن أراد زيادة فى معرفة أسرار الأقسام فليرجع إليه ففيه ما يكفى ويشفى .

الشبهة السادسة

قال : إن القسم المكى قد افتتح كثير من سوره بألفاظ غير ظاهرة المعنى مثل الم وحم ، وطسم ، وكهيعص ، حم عسق والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد ، وهو ينافى كون القرآن هدى وبيانا ، وهذه الكلمات ربما قصد بها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ، أو هى رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب فمثلا « كهيعص » رمزاً لمصحف ابن مسعود و «حم عسق» رمزاً لمصحف ابن عمر وهلم جرا ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا .

وأسرف بعض النصارى فى مجاوزة المعقول فقال على سبيل الحدس(١) أنها أحرف وضعها كتاب محمد برأس السورة اختصاراً من قولهم . أوعز إلى محمد ، وذلك على حد ماوضعه بعض كتابه من اليهود « كهيعص » برأس

---

(١) نقل هذا الهراء عن بعض النصارى « جرجيس سايل » المستشرق الانكليزى فى مقاله عن الاسلام وزعم أنه أدنى إلى الاصابة من أقوال المفسرين فى هذه الفواتح وليس هذا بمستغرب منه فانها شنشنة نعرفها من أخزم

سورة مريم اختصاراً من قولهم بالعبرانية « كهعيص » أى هكذا أمر(١) —
وهذا الكلام منقوض بما يأتى :

١ — دعوى أن هذه الألفاظ ليس لها مدلول دعوى من لم يطلع على آراء العلماء فيها ، وقد ذهب الكثيرون إلى أنها أسماء للسور ، وذهب المحققون إلى أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة ، وفائدة ذكرها فى فواتح السور : أما إقامة الحجة على إعجاز القرآن من أقصر طريق وأسهله ، ذلك أن هذا القرآن مركب من جنس هذه الحروف الهجائية التى منها يركبون كلامهم ، وبها يخاطبون ، وقد تحداهم المرة تلو المرة أن يأتوا بشىء منه ، فعجزوا وما استطاعوا ، فكان هذا دليلا ساطعاً على أنه ليس من عند بشر وإنما هو من عند خالق القوى والقدر ، وإما تنبيه السامع إلى ما يتلى بعدها لاستقلالها بنوع من الإغراب فهى كأداة التنبيه لما يتلى بعدها فيفرغ السامع لذلك قلبه وسمعه فتقوم عليه الحجة باستماع القرآن وقد يقع الكلام من نفسه موقع التأثير فيؤدى به إلى الإيمان ، فهى إذا ليست غير مفهومة المعنى والخطاب بها ليس من قبيل الخطاب بها ليس من قبيل الخطاب بما لا معنى له .

ولو سلمنا أنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه فلا تنهض للطعن فى كون القرآن هدى وبيانا ، لأنها ألفاظ قليلة جداً بالنسبة إلى الألوف المؤلفة من كلمات القرآن التى تدل معنى معروف عند المخاطبين ، وهى على هذا الوجه جاءت لحكمة سامية وهو الإبتلاء والاختبار ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه وراسخ العلم من عدمه (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب)(٢) فلم يكن وجودها فى القرآن عبثاً وحاشا لله أن يكون فى القرآن شىء منه .

---

(١) نقض مطاعن القرآن ص ٨٠ هامش .
(٢) آل عمران ٧ .

٢ — دعوى أنها ألفاظ قصد بها التعمية ، أو التهويل ، أو أنها رموز لمصاحف ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن دعوى لم يقم عليها اثارة من علم، وإنما هو أمر فرضى وتشكيك بين أمرين ثبوت أحدهما ينفى الآخر فكونها قصد بها التهويل الخ يقتضى أنها نطق بها الرسول وكانت فى عهده وكونها رموز الخ يقتضى أن لا تكون نطق بها الرسول ولا كانت فى عهده ، والأمور الفرضية والتشكيكات لا تليق بالبحث النزيه القويم فى كتاب كريم، تواترت الدلائل على تواتره فى جملته وتفصيله وسلامته من التبديل والتحريف .

ولو فتحنا باب الفروض والتخمينات التى لا سند لها من عقل ولا نقل لم تثبت حقيقة ولعاد ذلك بالنقض على الكثير من العلوم والمعارف .

ودعوى أنها من وضع بعض الكتبة اليهود الذين كانو يكتبون الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم أشد من تلك بطلانا ففى أى كتاب من كتب التواريخ العربى منها وغير العربى أن النبى كان له كتبة من اليهود ؟ وكيف يأتمن النبى يهوديا على كتابة الوحى وعنده صفوة من أصحابه المخلصين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة ؟ وفى أى لغة من لغات العالم أن « ألم » أو « طس » أو « كهيعص » معناها أوعز إلى محمد أو أمرنى محمد وما ذكره الطاعن النصرانى فى « كهيعص » لا يخرج عن عبث الصبيان فإن هذه الفاتحة لا تقرأ كما سول له هواه كى يجعل لها نسبا إلى العبرانية وانما تقرأ على نهج آخر ثبت بالتواتر وتلقاه الخلف عن السلف والقراءة سنة متبعة ليست بالهوى ولا بالتشهى ، ولا يغيب عن ذهننا ان جل هذه الفواتح — وبخاصة فاتحة مريم — إنما نزل بمكة ومن قال أن مكة كان بها يهود ؟ ! الحق أن هذا الكلام لا يصدر الا عمن تجرد من الحياء وصدق القائل إذا لم تستح فاصنع ماتشاء ! .

٣ — كيف غاب عن الناقد الباحث أن الصحابة والتابعين بالغوا جداً فى العناية بالقرآن والمحافظة عليه من أى دخيل حتى ولو كان حرفا وانهم حينما كتبوا المصاحف بالغوا فى تجريدها مما ليس بقرآن حتى أنهم لم يعجموها

ولم يشكلوها ولم يكتبوا أسماء السور وعدد الآيات فى مقدمة كل سورة وما يوجد فى المصاحف اليوم من النقط والشكل وكتابة أسماء السور فذلك أمر مستحدث فى العصر الأموى فكيف يجوز الناقد الباحث أن تكون هذه الألفاظ رموزاً لمصاحف الصحابة ثم لحقت بمرور الزمن بالقرآن؟ وهل هذا يتفق هو وقواعد النقد التحليلى الذى كثيراً ما يلهج به ؟ وكيف غاب عن ذهن الناقد الباحث أن القرآن لم يكن يتلقى من المصاحف وإنما كان يتلقى بالرواية والسماع ، وأنه ثابت بالتواتر الشفاهى يأخذه الخلف عن السلف إلى النبى صلى الله عليه وسلم وإنما كانت كتابة القرآن زيادة فى التوثق والاطمئنان وليجتمع للقرآن الحفظ فى السطور إلى الحفظ فى الصدور ، الحق أنه ما كان يليق بباحث ناقد أن يغفل كل هذا .

« وبعد » فلعلك أيها القارىء أدركت معى أن هذه الشبه باطلة ، وأنها لا تعدو أن تكون هراء من القول دعا إليه موجدة قديمة ، وسخيمة نفس أبت إلا أن تستعلن فبرزت فى هذا الزور من القول ، أو تعصب بغيض وجهل فاضح بالقرآن ومقاصده ، وأن محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم لمحاولة فاشلة « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون[1] فلا تلق إلى هذه الشبه بالا فهى لا تعدو أن تكون دعاوى من أدعياء ، ويرحم الله القائل :

والدعاوى مالم تقيموا عليها بيـ ... ـنات أبناؤها أدعياء

وجرد من نفسك مجاهداً ينافح عن كتاب الله بلسانه وقلبه . فإن المنافحة عن الحق أشرف الجهاد وأسماه ، وكتاب الله كله حق وهدى ونور وصدق وعدل « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » (٢) « وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٣)

---

(١) التوبة ٣٢ (٢) الأنعام ١١٥

(٣) فصلت ٤١ ، ٤٢

صلات تتعلق بالمكى والمدنى

وهناك أنواع ذكرها السيوطى فى اتقانه ،وهى بسبب من المكى والمدنى كالحضرى والسفرى ، والليلى والنهارى، والصيفى والشتائى وماتقدم نزوله على حكمه ، وماتأخر نزوله عن حكمه . وأيضاً ذكر ممايتعلق بالمكى والمدنى وماحمل من مكة الى المدينة ، وماحمل من المدينة الى مكة أوغيرها ، وقد أفاض الإمام السيوطى فى ضرب الأمثلة ، ولن نفعل مثل مافعل، ولكنا سنكتفى بضرب بعض الأمثلة ، ومن أراد استيعاباً فعليه بالرجوع الى الإتقان (١)

الصلة الأولى

الحضرى والسفرى : أمثلة الحضرى كثيرة ، وجل القرآن نزل فى الحضر ، أما السفرى فله أمثلة منها :

(١) قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » ودليله ما أخرجه ابن أبى حاتم عن صفوان بن أمية قال جاء رجل إلى النبى ﷺ مضمخ بالزعفران عليه جبة فقال : كيف تأمرنى فى عمرتى ؟ فنزلت ، فقال : أين السائل عن العمرة ؟ ألق عنك ثيابك ثم اغتسل الحديث (٢) ، وقوله فى هذه الآية « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه» الآية (٣) نزلت بالحديبية ، كما أخرجه أحمد عن كعب ابن عجره الذى نزلت فيه ، والواحدى عن ابن عباس

(٢) قوله تعالى : وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم

---

(١) ج ١ ص ١٨ — ٢٢

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره بعد ماساق هذا الحديث . هذا حديث غريب وسياق عجيب ، ثم بين أن القصة التى فى الصحيحين عن يعلى بن أمية ، وليس فيها ذكر نزول الآية (٣) البقرة ١٩٦

معك ، الآية (١) نزلت بعسفان بين الظهر والعصر ، كما أخرجه أحمد عن أبى عياش الزرقى .

(٣) قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم ... » فنى الصحيح عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

(٤) قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » الآيات(٢) نزلت فى غزوة تبوك ، كما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس

(٥) سورة الفتح ، فنى صحيح البخارى فى قصة عمر مع رسوله رسول الله ﷺ أن النبى قال : لقد أنزلت على الليلة سورة لهى أحب إلى ماطلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » وكان ذلك منصرفه من الحديبية ، وأخرج الحاكم فى المستدرك عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم قالا : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من من أولها إلى آخرها » .

(٦) سورة المنافقين ، أخرج الترمذى عن سفيان أنها نزلت فى غزوة بنى المصطلق ، وبه جزم ابن اسحاق وغيره .

(٧) سورة المرسلات ، أخرج الشيخان عن ابن مسعود قال : بينما نحن مع النبى ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت عليه : والمرسلات الحديث.

الصلة الثانية

النهارى والليلى : ـ أمثلة النهارى كثيرة جدا قال ابن حبيب : نزل أكثر القرآن نهاراً ، أما الليلى فمن أمثلته .

(١) قوله تعالى : « إن فى خلق السموات الأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٣) فقد أخرج ابن حبان فى صحيحه وابن

---

(١) النساء ١٠٢

(٢) التوبة ٤٢ وما بعدها

(٣) آل عمران / ١٩٠

المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا فى كتاب «التفكر» عن عائشة أن بلالا أتى النبى ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكى فقال: يارسول الله مايبكيك قال: وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل على هذه الليلة «إن فى خلق السموات الآية»، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر.

٢ — آية الثلاثة الذين خلفوا وهى «وعلى الثلاثة الذين خلفوا» الآية(١) فى الصحيحين من حديث كعب فأنزل الله توبتنا حين بقى الثلث الأخير من الليل والثلاثة كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

٣ — سورة مريم روى الطبرانى عن أبى مريم الغسانى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ولدت لى الليلة جارية فقال: والليلة أنزلت على سورة مريم، سمها مريم.

٤ — سورة الفتح فى الحديث الصحيح أن ذلك كان ليلا

٥ — آية للتيمم التى فى المائدة فى الصحيح عن عائشة وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت «يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة» إلى قوله «لعلكم تشكرون»(٢)

٦ — قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء» الاية(٣) فى الصحيح أنها نزلت والنبى فى الركعة الأخيرة من صلاة الصبح حين أراد أن يقنت يدعو على أبى سفيان ومن ذكر معه.

الصلة الثالثة

الصيفى والشتاء(٤): مما لاشك فيه أن القرآن نزلت منه آى كثيرة

(١) التوبة ١١٨ (٢) المائدة / ٦

(٣) آل عمران ١٢٨

(٤) الظاهر أن مرادهم بالصيف أيام الحر وما يقرب منها وبالشتاء أيام البرد

فى الصيف، وآى كثيرة فى الشتاء فمن أمثلة الصيف وقد أحصى أحد العلماء بعضا من ذلك .

١ – قال الواحدى أنزل الله فى الكلالة آيتين إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول النساء « وإن كان رجل يورث كلاله الخ(١) والأخرى فى الصيف وهى التى فى آخرها «يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلاله الاية(٢) وفى صحيح مسلم عن عمر قال : ما راجعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شىء ما راجعته فى الكلاله . وما أغلظ فى شىء ما اغلظ لى فيه حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال ياعمر : ألا تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء ؟ وقد كان ذلك فى سفر حجة الوداع ، فيعد من الصيف ما نزل فيها كأول المائدة و (اليوم أكملت لكم دينكم)

٢ – ومن الصيف الايات النازلة فى غزوة تبوك فقد كانت فى شدة الحر كما دل عليه القرآن والسنة .

وذلك مثل لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك الاية ، ومثل آية « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » (٣) وآية « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا » الاية(٤)

ومن أمثلة الشتائى :

١ – قوله تعالى : « إن الذين جاؤا بالإفك » إلى قوله « ورزق كريم » ففى الصحيح عن عائشة أنها نزلت فى يوم شات .

٢ – الايات التى نزلت فى غزوة الخندق فى سورة الأحزاب فقد كانت فى شدة البرد كما يدل على ذلك القرآن وماذكر فى المغازى فى حديث حذيفة

وما يدنو منها وبهذا الاعتبار تكون السنة ما بين صيف وشتاء إذ أيام الاعتدالين الربيع والخريف أما قريبة من الصيف أو قريبة من الشتاء

(١) النساء / ١٢ (٢) النساء ١٧٦

(٣) التوبة / ٨١ (٤) التوبة ٤٩

تفرق النـــاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب إلا إثنى عشر رجلا فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « قم فانطلق إلى معسكر الأحزاب » قلت يارسول الله والذى بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء من البرد، الحديث وفيه فأنزل الله « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها » الخ الايات(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل .

الصلة الرابعة

ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر نزوله عن حكمه(٢)

فمن أمثلة ما تأخر حكمه عن نزوله .

١ ـــ قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى(٣) » فقد روى البيهقى وغيره عن ابن عمر أنها نزلت فى زكاة الفطر . وقد استشكل ذلك لأن السورة مكية ولم يكن بمكة عيد مشروع ولا زكاة ولا صوم، وقد أجاب البغوى بأنه يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم وهو جواب حسن

٢ ـــ قوله تعالى : سيهزم الجمع ويولون الدبر(٤) فقد نزلت بمكة قطعاً ولم يكن شرع الجهاد ، وقد استشكل عمر ذلك ثم تبين له أن المراد بالجمع جمع بدر فقد روى عنه أنه قال حين نزلت الآية ، أى جمع فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم مصلتا بالسيف يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فكانت ليوم بدر، فيكون من الإشارات والنبوءات الغيبية التى أظهرت الايام صدقها، وكانت من دلائل النبوة.

---

(١) الأحزاب ٩ وما بعدها

(٢) الاتقان جـ١ ص ٣٧ (٣) الأعلى ١٤ /١٥

(٤) القمر / ٤٥

(٣) — قوله تعالى : «قل جاء الحق ومايبدىء الباطل ومايعيد»[1] أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أن المراد بالحق السيف يعنى الجهاد واستشكل بأن الآية مكية متقدمة على فرض القتال ، والجواب أن هذا مما تقدم نزوله على حكمه ، ويؤيد تفسير ابن مسعود ماأخرجه الشيخان من حديثه أيضا . قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نصباً فجعل يطعنها بعود كان فى يده ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ومايبدىء الباطل ومايعيد» .

٤ — قوله تعالى : «وآتوا حقه يوم حصاده»[2] فالمراد بها الزكاة وقوله تعالى فى سورة المزمل « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»[3] فهذا مما تأخر حكمه عن نزوله إذ الزكاة إنما شرعت بالمدينة ، أقول ، : وهذا على رأى بعض العلماء ، وعلى أن السورتين كلتيهما مكيتان .

ويرى فريق العلماء أن فرض الزكاة كان بمكة ، أما تفصيل أحكامها وأنصبتها ، وبيان مصارفها فكان بالمدينة ، وعلى هذا فلا تكون الآيتان من هذا القبيل ، وأما الحكمة فى تقدم النزول عن الحكم فقد أشار إليها ابن الحصار بقوله : «وقد ذكر الله الزكاة فى السور المكيات كثيراً تصريحاً وتعريضاً بأن الله سينجز وعده لرسوله ويقيم دينه ، ويظهره حتى يفرض الصلاة والزكاة وسائر الشرائع ولم تؤخذ الزكاة إلا بالمدينة بلا خلاف » أقول : لعل مراده بالأخذ التنفيذ العملى فان ذلك لم يكن إلا بالمدينة قطعا ، أما أصل المشروعية فللعلماء فيها خلاف كما ذكرت ، وأيضا وليكون ذلك من أعلام صدقه ، ودلائل نبوته صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة ماتأخر نزوله عن حكمه :

١ — آية الوضوء ففى صحيح البخارى عن عائشة قالت سقطت قلادة لى

---

[١] سبأ / ٤٩ [٢] الأنعام ١٤١ [٣] المزمل ٢٠

بالبيداء ونحن داخلون المدينة ، فأناخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونزل فثنى رأسه فى حجرى راقداً وأقبل أبو بكر فلكزنى لكزة شديدة ، وقال حبست الناس فى قلادة ، ثم أن النبى صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد . فنزلت «ياأيها الذين آمنوا إذا اقتم إلى الصلاة» إلى قوله « لعلكم تشكرون» فالآية مدنية إجماعا ، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة قال ابن عبد البر . معلوم عندجميع أهل المغازى أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل منذ فرضت عليه الصلاة إلا بوضوء ولا يدفع ذلك إلا جاهل أو معاند ، قال . والحكمة فى نزول آية الوضوء مع تقدم العمل به ليكون فرضه متلوا بالتنزيل ، وجوز غيره أن يكون أول الآية نزل مقدماً مع فرض الوضوء ، ثم نزل بقيتها وهو ذكر التيمم فى هذه القصة ويرد هذا الاحتمال أن الآية مدنية بالإجماع .

٢ — آية الجمعة (١) فانها مدنية والجمعة فرضت بمكة ، وأما ماقاله ابن الغرس : إن إقامة الجمعه لم تكن بمكة قط فيرده ما أخرجه ابن ماجه عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك ، قال : كنت قائد أبى حسين ذهب بصره فكنت إذا أخرجت به إلى الجمعة فسمع الآذان يستغفر لأبى أمامة أسعد ابن زرارة فقلت يا أبتاه أرأيت صلاتك على أسعد بن زرارة كلما سمعت النداء بالجمعة لم هذا ؟ قال : أى بنى كان أول من صلى بنا الجمعة قبل مقدم رسول الله ﷺ من مكة .

الصلة الخامسة

ماحمل من مكة إلى المدينة : فمن أمثلة ذلك سورة سبح ، فقد أخرج البخارى عن البراء بن عازب أنه قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلا يقرءاننا القرآن ثم جاء عمار

---

[١] الجمعه الآية ٩

وبلال وسعد ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين ثم جاء النبى ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت « سبح اسم ربك الأعلى» فى سور مثلها من المفصل .

ماحمل من المدينة إلى مكة :من ذلك قوله تعالى«يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية(١) وهذا إنما يتجه على أن السائل هم المشركون فقد روى أن وفدا منهم قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم بعد سرية عبدالله بن جحش وقتلهم ابن الحضرمى من المشركين وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة ، وأرجف المشركون وقالوا ، إنهم قتلوه فى الشهر الحرام أى رجب ، فأنزل الله الآية دفاعا عن السرية ، واعتذاراً عما بدر منها ، وأنه شىء قليل بجانب مايصدر عن المشركين من إجرام فى حق الله ودينه وبيته والمسلمين فيكون الوفد لما قرئت عليه حملها معه ، أو أرسل النبى صلى الله عليه وسلم من حملها إليهم فى مكة .

ومن ذلك أيضاً صدر سورة براءة فقد أرسل النبى صلى الله عليه وسلم به عليا ليقرأه على الناس فى الموسم سنة تسع كما فى الصحيح ، ومن ذلك آية الربا فى سورة البقرة : « يأيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين » فقد اختلف بنو عمرو بن عمير من ثقيف مع بنى المغيرة ابن عبدالله ورفعوا الأمر الى أمير مكة عتاب بن أسيد فرفع الأمر إلى رسول الله فنزلت فأرسل بها النبى إلى عتاب بن أسيد (٢)

ماحمل من المدينة إلى الحبشة :ومثاله كسورة مريم فقد صح أن جعفر ابن أبى طالب قرأها على النجاشى لما ذهب رسولا قريش الى النجاشى كى يرد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة الى مكة فأبى حتى يسمع كلامهم فتكلم

---

(١) البقرة ٢١٧

(٢) تفسير ابن كثير والبغوى جزء ٢ ص ٦٤

جعفر بن أبى طالب فأحسن وأجاد فقال له النجاشى هل معك من شىء مما جاء به عن الله تقرؤه على ؟ فقال جعفر نعم وقرأ عليه سورة مريم فلما سمع النجاشى السورة قال : إن هذا والله جاء به موسى ليخرج من مشكاه واحدة وقال البطارقة : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح .

ما حمل من المدينة إلى الروم : ومثاله قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون فقد صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتبها فى الكتاب الذى بعث إلى هرقل عظيم الروم(١) والمقوقس عظيم مصر .

الصلة السادسة

ما نزل مفرقا وما نزل جمعاً :

أما الأول فأمثلته كثيرة لا يحصيها العد لأن غالب القرآن نزل كذلك. فمن ذلك فى السور القصار سورة اقرأ فقد نزل صدرها إلى « مالم يعلم » والمدثر نزل صدرها إلى «والرجز فاهجر» والضحى نزل صدرها إلى «فترضى» ثم نزلت أواخرها بعد هذا ، وفى السور الطوال صدر سورة براءة وصدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية بسبب وفد نجران لما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم .

ومثال الثانى فى السور القصار الفاتحة والإخلاص والكوثر وتبت ولم يكن والنصر والمعوذتان، وفى السور الطوال من المفصل والمرسلات،وسورة الصف ومما ذكروه من السور الطوال سورة الأنعام فقد أخرج أبو عبيد

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٠ .

والطبرانى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك ، وأخرج الطبرانى عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نزلت سورة الإنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك » وهذا الذى ذكروه غير مسلم ، فان سورة الأنعام وإن كانت مكية إلا أن منها آيات مدنية قطعاً مثل قوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره » إلى ثلاث آيات فقد نزلت بسبب مالك بن الصيف أحد أحبار اليهود ، كما يدل على ذلك سبب النزول ، واستثنى بعض العلماء غير هذه الايات الثلاث ، وأما الاثار التى ذكروها فلم تثبت ، قال ابن الصلاح فى فتاويه : الحديث الوارد فى أنها نزلت جملة واحدة رويناه من طريق أبى كعب ،وفى إسناده ضعف ، ولم تر له إسناداً صحيحاً وقد روى ما يخالفه ، فروى أنها لم تنزل جملة واحدة بل نزلت آيات منها بالمدينة اختلفوا فى عددها فقيل ثلاث وقيل ست وقيل غير ذلك(١) .

أما نزولها مشيعة فأمر محتمل إذا ثبتت به الرواية ويكون التشييع لجلها وما نزل منها لا لجميعها كما ذكروا .

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ٣٧ .

المبحث السابع

(جمع القرآن وتاريخه)

جمع القرآن يطلق تارة ويراد به حفظه وتقييده فى الصدور ويطلق تارة ويراد به كتابته فى الصحف والسطور وجمع القرآن بهذا المعنى الثانى مر بأطوار ثلاثة .

(١) جمعه فى عهد النبى ﷺ :

(٢) جمعه فى عهد الخليفه الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

(٣) جمعه فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وسنتكلم عن كل جمع منها مبينين خصائصه ومميزاته والأسباب الباعثة عليه

(جمع القرآن بمعنى حفظه فى الصدور)

كان النبى ﷺ ينزل عليه القرآن الكريم فيقرؤه على صحابته على تؤدة وتمهل كى يحفظوا لفظه ويفقهوا معناه ؛ وكان النبى ﷺ سديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه حتى بلغ من شدة عنايته به وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة يقصد بذلك استعجال حفظ القرآن خشية أن تفلت منه كلمة أو يضيع منه حرف ، ومازال كذلك حتى طمأنه ربه ووعده أن يحفظه له فى صدرة وأن يقرئه لفظه ويفهمه معناه قال تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه[1] »وكان من دواعى حفظ القرآن وتثبيته فى قلب النبى صلوات الله عليه معارضة جبريل عليه السلام إياه بالقرآن فى رمضان من كل عام حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول فعارضه مرتين ، وفهم النبى من ذلك قرب انتهاء أجله ، وكان القرآن شغل

(١) القيامة ١٦ — ١٩

النبى الشاغل فى سره وعلانيته ، وفى حضره وسفره ، وفى وحدته وبين صحابته وفى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لايغيب عن قلبه ولا يألوا جهـــداً فى الائتمار بأوامره ونواهيه والاعتبار بمواعظه وقصصه والتأدب بآدابه وأخلاقه وتبليغه إلى الناس كافة فمن ثم كان النبى صلوات الله وسلامه عليه مرجع المسلمين فى حفظ القرآن وفهمه والوقوف على أسراره ومراميه .

وأما الصحابة رضوان الله عليهـــم فقد جعلوا القرآن فى المحل الأول يتنافسون فى حفظ لفظه ويتسابقون فى فهم معنـاه ، وجعلوه مسلاتهم فى فراغهم ومتعبدهم فى ليلهم حتى لقد كان يسمع لهم بقراءته دوى كدوى النحل « كانوا قليلامن الليل مايهجعون وبالأسحارهم يستغفرون »[1] ؛ ولقد وصفهم واصف فقال « كانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار » وكان اعتمادهم فى الحفظ على التلقى والسماع من الرسول ، وما كانوا يعتمدون فى حفظه على النقل من الصحف والسطور .

ومن خصائص هذه الأمة حفظها لكتاب ربها وهو القرآن ففى الحديث الذى رواه مسلم أن النبى ﷺ قال : « إن ربى قال لى قم فى قريش فأنذرهم قلت أى ربى إذن يثلغوا رأسى حتى يدعـــوه خبزة فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جنداً أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأنفق ينفق عليك ، فقد أخبر أن القرآن لايحتاج فى حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء وإنما محله القلوب كما جاء فى وصف هذه الأمـة « أناجيلهم فى صدورهم »[2] بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا فى الكتب ولا يقرؤونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب

---

[1] الذاريات ١٧ ، ١٨ [2] المراد كتابهم المقدس وهو القرآن لأن المسلمين ليس لهم أناجيل ، وإنما ذلك للنصارى .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جم غفير من الصحابة منهم الخلفاء الأربعة وحذيفه ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وابن عباس وابن الزبير ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبوه وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد ومهما يكن من شيء فقد حفظ القرآن الكثيرون من الصحابة فى عهد النبي ولقد روى أنه قتل فى يوم بئر معونه سبعون من القراء .

ولكن يشكل على ما ذكرنا ما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل . وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، وأبو زيد هذا اسمه قيس بن السكن كما رواه ابن أبى داود بإسناد صحيح على شرط البخارى عن أنس « أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه قيس بن السكن قال : وكان رجلا منا من بنى عدى بن النجار أحد عمومتى ومات ولم يدع عقبا ونحن ورثناه »(١) قال ابن أبى داود : قد مات قريبا من وفاة النبى ﷺ فذهب علمه ، وكان عقبيا بدريا .

والحق أن لا إشكال لأن مراد أنس الحصر الإضافى لا الحقيقى حتى يشكل الأمر إذ لا يتم له الحصر الحقيقى إلا إذا كان أنس لقى كل الصحابة وسألهم واحداً واحداً حتى يتم له الاستقراء وهذا أمر مستبعد فى العادة ويدل أيضا على أن أنس لم يقصد القصر الحقيقى أنه سأله قتادة عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال « أربعة كلهم من الأنصار ، أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت من أبو زيد ؟ قال أحد عمومتى » رواه البخارى فقد ذكر فى هذه الرواية « أبى بن كعب » بدل « أبى الدرداء » زد على هذا ما استفاض من أن الذين حفظوا القرآن على عهد

---

(١) الاتقان جـ ١

الرسول كثيرون غير هؤلاء منهم الخلفاء الأربعة ؛ ومما لا يرتاب فيه أن الصديق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن جميعه فى حياة الرسول لكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف كل ما يصدر عنه وفى الصحيح أنه بنى له مسجداً وهو فى مكة فى فناء داره فكان يقرأ فيه القرآن على ما كان فيه من جهد وبلاء حتى لقد خاف المشركون على نسائهم وأبنائهم أن يفتتنوا بقراءته .

وقد أجاب العلماء السابقون ـ أثابهم الله ـ على حديث أنس فمن قائل : لم يجمع القرآن غير هؤلاء الأربعة تلقينا من الرسول أما غيرهم فأخذوا بعضه بالتلقين وبعضه بالواسطة .

ومن قائل : أن المراد بالجمع الكتابة .

ومن قائل : لم يجمعه بجميع حروفه وقراءاته غير هولاء إلى غير ذلك من التأويلات .

والحق ماذهب اليه الحافظ ابن حجر فى الفتح من أن ذلك بالنسبة إلى الخزرج دون الأوس فلا ينافى أن الكثيرين غيرهم من المهاجرين قدحفظوه قال الحافظ « وفى غالب هذه الاحتمالات تكلف ؛ وقد ظهر لى احتمال آخر وهو أن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فلا ينفى ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين ؛ لأنه قال ذلك فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال « افتخر الحيان الأوس والخزرج فقال الأوس : منا أربعة من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة حنظلة ابن عامر ، ومن حمته الدبر (١) عاصم بن أبى ثابت فقال الخزرج منا أربعة

---

(١) الدبر جماعة النحل ، والزنابير

جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم ، فذكرهم (١)

وأما بعد وفاته ﷺ فقد أتم حفظه الألوف المؤلفة من الصحابة وبحسبك أن تعلم أن من قتل من القراء فى موقعة اليمامة كانوا سبعمائة على ما قيل وعن الصحابة حفظه الألوف المؤلفة من التابعين ، وهكذا دواليك تلقته طبقة عن طبقة بالحفظ والعناية والصيانة حتى وصل الينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل فكان تصديقا لقول الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

الحافظات من النساء : ولم يكن حفظ القرآن خاصاً بالرجال ، بل قد شارك فيه النساء منهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله قال الإمام السيوطى : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن لم يعدها أحد ممن تكلم فى ذلك فأخرج ابن سعد فى « الطبقات » قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال حدثتنى جدتى عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ، ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن « أن رسول الله ﷺ حين غزا بدراً قالت له : أتأذن لى ، فأخرج معك ؟ أداوى جرحاكم وأمرض مرضاكم ، لعل الله يهدى لى شهادة ، قال : « ان الله مهد لك شهادة » وكان رسول الله أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن فضمها غلام لها وجارية كانت قد دبرتها ، فقتلاها فى إمارة عمر رضى الله عنه ، فقال عمر صدق رسول الله ﷺ ، كان يقول : « انطلقوا بنا » نزور الشهيدة ، (٢) فأكرم بها من مسلمة حافظة .

---

(١) الاتقان ج ١ ص ٧١ (٢) المرجع السابق ص ٧٢

جمع القرآن بمعنى كتابته

فى عهـــد النبى ﷺ

لم يكتف النبى ﷺ بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له . بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده فى السطور ، وكان للنبى كتاب يكتبون الوحى منهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبان ابن سعيد وخالد بن الوليد ومعاوية ابن أبى سفيان وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وغيرهم ، فكان إذا نزل على النبى من الوحى شىء دعى بعض من يكتب فيأمره بكتابة ما نزل وإرشاده إلى موضعه وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشده إليه أمين الوحى جبريل ، روى عن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله ﷺ اذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال . ضعوا هـذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا ،

وعن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ، قال البيهقى : يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الايات المفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة النبى صلى الله عليه وسلم

ولم تكن أدوات الكتابة ميسرة فى ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه على حسب ما تيسر لهم فى الرقاع والعسب والأكتاف واللخاف والأقتاب(١)

---

(١) الرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو قماش أو ورق ، العسب : جمع عسيب طرف الجريد العريض كانوا يكشطون الخوص ويكتبون فيه ، والأكتاف جمع كتف وهى العظام العريضة من أكتاف الحيوان كالابل والبقر والغنم ، واللخاف بكسر اللام : جمع لخفه بفتح فسكون وهى الحجارة الرقيقة ، والأقتاب جمع قتب وهى الخشب الذى يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

ونحوها وقد كان القرآن كله مكتوباً فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان مفرقا ، وكانت كتابته بالأحرف السبعة التى نزل بها .

وأما الصحابة فقد كان بعضهم لا يكتب القرآن اعتماداً على الحفظ وسيلان الأذهان ، كما هو شأن العرب فى حفظ شعرها ونثرها وأنسابها ، وبعضهم كان يكتب ولكن كان مفرقاً ؛ وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيما يكتبونه على ما ثبت بالتواتر ، بل كانوا يكتبون المنسوخ تلاوة وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلك كما فعل ابن مسعود وأبى وغيرهما .

وخلاصة القول أن القرآن كله كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان مفرقاً ، وكذلك كتب بعض الصحابة القرآن أو ما تيسر لهم منه ، وإن لم تبلغ كتابتهم فى الوثوق مبلغ ما كتب بين يدى النبى ، وقد أذن النبى لأصحابه فى كتابة القرآن دون السنة ، ففى صحيح مسلم : لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وطبعى أن المكتوب فى هذا العهد لم يكن مرتب السور والآيات ضرورة التفريق فى العسب والاكتاف والرقاع(١) ونحوها ، وليس معنى هذا أنهم كانوا يقرؤنه مرتب الايات على حسب ما أوقفهم عليه الرسول بإرشاد جبريل عن رب العالمين وعلى ما هو عليه اليوم والسبب الباعث على كتابته فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

١ — معاضدة المكتوب للمحفوظ لتتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ولذا كان المعول عليه عند الجمع الحفظ والكتابة .

٢ — تبليغ الوحى على الوجه الأكمل لأن الاعتماد على حفظ الصحابة فحسب غير كاف لأنهم عرضة للنسيان أو الموت أما الكتابة فباقية لا تزول

وإنما لم يجمع النبي صلى الله عليه وسلم القرآن فى مكان واحد لما يأتى :

---

(١) أما ما كان مكتوباً فى القطعة الواحدة فقد كان مرتب الآيات ولا ريب .

١ — ما كان يترقبه النبى من تتابع نزول الوحى ونزول بعض آيات ناسخة لبعض أحكامه وألفاظه .

٢ — ترتيب آيات القرآن وسوره لم يكن على حسب النزول بل كان على حسب تناسب الآى وترابطها وقد تنزل الآية أو السورة بعد الآية أو السورة وتكون فى ترتيب الكتابة قبلها .

فلو كتب النبى صلى الله عليه وسلم القرآن كله فى مكان واحد - والشأن كما ذكرنا - لكان عرضة للتغيير والإزالة والكشط والمحو ، وقد تكون كتابته فى موضع واحد متعذرة إن لم تكن مستحيلة فى كتاب نزل منجما فى بضع وعشرين سنة فلما انقضى الوحى بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم وأمن النسخ وعرف الترتيب ألهم الله سبحانه الخلفاء الراشدين فقاموا بجمع القرآن فى الصحف كما حدث فى عهد الصديق رضى الله عنه وفى المصاحف كما حدث فى عهد عثمان رضى الله عنه .

وهكذا نرى أن كتابته مفرقا فى العهد النبوى ضرورة لا محيص عنها.

جمع القرآن فى عهد أبى بكر رضى الله عنه

لما تولى أبو بكر الصديق الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة والقضاء على هذه الفتنة وبذلك أقام عمود الإسلام وثبت دعائمه بعد أن كادت تتقوض ، ولما وقعت موقعة اليمامة سنة اثنتى عشر للهجرة استحر (١) القتل فى الصحابة ومات من حفاظ القرآن خلق كثير قيل خمسمائة (٢) وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر رضى الله عنه الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه أن يكثر القتل فى القراء فى بقية المواطن ، وربما كان عندهم شىء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على أبى بكر أن يجمع القرآن فى مكان واحد ، ومصحف مجموعة بدل وجوده مفرقا فى العسب ،

---

(١) أى كثر .

(٢) فضائل القرآن ص ١٢

واللخاف ، والرقاع وغيرها . فتردد أبو بكر أول الأمر ، ولكن لم يزل به الفاروق حتى وافق وثبت عنده أن جمع القرآن ليس من المحدثات ، وأن قواعد الدين والشريعة تدعو إليه فأرسل الصديق إلى زيد بن ثابت وندبه للقيام بهذا العمل الجليل فراجعهما ، ولم يزالا به حتى ظهر له الحق واستبان له الرشد ، وعلم أن الحق فيما أشارا به فجمعه بعد جهد جهيد ، وإليك مارواه البخارى فى صحيحه بسنده عن زيد بن ثابت[1] قال أرسل إلى إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامه فإذا عمر بن الخطاب عنده فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتانى فقال : إن القتل استحر — اشتد — بقراء القرآن وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن يجمع القرآن فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول

---

(١) هو الصحابى الجليل زيد بن ثابت بن الضحاك ينتهى نسبه إلى مالك بن النجار الأنصارى ، الخزرجى ، استصغر يوم أحد هو وبعض شباب الصحابة ، ثم شهد أحدا وما بعدها وكان من كتاب الوحى المعدودين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والظاهر أن كان أكثر الكتاب تفرغا للكتابة . وقد أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعلم كتابة اليهود ، فتعلمها فى خمسة عشر يوما كما فى صحيح البخارى ، وكان من علماء الصحابة ، وأئمة الفتوى منهم ، قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « أفرضكم زيد » رواه أحمد يعنى أكثركم علما بعلم المواريث ، قال فيه ابن سعد : كان زيد رأسا بالمدينة فى القضاء ، والفتوى ، والقراءة ، والفرائض .

وروى البغوى بإسناد صحيح عن خارجة بن زيد قال : كان عمر يستخلف زيد ابن ثابت إذا سافر ، فقلما يرجع إلا أقطعه حديقة من نخل ، وكان من الراسخين فى العلم ومن خصائصه أنه حضر العرضة الأخيرة للقرآن التى عرضها النبى صلى الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام وهذا من أعظم المؤهلات التى أهلته لهذا العمل الكبير . جمع القرآن فى عهد الصديق ، وعهد ذى النورين عثمان وكانت وفاته سنة اثنتين ، أو ثلاث ، أو خمس وأربعين وقيل غير ذلك فرضى الله عنه وأرضاه .

الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر . هو والله خير فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر ، قال زيد . قال أبو بكر ، انك رجل شاب عاقل لانتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ماكان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن ، قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا هو - والله - خير فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ووجدت آخر سورة التوبه مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره . « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . » إلى آخر السورة » فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر ، وفى رواية أخرى مع خزيمة أو أبو خزيمة بالشك والأولى هى المعتمدة[1] . وقد أخرج ابن أبى داوود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد . « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » منقطع رجاله ثقات وقد اختلف فى المراد بالشاهدين ، فقال الحافظ بن حجر . المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان غرضهم أن

---

(١) أبو خزيمة الذى وجدت عنده آخر سورة التوبة غير خزيمة الذى وجدت عنده آية الأحزاب ، فالأول هو أبو خزيمة بن أوس بن يزيد بن أصرم من بنى النجار شهد بدرا وما بعدها وتوفى فى خلافة عثمان ، وأما الثانى فهو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة يعرف بذى الشهادتين شهد بدرا وما بعدها وقتل وهو على بصفين (تفسير الخازن ١ ص ٩) (فتح البارى ج ٨ ص ٢٧٧ ، ٤٢١ ، ج ٩ ص ١٢ ، ١٧) .

لايكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم لامن مجرد الحفظ : وبهذا تعلم أنهم بالغوا فى التوثق فى كتابة القرآن فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا وهما الحفظ والكتابة وعلى ذلك يحمل قول زيد فى الحديث السابق فى الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدهما إلا مع أبى خزيمة الأنصارى أن المراد لم أجدهما مكتوبتين عند غيره ممن كانوا يكتبون الوحى وليس المراد أنه لم يكن يحفظهما غيره بل كان يحفظها الكثيرون(١) ويتلونهما فى الصلاة ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

والسبب الباعث على كتابته فى عهد أبى بكر خوف ضياع شىء منه بموت الكثير من القراء والحفاظ فى الحروب ، وقد يكون عند أحدهم شىء من القرآن المكتوب يضيع بموته ، وقد سمعت آنفا أن الاعتماد فى الجمع كان على الحفظ والكتابة ولذلك كانت العناية بالغة بالصحف التى جمعت فى عهد أبى بكر فكانت عنده حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصه(٢) حتى طلبها منها عثمان رضى الله عنه فى الجمع الثالث .

ولا يعارض هذا ما أخرجه ابن أبى داود من طريق ابن سيرين قال: قال على : لما مات رسول الله ﷺ آليت أن لا آخذ على ردائى إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعته ، فقد قال الحافظ ابن حجر : هذا الأثر ضعيف لانقطاعه وبتقدير صحته فمراده بجمعه حفظه فى صدره وما تقدم من رواية عبد خير عنه أصح . فهو المعتمد، ومراد الحافظ برواية عبد خير ما أخرجه

---

(١) وقد ثبت فى الروايات أن عمر كان يحفظها وأن عثمان كان يحفظها أيضا وأن أبى بن كعب كان يحفظها [فتح البارى ج٩ ص١٠] ولو لم يحفظها إلا هؤلاء الحفاظ الكبار الخمسة لكفى ، فالواحد فى معيار العدالة والضبط والثقة يعتبر بألف .

(٢) لأن أباها الفاروق كان أوصى بذلك ، فهى زوج رسول الله ﷺ ، وأحق من يرعى هذه الأمانه الغالية .

ابن أبى داود بسند حسن عن عبد خير قال سمعت علياً يقول : «أعظم الناس فى المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبى بكر ، هو أول من جمع كتاب الله» .

أقول : وعلى فرض صحة ما روى عن سيدنا على ، وأن المراد بالجمع الكتابة لا يعارض الثابت المشهور من أن أبا بكر هو أول من جمع القرآن، إذ ليس فى رواية ابن سيرين التصريح بالأولية بل الذى صح عن على خلافها، وغاية ما تدل عليه أنه سارع إلى كتابة القرآن فهو كغيره من الصحابة الذين عنوا بكتابة مصاحف لأنفسهم خاصة ولم تكن لهذه المصاحف من الثقة بها والإجماع عليها والقبول لها مثل ما لمصحف أبى بكر فجمع الصديق أبى بكر بهذه الاعتبارات يعتبر بحق أول جمع .

وقد امتاز الجمع فى عهد أبى بكر بما يأتى :

(١) أنه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته وجرده من كل ما ليس بقرآن .

(٢) أنه لم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته ، وأما ما روى عن زيد فى آخر سورة براءة فقد علمت المراد منه .

(٣) أنه كان مكتوباً بجميع الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

(٤) أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذى نقرؤه اليوم ، ولم يكن مرتب السور فكانت كل سورة مستقلة فى الكتابة بنفسها فى صحف . ثم جمعت هذه الصحف وشدت بعضها إلى بعض .

ومما ينبغى أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة والتثبت البالغ والاشتمال على هذه المميزات لم يكن لغير صحف أبى بكر رضى الله عنه فهى النسخة الأصلية الموثوق بها التى يجب الاعتماد عليها نعم قد كانت هناك صحف ومصاحف لبعض الصحابة كتبوا فيها القرآن إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف أبى بكر من الدقة والميزات فبعض الصحابة كان يكتب المنسوخ ،

وما ثبت برواية الآحاد ، وبعض تفسيرات و تأويلات لآية وبعض أدعية، ومأثورات . فكن على ذكر من هذا فإنه سيفيدنا فى إزالة أشكال بعض الروايات الواردة عن بعض أصحاب هذه المصاحف والتى اتخذ منها بعض المارقين وسيلة للطعن فى القرآن الكريم .

جمع القرآن فى عهد عثمان رضى الله عنه

لما كان عهد عثمان رضى الله عنه وتفرق الصحابة فى البلدان وحمل كل منهم من القراءات ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يكون عند أحدهم من القراءات ما ليس عند غيره ، اختلف الناس فى القراءات ، وصار كل قارىء ينتصر لقراءته ، ويخطىء قراءة غيره وعظم الإمر ، واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان رضى الله عنه وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة فى التقليل من الثقة بالقرآن الكريم وقراءاته الثابتة ، وهو أساس عروة المسلمين ، ورمز وحدتهم الكبرى ؛ أخرج ابن أبى داود فى المصاحف من طريق أبى قلابة قال : لما كان عهد عثمان جعل المعلم يعلم قرءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا فبلغ ذلك عثمان فقال أنتم عندى تختلفون فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافاً ، وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة ابن اليمان وأخبره بما وقع بين أهل الشام والعراق من الاختلاف فى القراءة فى غزوة أرمينية فهاله الأمر ، وتشاور هو والصحابة فيما ينبغى ، فرأى ورأوا معه أن يجمع الناس على مصحف واحد ، لا يتأنى فيه اختلاف ، ولا تنازع ، فأرسل إلى حفصة رضى الله عنها أن ارسلى إلينا بالصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر ثم انتقلت بعد موته إلى عمر ثم بعد عمر إلى حفصة ؛ لتكون أساسا فى جمع القرآن جمعا يقلل من الاختلاف والتنازع ، ثم عهد عثمان إلى زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير (١)

---

(١) هو الصحابى الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى ، الأسدى ، أبوه =

ابن العاص(١) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام(٢) أن ينسخوا الصحف فى مصاحف وقال للرهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان

= الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته السيدة صفية ، وأمه السيدة أسماء بنت الصديق ، ذات النطاقين كما سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة ، ولما ولد فرح المسلمون وكبروا . لأن اليهود، زعموا أنهم سحروا المهاجرين فلا يولد لهم أحد ، ولما ولد جاءت به أمه إلى النبى فحنكه ، وسماه عبد الله ، ودعا له بخير . وقد جاء إلى النبى وهو ابن سبع أو ثمان سنين، فبايع النبى وكان أشبه الناس بجده الصديق ، وهو أحد العبادلة الأربعة الذين اشتهروا بالعلم ، ورواية الأحاديث ، وعنوا بحفظ القرآن ، وأحد شجعان العرب وقد دانت له معظم الأقطار الإسلامية بعد موت يزيد بن معاوية ، وولى الخلافة ثم قتل شهيدا أثناء حصار الحجاج له بمكة سنة ثلاث وسبعين.

وقد أهلته صفاته الخلقية، وخصائصه العلمية ، ولا سيما بالقرآن أن يكون أحد الأربعة الذين كتبوا المصاحف فى عهد سيدنا عثمان ، فرضى الله عنه وأرضاه .

(١) هو الصحابى الجليل سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الأموى أبو عثمان قال ابن أبى حاتم عن أبيه له صحبة وقال الحافظ ابن حجر كان له يوم مات النبى صلى الله عليه وسلم تسع سنين وقتل أبوه يوم بدر ، وكان من فصحاء قريش ولذا ضربه عثمان فيمن ندب لكتابة المصاحف قالوا فيه : إن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص لأنه كان أشبه الصحابة لهجة برسول الله ، وقد ولى إمارة الكوفة ، وغزا طبرستان ففتحها وغزا جرجان وكان حليما وقورا مشهورا بالكرم والبر مات بقصره بالعقيق سنة ثلاث وخمسين .

(٢) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشى المخزومى ، قال ابن حبان ولد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يسمع منه ، ثم ذكره فى ثقات التابعين وما قيل من أنه كان ابن عشر فى حياة النبى هو وهم ، مات أبوه =

قريش (١) فإنما نزل بلسانهم فقاموا بمهمتهم خير قيام وكتبوا المصاحف مرتبة السور على الوجه المعروف اليوم فلما انتهوا أرسل عثمان إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ليجتمع الناس فى القراءة عليه تلافيا لما حدث فى ذلك الوقت من الاختلاف والتنازع وأمر بما سواها من المصاحف أن يحرق أو يخرق وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى هذا العمل الجليل ، ثم رد الصحف إلى حفصة فبقيت عندها إلى أن توفيت ، فأرسل مروان ابن الحكم إلى أخيها عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها أن يرسل إليه هذه الصحف فأرسلها إليه فأمر بها مروان فشققت وفى رواية أنه أمر بها فغسلت ، وفى رواية أخرى أنه حرقها(٢) وقال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت أن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب ، وكانت وفاتها ـ رضى الله عنها ـ عام واحد وأربعين ، وقيل عاشت إلى سنة خمس وأربعين .

يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله تعالى عنه قال « إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان رضى الله عنه وكان يغازى أهل

= وهو يجاهد فى الشام فى طاعون عمواس ، فتزوج سيدنا عمر امه ، فنشأ فى حجره ، وتزوج بنت سيدنا عثمان ، وقد ذكره البغوى والطبرانى فى الصحابة ، وذكره البخارى وأبو حاتم فى التابعين وكان من أشراف قريش وابنه أبو بكر أحد الفقهاء السبعة مات سنة ثلاث وأربعين (الاصابة جـ ١ ص ٦٦)

(١) لا تنافى بين الروايات لجواز ان تكون غسلت أولا ثم شققت ثانيا ثم حرقت ثالثا .

(٢) يريد إذا اختلفتم فى رسم لفظ من ألفاظ القرآن فاكتبوه بالرسم الذى يوافق لغة قريش كما يدل على ذلك قصة اختلافهم فى كتابة لفظ « التابوت » .

الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان(١) مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال حذيفه لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب إختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف فننسخها ثم يردها اليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيدبن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيدبن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن أى فى كتابته ـ فاكتبوه بلسان قريش فأنما أنزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف بما نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أومصحف أن يحرق وكان ذلك فى أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين وهو الوقت الذى ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه . وقد روى أن زيد بن ثابت قال : فقدت آية من سورة الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » فالحقناها بسورتها فى المصحف ، كما روى أنهم اختلفوا فى كتابة التابوت فقال زيد بن ثابت : انما هو التابوه بالهاء وقال الرهط القرشيون إنما هو التابوت بالتاء فرجعوا إلى عثمان فقال : اكتبوه بلسان قريش فان القرآن نزل بلغتهم .

« كتابة المصاحف مكرمة لسيدنا عثمان »

---

(١) أرمينية بكسر الهمزة ـ وتفتح ـ وسكون الراء وكسر الميم . وأذربيجان بفتح الهمزة وسكون الذال وفتح الراء وكسرها وكسر الباء أو هما إقليمان .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التي كتبها ووجه بها الى الآفاق ذريعة للطعن فيه مع أنه لم يفعل ما فعل إلا بموافقة من الصحابة ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب « الرد » عن سويد بن غفلة قال سمعت على بن أبى طالب يقول : يا معشر الناس اتقوا الله وأياكم والغلو فى عثمان وقولكم حراق المصاحف ، ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وروى أيضا عن على أنه قال . لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان ، وأخرج ابن أبى داود بسند صحيح ما رواه سويد بن غفلة عن على وفى آخره قال أى عثمان : ما تقولون فقد بلغنى أن بعضهم يقول أن قراءتى خير من قراءتك وهــذا يكاد يكون كفراً قلنا فما ترى ؟ قال أرى أن أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا. فنعم ما رأيت .

هل يجوز حرق كتب العلم ونحوها :

وقد أخذ العلماء من أمر عثمان رضى الله عنه بتحريق الصحف والمصاحف الأخرى حين جمع القرآن فى المصاحف المعتمدة جواز تحريق المصاحف البالية والكتب التى يذكر فيها اسم الله تعالى وأن فى ذلك إكراما لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وكان طاووس يحرق الصحف إذا اجتمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة .

السبب الباعث على جمع عثمان :

وقد تبين مما ذكرنا أن السبب الباعث على جمع عثمان هو رفع الاختلاف والتنازع فى القرآن وقطع المراء فيه . وذلك بجمع الناس على القراءة بحرف واحد وهو لغة قريش ، وأما قبله فكانت الصحف مكتوبة بالأحرف السبعة

التى نزل بها القرآن وما تحتمله من قراءات وقد وفق الله عثمان لهذا العمل الجليل الذى رفع الاختلاف وجمع الكلمة وأراح الأمة فرضى الله عنه وأرضاه

ويعجبنى فى هذا ما قاله الحارث المحاسبى : المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه ، وبين من شهدوا من المهاجرين والأنصار لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق ، والشام فى حروف القراءات ، فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراءات المطلقات ، على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن ، فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصديق ، وقد قال على : لو وليت لعملت بالمصاحف التى عمل بها عثمان[1]

ما امتاز به الجمع فى عهد عثمان :

وقد امتاز الجمع فى عهد عثمان بما يأتى :

(١) الاقتصار فيه على حرف واحد وهو حرف قريش .

(٢) الاقتصار فيه على ما ثبت بالتواتر وما استقر عليه الأمر فى العرضة الأخيرة ولم يكتبوا ما ثبت بطريق الآحاد ولا منسوخ التلاوة .

(٣) ترتيب آياته وسوره على الوجه المعروف اليوم .

(٤) تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس بقرآن بخلاف ما كان مكتوبا عند بعض الصحابة فقد كان فيه بعض تأويلات وتفسيرات لبعض ألفاظه .

المصاحف التى وجه بها عثمان إلى الأمصار

المصاحف جمع مصحف بزنة اسم المفعول من أصحفه أى جمع فيه الصحف ، والصحف جمع صحيفة وهى القطعة من الجلد أو الورق يكتب

(١) الاتقان جـ ١ ص ٦٠

فيها هذا في اللغة ، وأما في الاصطلاح فقد صار علما على ماجمع فيه القرآن الكريم ؛ والظاهر أن التسمية بالمصحف معروفة من زمن الصديق فقد روى أن أبا بكر استشار الناس بعد جمع القرآن فقال بعضهم نسميه سفراً كما يسمى اليهود فكرهوه ، وقال بعضهم نسميه إنجيلا فكرهوه ، فقال بعضهم أن في الحبشة مثله يسمى مصحفاً فارتضى أبو بكر ذلك وسماه مصحفا (١) ومقتضى هذه الرواية أن لفظ المصحف كان معروفا في زمن أبي بكر رضي الله عنه إلا أن ما كتب في عهده اشتهر في الروايات وألسنة العلماء باسم الصحف وما كتب في عهد عثمان رضي الله عنه اشتهر باسم المصحف ، ولعل اشتهار التعبير عن المكتوب في عهد أبي بكر بالصحف — لأن ما كتب فيها كان مرتب الآيات دون السور ، أو لعل اشتهار تسمية المكتوب بالمصحف لم تكن إلا بعد زمن الصديق في عهد عثمان وإن كانت التسمية به معروفة من قبل.

عدد المصاحف العثمانية :

وقد اختلف في عدد المصاحف التي كتبت في عهد عثمان ووجه بها إلى الأمصار فقيل ستة ، وقيل أكثر من ذلك وقال القرطبي في تفسيره (٢) : «قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر ووجه بها إلى الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم في مصحفه على النحو الذي بلغه وماوجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف في حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على مابلغه في مصحفه ورواه إذ كان عثمان كتب هذه المواضع في بعض النسخ ولم يكتبها في بعض أشعاراً بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة » : والذي ذكره الشاطبي أنها ثمانية خمسة متفق عليها وثلاثة مختلف فيها ومراده بالخمسة الكوفي والبصري . والشامي ، والمدني

---

(١) الاتقان ج ١ ص ٥١ (٢) ج ١ ص ٥٤

العام والمدنى الخاص الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام ، وبالثلاثه المكى ومصحف البحرين واليمن ، وقيل إن مصر سير إليها بمصحف أيضاً والذى تميل إليه النفس أن يكون عثمان أرسل بمصحف إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية المشهورة لتكون مرجعاً يرجع إليه عند الاختلاف

« الاعتماد فى القرآن على التلقى الشفاهى لا على المكتوب »

ولما كان المعول عليه فى تلقى القرآن هو الأخذ بالرواية والمشافهة لا على المكتوب فى المصاحف ، فقد أمر أو أرسل سيدنا عثمان مع هذه المصاحف من يقرىء المسلمين بما فيها ، فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدنى ، وبعث عبد الله بن السائب مع المكى ، والمغيرة بن شهاب المخزومى مع الشامى ، وأبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، وعامر بن عبد القيس مع البصرى وهكذا : وقد أجمع أهل كل مصر على ما فى مصحفهم ، وترك ما عـــداه ، وبذلك زال الخلاف بين القراء ، وتوحدت كلمة الأمة

السبب فى تعدد المصاحف :

والسبب فى تعدد المصاحف أن عثمان والصحابة قصدوا كتابة المصاحف على ماوقع عليه الاجماع ونقل متواترا عن النبى ﷺ من القراءات فعددوا المصاحف لتكون مشتملة على جميـــع القراءات المتواترة ؛ واختلاف المصاحف له حالتان .

١ — أن تحتمل صورة اللفظ خطا للقراءتين المختلفتين أو القراءات وفى هذه الحالة يكتب اللفظ فى جميع المصاحف بصورة واحدة تحتملها ذلك مثل «ننشزها» بالزاى «وننشرها» بالراء ومثل « فتثبتوا » بالثاء والباء» «فتبينوا» بالتاء والباء و «هيت لك» فأنها كانت تكتب بصورة واحدة تحتمل القراءات ومن المعروف أن المصاحف كانت مجردة من الشكل والنقط .

٢ — أن لا تكون صورة اللفظ خطا محتملة للقراءات المختلفة وحينئذ تكتب فى بعض المصاحف بصورة وفى بعضها بصورة أخرى وذلك مثل «ووصى» «وأوصى» من قوله تعالى «ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب» (١) فانها فى مصحف أهل المدينة «وأوصى» وفى مصحف أهل العراق «ووصى» ومثل «تجرى تحتها الأنهار» و «تجرى من تحتها الأنهار» فى سورة التوبة(٢) ومثل «وماعملته أيديهم» (٣) «وماعملت أيديهم» إلى غير ذلك فانها كتبت فى بعض المصاحف بلفظ وفى بعضها بلفظ آخر .

وإنما لم تكتب مكررة فى مصحف واحد لئلا يتوهم أنها نزلت هكذا مكررة ولم تكتب أحداهما فى الأصل والأخرى فى الحاشية لئلا يتوهم أنها تصحيح لها .

وإنما جردت المصاحف من النقط والشكل :

(١) لما روى عن ابن مسعود «جردوا مصاحفكم».

(٢) لتحتمل الكلمة التى تكتب بصورة واحدة أكثر من وجه مما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه القراءات كما بينا آنفا .

(أين المصاحف العثمانية الآن ؟)

قال صاحب مناهل العرفان (٤) - رحمه الله - « ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلا عن تعيين أمكنتها قصارى ماعلمناه عنها أخــيراً أن ابن الجزرى رأى فى زمانه مصحف أهل الشام ورأى فى مصر مصحفا أيضا.

أما المصاحف الأثرية التى تحتويها خزائن الكتب والآثار فى مصر ويقال عنها أنها مصاحف عثمانية فإنا نشك كثيرا فى صحة هـذه النسبة إلى عثمان

---

(١) البقرة ١٣٢ (٢) التوبة ١٠٠ (٣) يس ٣٥ (٤) جـ ١ ص ٣٦١

رضى الله عنه لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور ولبيان أعشار القرآن ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل أيضاً كما علمت .

نعم أن المصحف المحفوظ فى خزانة الآثار بالمسجد الحسينى والمنسوب إلى عثمان رضى الله عنه مكتوب بالخط الكوفى القديم مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً ، ورسمه يوافق رسم المصحف المدنى أو الشامى حيث رسم فيه كلمة « من يرتدد » من سورة المائدة بدالين اثنين مع فك الادغام وهى فيهما بهذا الرسم ، فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها ، وكذلك المصحف المحفوظ بتلك الخزانة ويقال أن على بن أبى طالب رضى الله عنه كتبه بخطه ، يلاحظ فيه أنه مكتوب بذلك الخط الكوفى القديم بيد أنه اصغر حجما وخطه أقل تجويفا من سابقه ورسمه يوافق غير المدنى والشامى من المصاحف العثمانية حيث رسمت فيه الكلمة السابقة «من يرتد» بدال واحدة مع الادغام وهى فى غيرهما كذلك فمن الجائز أن يكون كاتبه علياً ، أو يكون قد أمر بكتابته فى الكوفة (١)

ثم أن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئا مادام المعول عليه هو النقل والتلقى ثقة عن ثقة ، وأما ماعن إمام الى النبى ﷺ ،وذلك متواتر مستفيض على أكمل وجه فى القرآن الآن » .

وقال ابن كثير فى الفضائل(٢) «وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها

---

(١) وكذلك يقال . إن بخزانة كتب مسجد الإمام على بالنجف بالعراق مصحفا منسوبا إلى سيدنا على ، وكان بودى وأنا معار بجامعة بغداد أن أطلع عليه ، وذهبت إلى النجف ولكن لم أتمكن من ذلك ، وقد أخبرنى القيم على المخلفات القيمة أنه مكتوب فى أوله «مصحف على بن أبو طالب» والصحيح أبى، ولعل فى هذا الخطأ النحوى مايشكك فى صحة النسبة

(٢) فضائل القرآن ص ٢٣ وابن كثير توفى عام ٧٧٤ هـ .

اليوم الذى فى الشام بجامع دمشق عند الركن شرق المقصورة والمعمورة بذكر الله ، وقد كان قديما بمدينة طبرية ثم نقل منها إلى دمشق فى حدود ثمانى عشرة وخمسمائة وقد رأيته كتاباً عزيزاً جليلا عظيما ضخما بخط حسن مبين قوى بحبر محكم فى رق أظنه من جلود الأبل والله أعلم » .

وذكر السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - فى تعليقاته على كتاب فضائل القرآن(١) : أن صحف الأخبار العامة نقلت أن أحد المصاحف الأئمة العثمانية وهو الذى كان محفوظا عند قياصرة الروسية وهبه خلفهم الشيوعين لأمير بخارى بعد أن أخذوا صورة منه بالآلة الشمسية «الفوتوغرافية» ويقال أن الأصل فقد ولم يصل إلى الأمير .

الشبه التى اوردت على جمع القران

لا ينفك أعداء الإسلام عن تلمس المطاعن فى القران الكريم لأنهم يعلمون أنه أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، فالتشكيك فيه إضعاف للدين وصرف للمسلمين عن الطريق الذى لا عوج فيه ولا أمت .

ومعظم هذه المطاعن مبنية على روايات واهية ومختلقة اشتملت عليها بعض الكتب الاسلامية ، وعلى شبه أوردها بعض الكاتبين فى علوم القران وفى أصول الفقه : وأجابوا عنها ، ولم يدر بخلدهم أنها ذريعة للطعن فى القران الكريم .

وبعضها مبنى على روايات صحيحة ولكن لها محامل صحيحة ، ومخارج مقبولة .

---

(١) ص ١٩ .

ولكن أعداء الإسلام تعاموا عنها ، وصرفوها إلى المحامل التى ترضى أحقادهم وتشفى نفوسهم المريضة.

وقد تلقف هذه الشبه ، وتلك الروايات ، ولا سيما الواهية الباطلة منها المستشرقون والمبشرون فأضافوا اليها ما شاءت لهم نفوسهم الحاقدة على الاسلام والمسلمين أن يضيعوه مما هو من بنات الخيال والأوهام ؛ ومن صنع الأحقاد فزعموا أنه قد ضاع من القران بعضه ، ونسى بعضه، بل عنون « نولدكه » المستشرق الألمانى فى كتابه « تاريخ القران » فصلا بعنوان « الوحى الذى أنزل على محمد ولم يحفظ فى القران » .

وذكر كاتب مادة « قران » فى دائرة المعارف الإسلامية « أنه لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن ضاعت .

وفى دائرة المعارف البريطانية فى مادة « قران » يذكر الكاتب المادة ان القران غير كامل الأجزاء » والذى سهل لهم هذا التجنى بعض علمائنا ـ غفر الله لهم — بما ذكروه فى كتبهم بحسن نية ، وأوردوه فى رواياتهم مع إمكان تأويلها تأويلا .

قريبا صحيحا ، ولكن المستشرقين يأخذون الضعيف ، ويتركون القوى ، وينقلون المشكوك فيه ، ويسكتون عن الصحيح الصريح لأنها الخطة التى تلائم أغراضهم ، وتتفق ومراميهم

وها هى الشبه التى أوردت قديما وحديثا والرد عليها بما يقنع العقل ويطمئن فأقول وبالله التوفيق !

الشبهة الأولى : ـ قالوا كيف يكون جمع القران عن إجماع من الصحابة مع ان عبد الله بن مسعود وهو ذو السابقة فى الاسلام فذكره ان يتولى زيد جمع المصحف .

وقال : يا معشر المسلمين كيف أعزل عن جمع المصحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وأنه لفى صلب رجل كافر وقال أيضاً : أعزل عن المصاحف وقد أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد ابن ثابت ذو ذؤابتين يلعب مع الصبيان .

والجواب : أن قول بن مسعود هذا لا يدل على عدم جواز جمع القران فى المصحف ولا على أنه كان مخالفاً فى الجمع وكل ما يدل عليه أنه يرى أنه أحق من زيد بجمع القران لسوابقه فى الاسلام ، على أنه قال هذا فى وقت غضبه فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت وقد ندم على ما قال واستحيا منه فقد روى أبو وائل هذه القصة ثم قال عقبها .

أن عبد الله استحيا بما قال فقال : ما أنا بخيرهم ثم نزل عن المنبر(١) ولم يكن اختيار أبى بكر وعثمان لزيد ألا لما له من المزايا التى تؤهله لهذه المهمة الجليلة وقد أفصح عن هذه المزايا الصديق بقوله : أنك رجل ، شاب ، عاقل ، ولا نتهمك كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وصفه بأربع صفات لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل وهى الشباب المقتضى للقوة والصبر والجلد ، والعقل وهو جماع الفضائل ، والأمانة وعدم التهمة وهى الصفة التى لابد منها لمن يقوم بهذا العمل ، وكتابة الوحى ، وبها يتم التوثق والاطمئنان ومع ذلك فقد ضم عثمان إليه ثلاثة من أوثق الصحابة وأعلمهم(٢) وهذه الخصائص لا تقتضى أفضليته على عبد الله بن مسعود ولا على أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وأنما تقتضى أهليته لما عهد إليه به (٣) .

---

(١) مقدمتان فى علوم القران ص ٩٥

(٢) قد علمت مما علقناه أن اثنين منهم وهما عبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص متفق على صحبتهما ، وأن ثالثهما وهو عبد الله بن الحارث مختلف فيه، وأدنى أمره أنه من كبار التابعين

(٣) وأيضا فقد كان مما أهله لكتابه القرآن فى الصحف ، ثم فى المصاحف أنه كان شهد العرضه الأخيره التى عرضها النبى ﷺ على جبريل

الشبهه الثانية : قالوا : كيف يكون القران كله متواتراً مع أن زيد بن ثابت قال فى أثناء ذكره لحديث الجمع فى عهد أبى بكر «فقمت فتتبعت القران أجمعه من الرقاع والأكتاف حتى وجدت اخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره » وقال فى أثناء ذكره لحديث الجمع فى عهد عثمان « ففقدت اية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين ، فهاتان الروايتان تدلان على أنه اعتمد فى جمع القران على بعض الروايات الآحادية وهو يخالف ماهو مقرر عندكم من أن القرآن - فى جملته وتفصيله ثابت بالتواتر المفيد للقطع .

والجواب : أن هذا الذى نقل لا ينافى تواتر القرآن فقد ذكرنا لك فيما سبق أن الأعتماد فى جمع القرآن كان على الحفظ والكتابة وكان غرضهم من ذلك زيادة التوثق والاطمئنان وأن ما كتبوه إنما هو من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ فقول زيد : لم أجدهما أى لم أجدهما مكتوبتين وهذا لا ينافى أنهما كانا محفوظتين عند جمع يثبت بهم التواتر أنما هو فى الحفظ لا فى الكتابة يدل على ذلك قول زيد فى الرواية الثانية : ففقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرأ بها ، فهو إذاً كان حافظا لها ومتيقنا لقرآنيتها ، ولكن كان يبحث عن أصلها المكتوب .

فإن قيل أن اتجه هذا الجواب . واستقام فى الرواية الأولى فكيف يتجه فى الرواية الثانية ، فقد كانت آية الأحزاب مكتوبة فى الصحف التى كتبت فى عهد الصديق ؟ قلت : لعلها انمحت وتطاير مداها فلم يبق ما يدل عليها أو لعل الأرضة أكلت موضعها من الصحيفة فاضطر أن يبحث عن أصلها المكتوب فوجده مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ، على أن المعول عليه فى القرآن التواتر الحفظى لا الكتابى :

الشبهة الثالثة : قالوا : إن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه بدليل ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ، وفى رواية كان

يحك المعوذتين من مصحفه ويقول : إنما أمر النبى ﷺ أن يتعوذ بهما ويقول أنهما ليستا من كتاب الله .

والجواب : أن هذه الروايات غير صحيحة وأغلب الظن أنها مدسوسة على ابن مسعود وإليك ما قاله الأئمة فيها قال الإمام النووى فى شرح المهذب : « أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن وأن من جحد منها شيئا كفر وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح » . وقال ابن حزم فى كتاب « القدح المعلى » تتميم المجلى : « هذا كذب على ابن مسعود وموضوع وإنما صح عنه قراءة عاصم عن زر عنه وفيها المعوذتان والفاتحة » وقال القاضى أبو بكر : « لم يصح عنه أنها ليست من القرآن ولا حفظ عنه » إنما حكها وأسقطها من مصحفه إنكارا لكتابتها ، لا جحداً لكونهما قرانا لأنه كانت السنة عنده ، أن لا يكتب فى المصحف إلا ما أمر النبى ﷺ فيه ولم يجده كتب ذلك ولا أمر به » .

وذهب الحافظ ابن حجر إلى صحة ما روى عن ابن مسعود وقال : « قول من قال أنه كذب عليه مردود والطعن فى الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل بل الروايات صحيحة والتأويل محتمل وقد أوله القاضى وغيره على إنكار الكتابة كما سبق » . وعلى فرض صحة الرواية يجاب بما يأتى : »

١ — عدم كتابتهما أو حكهما لا يستلزم أنكار كونهما من القران لجواز أنه كان لا يكتبهما اعتمادا على حفظ الناس لهما لا أنكار لقرآنيتهما فالفاتحة يقرؤها كل مسلم فى الصلاة ، المعوذتان يعوذ بهما المسلمون أولادهم ، وأهليهم ويحمل قوله : « كتاب الله » على المصحف قال ابن قتيبة فى مشكل القران « وأما إسقاط الفاتحة من مصحفه فليس لظنه أنها ليست من القران معاذ الله ولكنه ذهب إلى أن القران إنما كتب وجمع بين اللوحين

مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ومعنى ذلك أنه يرى أن الشك والنسيان والزيادة والنقصان مأمونة فى سورة الحمد لقصرها ووجوب تعلمها على كل أحد لأجل الصلاة .

٢ — أنها رواية آحادية فهى لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، والعبرة فى التواتر أن يروى عن جمع يحيل العقل تواطأهم على الكذب لا أن لا يخالف فيه مخالف ، فظن ابن مسعود أنهما ليستا من القران لا يطعن فى قرانيتهما قال ابن قتيبة فى مشكل القران « ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القران لأنه رأى النبى يعوذ بهما الحسن والحسين فأقام على ظنه ولا نقول أنه أصاب فى ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار »

٣ — على فرض صحة الرواية فيحمل ذلك على انه كان قبل أن يستيقن ذلك فلما علم ذلك وتيقنه رجع إلى رأى الجماعة وليس أدل على ذلك من أن الذين تعزى قراءاتهم إلى ابن مسعود متفقين على أن هذه السور الثلاث من القرآن . قال ابن الصباغ « أنه لم يستقر عنده القطع بذلك ثم حصل الاتفاق بعد ذلك »[1] . وهذا الجواب هو الذى تستريح إليه النفس .

الشبهة الرابعة : قالوا أن القرآن نقص منه ما كان بعض الصحابة يكتبه فى مصحفه يدل على ذلك ماروى عن أبى بن كعب أنه كان يكتب فى مصحفه سورتى[2] الخلع والحفد ، وهو دعاء القنوت : « اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك . . . ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك نسعى ونحفد . . . »

والجواب على ذلك : لا نسلم أنهما من القرآن وكتابة أبى بن كعب

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ٨٠

(٢) بجعل نهاية الأولى لفظ يفجرك، وجعل بدء الثانية اللهم إياك نعبد وليس أدل على تهافت الرواية من هذا الخلط بجعل الشيء الواحد شيئين .

لهذا الدعاء فى مصحفه لا يدل على القرآنية ونحن نعلم أن مصاحف الصحابة لم تكن قاصرة على المتواتر بل كان بعضها مشتملا على الآحادى؛ والمنسوخ تلاوة، وعلى بعض تفسيرات، وتأويلات، وأدعية، ومأثورات، ومن ذلك هذا الدعاء الذى يقنت به بعض الأئمة فى الوتر ووجوده فى مصحف لا يدل على أنه قرآن كما أن القنوت به فى الصلاه لا يدل على القرآنية، ولا يشك ذو نظر فاحص وذوق أدبى أن هذا الدعاء عليه مسحة من سحر القران وبلاغته وإعجازه وإشراقه مما يلقى بهذه الشبهة فى غيابة الإهمال.

(٢) على فرض أن أبيا أثبتها فى المصحف على أنها قرآن فهى رواية احاديه ظنية لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر كما أنها لا تكفى فى اثبات كونها من القران لأن المعول عليه فى ثبوت القران التواتر.

وهنا قاعدتان ينبغى التنبه اليهما فى رد كل رواية تفيد زيادة شىء فى القران أو نقص شىء منه وهما:

١ — كل رواية احادية لا تقبل فى إثبات شىء من القران.

٢ — كل رواية احادية تخالف المتواتر من القران لا تقبل، ويضرب بها عرض الحائط.

الشبهة الخامسة: ما نقله العلامة الألوسى عن بعض الشيعة والملاحدة وخلاصته أن عثمان بل وأبا بكر حرفا القرآن وأسقطا كثيراً من آياته وسوره وقالوا: أن القران الذى نزل به جبريل كان سبع عشرة ألف اية وأن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الأنعام أسقطوا منها فضائل أهل البيت وأن سورة الولاية أسقطت بتمامها إلى غير ذلك من الأباطيل والخرافات.

والجواب: أن هذه دعاوى لم يقم عليها شبه دليل ولو أن كل دعوى تقبل من غير استدلال لما ثبتت حقيقة ولما توصل الناس إلى علم ومعرفة

وهذا الكلام من غلو الشيعة فى آرائهم الجائرة ولهذا نجد العقلاء منهم يتبرأون من مثل هذه الخرافات ، قال الطبرسى فى « مجمع البيان » وهو من علمائهم « أما الزيادة فى القرآن فجمع على بطلانها وأما النقصان فيه فروى عن قوم من أصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه » ثم ماذا تقولون أيها المتشيعون ، لقد صار الأمر إلى على كرم الله وجهه ودانت له الأقطار كلها ماعدا مصر والشام . والمصاحف التى كتبها عثمان تتلى وقد ظلت دولة أهل البيت ما يقرب من خمس سنين فكيف يسكتون على ذلك وهو منكر شنيع يجب على الإمام أن يسارع إلى إزالته ، ولو أن شيئاً من ذلك وقع لنقله المؤرخون الأثبات ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن .

الشبهة السادسة : ما زعمه صاحب ذيل مقالة فى الإسلام من أن القرآن قد أسقط منه ما هو منه وزيد فيه ما ليس منه وأيد زعمه بما يأتى :

١ ـــ ما ورد فى الحديث أن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : رحم الله فلانا لقد أذكرنى كذا وكذا آية أسقطتها من سورة كذا وكذا ، وفى رواية « أنسيتها » فهذا فيه اعتراف من النبى بأن أسقط بعض الآيات أو أنسيها .

٢ ـــ ما جاء فى سورة الأعلى « سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله » وزعم هذا المفترى أن النبى صلى الله عليه وسلم أنسى آيات لم يتفق له من يذكره إياه .

٣ ـــ قال : أن الصحابة قد حذفوا من القرآن ما رأوا المصلحة فى حذفه فمن ذلك آية المتعة أسقطها على بتة وكان يضرب من يقرؤها ، وهذا مما شنعت عائشة به عليه فقالت : أنه يجلد على القرآن وينهى عنه وقد حرفه وبدله ، وما روى أن أبيا كان يكتب فى مصحفه « اللهم إنا نستعينك الخ » الدعاء ولا يوجد اليوم فى المصحف .

٤ ــ قال : أن كثيراً من آياته لم يكن لها من قيد سوى تحفظ الصحابة وكان بعضهم قد قتلوا فى الغزوات وحروب خلفائه الأولين وذهب معهم ما كان يتحفظونه من قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه فلذلك لم يستطع زيد أن يجمع سوى ما كان يتفحظه الأحياء ، أما ما كان مكتوبا على العظام وغير فإنه كان مكتوبا عليها بلا نظام ولا ضبط وقد ضاع بعضها ،وهذا ما حدا العلماء إلى الزعم أن فيه آيات نسخت لفظا لا حكما وهو من غريب المزاعم وحقيقة الأمر أنها قد سقطت بضياع العظم ولم يبق منه سوى المعنى محفوظا فى صدورهم .

٥ ــ زعم أن الحجاج لما قام بنصرة بنى أمية لم يبق مصحفاً إلا جمعه وأسقط منه أشياء كثيرة قد نزلت فيهم وزاد فيه أشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف وجه بها إلى الأمصار وهى القرآن المتداول اليوم وأعدم المصاحف المتقدمة التى كتبها عثمان ، وإنما رام بفعله التزلف إلى بنى أمية.

٦ ــ زعم أنه آية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية » من كلام أبى بكر قالها يوم السقيفة . وكذا آية « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » من كلام عمر ثم لما جمع القرآن ضم إليه هذا الكلام .

وبالنظر فى هذه الدعاوى نجد أنها عارية عن الدليل وأنها أما ادعاءات وافتراءات أو تحريفات وتأويلات لبعض الآيات والأحاديث بغير حجة، وسنناقشه فيما قال كى يتبين للمنصفين أنه لا يعدو أن يكون هراء من القول وإليك تفنيد هذه المزاعم .

١ ــ أما ما ذكره من الحديث فهو ثابت[1] ولكن حمله ما لا يتحمل وفهمه على غير وجهه ، فالرواية الثانية تفسر الأولى وتدل على أن الإسقاط

---

(١) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن ـ باب نسيان القرآن ـ أنظر فتح البارى ج ٩ ص ٥٥

عن طريق النسيان لا العمد، ولا يضر نسيان النبي صلى الله عليه وسلم مادام يحصل له التذكر أما من نفسه أو من مذكر كما فى هذا الحديث، وزيادة فى التوضيح نقول النسيان من النبي لشىء من القرآن على قسمين.

أحدهما: نسيان الشىء الذى يتذكره عن قرب وذلك قائم بالطباع البشرية وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون».

والثانى: أن يرفعه عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته وهو المشار إليه بقوله تعالى: «سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله».

أما الأول: فعارض سريع الزوال يدل عليه قوله تعالى: «أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون».

وأما الثانى: فداخل فى قوله تعالى. «ما ننسخ من آية أو ننسها» بضم النون وبغير همز، فالنسيان عارض بشرى يجوز على الأنبياء فيما ليس طريقه البلاغ من أمور الدين والشريعة، أما ما كان من الدين والشريعة مما هو واجب البلاغ فيجوز لكن بشرطين.

(١) أن يكون بعد تبليغه كما هنا.

(٢) أن لا يستمر على نسيانه بل يحصل له تذكره أما بنفسه وأما بغيره وأما قبل التبليغ فلا يجوز أصلا وهذا ما قام عليه الدليل العقلى إذ لو جاز النسيان قبل التبليغ أو بعده بدون أن يتذكر أو يذكره الغير لأدى إلى الطعن فى عصمة الأنبياء ولجاز ضياع بعض الشرائع والأديان.

٣ — أن ما استدل به من قوله. «سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله» فهو تحريف للكلم عن مواضعه، وزعم من لم يعرف سبب نزول الآية، ولا المراد من الاستثناء، ولا الغرض الذى سيقت له الآية أما سببها فهو

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتذكر القرآن فى نفسه مخافة أن ينسى ، فأزال الله خوفه بهذه الآية وأما الاستثناء فالمحققون من العلماء على أنه ليس بحقيق وإنما هو صورى يراد منه تأكيد عدم النسيان بتعليق الشيء على ما هو مستحيل وقوعه وليدل على استحالته بالبرهان ، وقد ضمن الله لنبيه تحقيقه له فكيف يشاء إنساءه له ؟ قال تعالى : « لا تحرك به لسانك » الآيات[١] ومثل هذا الاستثناء قوله تعالى : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا »[٢] . ونحن نقطع أنه سبحانه ما شاء ذلك والغرض من هذا الاستثناء على هذا :

(١) تعريفه صلى الله عليه وسلم أن عدم النسيان من فضل الله تعالى عليه فيديم له الشكر والعبادة والذكر فى كل وقت .

(٢) تعريف أمته ذلك حتى لا يخرجوه صلى الله عليه وسلم من مقام العبودية ويرفعوه إلى مقام الألوهية كما فعل اليهود والنصارى بأنبيائهم . .

وهناك رأى آخر فى الآية وهو ان المراد بما يشاء الله أن ينساه هو ما أراد الله نسخه فيذهب من قلبه وأياكان المراد فليس فى الآية ما يشهد لما زعمه هذا الطاعن .

٣ — ما زعمه من أن الصحابة أسقطوا ما رأوا المصلحة فى إسقاطه تجن على الصحابة وعلى الحق والواقع وإنما يزعم هذا من يجهل ما كانوا عليه من عنايتهم بالقرآن وامتزاجه بلحمهم ، ودمهم ، وحبهم له حبا يفوق الأهل والولد ، ومراقبتهم لمنزل القرآن حق المراقبة . وهل يعقل أن تتفق جماعة تعد بالألوف على باطل من غير أن يقوم بينهم من ينكر ذلك ويجهر به ؟ وبحسبك أن تقرأ ما كتبناه فى جمع القرآن لترى كيف أحاط الصحابة القرآن بسياج قوى من الحفظ والعناية فلم يزيدوا فيه حرفا أو ينقصوا منه حرفا

---

(١) القيامة ١٦ - ١٩ (٢) الإسراء ٨٦

أما ما يذكره عن على أنه أسقط آية المتعة الخ فكذب وافتراء عليه ولا أدرى ما يريد الطاعن بالمتعة فإن أراد نكاح المتعة فالاية التى يستدل بها بعض القائلين بإباحته موجودة فى سورة النساء لم تحذف وهى قوله تعالى « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن فريضة »(١) ونكاح المتعة احل للضرورة ثم حرم إلى يوم القيامة .

واما ما ذكره عن مصحف أبى فقد بينت انه دعاء وليس بقرآن قطعاً .

٤ — أما ما زعمه من أن القرآن لم يكن له من قيد سوى تحفظ الصحابة الخ فمردود بأن من بقى من حفاظ الصحابة كان أكثر ممن مات بدليل قول عمر رضى الله عنه للصديق « وإنى أخاف أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن وكذلك زعمه أن كتابته مفرقا فى العظام وغيرها كانت سبباً فى ضياع بعضه زعم باطل ، ولو أن الاعتماد فى حفظ القرآن على الأخذ من الصحف لجاز هذا الفرض . وليس الأمر كذلك فالمعول عليه فى القرآن هو التلقى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عمن سمع منه والحفظ فى الصدور ، وأما الكتابة فإنما كانت لتأكيد المحفوظ فى الصدور والوقوف على مرسوم الخط الذى هو توفيقى . ولا شك أن الشىء إذا توارد عليه الأمران الحفظ والكتابة يكون هذا أدعى إلى اليقين ، والوثوق به والاطمئنان إليه وما دام أن المعول عليه فى القرآن الحفظ . فاحتمال ضياع معظم المكتوب فيه لا يضيرنا فى شىء، وإن كان هذا الاحتمال بعيداً جداً إذ كانوا يحافظون على المكتوب غاية الحفظ

٥ — أما دعوى أن الحجاج زاد فى القرآن وأنقص منه فدعوى لا وجود لها إلا فى خيال قائلها إذ لم ينقل ذلك فى أى تاريخ من التواريخ

---

(١) النساء ٢٤

على كثرتها وذكرها ماصح وما لم يصح ، وكيف يفعل الحجاج أمراً إدّاً كهذا له خطره ، ويكثر المعارضون له ولا يرتفع صوت فى معارضته ؟ ومهما قيل فى قسوة الحجاج فقدكان هناك من السلف الصالح من لا يخافون فى الحق لومة لائم ويرون موتهم فى هذا السبيل استشهاداً، ولو فرضنا أن للحجاج قوة أسكتت المؤمنين المخلصين فى حياته أفلا يرجعون إلى كتابهم ويرجعونه إلى حالته الأولى بعد وفاته؟! ومثل هذا العمل من أوجب الواجبات وأعظم الفرائض على الأمة ؟!

٦ — ما زعم من أن آية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل الآية » من كلام أبى بكر أغراق فى الجهل وإسراف فى الوهم والآية قد نزلت بعد أحد وحفظها كثير من الصحابة أن ذلك المسلمين لما أصيبوا فى أحد وأشيع بأن الرسول قد قتل اختل نظام الجيش وفر الكثيرون ، وقال بعضهم ليت لنا رسولا إلى عبد الله ابن أبى فيأخذ لنا أمانا من أبى سفيان ، وبعضهم جلسوا وألقوا ما بأيديهم من السلاح ، وقال أناس من أهل النفاق إن كان محمد قتل فالحقوا بدينكم الأول فقال أنس بن النضير عم أنس بن مالك ياقوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا على ماقاتل عليه وموتوا على ما مات عليه ، ثم ألقى بنفسه فى القتال حتى لقى ربه شهيداً فأنزل الله هذه الآية ليبين لهم خطأهم فيما فعلوا وقالوا حينما علموا أن الرسول قد قتل، وأن النبوة لا تقتضى الخلود وأنه كغيره من الأنبياء يجوز عليه ماجاز عليهم ، وكأن هذا الحاقد الجاهل قد التبس عليه الأمر بما جرى بعد وفاة الرسول فقد أنكر عمر — فى سورة الغضب وغمرة الحزن — موت الرسول وتوعد من يقول ذلك وغفل عن هذه الآية ، وما إن جاء الصديق ودخل على رسول الله وقبله وقال : « طبت حيا وميتا » حتى قال على رسلك ياعمر ثم حمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات

ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا الآية « وما محمد الخ » قال عمر فو الله ما أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ماتحملنى قدماى ، إذ قد تحقق ما غاب عنه من أن موت الرسول حق لاشك فيه .

وأما آية « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » فليست من كلام عمر . وإنما المروى أن عمر قال : لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى بصيغة التمنى ، فنزلت الآية آمرة بالاتخاذ فأين أسلوب التمنى من الأمر ؟ وكون القرآن يوافق عمر فى أشياء كان له فيها رأى واجتهاد لا يدل على أنه من كلام عمر وليس بعد الحق إلا الضلال فأنى يؤفكون

الشبهة السابعة

روى مسلم[1] عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن » .

وروى بعضهم أنها كانت فى صحيفة وفى رواية فى جليد ، وأنهم اشتغلوا بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل الداجن[2] فأكلها . قالوا : والقرآن اليوم ليس فيه ما يدل على خمس رضعات فتكون الاية الدالة على هذا الحكم قد سقطت من القرآن .

والجواب :

إن هذه الرواية مهما صحت فهى آحادية لا يثبت بها قرآن لأن القرآن

---

(١) مسلم بشرح النووى ج١ ص ٢٩ — ٣٠

(٢) فى القاموس (ودجن بالمكان دجونا أقام والحمام والشاة و غيرهما ألفت البيوت وهى داجن)

لا يثبت إلا بالتواتر ثم هى أيضا لا تعارض القطعى الثابت بالتواتر وهو القرآن الذى بين أيدينا اليوم وغاية ماتدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح[١] فى معرض ذكر ما يقوى مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيرة « وأيضا فقول عائشة عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات ، فمات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهن مما يقرأ لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والراوى روى هذا على أنه قرآن لا خبر فلم يثبت كونه قرآنا ، ولا ذكر الراوى أنه خبر ليقبل قوله فيه والله أعلم ومما يدل على أنه ليس قرآنا ، وأنه كان تشريعاً ثابتا بالسنة ثم نسخ بالسنة اختلاف الرواية عنها فى القدر المحرم ففى رواية الموطأ عنها عشر رضعات وعنها أيضا سبع رضعات ، أخرجه ، ابن أبى خثيمة باسناد صحيح عنها ، وعبد الرازق أيضاً ، وجاء عنها أيضاً خمس رضعات ، وهى مايدل عليها رواية مسلم التى معنا فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ماظهر لها من السنة ولو كان قرآنا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف[٢]

وقال الإمام النووى فى شرحه على مسلم[٣] « واعترض أصحاب مالك على الشافعية — يعنى القائلين بأن لا حرمة إلا بالخمس — بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم ، وعند محققى الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذ لم يثبت بخبر الواحد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن خبر

---

(١) ج ٩ ص ١٢٠ . (٢) المرجع السابق

(٣) ج ١٠ ص ٣٠

الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به وهذا إذا لم يجىء إلا بآحاد مع أن العادة مجيئه متواترا توجب ريبة والله أعلم ، وهكذا يتبين لنا أن الأئمة على أنه ليس بقرآن قط وأقصى درجاته أن يكون خبرا صحيحاً ، وأما رواية أكل الداجن فهى مردودة ومتهافتة وليس أدل على هذا من أن القرآن كان محفوظاً فى الصدور فضياع صحيفة منه ـ فرضا ـ لا يؤثر فى ثبوت قرآنيته مادامت تحفظه الكثرة الكاثرة من المسلمين ثم أن القرآن كان مكتوبا فى العسب ، والرقاع ، والعظام ، وصحائف الحجارة ؛ ومثل هذه الأشياء مما لا يتيسر فى العادة الداجن أن تأكله ولا سيما والرواية لم تعين لنا نوع هذا الداجن أهو شاة أم حمام أم غيرهما .

فإن قال قائل فكيف يتفق ماذهب إليه من تأويل وما ثبت فى الرواية « كان فيما أنزل من القرآن » ؟

قلت : المراد كان فيما أنزل من شرح القرآن وبيانه ولا شك أن السنة شارحة للقرآن ومبينة له قال الله تعالى ، « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، وأيضا فأن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ويكون الأمر من نسخ السنة بالسنة ، ويكون قولها فى الحديث (فتوفى رسول الله وهن مما يقرأ من القرآن) أى من حكم القرآن على أنه سنة لاقرآن ولا شك أنهم كان يعنون بحفظ السنة أيضا أو يكون المراد وهن فيما يعلم من أحكام القرآن .

٢ — وللحديث تأويل آخر وهو أنه يحمل على أنه كان قرآنا ثم نسخ لفظه وبقى حكمه وبعد النسخ لم يعد يسمى قرآنا ولا له حكمه ، فإن قيل هذا تأويل مقبول لولا ما يعارض من قولها (فتوفى رسول الله وهن فيما يقرأ من القرآن) قلت أن غرضها الأخبار بأن هذا النسخ لم يقع إلا قبيل

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فعلم بالنسخ الكثيرون وتركوا القراءة به ولم يعلم البعض ، فبقى هذا البعض على القراءة حتى تيقنوا فيما بعد نسخه فتركوا القراءة به قال ؛ الإمام النووى فى شرح هذا الحديث (ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه صلى الله عليه وسلم توفى وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنا متلوا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يتلى)(١)

وهذا الجواب أنما يتم على مذهب من يرى أن من أقسام النسخ ما نسخت تلاوته وبقى حكمه ، وهذا النوع قد أنكره بعض العلماء قال الإمام السيوطى فى الاتقان (٢) « حكى القاضى أبو بكر فى الانتصار عن قوم أنكار هذا الضرب لأن الأخبار فيه أخبار آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها » .

هذا ولعل الوجه الأول فى الجواب أولى وأسلم .

الشبهة الثامنة :

مارواه البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » وفى رواية أخرى له أيضا نحو هذا وفى آخرها (قال ابن عباس فلا أدرى من القرآن هو أم لا ؟) قال : وسمعت ابن الزبير يقول ذلك على المنبر) وروى

---

(١) المرجع السابق (٢) ج٢ ص ٢٦ .

عن أنس عن أبى قال . (كنا نرى هذا من القران حتى نزلت الهاكم التكاثر(١) .

ورواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس وفى آخره (فلا أدرى أمن القرآن هو أم لا؟) وفى رواية أخرى له عن أنس مثله وفى آخره (فلا أدرى أشيء نزل أم شيء كان يقوله) وروى عن أبى موسى الأشعرى قصة وفيها (وأنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها فى الطول والشدة ببراءة فأنسيتها غير أنى حفظت منها «لو كان لابن آدم واديان لخ » (٢) كما روى فى غيرى الصحيحين فظاهر هذه الروايات أنها كانت قرآنا ، ولكن أنى هى فى المصاحف المقروءة اليوم ؟

والجواب :

١ — إن هذه الروايات كلها لا تدل على أن هذا قرآن ؛ إذ القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ؛ وغاية ماتدل عليه أنها من كلام النبى ﷺ ، وها أنت قد رأيت أن بعض الروايات قد جاءت مصرحة بأن ذلك من كلام النبى ﷺ فحسب ، وأما الروايات التى فيها إيهام أن ذلك قرآن فإنما جاءت على صيغة الشك كما سمعت ، وإذا كان الجزم فى هذا لا يثبت القرآنية فما بالك بالشك والتردد ؟ وليس من ريب فى أنه إذا تعارض اليقين والشك فالرجحان لليقين وعليه فتكون الروايات التى نسبت ذلك إلى النبى ﷺ على أنه من كلامه هى المعول عليها وهذا الذى ذهبنا إليه هو ماسبق إليه أئمة العلم.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣) تعليقا على قول أبى « كنا نرى(٤) هذا من القرآن حتى نزلت الهاكم التكاثر » ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ماتضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال والتقريع

---

(١) فتح البارى ج ١١ ص ٢١٢ ومسلم بشرح النووى ج٧ ص ١٣٩
(٢) الاتقان فى علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥
(٣) ج ١١ ص ٢١٥ (٤) نرى بضم النون بمعنى نظن .

بالموت الذى يقطع ذلك ولا بد لكل أحـــد منه فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبى ﷺ

٢ — إن هذا كان قرآنا ثم نسخت تلاوته لما أنزل الله « الهاكم » ثم بقى حكم ذلك مقرراً قال الحافظ ابن حجر « وقد شرحه بعضهم على أن ذلك كان قرآنا ونسخت تلاوته لما نزلت « الهاكم التكاثر » فاستمرت تلاوتها ، فكانت ناسخة لتلاوة ذاك ، فأما الحكم والمعنى فيه فلم ينسخ ؛ إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كنسخ الحكم والأول أولى وليس ذلك من النسخ فى شىء » ومراد الحافظ بالأول أى أنه من كلام النبوة لا قرآن ولعل مما يشهد لهذا التأويل الثانى ماورد فى حديث أبى موسى الأشعرى فى صحيح مسلم وهو ماذكرناه آنفا ، وهـذا الوجه لا يثبت إلا بتسليم كونه قرآنا فى أول الأمر ، ودون إثبات ذلك خرط القتاد إذ القرآن لا يثبت بالآحاد كما هو رأى المحققين .

٣ — إن هذا من قبيل الأحاديث القدسية التى هى من الله وقد ورد فى بعض الروايات التصريح بنسبته إلى الله بلفظ « أن الله يقول » ويشهد لذلك أن أسلوبه ومعناه شبيهان بأساليب ومعانى الأحاديث القدسية إذ هى كثيراً ماتدور حـول الزهـد والفضائل ، قال الحافظ ابن حجر فى الفتح فى أثنـاء شرحه لهذا الحديث « ومنه ما وقع عند أحمد وأبى عبيد فى فضائل القرآن من حديث أبى واقد الليثى قال : كنا نأتى النبى ﷺ إذا نزل عليه فيحـدثنا فقال لنا ذات يوم « أن الله قال أنى أنزلت المال لأقام الصلاة ، وأيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم الحديث » وهذا يحتمل أن يكون النبى ﷺ أخبر به عن الله تعالى على أنه من القرآن ويحتمل أن يكون من الأحاديث القدسية والله أعلم وعلى الأول فهو مما نسخت تلاوته جزماً وأن كان حكمه مستمراً » .

والذى يترجح عندى أن يكون هذا من الأحاديث النبوية أو القدسية اذ ليس فيه شىء من اعجاز القرآن وسحره وجلاله .

الشبهة التاسعة :

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابن عباس حديثا طويلا وفيه أن عمر قال على المنبر « أن الله بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها، ووعيناها ، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن طال بالناس زمان أن يقول قائل : والله مانجد الرجم فى كتاب الله، فضلوا بترك فريضة أنزلها الله والرجم فى كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أوكان الحبل أو الاعتراف »

وفى الموطأ عن سعيد بن المسيب لما صدر عمر من الحج وقدم المدينة خطب الناس فكان مما قال « أياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل لانجد حدين فى كتاب الله فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا والذى نفسى بيده لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها بيدى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » .

وروى أبو عبيدة وغيره عن زر بن حبيش قال قال لى أبى بن كعب كأين تعد سورة الأحزاب ؟ قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثاً وسبعين اية قال . أن كانت لتعدل سورة البقرة وإن كنا لنقرأ فيها اية الرجم قلت وما اية الرجم قال . إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم »(١) قالوا . فهذه الروايات تدل على أن القران سقطت منه هذه الآية .

وللجواب على ذلك نقول .

أن رواية أبى بن كعب التى هى أصرح الروايات فى القرانية غير صحيحه

---

(١) أنظر فتح البارى ج ١٢ ص ١١٩ ، ١٢٣ صحيح مسلم بشرح النووى ج ١١ ص ١٩١ ، الإتقان ج ٢ ص ٢٥

إذ فى سندها عاصم بن أبى النجود وهو مضعف فى الحديث وإن كان إماما فى القراءة(١) .

وأما الروايات عن عمر فهى صحيحة ولا شك ، وليس من الصواب ولا البحث العلمى الصحيح رد روايات صحيحة بمجرد الهوى ، ولكن الواجب أن نحملها على محاملها الصحيحة من غير تعسف ، ولا تكلف، وأحب أن أنبه إلى أن رواية الصحيحين ليس فيها التصريح بقوله الشيخ والشيخة الخ ، ولا أنها كانت قرانا ، قال الحافظ فى الفتح « وقد أخرجه الإسماعيلى من رواية جعفر الفريابى عن على بن عبد الله شيخ البخارى فيه فقال بعد قوله « أو الاعتراف » وقد قرأناها « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البته » فسقط من رواية البخارى من قوله « وقرأناها » إلى قوله « البته » ولعل البخارى هو الذى حذف ذلك عمداً فقد أخرجه النسائى عن محمد بن منصور عن سفيان كرواية جعفر ثم قال « لا أعلم أحداً ذكر فى هذا الحديث الشيخ والشيخة غير سفيان وينبغى أن يكون وهم فى ذلك » قلت » أى الحافظ ابن حجر - وقد اخرج الأئمة هذا الحديث من رواية مالك ويونس ومعمر وصالح بن كيسان وعقيل وغيرهم من الحفاظ عن الزهرى فلم يذكروها وقد وقعت هذه الزيادة فى هذا الحديث من رواية الموطأ عن يحى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب الخ ما قال » وهى الرواية التى اشرت إليها آنفاً .

ومهما يكن من شيء فقد وردت اثار كثيرة فى هـــذا المعنى واستشهد الأصوليون بآية « الشيخ والشيخة الخ » لما نسخ لفظه وبقى حكمه وقد روى حديثها البخارى ومسلم ومالك واحمد وابو داود والنسائى والترمذى ولئن كانت روايات الصحيحين خلت من ذكر الاية فقد جاءت فى رواية غيرهما وإذا كان الحال على ما سمعت فما هى المحامل الصحيحة لهذا الحديث ؟ .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٨٣ .

(١) إن هذه الروايات آحاديه فهى لا يثبت بها قرآن ولا تعارض القطعى الثابت بالتواتر وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله وسنة من سننه ، ولا ينافى هذا قول عمر رضى الله عنه « وكان فيما أنزل عليه » فان جبريل كما ذكرت ـ كان ينزل ببعض السنة كما ينزل بالقران ، وتسميتها اية بالمعنى اللغوى لا الاصطلاحى وكذلك قوله « فقرأناها ووعيناها » فالمراد به نرويها عن رسول الله فعبر عن الرواية بالقراءة ومنه يقال . فلان يقرأ الحديث والسنن على فلان ويكون قوله « والرجم فى كتاب الله حق ، أى فى شرع الله وحكمه وتقديره أو يكون المراد به الاشارة إلى قوله تعالى (أو يجعل الله لهن سبيلا) فقد بينت السنه أن المراد جلد البكر ، ورجم الثيب ، ويؤيد هذا التأويل قول الفاروق رضى الله عنه (لولا أن يقال زاد عمر فى كتاب الله لكتبتها فى المصحف إذ لا يقال زاد لما عرف أنه منه لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكماً لازماً حث على حفظها وقراءتها ودراستها حتى لا يغفل الناس عنها ، كما حث على حفظ آى القرآن والذى يؤكد هذا التأويل مارواه بن حمدويه بسنده عن الحسن أن عمر قال هممت أن أدعو بنفر من المهاجرين والأنصار معروفة أسماؤهم وأنسابهم ، واكتب شهادتهم فى ناحية المصحف أى حاشيته . هذا ما شهد عليه عمر بن الخطاب وفلان وفلان يشهدون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم فى الزنا وأنى خفت أن يجىء قوم من بعد يرون أن لا يجدونها فى كتاب الله فيكفرون بها) وعمر رضى الله عنه ما كان يخشى فى الحق لومة لائم فلو أنها كانت من القرآن لأثبتها ، ولما خاف مقالة الناس ، وكونه هم أن يكتبها فى الحاشية لافى الصلب دليل على أنها ليست قرآنا قال العلامة الألوسى عند تفسير قوله تعالى (الزانى والزانية فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)(إن الجلد نسخ فى حق المحصن قطعاً لأن الحكم فى حقه الرجم واختلف فى الناسخ هل هى السنة القطعية أو ما رواه عمر رضى الله عنه من الاية المنسوخة (الشيخ والشيخة) قال العلامة ابن الهمام . إن كون السنة القطعية أولى من

كون ما ذكر من الاية . لعدم القطع بثبوتها قرآنا ثم نسخ تلاوتها ، وإن ذكرها عمر وسكت الناس ، فإن كون الإجماع السكوتى حجة مختلف فيه وبتقدير حجيته لا نقطع بأن المجتهدين من الصحابة رضى الله عنهم كانوا اذ ذاك حضورا ثم لا شك فى أن الطريق فى ذلك إلى عمر ظنى ولهذا - والله أعلم - قال على كرم الله وجهه حين جلد شراحه ثم رجمها (جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ) .

ويؤيد هذا التأويل أيضا ما أخرجه النسائى أن مروان بن الحكم قال لزيد بن ثابت ; ألا تكتبها فى المصحف ؟ قال لا . ألا ترى بأن الشابين الثيبين يرجمان ولقد ذكرنا ذلك فقال عمر : أنا أكفيكم فقال يا رسول الله أكتبت آية الرجم ؟ قال «لا أستطيع» .

وأن نظرة فاحصة فى « الشيخ والشيخة الخ » لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته ولا فيها حكمته وإعجازه ، وأن قول زيد رضى الله عنه « ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان » ما يشير إلى عدم بلوغها الغاية فى الدقة والأحكام كما هو الشأن فى القرآن ، وهذا يدل على فرق ما بين كلام الله وكلام الإنسان .

٢ - إن هذه الآية كانت قرآنا ثم نسخ لفظها وبقى حكمها ، قال الإمام النووى رحمه الله « أراد بآية الرجم « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » . وهذا مما نسخ لفظه ليس له حكم القرآن فى تحريمه على الجنب ونحو ذلك ، وفى ترك الصحابة كتابة هذه الآية دلالة ظاهرة على أن المنسوخ لا يكتب فى المصحف وبنحو ذلك قال ابن كثير فى تفسيره[1] والحافظ ابن حجر فى الفتح[2] ولعل السر فى نسخ لفظها عدم أحكام معناها ، وأن العمل

(١) ج ٦ ص ٥١ .

(٢) ج ١٢ ص ١٢٣ .

على غير الظاهر من عمومها فقد روى الحاكم عن عمر أنه قال : لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت اكتبها فكأنه كره ذلك . فقال عمر : ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم ، هذا إلى ما في ظاهرها من تجرئة الشباب على الوقوع في الزنا ؛ إذ الشأن في الكبير والكبيرة البعد عن مواطن الإثم والفجور فاتضحت حكمة الله تنزيه الأسماع عن سماعها ، وهذا الجواب الثاني إنما يتم بعد تسليم قرآنيتهما وقد خالف في هذا كثير من العلماء .

الشبهة العاشرة :

ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب قال : أن رسول الله ﷺ قال لي « أن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال فقرأ «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ، قال فقرأ فيها «ولو أن ابن آدم سأل وأديا من مال فأعطيه لسأل ثانيا ، ولو سأل ثانيا فأعطيه لسأل ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، وأن ذات الدين عند الله الحنيفية السمحة غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيرا فلن يكفره » ورواه الترمذي أيضا وكذلك روى هذا الأثر بزيادات أكثر من هذه(١).

وللجواب على ذلك نقول :

١ — إن هذا الحديث وأمثاله أحاديث لم تشتهر بين نقلة الحديث وإنما يرغب فيه من يكتبها طلباً للغريب ، وما كان كذلك فليس لأحد أن يعترض به على الكتاب الذى حفظ عن رسول الله بالتواتر ؛ إذ هو على تسليم صحته آحاد فلا يعارض القطعي الثابت بالتواتر ، ولا يثبت به أيضاً قرآن .

٢ — إن هذا الحديث طعن فيه بعض أهل العلم بأنه باطل ولعل مما يدل

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٩٠ .

على بطلانه أن سورة «لم يكن» بلفظها الذى ورد فى المصاحف ثبتت متواترة عن أبى بن كعب ، وقد قدمنا أن قوله « لو كان لابن آدم وادمن مال الخ» ليس بقرآن وإنما هو حديث نبوى أو قدسى وكذلك مازيد فى هذه السورة من ألفاظ هو بالبيان والتفسير أشبه منه بالقرآن إذ ليس عليه شىء من نور القرآن، ولا له أعجازه ، ولا ينبغى أن يغرب عن بالنا أن بعض الصحابة كان يقرأ بعض آيات القرآن على سبيل التفسير والبيان كما كان بعضهم - كأبى وابن مسعود - يكتب فى مصحفه بعض تفسيرات ، وتأويلات ، وأدعية، ومأثورات فيظن من يسمعها أو يقف عليها أنها من القرآن ، والحق خلاف ذلك قال أبو بكر الأنبارى بعد أن ذكر ماروى أن عكرمة قرأ على عاصم « لم يكن » ثلاثين آية هذا فيها قال : «هذا باطل عند أهل العلم لأن قراءة ابن كثير وأبى عمرو متصلتان بأبى بن كعب لا يقرأ فيها هذا المذكور فى « لم يكن » مما هو معروف فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه من كلام الرسول عليه السلام لا يحكيه عن رب العالمين فى القرآن وما رواه اثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة»(١).

وقال بعض العلماء «والذى يؤكد ما قلناه اتصال قراءة أبى جعفر بابن عباس وأبى هريرة وابن مسعود وغيرهم وهم قرأوا على أبى بن كعب؛ واتصال قراءة ابن كثير بمجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبى واتصال قراءة أبى عمرو بمجاهد وسعيد بن جبير وهما قرءا على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبى فهؤلاء الأئمة وأعلام الدين الذين رووا عنهم وحفظوا عليهم نبره ومده وتشديده ، فلو كان من قراءة أبى ذلك لقرأه عليهم ، ولرووا عنه ، وحفظوا عليه لطول تلك الألفاظ»(٢)

---

(١) تفسير القرطبى ج ٢٠ ص ١٣٩.

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٩٢

وأيضاً فقد اضطرب النقل فى هذا الأثر فمن قائل أنه آية من سورة لم يكن ومن قائل آية من سورة تشبه سورة براءة والباطل دائماً لجلج والحق دائم أبلج ، وقد وردت هذه القصة فى الصحيحين (١) بدون هذه الزيادات ولاشك أن روايات الصحيحين أوثق من غيرها وأولى بالقبول مما يؤيد ان هذا التخطيط المروى باطل .

٣ — أن ذلك كان قرآنا ثم نسخ ويكون من حمل ذلك عن أبى إنما هو قبل أن ينسخ ثم لما نسخ رجع أبى عنه ، وبقواهم على قراته لعدم علمهم بالنسخ أما جمهور المسلمين العارفين بأنه نسخ فلم يقرأوا به ولم ينقلوه .

الشبهة الحادية عشرة :

روايات (٢) يوهم ظاهرها سقوط شىء من القرآن .

(ا) ماروى أن أبيا كان يقرأ «إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية — ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام» الفتح الآية ٢٦

(ب) ماروى أن عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : ألم تجد فيما أنزل الله علينا أن «جاهدوا كما جاهدتم أول مرة» ؟ فإنا لا نجدها، قال أسقطت فيما أسقط من القرآن .

(ج) ما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى موسى الأشعرى قال : كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات مانسيناها ، غير انى حفظت منها : «ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون» فتكتب شهادة فى أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة»

---

(١) أنظر فتح البارى ج ٨ ص ٥٨٩ ومابعدها صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٠

(٢) الإتقان ج ٢ ص ٢٥ مقدمتان فى علوم القرآن ص ٩٩

(د) ما روى فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة الذين قتلوا غدرا ، قال أنس : ونزلت فيهم قرآن قرأناه حتى رفع « أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » .

(هـ) ما روى عن عمرو بن دينار قال سمعت ابن الزبير يقرأ « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم » ال عمران ١٠٤ .

(و) ما روى عن ابن عباس وأبى أنهما قرءا « أن الساعة اتية أكاد أخفيها من نفسى فكيف أطلعكم عليها » .

(ز) ماروى عن على أنه قرأ « والعصر ـ ونوائب الدهر ـ إن الإنسان لفى خسر » .

والجواب :

١ ـ أن هذه الروايات أغلبها باطلة لم يصح منها شىء وانما هى غرائب ومناكير رواها الذين اولعوا بهما ، وليس ادل على بطلانها من رواية « اكاد اخفيها من نفسى » وهل يعقل ان يخفى الله شيئا من نفسه ؟ ومن رواية « والعصر ونوائب الدهر » فقد تواتر عن على رضى الله عنه انه كان يقرا بقراءة الجماعة ، وهل يعقل ان يدع على شيئا يرى انه من القران ثم لا يثبته ولا سيما انه قد آلت إليه الخلافة ، وصار صاحب الكلمة النافذة بين المسلمين ! إن هذا إلا بهتان مبين .

٢ ـ إن هذه الروايات، على فرض صحتها تحمل على ان ذلك كان قرآنا ، ثم نسخ لفظه وبقى معناه كما تدل على ذلك رواية الصحيحين فى اصحاب بئر معونة .

٣ ـ ان بعض هذه الروايات محمول على التفسير والتوضيح ويكون الراوى سمع من يقرؤها مفسرا ومبينا لمعناها فظن أن الكل قرآن . ولعل

هذا يظهر فى وضوح فى الرواية المتعلقة بقوله تعالى. « ولتكن منكم أمة الآية والرواية المتعلقة بقوله تعالى «لم تقولون ما لا تفعلون » .

رد عام

وإليك ردا عاما يرد به على هذه الشبه وعلى غيرها مما اورد على جمع القرآن .

وهو ان المسلمين اجمعوا على أن هذا الذى كتب فى المصاحف وحفظه الألوف عن الألوف هو القرآن الذى انزله رب العالمين على نبيه محمد صلى الله علية وسلم لا زيادة فية ، ولا نقصان ، فمن ادعى زيادة علية ، اونقصانا فقد ابطل الاجماع وبهت جمهور الناس ، ورد ماقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغير معقول ان نبطل ما اجمع علية المسلمون بروايات جلها باطل موضوع . وما صح منها فله محامل صحيحة ، وليس نصا على مايزعم الزاعمون ، وان من يزعم ان القران نقص منه شيء أو زيد فية شيء كمن زعم أن الصلوات المفروضة كانت عشرا فأنقصها المسلمون إلى خمس او انها كانت ثلاثا فصيروها خمسا ـ سواء بسواء ـ فاذا صح فى العقول شيء من هذا صح ما تقولوه على القران

والله سبحانه ـ وقد وعد بحفظ كتابه ـ قد هيأ له من الأسباب الداعية إلى حفظه وصيانته من التحريف والتبديل ما لم يتهيأ لكتاب غيره فى الدنيا ، وعلى كثرة ماصوبه اعداء الاسلام إلى القرآن من سهام غير صائبة ، وتلفيقات مزورة فقد بقى القرآن كالطود الشامخ الذى لا تزحزحه عن مكانه الرياح ، والأعاصير ، مهما اشتدت وقد تكسرت على صخرته العاتية كل ماراشوا من سهام وبيتوا من كيد وسيبقى هكذا صلدا قوياً حتى يرث الله الأرض وما عليها وصدق الله حيث يقول إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون «وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

المبحث الثامن

ترتيب آيات القرآن وسوره

الآية لغة : وردت بمعنى العلامة ومنه قوله تعالى: « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم الآية» أى علامة ملكه ، وبمعنى الدليل. ومنه قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» أى دلائل قدرته ، وبمعنى العبرة ومنه قوله تعالى « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » أى عبرة لمن بعدهم ، وبمعنى المعجزة ومنه قوله تعالى «سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة » أى من معجزة واضحة إلى غير ذلك من المعانى .

وفى الاصلاح : جزء من السورة لها مبـــدأ ونهاية وآخرها يسمى فاصله(١) وقيل : طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وعما بعدها وهذا التعريف غير مانع لدخول السورة فيه إلا إذا راعينا فى التعريف اندراجها فى السورة والمناسبة بين المعنى اللغوى والاصطلاحى ظاهرة لأنها علامة على نفسها بانفصالها عما قبلها وما بعدها ، أو لأن فيها عبرا ودلائل لمن أراد أن يتذكر أو لإنها بانضمامها إلى غيرها تكون معجزة دالة على صدق الرسول .

---

(١) الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الآية وهى كقافية الشعر وقرينة السجع. وقال بعض القراء الفاصلة هى الكلمة التى تكون آخر الجملة فهى أعم من رؤس الآى فكل رأس آية فاصلة ولا عكس واستدل على ذلك بأن سيبويه ذكر فى التمثيل للفواصل «يوم يأت» «ما كنا نبغ» وليسا رأس آية بإجماع ، مع «إذا يسر» مع أنه رأس آية باتفاق . ورد قوله بأنه مخالف لاصطلاح القراء وما ذكره سيبويه مشى فيه على مصطلح النحويين لا القراء .

وآيات القرآن تختلف طولا وقصرا وأكثر الآيات الطوال فى السور الطوال وأكثر الآيات القصار فى السور القصار وأطول آية هى آية الدين[1]، وأقصر آية طه ويس عند من عدهما وقد تكون الآية مكونة من كلمة واحدة «مدهامتان»[2] وقد تكون مؤلفة من كلمتين مثل والضحى وقد تكون من أكثر من ذلك وهو غالب آيات القرآن وقال بعض العلماء : ليس فى القرآن كلمة واحدة آية إلا « مدهامتان » ومراده مما اتفق على كونه آية بخلاف ما سواها مما هو كلمة واحدة أو أقصر منها فى التلفظ. فإنه ليس بمتفق عليه مثل طه ويس ، والحاقة والقارعة[3] .

وقد يطلق اسم الآية ويراد بعضها مجازا وذلك مثل قول ابن عباس : أرجى آية فى القرآن « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » فإنه جزء آية باتفاق ووقع إطلاق اسم الآية على أكثر من آية وذلك مثل قول ابن مسعود : أحكم آية « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وهتان آيتان باتفاق ، ومثل ذلك يرد كثيرا فى كلام السلف والخلف ، وفى باب المجاز ما يصحح كل ذلك .

فوائد معرفة الآيات : ولمعرفة الآيات وعدها وفواصلها فوائد[4] منها:

١ — معرفة الوقف ، والوقف على روس الآى سنة كما يدل عليه بعض الأحاديث الواردة.

٢ — أنه يعين على صحة الصلاة فإن الإجماع انعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية وقال جمع من العلماء تجزى بآية وآخرون بثلاث آيات

---

(١) البقرة /٢٨٢ .

(٢) الرحمن الآية ٦٤ .

(٣) عد الآيات للكوفى .

(٤) الاتقان ج ١ ص ٦٩ .

وآخرون لا بد من سبع ، وكذلك اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب بدلها سبع آيات . عند من أوجبها ومنها اعتبارها فى الخطبة فإنه تجب فيها قراءة آية كاملة ، ولا يكفى شطرها إن لم تكن طويلة ، وكذا الطويلة على ما عليه الجمهور .

٣ — أن الأعجاز لا يقع بأقل من ثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعادلها فما لم تعرف الآية لا يمكننا أن نقف على القدر المعجز من القرآن .

(٤) ومنها اعتبارها فى قراءة قيام الليل ، ففى أحاديث : «من قرأ بعشر آيات لم يكتب من الغافلين» ، ومن قرأ بخمسين آية فى ليلة كتب من الحافظين» ، «ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين » و «من قرأ بمائتى آية كتب من الفائزين » ، «ومن قرأ بثلاثمائة آية كتب له قنطار من الأجر» ، «ومن قرأ بخمسمائة ، وسبعمائة ، وألف آية ... » أخرجها الدارمى فى مسنده مفرقة.

عدد آيات القرآن :

وأما عدد آيات القرآن فقد قال فيه الدانى : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف ومائتا آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد ومنهم من قال ومائتا آية وأربع آيات ، وقيل وأربع عشرة آية ، وقيل وخمس وعشرون آية ، وقيل وست وثلاثون آية .

وذلك يرجع إلى اختلاف القراء البصريين والكوفيين والشاميين والمكيين والمدنيين فى العدد . قال أبو عبد الله الموصلى فى شرح قصيدته ذات الرشد فى العدد «اختلف فى عدد الآى أهل المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة ، ولأهل المدينة عددان : عدد أول وهو عدد أبى جعفر بن يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح وعدد آخر هو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبى كثير الأنصارى[1] ، وأما عدد أهل مكة فهو مروى عن عبد الله بن كثير عن

---

(١) قال صاحب التبيان ص ١٧٠ (أن عدد المدنى الأول غير منسوب =

مجاهد عن ابن عباس عن أبى ابن كعب ، وأما عدد أهل الشام فرواه هرون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلوانى وغيره عن هشام بن عمار ، ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الذمارى عن يحي بن الحارث الذمارى قال : هذا العدد الذى نعده عدد أهل الشام مما رواه المشيخة لنا عن الصحابة ورواه عبد الله بن عامر اليحصبى لنا وغيره عن أبى الدرداء ، وأما عدد أهل البصرة فداره على عاصم بن العجاج الجحدرى ، وأما عدد أهل الكوفة فهو المضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبى الحسن الكسائى وخلف بن هشام ، قال حمزة أخبرنا بهذا العدد ابن أبى ليلى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على بن أبى طالب »(١) .

والسبب فى الاختلاف فى عدد الآى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقف على رءوس الآى للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة فمن نظر إلى الوقف قال أنها رأس آية ، ومن نظر إلى الوصل لم يقل أنها آية ، وآخر كلمة فى الآية تسمى فاصلة وتجمع على فواصل ، ومعرفة الفواصل هو العمدة فيما نحن فيه ولمعرفتها طريقان توفيق وقياسى .

أما التوقيفى فما ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم وقف عليه تحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصله ، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة ، أو لتعريف الوقف التام

= إلى أحد بعينه ، وإنما نقله أهل الكوفة عن أهل المدينة مرسلا ولم يسموا فى ذلك أحداً . وعدد المدنى الأخير منسوب إلى أبى جعفر بن يزيد وشيبة بن نصاح . . وقد وهم من نسب عدد المدنى الأول إلى أبى جعفر وشيبة وعدد المدنى الأخير إلى إسماعيل بن جعفر الخ ما قال) .

(٢) الإتقان ج ١ ص ٦٧ .

أو للاستراحة ، واحتمل الوصل أن يكون غير فاصلة وصلها لتقدم تعريفها

وأما القياسى فهو ما ألحق من غير المنصوص عليه بالمنصوص عليه لأمر يقتضى ذلك ، ولا محذور فى ذلك ؛ لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان ، وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل ، والوقف على كل كلمة جائز .

معرفة الآيات توقيفية :

وآيات القرآن كلها توقيفية لا تعلم إلا من الشارع قال الزمخشرى فى تفسيره « فإن قلت ما بالهم عدوا بعض الفواتح آية دون بعض ؟ قلت : هذا علم توقيفى لا مجال للقياس فيه كمعرفة السور أما « ألم » فآية حيث وقعت من السور المفتتحة بها وهى ست ، وكذلك « ألمص » آية ، و « ألمر » لم تعد آية ، و (ألر » ليست بآية فى سورها الخمس ؛ و « طسم » آية فى سورتيها ، و « طه » و « يس » آيتان ، و « طس » ليست بآية ، و « حم » آية فى سورها كلها ، و « حم ، عسق » آيتان ، و « كهيعص » آية واحدة و « ص » و « ق » و « ن » ثلاثتها لم تعد آية ، هذا مذهب الكوفيين ومن عداهم لم يعدوا شيئاً منها .

فإن قلت فكيف عد ما هو فى حكم كلمة واحدة آية ؟ قلت . كما عد « الرحمن » وحده و « مدهامتان » وحدها آيتين على طريق التوقيف -

وقال ابن العربى « ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة سبع آيات ، وسورة الملك ثلاثون آية وقد صح أنه قال . من قرأ الايتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه) .

كلمات القرآن وحروفه .

وكما عدوا آيات القرآن عدوا كلماته فقيل سبعة وسبعون ألف كلمة وتسعمائة وأربع وثلاثون كلمة ، وقيل : وأربعمائة وسبع وثلاثون ، وقيل : ومائتان

وسبع وسبعون وسبب الاختلاف أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ولفظ ورسم واعتبار كل منها جائز وكل من العلماء اعتبر أحد الجوائز .

وكذلك عنوا بعد حروفه وبيان أنصافه بالكلمات والحروف وأثلاثه وأرباعه وأخماسه ... وكذا عدوا ما فى القرآن من ألفات ، وباءات إلى آخر حروف الهجاء ، وليس من قصدى التعرض لمثل ذلك فإن الاشتغال به - كما قال السيوطى - مما لا طائل تحته وقد استوعبه ابن الجوزى فى فنون الأفنان وأوسع القول فيه فمن أراد استيعابا فليرجع إليه ، أو إلى « مقدمتان فى علوم القرآن »[1] فقد فصل القول فى ذلك

ترتيب الآيات

ترتيب الآيات فى سورها توقيفى ، فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبي صلى الله عليه وسلم على مواضع الآيات من سورها ، وكان رسول الله عليه وسلم يقول ضعوا آية كذا روى أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس عن عثمان بن عفان قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب فيقول «ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا » الحديث وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما أجمع الصحابه على وضعه هكذا فى المصحف وقد أجمع العلماء أن ترتيب الايات توفيقى وتواردت النصوص الصحيحة على ذلك .

أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشى فى البرهان ، وأبو جعفر ابن الزبير فى مناسباته ، ونص عبارته « ترتيب الايات فى سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم وأمره بلا خلاف فى هذا بين المسلمين » .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٣٥ - ٢٥٠ .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ، ووضع الايات إنما كان بالوحى ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا ، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهـذا الترتيب من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف .

وأما النصوص فكثيرة منها ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال : قلت لعثمان « والذين يتوفرن منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير أخراج »[1] قد نسختها الاية الأخرى[2] فلم تكتبها أو تدعها — أى لم تكتبها وهى منسوخة أو لم تدعها مكتوبة وقدنسخت فـ«أو» للشك من الراوى أى اللفظين قال » قال : « يا ابن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه » وكأن ابن الزبير فهم أن ما ينسخ حكمه لا يكتب فأفهمه سيدنا عثمان أن الأمر فى إثبات الايات فى مواضعها إنما هو بالتوقيف وليس لأحد أن يغير شيئاً من مكانه .

ومنها ما رواه مسلم عن عمر قال : ما سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : « أما تكفيك آية الصيف التى فى آخر النساء » ومنها الأحاديث الصحيحة فى خواتيم سورة البقرة . من قرأ الايتين من خواتيم سورة البقرة فى ليلة كفتاه »[3] رواه البخارى وغيره.

ومنها ماأخرجه الإمام أحمد بإسناد حسن عنعثمان بن أبى العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال . أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الاية فى هذا الموضع من هـذه السورة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الاية .

---

(١) البقرة ٢٤٠ . (٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) هما من قوله تعالى « آمن الرسول ... » إلى قوله . « فانصرنا على القوم الكافرين » .

وروى أبو يعلى فى مسنده عن المسور بن مخرمة قال . قلت لعبد الرحمن ابن عوف ياخال ، أخبرنى عن قصتكم يوم أحد قال . إقرأ بعد العشرين ومائة من « آل عمران » تجد قصتنا « وإذ غدوت من أهلك تبوى المؤمنين مقاعد للقتال .... » الاية وهو من أقوى الأدلة على أن الترتيب اليوم . هو الذى كان فى عهدى النبى والصحابة فإذن هذه الاية رقمها المائة وواحد وعشرين من المصحف .

ومن النصوص الإجمالية الدالة على ذلك ماثبت من قراءته صلى الله عليه وسلم لسور عديدة كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، و « الم تنزيل » و « هل أتى على الإنسان » فى صبح الجمعة . و « ق » و « اقتربت » فى العيد وغير ذلك من السور ، وكان يقرؤها على ترتيبها المعـــروف وبمشهد من الصحابة الذين أخذوا عنه ونقل ذلك عنهم نقلا متواتراً فدل ذلك على أن الترتيب توفيقى .

وإليك بعض ما قاله العلماء فى هذا . أخرج ابن وهب قال . سمعت مالكا يقول . إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال مكى ابن أبى طالب القيسى وغيره « ترتيب الايات فى السور بأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يأمر بذلك فى اول براءة تركت بلا بسملة » ، وقال القاضى ابوبكر « ترتيب الايات أمر بذلك واجب وحكم لازم » فقد كان جبريل يقول « ضعوا آية كذا فى موضع كذا » . وقال ايضا . الذى نذهب إليه ان جميع القرآن الذى انزله الله وامر باثبات رسمه ولم ينسخه ، ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذى بين الدفتين ، والذى حواه مصحف عثمان ، وانه لم ينقص منه شىء ولا زيد فيه ، وان ترتيبه ونظمه ثابت على مانظمه الله ، ورتبه عليه رسوله من آى السور ، لم يقدم من ذلك مؤخر ولا اخر منه مقدم ، وان الأمة ضبطت عن النبى صلى الله عليه وسلم ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ، وانه يمكن أن يكون الرسول قد رتب سوره وان يكون قد وكل ذلك

إلى الأمة بعده ولم يتول ذلك بنفسه قال : وهذا الثانى أقرب » .

ومن المجمع عليه أن ترتيب الآيات ليس بحسب نزولها وإنما يرجع إلى المناسبات والروابط البلاغية ، فقد تنزل الآية بعد الآية بسنين وتكون فى ترتيب الكتابة قبلها . وليس أدل على هذا من تقدم بعض الآيات الناسخة على الايات المنسوخة مع أن الناسخ متأخر عن المنسوخ فى النزول قطعا ، وذلك مثل آية : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » فإنها ناسخة لآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج » فالأولى متقدمة فى الترتيب متأخرة فى النزول .

وفى الأثر عن محمد بن سيرين قال : قلت لعكرمه . ألفوه — أى القرآن — كما أنزل الأول ، فالأول ؟ قال : لو اجتمعت الإنس ، والجن ، على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا وصدق عكرمة فإن ترتيبه على حسب النزول غير مستطاع لأحد من البشر ، لأن الله لم يرد أن يكون تأليف كتابه المعجز على حسب النزول ، وإنما اقتضت حكمته أن يكون على حسب المناسبات البلاغية ، وأسرار الإعجاز .

(السور وترتيبها)

السورة فى إصلاح العلماء طائفة من آيات القرآن جمعت وضم بعضها إلى بعض حتى بلغت فى الطول المقدار الذى أراده الله سبحانه وتعالى — لها وكل سور القرآن بدئت بالبسملة ألا براءة[1] .

---

(١) الصحيح أن التسمية لم تكن فيها لأن جبريل لم ينزل بها ويفصح عن السر فى ترك البسملة فى صدرها ما رواه الحاكم فى المستدرك عن بن عباس قال : سألت على بن أبى طالب لم لم تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم؟ قال : لأنها أمان ، وبراءة نزلت بالسيف .

وقد اختلف فى أصل مأخذها فقيل هى مأخوذة من ســـور المدينة ، لإحاطتها بآياتها إحاطة السور بالبنيان ، وقيل : لأنها ضمت آياتها بعضها إلى بعض كما أن السور توضع لبناته بعضها فوق بعض حتى يصل إلى الارتفاع الذى يراد ، وقيل : مأخوذة من السورة وهى الرتبة والمنزلة قال النابغة الذبيـــانى .

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

وسور القرآن مراتب ومنازل يترقى فيها القارىء من منزلة إلى أخرى .

وقيل مأخوذة من السور وهو ما بقى من الشراب فى الإناء كأنها قطعة من القرآن وبقية منه وهى على هذا مهموزة وحذفت همزتها تخفيفا .

معرفة السور توقيفى .

ومعرفة سور القرآن كلها توقيفى كمعرفة آياته وسور القرآن تختلف طولا وقصرا فأطول سورة هى البقرة وأقصر سورة هى « الكوثر » .

هل يقال سورة كذا ؟ والصحيح جواز أن يقال سورة البقرة : وآل عمران والنساء ، والأعراف ، وهكذا بدون كراهة ولا يشترط أن يقال السورة التى يذكر فيها البقرة وهكذا سائر السور ، وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة . وأما ما رواه الطبرانى والبيهقى عن أنس مرفوعا « لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله » فإسناده ضعيف بل قال ابن الجوزى . إنه موضـــوع ، وقال البيهقى أنما يعرف موقوفا عن ابن عمر ثم أخرجه عنه بسند صحيح وعلى هذا فيكون رأيا له واجتهادا منه .

الحكمة فى تسوير القرآن

ولتسوير القرآن سورا فوائد منها .

(١) حسن الترتيب والتنويع والتبويب فالجنس إذا انطوت تحته أنواع

وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا ونوعا واحدا ولا يزال المؤلفون من قديم الزمان إلى يومنا هذا يجعلون كتبهم أبوابا وفصولا حتى أضحى حسن الترتيب والتبويب من أعظم المشوقات إلى قراءة الكتاب بل أصبح تبويب الكتب وتنسيقها فنا مستقلا برأسه.

(٢) تسهيل الحفظ وبعث الهمة والنشاط ألا ترى أن القارىء إذا أكمل سورة ثم أخذ فى حفظ غيرها كان ذلك أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثل ذلك المسافر إذا قطع رحلة ثم شرع فى غيرها ازداد قوة ونشاطا ولا يزال يتجدد نشاطه كلما قطع مرحلة حتى يصل إلى غايته .

(٣) أن الحافظ إذا حفظ سورة وحذقها أعتقد أنه أخذ من كتاب الله حظا ونصيباً ، فيعظم عنده ما حفظه ، ويعظم هو فى نفوس الناس. يشير إلى هذا المعنى حديث أنس : «كان الرجل إذا حفظ البقرة وال عمران جد فى أعيننا » أى عظم .

(٤) أن فى التسوير والتفصيل تلاحق الأشكال، والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، ولذلك نجد أغلب سور القران يدور الحديث فيها حول موضوع بارز ولها نمط خاص تستقل به فسورة يوسف تتحدث عن قصته وسور إبراهيم تتحدث عنه، وسورة النساء تتحدث عن مالهن، وما عليهن وسورة ال عمران تتحدث عن قصصهم وهكذا .

وما ذكره الزمخشرى فى تفسيره من أن الله أنزل التوراة والانجيل والزبور وما أوحاه إلى أنبيائه مسورة هو الصحيح فقد أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال كنا نتحدث أن الزبور مائة وخمسون سورة كلها مواعظ وثناء ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود وذكروا أن فى الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال[1] .

---

(١) الاتقان ج١ ص٦٦ . لكن ينبغى أن يعلم أن السورة، والاية =

والحكمة فى كون سوره طوالا وقصارا .

١ - التنبيه على أن الطول ليس شرطا للاعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث ايات وهى معجزة إعجاز سورة البقرة ، وفى هذا إثبات اعجاز القران ، على أبلغ وجه .

٢ - التدرج فى تعليم القران من السور القصار إلى ما فوقها وفى ذلك تيسير من الله على عباده لحفظ كتابه إلى غير ذلك من الحكم .

عدد السور : وسور القران - فى المصاحف العثمانية - مائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، ونقل عن مجاهد أنها مائة وثلاث عشرة سورة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة . والأول هو الذى عليه المعول . وعدم ذكر البسملة فى أول براءة .لا يمنع أن تكون سورة مستقلة ، وقد بينت السر فى عدم بدئها بالبسملة انفاً .

وأما عدد السور فى مصحف ابن مسعود فهى مائة واثنتا عشرة سورة لأنه كما قيل لم يكن يكتب المعوذتين فى مصحفه .

وأما فى مصحف أبى فمائة وست عشرة لأنه كتب فى اخر دعاء القنوت وجعله فى صورة سورتين سماهما « سورتى الخلع والحفد » وقال بعضهم مائة وخمس عشرة سورة « لإيلاف قريش » سورة واحدة .

والمعول عليه هو ما فى المصاحف العثمانية التى أجمع عليها الصحابة ، ولا نلتفت إلى غيرها .

= قد صارتا علما بالغلبة على سور القران واياته وأن اليهود والنصارى لا يطلقون عليها اسم السورة . ولكن يسمونها « إصحاحا » وهى تشتمل على فقرات ، وعلى هذا فلا ينبغى أن نسمى الإصحاح سورة ولا الفقرة آية كما يفعل بعض المسلمين ، ولنبق إطلاق السورة والاية على القرآن الكريم فحسب .

(أسامى السور)

وقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير مثل النساء ، والأعراف ، والأنعام ومريم ، وطه ، والشورى ، والمدثر ، وقد يكون لها أكثر من اسم فمن ذلك الفاتحة ، تسمى فاتحة الكتاب ، وأم الكتاب ، وأم القران والسبع الثانى ، والشافية والكافية . والأساس وقد أنهى الامام السيوطى[١] أسماءها إلى خمس وعشرين و « براءة » تسمى أيضا التوبة ، والفاضحة ؛ والبحوث[٢] بفتح الباء ، والمنقرة وقد أنهاها السيوطى إلى عشرة أسماء ، « والاسراء » وتسمى أيضاً سبحان ، وسورة بنى إسرائيل وسورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمى أيضاً القتال ، وسورة « سأل » وتسمى أيضاً المعارج ، وسورة « عم » وتسمى أيضاً النبأ ، والتساؤل ، والمعصرات ، وسورة « أرأيت » وتسمى أيضاً الدين ، والماعون ، وسورة « الإخلاص » وتسمى أيضاً الأساس ، وسورتا « الفلق » و « الناس » وتسميان أيضاً المعوذتين بكسر الواو المشددة وقد استوعب السيوطى السور ذات الأسماء المتعددة فى الإتقان[٣] .

وكما سميت السورة الواحدة بعدة أسماء سميت سور عدة باسم واحد ، وذلك كالسور المسماة بآلم وحم ؛ وذلك على القول بأن فواتح السور أسماء لها ، وتكون هذه الأسماء من قبيل المشترك اللفظى والتميز بين السور بقرينة ضميمة إليها ، فيقال « الم البقرة » ، « الم آل عمران » ويقال « حم غافر » و « حم فصلت » وهكذا .

---

(١) الإتقان ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ (٣) الإتقان ج ١ ص ٥٢-٥٥ .

(٢) البحوث والمنقرة لأنها نقرت وبحثت عن صفات المنافين ومحاربهم مبلغت فى ذلك .

التسمية توقيفية أم اجتهادية ؟

قيل أنها توفيقية وعليه فنقف عند حد الوارد منها ، وقيل أنها اجتهادية وعلى هذا فلا يعدم الناظر أن يستنتج للسورة الواحدة أسماء أخرى غير الواردة ؛ والظاهر الأول ، قال السيوطى : وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والاثار ، ولولا خشية الأطاله لبينت ذلك. وعلى هذا يكون التوقيف أعم من أن يكون عن النبي صلى الله عليه وسلم. أوعن الصحابة الذين شهدوا الوحى والتنزيل .

وللزركشى فى هذا المقام كلام حسن قال : فى البرهان ، ينبغى البحث عن تعداد الأسامى هل هو توفيق أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثانى فلم يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معانى كثيرة تقتضى اشتقاق أسماء لها وهو بعيد ، قال : وينبغى النظر فى اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعى فى كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون فى الشيء من خلق أو صفة تخصه ، أو تكون معه أحكم . أو أكثر . أو أسبق لأدراك الرائى للمسمى . ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها . وعلى ذلك جرت أسماء سور القرآن كتسمية سورة البقرة بهذا الإسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها ، وعجيب الحكمة فيها . وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها شيء كثير من أحكام النساء . وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها . وإن كان ورد لفظ الأنعام فى غيرها إلا أن التفصيل الوارد فى قوله تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشا » إلى قوله : « أم كنتم شهداء الاية » لم يرد فى غيرها كما ورد ذكر النساء فى سور . إلا أن ما تكرر . وبسط من أحكامهن لم يرد فى غير سور النساء . وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة فى غيرها فسميت بما يخصها .

قال : فإن قيل قد ورد فى سووة هود ذكر نوح . وصالح . وإبراهيم ولوط وشعيب . وموسى فلم خصت باسم هو وحده ؟ مع أن قصة نوح فيها أوعب وأطول ؟ (١) قيل : تكررت هذه القصص فى سورة الأعراف وسورة هود والشعراء بأوعب مما وردت فى غيرها . ولم يتكرر فى واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود كتكرره فى سورته فأنه تكرر فيها فى أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التى ذكرنا .

قال . فأن قيل فقد تكرر اسم نوح فيها فى ستة مواضع ؟ قيل . لما أفردت لذكر نوح ، وقصته مع قومه سورة برأسها . فلم يقع فيها غيرذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره.

قال السيوطى تعقيبا وبحثا ، ولك أن تسأل فتقول . قد سمت سور جرت فيها قصص أنبياء بأسمائهم كسورة نوح،سورة هود وسورة إبراهيم وسورة يونس وسورة آل عمران . وسورة طس سليمان (٢) وسورة يوسف . وسورة محمد صلى الله عليه وسلم : وسورة مريم ، وسورة لقمان وسورة المؤمن ، وقصة أقوام كذلك كسورةبنى إسرائيل وسورة أصحاب الكهف وسورة الحجر ، وسورة سبأ ، وسورة الملائكة ، وسورة الجن ؛ وسورة المنافقين ،وسورة المطففين ، ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره فى القرآن حتى قال بعضهم : كادالقران أن يكون كله لموسى وكان أولى سورة أن تسمى به سورة طه أو سورة القصص أو الأعراف ؛

---

(١) من آية ٢٥ إلى ٤٨ وقصة هود من آية ٥٠ إلى ٦٠ .

(٢) هى سورة النمل ، ولم تبسط قصة سليمان فى سورة مثل ما بسطت فى هذه السورة . من اية ١٦ — ٤٤ على ماذكر فى قصته هنا من العجائب كقصة الهدهد ، وقصة نقل عرشها، وقصة الصرح الذى بناه لبلقيس ملكة سبأ

لبسط قصته فى الثلاثة مالم يبسط فى غيرها ؛ [١] وكذلك قصة ادم ذكرت فى عدة سور ولم تسم به سورة كأنه اكتفاء بسورة الإنسان وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص . ولم تسم به سورة الصافات ، وقصة داود ذكرت فى سورة ص ولم تسم به فانظر فى حكمة ذلك على أنى رأيت فى « جمال القراء للسخاوى » أن سورة طه تسمى « سورة الكليم » وسماها الهذلى فى كامله « سورة موسى » وأن سورة ص تسمى « سورة داود » ورأيت فى كلام الجعبرى أن سورة الصافات تسمى « سورة الذبيح » وذلك يحتاج إلى مستند من الأثر .

وهذا الفصل الذى ذكره الزركشى من النفاسة بمكان ، وما عقب به الإمام السيوطى يحتاج إلى بحث ونظر فى حكمة ذلك .

والذى يظهر لى — والله أعلم — أن قصة موسى تكررت فى هذه السور أكثر من غيرها وهى متقاربة فى الكم كما بينت بالهامش ، فلم تكن أحد السورتين الأخريين أولى من الأخرى ، بقيت السور « طه » وهى وإن كانت أطول إلا أنها لم تعرض لنشأة موسى الأولى كما عرضت سورة القصص ، فلم تكن أولى منها من هذه الحيثية ، ولو صح وثبت ماذكره السخاوى لكان لتسمية طه بسورة الكليم وجه وجيه ، ولكن لا مستند له من الأثر كما قال السيوطى .

تقسيم السور باعتبار الطول والقصر

قد قسم العلماء السور إلى أربعة أقسام .

(١) الطوال : وهى سبع البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ،

---

(١) ذكرت فى سورة طه من اية ٩ — ٩٩ وفى القصص من ٣ — ٤٦ معظمها طوال وفى الأعراف من ١٠٣ — ١٥٥ معظمها قصار ، والأولى إستغرقت فى المصحف نحو ست صفحات ، والثانية ، والثالثة استغرقت كل منهما خمس صفحات .

والأنعام والأعراف ، والسابعة قيل الأنفال وبراءة لعدم الفصل بينهما بالبسملة ، وقيل يونس .

(٢) المئون : ماولى الطوال وهى ماتزيد آياتها عن مائة أوتقاربها .

(٣) المثانى : ماولى المئين وهى السور التى آياتها تقارب المئة وسميت مثانى لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمئون .

(٤) المفصل : ماولى المثانى من قصار السور سمى بذلك لكثرة الفواصل التى بين السور بالبسملة ، وقيل لقلة المنسوخ فيه ، وقد اختلف فى أوله على أقوال فقيل : أوله (ق) ، وقيل الحجرات وهو الذى صححه النووى ، وللمفصل طوال وأوساط وقصار ، فالطوال من الحجرات إلى سورة البروج ، والأوساط من سورة (الطارق) إلى سورة (لم يكن) ، والقصار من سورة الزلزلة إلى آخر القرآن .

« تقسيم السور من حيث عدد الآيات إتفاقا واختلافا »

تنقسم سور القرآن من هذه الحيثية إلى ثلاثة أقسام .

(١) قسم لم يختلف فيه لافى إجمال ولا تفصيل .

(٢) قسم اختلف فيه تفصيلا لا إجمالا .

(٣) قسم اختلف فيه إجمالا وتفصيلا .

فالأول أربعون سورة يوسف ، الحجر ، النحل ، الفرقان ، الأحزاب الفتح الحجرات ، ق ، الذاريات ، القمر ، الحشر ، الممتحنة ، الصف ، الجمعة المنافقون التغابن ، التحريم ، ن ، الإنسان ، المرسلات ، التكوير ، الانفطار التطفيف ، البروج ، سبح ، الغاشية ، البلد ، الليل ، والضحى ، ألم نشرح ، التين ، العاديات ، الهاكم ، الهمزة ، الفيل ، الكوثر ، الكافرون ، النصر تبت ، الفلق .

والثانى أربع سور : (١) القصص ثمان وثمانون ، عد أهل الكوفة

طسم اية والباقون بدلها «ولما ورد ماء مدين وجد عليها أمة من الناس يسقون »[١]
(٢) والعنكبوت تسع وتسعون ، عد أهل الكوفه ألم والبصرة بدلها «فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » والشام «وتقطعون السبيل[٢]
(٣) والجن ثمان وعشررن عد المكى . لن يجيرنى من الله أحد » والباقون بدلها «ولن أجد من دونه ملتحداً » (٤) والعصر ثلاث عد المدنى الأخير «وتواصو بالحق» دون «والعصر» وعكس الباقون . فعدوا «والعصر» وجعلوا «إلا الذين امنوا ...» إلى اخر السورة اية وأما الأولون فقد جعلوها ايتين .

والقسم الثالث سبعون سورة ، وهى ماعدا ماسبق من السور منها البقرة وهى مائتان وخمس وثمانون فى عدد المكى والمدنى والشامى ، وست وثمانون فى عدد الكوفى ، وسبع وثمانون فى عدد البصرى وقد اختلفوا فى أحد عشر موضعا منها «ألم» عده الكوفى ، «ولهم عذاب أليم» عده الشامى «إنما نحن مصلحون» عده غير الشامى «... أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» عده البصرى ... ألخ

ومن أراد استيعابا فى هذا فليرجع إلى كتاب التبيان[٣] فقد فصل ماأجمله السيوطى فى الاتقان .

ترتيب سور القرآن

اختلف فى ترتيب السور على أقوال ثلاثة :

الأول : ماذهب إليه جماعة من العلماء ، وهو أن ترتيب السور بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم فلم توضع سورة فى موضعها من المصحف إلا بناء على أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتعليمه أو برمزه وإشارته على حسب مافهموه من تلاوته صلى الله عليه وسلم ، وممن ذهب إلى هذا أبو جعفر . ابن النحاس والكرمانى[٤] ، وأبو بكر

---

(١) القصص ٢٢ (٢) العنكبوت ٢٨ ، ٦٥

(٣) التبيان (٤) الإتقان ج ١ ص ٦٢

الأنبارى، قال أبو بكر الأنبارى ، أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه فى بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر، ويوقف جبريل النبى ﷺ صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة فاتساق السورة كاتساق الآيات والحروف كله عن النبى ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرن » .

وأخرج ابن اشته فى كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال قال : سمعت ربيعة يسأل : لم قدمت البقرة وآل عمران وقد نزلت قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا وألف القرآن على علم من ألف به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه.

استدل هؤلاء :

١ — بأن الصحابة أجمعوا على ترتيب المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ولم يخالف فى ذلك أحد حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر فلو لم يكن الأمر توقيفيا لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة فى الترتيب التمسك بترتيب مصاحفهم ، لكن عدولهم عنها وعن ترتيبها بل وإحراقها دليل على أن الأمر ليس للرأى فيه مجال ولا يشترط أن يكون التوقيف بنص صريح بل قد يكفى فيه الفعل أو الرمز والإشارة .

٢ - بالآثار الواردة التى تدل على التوقيف منها : ما أخرجه أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى قال : كنت فى الوفد الذين أسلموا من ثقيف الحديث وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طرأ على حزب فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور ،وحزب المفصل من ق(١) حتى نختم . فهذا يدل على أن ترتيب سور الفصل على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جمهور العلماء على خلاف فى هذا وأنه من الحجرات إلى آخر المصحف.

ويمكن أن يناقش هذا الدليل بأن غاية ما يدل عليه هو ترتيب المفصل أما ما عداه فلا ، لأنه عرض للتخريب ، لا للترتيب .

٣ — مما يدل على التوقيف كون الحواميم رتبت ولاء أى متتابعه ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها بالمجادلة والممتحنة والمنافقون ، كما فصل بين طسم الشعراء . وطسم القصص ، بطس النمل مع أنها أقصر منها فلو كان الترتيب اجتهاديا لما حصل الفرق بين المتماثلات من السور فى الفواتح مع التناسب فى الطول والقصر(١) .

الرأى الثانى : أن الترتيب كان باجتهاد من الصحابة رضوان الله عليهم ونسب هذا القول السيوطى إلى الجمهور وممن قال بهذا الإمام مالك وأبو بكر الطيب فى أرجح قوليه ، واستدل القائلون بهذا باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة قبل الجمع فى عهد عثمان رضى الله عنه فلو كان الترتيب توقيفيا لما اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور لكنها اختلفت فمنهم من رتب على النزول كمصحف على رضى الله عنه كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم ن ثم المزمل الخ. وأما مصحف ابن مسعود فكان مبدوءا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأعراف ، ومصحف أبى كان مبدوءا بالحمد ثم البقرة ثم النساء ثم ال عمران ثم الأنعام الخ . وأجيب عن هذا بأن الاخلاف لا يصلح أن يكون دليلا على أنه ليس توقيفيا وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف عامة بل كانت مصاحف خاصة جمعت إلى القرآن بعض مسائل العلم والتأويل وبعض المأثورات فهى إلى كتب العلم والتأويل أقرب منها إلى المصاحف المجردة ، لذلك لم يعتمد عليها عند جمع المصاحف فى عهد عثمان فى زيادة أو نقص وكذلك لم يعول عليها فى الترتيب ؛ أو يقال أن اختلافهم كان قبل العلم بالتوقيف فلما علموا تركوا ترتيب مصاحفهم واتبعوا ترتيب المصاحف العثمانية .

محاولة التوفيق بين الرأيين : وقد حاول الزركشى فى البرهان أن يجعل الخلاف بين الفريقين لفظيا لأن القائل بالثانى - الاجتهاد - يقول أنه رمز إليهم ذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ولهذا قال مالك : إنما ألفوا القرآن على

---

(١) سورة الشعراء ، والقصص كل منهما نحو تسع صفحات .

ماكانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، مع قوله أن ترتيب السور باجتهاد فآل الخلاف إلى أنه هل هو بتوقيف قولى أو بمجرد إسناد فعلى بحيث يبقى لهم فيه مجال للنظر وسبقه إلى ذلك أبو جعفر بن الزبير .

الرأى الثالث . أن الكثير من السور علم ترتيبها بالتوقيف والبعض كان ترتيبها باجتهاد من الصحابة ، وإلى هذا ذهب بعض فطاحل العلماء كالقاضى أبى محمد ابن عطية حيث قال (ظاهر الآثار أن السبع الطوال والحواميم والمفصل كان مرتبا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وكان فى السور مالم يرتب فهذا هو الذى رتب وقت الكتب(١)

وقال البيهقى فى المدخل (كان القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال وبراءة) فقد حصر البعض الذى هو باجتهاد فى هاتين السورتين فقط، وقال الحافظ ابن حجر (ترتيب بعض السور على بعضها أو معظمها لا يمتنع أن يكون توقيفيا) وقد اختار السيوطى ماذهب إليه البيهقى حيث قال « والذى ينشرح له الصدر ماذهب إليه البيهقى وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال ولا ينبغى أن يستدل بقراءته صلى الله عليه وسلم سوراً ولاء على ترتيبها كذلك ، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران لأن ترتيب السور فى القراءة ليس بواجب ولعله فعل ذلك لبيان الجواز » .

ويشهد لما ذكره البيهقى مارواه أحمد والترمذى وغيرهما عن ابن عباس قال . قلت لعثمان ماحملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر « بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموهما فى السبع الطوال فقال عثمان رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السورة ذوات العدد فكان إذا نزل عليه

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٧٦

شيء دعا بعض من يكتب فيقول . ضعوا هذه الايات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل مانزل بالمدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب « بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها فى السبع الطوال وأجيب عن هذا الدليل .

١ — بأن هذا الحديث غير صحيح (١) لأن الترمذى الذى هو أحد من خرجه قال حسن غريب لانعرفه إلا من حديث يزيد القاضى عن ابن عباس ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذى انفرد به فى ترتيب سور القرآن.

٢ — على تسليم صحته فيجوز أن يكون عثمان حين إخباره لابن عباس لم يكن عنده شيء مسموع بشأن الترتيب بين السورتين فلا ينافى أنه علم بعد ذلك .

وسواء أكان الترتيب توقيفيا أم اجتهاديا فأنه ينبغى احترامه والأخذ به فى كتابة المصاحف لأنه عن اجماع من الصحابة ولأن مخالفته تجر إلى الفتنة . ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب .

وأما ترتيب السور فى التلاوة فليس بواجب إنما هو مندوب قال الإمام النووى فى التبيان « قال العلماء الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ، ثم آل عمران . ثم مابعدها على الترتيب سواء أقرأ فى الصلاة ، أم فى غيرها ثم قال : قال بعض أصحابنا ويستحب إذا قرأ سورة

---

(١) قال الحافظ فى الفتح ج٩ ص ٢٤ « وقد أخرج احمد ، وأصحاب السنن ، وصححه ابن حبان ، والحاكم من حديث ابن عباس قال . قلت لعثمان.) الحديث ولم ينازع فى تصحيحه وهو من هو فى العلم بالتصحيح والتضعيف ونقد الرجال

أن يقرأ بعدها التى تليها ودليل ذلك أن ترتيب المصحف إنما جعل لحكمة فينبغى أن يحافظ عليه إلا فيما ورد الشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ فى الأولى , ألم السجدة) وفى الثانيــــة (هل أتى) ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لاتلى الأولى ، أو خالف الترتيب فقرأسورة قبلهاجاز. فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الركعة الأولى من الصبح بالكهف . وفى الثانية بيوسف . وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف روى عن الحسن أنه كان يكره أن يقرأ القرآن إلا على تأليفه فى المصحف قال . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعا مؤكداً لأنه يذهب ببعض الأعجاز ويزيل حكمة ترتيب الاى وقد روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قيل له . إن فلانا يقرأ القرآن منكوسا فقال . ذلك منكوس القلب ، وأما تعليم الصبيان القرآن من آخر المصحف إلى أوله فحسن وليس من هذا الباب فإن ذلك قراءة منفصلة فى أيام متعددة على مافيه من تسهيل الحفظ عليهم .

المبحث التاسع
(كتابة القرآن ورسمه)

الكتابة عند العرب : يحسن بنا قبل البحث فى كتابة القرآن ورسمه أن نبين كيف كان حال الكتابة فى مكة والمدينة قبل البعثة المحمدية فنقول. يكاد يجمع المؤرخون على أن الخط دخل إلى مكة بوساطة حرب بن أمية بن عبد شمس وإن كانوا اختلفوا فى المصدر الذى تعلم منه حرب بن أمية الكتابة، ففى رواية ابن الكلبى أن حربا تعلمها من بشر بن عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، ذلك أن حربا تعرف به فى أسفاره إلى العراق فتعلم منه الكتابة ثم قدم معه بشر إلى مكة وتزوج ، الصهباء بنت حرب ، أخت أبى سفيان وبذلك تيسر لجماعة من قريش أن يتعلموا الكتابة والقراءة ، وقد أخذ أهل العراق الكتابة عن أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا الخط من جماعة من عرب طيء أخذوا الكتابة عن كاتب الوحى لسيدنا هود عليه السلام .

وفى رواية أبى عمرو الدانى عن زياد بن أنعم عن ابن عباس أن حربا تعلم الخط من عبد الله بن جدعان، وعبد الله تعلم من أهل الأنبار ، وأهل الأنبار تعلموا من طارىء طرأ عليهم من اليمن ، وهذا الطارىء تعلم من الخلجان بن موهم وكان كاتب الوحى لهود نبى الله بالوحى عن الله عز وجل، وبذلك وجد من يكتب بمكة قبل البعثة .

وأما الخط فى المدينة المنورة فقد ذكر أصحاب السير أن النبى صلى الله عليه وسلم دخلها وكان فيها يهودى يعلم الصبيان القراءة والكتابة، وكان فيها بضعة عشر رجلا يعرفون الكتابة منهم زيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بعد الهجرة بأمر النبى صلى الله عليه، والمنذر بن عمرو ، وأبى بن وهب ، وعمرو بن سعيد وغيرهم .

ومن ثم نرى أن الكتابة وجدت فى العرب قبل الإسلام وكان الذين يحذقونها

قليلين جدا ، أما الغالبية العظمى فكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ولهذا سميت الأمة العربية بالأمة الأمية .

وقد كان وجود الكتابة فى العرب قبيل الإسلام ، إرهاصا[1] لبعثة خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليجتمع للقرآن الكتابة فى الصحف والتقييد فى السطور إلى الحفظ فى الصدور ، وبذلك يتهيأ للقرآن من دواعى الحفظ مالم يتهيأ لغيره ويتحقق وعد الحق جل وعلا «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» وأيضاً بعد صلح الحديبية .

فقد كانت الكتابة من أسباب تبليغ الرسالة المحمدية إلى الملوك والأمراء ، فقد كاتبهم النبى صلى الله عليه وسلم داعيا إلى عبادة الله وحده ، والانضواء تحت لواء الإسلام ونبذ الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك تعدت الرسالة حدود الجزيرة العربية ، إلى العالم المعروف آنئذ ، وقد عثر على كتاب من هذه الكتب وهو كتاب رسول الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط ، وهو أثر من الآثار النبوية القيمة[2] .

الإسلام والكتابه .

ولما جاء الإسلام رفع من شأن الكتابة وتعلمها ، وشأن العلم والمعرفة وليس أدل على ذلك من أول سورة نزلت منه أشادت بالقلم وأنه أداة العلم والمعرفة الكسبيين وهى قوله تعالى . (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) فقوله (علم بالقلم) إشارة إلى العلم الكسبى ، وقوله (علم الإنسان مالم يعلم) إشارة إلى العلم الوهبى

---

[١] مقدمة بين يدى البعثة

[٢] انظر صوره الكتاب ، فى كتاب « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ص ١٢٢ ط أولى

وهذا هو الله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم فيقول . (ن والقلم وما يسطرون) وفى القسم به من ذى الجلال إشادة به، وتنبيه الناس إلى ما فيه من الفوائد والمزايا

وفى الحديث الصحيح المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . (أول ما خلق الله القلم ، ثم قال . اكتب . فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة) رواه أحمد والترمذى وصححه .

وإن دينا يشيد بالقلم هذه الأشادة لهو دين العلم والمدنية الصحيحة .

وهذا هو النبي صلوات الله وسلامه عليه تواتيه اول فرصة لنشر القراءة والكتابة فينتهزها كى يتعلمها أكبر عدد من ابناء المسلمين وصبيانهم . فقد روى الرواة الإثبات إن المسلمين اسروا فى غزوة بدر الكبرى سبعين رجلا من المشركين فقبل النبى ممن عنده مال الفداء ، وكان ذلك أربعة آلاف درهم من الموسرين ، أما من كان يحسن القراءة والكتابة فقد جعل فداءه أن يعلم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة [١] وقد فعل النبي هذا فى وقت كان المسلمون أحوج إلى درهم ليزيلوا به خصاصتهم ويتقووا به على أعدائهم، ولكن ذا المواهب أدرك أن تعليم الأمة الكتابة خير من المال وأنها من عوامل تقدم الأمة ورقيها وبهذه السياسة الحكيمة كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من وضع لبنة فى إزالة الأمية من الامم والشعوب ؛ وأن الاسلام سبق إلى محاربة الأمية والجهل من قرابة أربعة عشر قرنا، على حين كان غير ممن بيدهم مقاليد الأمور يحرصون على أن تبقى شعوبهم منغمسة فى حمأة الجهل والخرافات ولقد كان لهذه السياسة الرشيدة أثرها فقد انتشرت الكتابة بين المسلمين وانتشر العلم والمعرفة وصارت تنتشر فى كل قطر فتحة المسلمون ، ولا يخالف هذا ما روى من قوله صلى الله عليه وسلم «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» إذ هو أخبار عما كانت عليه غالبية الأمه وصار العلم ، والثقافه الأصيلة من أخص خصائص الأمة الاسلامية .

---

(١) السيره النبوية فى ضوء القرآن والسنة للمؤلف حـ ٢ ص ١٢٨

كتابة القرآن الكريم

لقد كتب القرآن جميعه بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم غير أنه كان مفرقا فى العسب، واللخاف والأكتاف، والرقاع، ونحوها وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه شىء من القرآن دعا بعض كتاب الوحى فيأمره بكتابة ما نزل ويرشده إلى موضعه من سورته والكيفية التى تكتب عليها الكتابة، ولم يجاور الرسول الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب مسطور.

ثم كتب فى عهد الصديق رضى الله عنه فى صحف مجموعة، وكانت كتابته من عين ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم، ثم كتب فى عهد عثمان رضى الله عنه فى المصاحف على ماهو عليه، وكانت كتابته من عين ما كتب فى عهد الصديق رضى الله تعالى عنه؛ ألا أنه اقتصر فى رسمه على ما يوافق حرف قريش وقد بينا آنفا فى مبحث جمع القرآن الأطوار التى مرت بها كتابة القرآن وتدوينه ولعلك على ذكر منها.

كتاب الوحى

لقد كان لكتابة القرآن بين يدى النبى كتاب من الصحابة معروفون بالدين الكامل والأمانة الفائقة والعقل الراجح، والتثبت البالغ، كما كانوا معروفين بالحذق فى الهجاء والكتابة، وقد اشتهر منهم بكتابته ابو بكر، عمر، عثمان، وعلى وعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وهو أول من كتب له بمكة، والزبير بن العوام ومعاوية، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وأبى بن كعب، وهو أول من كتب له بالمدينة وزيد ابن ثابت، وهو أكثرهم كتابة بالمدينة وشرحبيل بن حسنة. وعبد الله بن رواحه، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، والأرقم بن أبى الأرقم، وثابت بن قيس وعبد الله بن الأرقم

الزهرى ، وحنظلة بن الربيع الأسدى فى آخرين (١) ، وقد كان هؤلاء يكتبون ما يمليه عليهم الرسول ويرشدهم إلى كتابته من غير أن يزيدوا فيه حرفا أو ينقصوا منه حرفا ، فقد روى أحمد ، وأصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حبان ، والحاكم حديث عبد الله بن عباس عن عثمان قال . (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول (ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا) ويدل على كتابة القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم عدا هذا أدلة كثيرة منها .

١ — ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد الخدرى قال . قال رسول الله صلى الله عليه (لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه).

٢ — ما روى فى صحيح البخارى من قول الصديق أبى بكر لزيد بن ثابت (أنك رجل شاب عاقل لا نتهمك كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ — ما رواه الترمذى أنه لما نزل قوله تعالى . (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) الاية قال عبد الله بن أم مكتوم وعبد الله) ابن جحش (٢) يا رسول الله إنا أعميان ، فهل لنا رخصة فأنزل

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ١٨ الاستيعاب ج ١ ص ٥١ على هامش الاصابة تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٢٩

(٢) الظاهر أن عبد الله بن جحش الأسدى ابن عمة النبى ، وشهيد أحد لأنه لم يكن أعمى ، أما الذى نزلت بسببه الكلمة فكان أعمى ، وقد ذكر هذه الرواية الكلبى فى تفسيره ، ونقلها عنه الثعلبى ، وقد نبه على أنه ليس الأسدى (الإصابة ج ٢ ص ٢٨٧) والذى ذكره الحافظ فى الفتح غير هذا

الله (غير أولى الضرر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائتونى بالكتف والدواة وأمر زيد أن يكتبها فكتبها فقال زيد فكأنى أنظر إلى موضعها عند صدع فى الكتف).

رسم المصحف

(ماهو رسم المصحف ؟).

رسم المصحف يراد به الوضع الذى ارتضاه عثمان رضى الله عنه، ومن كان معه من الصحابة فى كتابة كلمات القرآن ورسم حروفه، فى المصاحف التى وجه بها إلى الافاق، والمصحف الإمام الذى احتفظ به لنفسه، وقد كان علما مستقلا وعنى بالتأليف فيه علماء من المتقدمين والمتأخرين، منهم الشيخ الإمام أبو عمرو الدانى فى كتابه (المقنع) ومنهم الشيخ العلامة أبو عباس المراكشى (١) فقد ألف فى توجيه ما خالف قواعد الخط منه كتاباً سماه (عنوان الدليل فى مرسوم خط التنزيل) بين فيه أن هذه الأحرف إنما اختلف حالها فى الخط بحسب اختلاف أحوال معانى كلماتها، وأن فيها فوائد بلاغية، ولغوية ونحوية ومنهم العلامة الشيخ محمد بن أحمد الشهير بالمتولى

فقد قال. إن الصواب أنه أبو أحمد عبد بن جحش من غير إضافة عبد إلى شيء، وهو أخو عبد الله، وقد خرجه الطبرى على الصواب، وليس فى رواية البخارى ذكر ابن جحش، والخلاصة أنه إما عبد بن جحش كما صوبه الحافظ وإما عبد الله بن جحش آخر كما قال الثعلبي (فتح البارى جـ ٨ صـ ٢١١) والحمد لله الذى هدانى لهذا.

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأسدى المراكشى المعروف بابن البناء المتوفى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة.

إذ نظم فى ذلك أرجوزة ، ثم جاء المرحوم العلامة الشيخ محمد على خلف الحسينى شيخ المقارىء المصرية ، فشرح تلك المنظومة وذيل الشرح له بكتاب له سماه (مرشد الحيران إلى معرفة ما يجب أتباعه فى رسم القرآن) وألف فيه أيضاً أستاذنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطى كتيبا صغيراً سماه (أيقاظ الأعلام إلى أتباع رسم المصحف الامام)

قواعد رسم المصحف .

الأصل فى المكتوب أن يكون موافقاً للمنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل مع مراعاة الإبتداء به والوقف عليه ، والفصل والوصل وقد مهد له العلماء أصولا وقواعد ، وقد خالفها فى بعض الحروف خط المصحف الأمام ، وينحصر أمر الرسم فى ستة قواعد (١) الحذف (٢) الزيادة (٣) الهمز (٤) البدل (٥) الوصل والفصل (٦) مافيه قراءتان متواترتان وكتب على احداهما ولنذكر لذلك أمثلة بقدر الإيضاح من غير استقراء وحصر لجميع ما ورد .

١ - الحذف . وذلك مثل حذف الألف من ياء النداء فى (يأيها الناس) ومن هاء التنبيه مثل (هأنتم هؤلاء) ومن (نا) إذا وليها ضمير نحو (أنجينكم) و (وآتينه) ومن كل جمع تصحيح لمذكر أو مؤنث مثل (سمعون للكذب) (المؤمنت) (المسلمت) (القانتات) إلى آخره ومن كل جمع على وزن مفاعل وشبهه نحو (مسجد) (والنصرى) إلا ما استثنى .

وتحذف الياء من كل منقوص منون رفعا وجراً مثل (غير باغ ولاعاد والمضاف إلى الياء إذا نودى مثل (ياعباد فاتقون) إلا (قل يعبادى الذين أسرفوا) فى الزمر (يعبادى الذين آمنوا) فى العنكبوت ومن مثل (أطيعون) (واتقون) (فارهبون) (فأرسلون) (أعبدون) الا فى يس (وأخشون) إلا فى البقرة و (كيدون) إلا (فكيدونى جميعاً)

وتحذف الواو إذا وقعت مع واو أخرى نحو « لايستون » « فأو الى الكهف » وكذلك حذفت من هذه الأفعال الأربعة « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير » بالاسراء « ويمحو الله الباطل » فى الشورى (يوم يدع الداعى إلى شئ نكر) فى القمر (سندع الزبانية) فى اقرأ وسيأتى توجيه ذلك .

٢ — الزيادة : وذلك مثل زيادة الألف بعد آخر اسم مجموع أو مافى حكمه مثل « يلاقوا ربهم » « بنوا إسرائل » « أولو الألباب » وفى «مائة» و «مائتين» و « الظنونا » و« الرسولا » و « السبيلا » « لا أذبحنه » فى النمل «ولا أوضعوا خلالكم » فى التوبة وفى نحو «تتفيؤا» « أتوكؤ » تفتؤا » «ولا تظمؤا» وبين الجيم والياء فى «جىء» فى الزمر والفجر فقد كتبت فى المصحف هكذا «وجاىء» فى السورتين .

وتزاد الياء فى نحو «نباءى المرسلين» «ملاءيهم» «وملاءيه» «ومن آناءى الليل» « وايتاءى ذى القربى » فى النحل «بأييكم المفتون» «والسماء بنيناها بأييد»

وتزاد الواو فى نحو «أولوا» «أولئك» « أولاء » «أولات» « ساوريكم » وقد علل ذلك الكرمانى فقال فى كتاب العجائب «كانت صورة الفتحة فى الخطوط قبل الخط العربى ألفاً وصورة الضمة واواً وصورة الكسرة ياء فكتبت» «لا اوضعوا» ونحوه بالألف مكان الفتحة «وايتاءى ذى القربى» بالياء مكان الكسرة و « أولئك » ونحوه بالواو مكان الضمة لقرب عهدهم بالخط الاول .

وقال الزمخشرى فى تفسيره . (فإن قلت كيف خط فى المصحف (ولا اوضعوا) بزيادة ألف ؟ قلت : كانت الفتحة تكتب ألفا قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف ـ بكسر الهمزة وسكون اللام ـ أثر فى الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحتها ألف أخرى ونحوه (أو لاأذبحنه) (١) وهـذا يشعر أنه

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٣٥ ط بولاق.

يرى مايراه الكرمانى ، وأنهما يريان أن خط المصحف بالاجتهاد .

أقول . ولو كان الأمر كما يقولان فلم طبق ذلك فى هذه الآيات ، وفى القرآن ألوف الفتحات ، والكسرات ، والضمات ؟

٣ ــ قاعدة الهمز . أما الهمزة الساكنة فالأصل فيها أن تكتب بحرف حركة ما قبلها أولا ، أو وسطا ، أو آخراً نحو « أئذن لى » « أؤتمن » «البأساء» «اقرأ» «جئناك» «هيىء» إلاما استثنى مثل (فأدارءتم) (ورءيا) فحذف الحرف فيهما، وكتبت الهمزة مفردة .

أما الهمزة المتحركة فأن كانت فى أول الكلمة أو اتصل بها حرف زائد كتبت بالألف مطلقا أى سواء كان فتحا ، أو ضما ، أو كسرا نحو (أيوب) (إذا) (أولوا) (سأصرف) (فبأى) إلا فى مواضع مثل (قل أئنكم لتكفرون) فى (فصلت) (أئنا لمخروجون) فى النمل (أئنا لتاركوا آلهتنا) (أئن لنا) فى الشعراء فكتبت فيها بالياء و (قل أؤنبئكم) و (هؤلاء) فكتبت بالواو .

وإن كانت الهمزة وسطا فأنها تكتب بحرف من جنس حركتها نحو (سأل) (سئل) (نقرؤه) إلا ما استثنى ؛ وأن كانت طرفا فإنها تكتب بحرف حركة ماقبلها مثل (سبأ) (شاطىء) (لؤلؤ) وقد وردت فى مواضع من القرآن مخالفة لهـــذا الأصل مثل (تفتئوا) (تفيئوا) (أتوكؤا) (ولا تظمئوا) (مايعبئوا) (يدرؤا) (ينشئوا) فأنهـا رسمت فى المصحف بالواو ، وزيدت بعدها ألف ، فان سكن ماقبل الهمزة حذف الحرف مثل (ملء الأرض) (دفء) (شيء) (الخبء) .

(٤) قاعدة البدل .

كتبت فى الرسم الألف واوا للتفخيم أو التهويل والتقطيع فى مثل (الصلواة) (الزكوات) (الحيوات) (الربوا) غير مضافات (كمشكوة) (ومنوة) إلا قوله تعالى، وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)

(الأنفال ٣٥) وقوله تعالى . (إن صلاتى ونسكى) (الأنعام ١٦٢) وقوله (إن هى إلا حياتنا الدنيا) (الأنعام ٢٩) وقوله وماءآتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله) (الروم٣٩) فقد كتبت بالألف .

وكتبت ياء فى كل ألف منقلبة عنها نحو (يتوفيكم) فى اسم أوفعل اتصل به ضمير ، أم لا ، بقى ساكنا ، أم لا ، ومنه (ياحسرتى) (يا أسفى على يوسف) إلا ما استثنى مثل (تترا) (كلتا) (هدانى) (ومن عصانى) وتكتب ألفاً نون التوكيد الخفيفة ونون (إذا) ويكتب بالنون نحو (كأين من نبى «١») وكتبت هاء التأنيث على خلاف الأصل تاء فى مواضع من القرآن وذلك مثل (رحمت) فى البقرة وآل عمران وغيرهما و (نعمت) فى البقرة وال عمران والمائدة وغيرها و (سنت) فى الأنفال وفاطر (وامرأت مع زوجها) و (لعنت) فى قوله تعالى (فنجعل لعنت الله على الكاذبين) فى ال عمران (والخامسة أن لعنت الله عليه) فى النور و(معصيت) فى (قدسمع) و(شجرت) فى إن (شجرت الزقوم طعام الأثيم) و (قرت عين لى ولك) و (بقيت) فى قوله تعالى (بقيت الله) وجنت فى قوله (وجنت نعيم) إلى غير ذلك.

[٥] قاعدة الفصل والوصل

وردت بعض الألفاظ فى رسم المصحف تارة موصولة ،وتارة مفصولة وورد بعضها فى الرسم على حالة واحدة وذلك مثل وصل «ألا» بفتح

---

(١) أقول : يمكن أن يعلل ذلك بأن صلاتهم غير شرعية وغير معتد بها فلا يستأهل التفخيم ، وأن قوله « بأن صلاتى . . » مقام تذلل واستسلام لله ، فليس المقام بلائق بالتفخيم ، وقوله : « إن هى إلا حياتنا الدنيا » بأن الدهر بين حياتهم ضائعة ، فليست جديرة بالتضخيم ، وقوله « وما ءاتيتم من ربا ، بأن الربا ليس بمعناه الشرعى ، فلم يكن ثمت داع التهويل ، والتفظيع .

وتشديد اللام وفصلها فى عشرة مواضع منها « أن لا تقولوا » فى الأعراف « أن لا تعبدوا » فى هود ، ويس « وأن لا تعلوا على الله » فى الدخان ووصل مما إلا « من ماملكت أيمانكم» فى النساء ، والروم و«من مارزقناكم» فى المنافقين ووصل

(ممن) مطلقا ووصل (عما) إلا (عن ما نهوا عنه) ووصل عمن إلا قوله (ويصرفه عن من يشاء) فى النور و (عن من تولى) فى النجم ، ووصل كلما إلا (كل ماردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) و(من كل ما سألتموه) ووصل (أمن) إلا (أم من يكون عليهم وكيلا) فى النساء (أم من أسس) فى التوبة (أم من خلقنا) فى الصافات (أم من يأتى امنا) و (إما) بكسر الهمزة والتشديد (إلا) وإن ما نرينك (فى الرعد و) أما (بفتح الهمزة مطلقا، إلى غير ذلك مما جاء فى الرسم تارة موصولا وتارة مفصولا مثل (أنما) و (أن لم بالفتح والكسر و أن لن و أين ما و لكى لا و فى ما .

٦ — ما فيه قراءتان وكتب على إحداهما ومرادنا غير القراءات الشاذة ومن ذلك ملك يوم الدين ويخدعون ووعدنا تفدوهم تظهرون ولولا دفع الله الناس ، فرهن عقدت إيمانكم أو لمستم النساء وحرم على قرية سكرى وماهم بسكرى إلى غير ذلك فقد كتبت كلها فى المصاحف العثمانية بلا ألف وقد قرئت بالألف وبحذفها ,ومثل)غيبت الجب (فى يوسف الآية ١٥ ثمرت من أكمامها فى فصلت (وهم فى الغرفات امنون) فقد كتبت كلها بالتاء المفتوحة وبلا ألف وقد قرئت بالجمع : والإفراد.ومثل (فكهون) فقد كتبت بلا ألف وقرئته

بالألف وبعدمها ومثل (الصراط) كيف وقع (وبصطة) فى الأعراف (١) و (المصيطرون) ومصيطر (فقد كتبت بالصاد لاغير وقد قرئت بالصاد والسين (١) .

وأما القراءات المختلفة المتواترة بزيادة لا يحتملها الرسم نحو (أوصى) ووصى فى البقرة وتجرى تحتها الأنهار و (من تحتها فى التوبة) وما عملت أيديهم) وما عملته أيديهم فى ليس وقوله سيقولون لله ويقولون الله فى المؤمنين (٢) .

فقد كانت تكتب فى بعض المصاحف دون بعض كما أسلفنا وبحسبنا ماذكرنا فى التمثيل لهذه القواعد ومن أراد استيفاء فليرجع إلى الاتقان (٣) أو كتب القراءات .

«رسم المصحف توقيفى أم اصطلاحى»

ذهب جمهور العلماء إلى أن رسم المصحف العثمانى توقيفى لاتجوز مخالفته واستدلوا بما يأتى

(١) وقد عللوا ذلك بأن الأصل فى هذه الألفاظ كتابتها بالسين على ما هى اللغة الغالبة ولكنها كتبت فى المصاحف العثمانية بالصاد لتتعادل القراءتان القراءة التى يشهد لها الرسم والقراءة التى يشهد لها الأصل . ولو كتبت هذه الكلمات بالسين لفات ذلك، ولاعتبرت الصاد مخالفه للأصل والرسم، ولهذا اختلفت القراء فى (بصطة) فى الأعراف فقد قرى بالصاد، والسين ولم يقع اختلاف فى (بسطة) فى البقرة لكونها كتبت بالسين . فانظر كيف بلغ الصحابة فى رسم المصاحف إلى هذا الحد من الدقة وتحقيق العلم ؟ .

(٢) المؤمنون ٨٦ — ٨٩ فقد كتبتا فى مصاحف أهل البصرة بلفظ (الله) بدون اللام جوابا الاستفهام وكتبتا باللام فى مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشام على المعنى ، لأن من رب كذا؟ ولمن هو ؟ فى معنى واحد ، ولذلك جاء جواب الآية الأولى باللام لحسب قال تعالى (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون) بخلاف الآيتين اللتين تليها!

(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٦٧ - ١٧٠

- إن القران الكريم كتب كله بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يملى على كتاب الوحى ويرشدهم فى كتابته بوحى من جبريل عليه السلام فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية(١) ألق الدواه وحرف القلم وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم وحسن الله، ومد الرحمن. وجود الرحيم، وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك هذا إلى قراره صلى الله عليه وسلم الكتاب على جميع ما كتبوه وتقريره صلى الله عليه وسلم أحد وجوه السنن المعروفة.

٢ - إطباق القراء على إثبات الياء فى (واخشونى) فى البقرة الآية ١٥٠ وحذفها فى الموضعين فى المائدة(٢) وغير ذلك مما خولف فيه بين نظائر مختلفة بالحذف والإثبات والزيادة والنقصان كما ذكرنا آنفا فلو كان الرسم بالاجتهاد لما خولف فيه بين هذه النظائر والمتشابهات.

ولعل قائلا يقول: لعل هذا من تعدد كتاب الوحى. فإنهم لم يكونوا سواء فى الحذق بالهجاء. فمن ثم نشأ هذا الاختلاف.

والجواب. لو كان الأمر على ما يزعم هذا القائل لناقش بعضهم بعضاً فى هذا. ولا سيما الأمر يتعلق بالأصل الأول للإسلام. وتوفر الدواعى لحرية الرأى فى هذا العصر. ولكن لم ينقل إلينا أنهم تناقشوا فى هذا أوعاب بعضهم بعضا كتابته على أن هذا الاحتمال يبعد غاية البعد فى مثل قوله تعالى هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابية

---

(١) فى القاموس المحيط لاق الدواه يليقها لقية وليقاوألاقها جعل لها ليقة أو اصلح مدادها فلاقت الدواة لصق المداد بصوفها اى اصلح مدادها بوضع ليقة فيها وهو صوفة او نحوها.

(٢) المائدة ٣، ٤٤

(الحاقة ١٩ - ٢٠ فقد كتبت كتبيه بغير ألفا . وكتبت حسابيه بألف والكلمتان سواء ؟ .

٣ - لما جاور الرسول الرفيق الأعلى وجمع القرآن فى الصحف والمصاحف أجمع الصحابة على رسمه ولاسيما الخلفاء الراشدون ولم يخالف فى ذلك أحد وإجماعهم حجة وقد حث الرسول على الاقتداء بالخليفتين من بعده فقال «اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر» أخرجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وفى حديث العرباض بن ساريه «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» رواه أبو داود والترمذى وقال . حديث حسن صحيح وقد أقر هذا الرسم الخلفاء الراشدون ومن ورائهم الصحابة فكان لزاما على الأمة الإسلامية من بعدهم أن يقتدوا بهم ويتمسكوا برسم المصحف ولا يحيدوا عنه وقد قال ابن مسعود رضى الله عنه «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، وأقومها هديا ، وأحسنها حالا ، اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإقامة دينـــه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم ، فمن ثم ذهب جمهور الأئمة إلى التزام هذا الرسم .

أقوال الأئمه فى التزام الرسم العثمانى :

قال أشهب . سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال . لا إلا على الكتبة الأولى رواه الدانى فى المقنع ، قال . ولا مخالف له من علماء الأمه وقال فى موضع اخر . سأل مالك عن الحروف فى القران من الواو والألف أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك قال لا قال أبو عمرو . يعنى الواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو «أولوا» و «أولات» .

وقال الإمام أحمد : يحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو أو ياء أو ألف أو نحو ذلك .

وفي حواشي المنهج في فقه الشافعية مانصه « إنه ينبغي ألا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني » وقال البيهقي في « شعب الإيمان » « من كتب مصحفا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ، ولا يغير مما كتبوه شيئاً فإنهم كانوا أكثر علما وأصدق قلبا ولسانا وأعظم أمانة فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم » إلى غير ذلك من أقوال الأئمة في التزام الرسم العثماني .

ويسلمنا هذا الرأى إلى معرفه هل تعلم النبي صلى الله عليه وسلم القراءة والكتابة بعد أن لم يكن يعلمها ؟ أو أنه استمر على أميته وإليك بيان وجه الحق في هذا .

« هل صار النبي قارئا كاتبا »

اتفق العلماء قاطبة على أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث إلى الناس قاطبة ، لم يكن قارئا ولا كاتبا وذلك كي تقوم عليهم الحجة وتنتفي الشبهة في ثبوت معجزته الكبرى ، وهو القرآن ، إذ لو كان قارئا كاتبا لراجت شبهتهم وقوى ارتيابهم في أن ماجاء به نتيجة قراءة واطلاع ، ونظر في الكتب السابقة ، وقد أشار إلى هذا الحق تبارك وتعالى فقال « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذ الارتاب المطلوب ، بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتو العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » (١) .

أما بعد أن قامت حجته وعلت كلمته وعجزت العرب عن أن يأتوا بأقصر سورة منه ولم يعد للريب والظنون موضع فقد كان محل بحث ونظر فمن العلماء

---

(١) العنكبوت ٤٨ ، ٤٩

من قال : إنه تعلم القراءة والكتابة ومنهم من منع وقال : إنه استمر على أميته وقد بسط القول فى هذا الامام الألوسى فقد قال عقب تفسيره للآية السابقة مانصه :

« واختلف فى انه صلى الله عليه وسلم هل كان بعد النبوة يقرا ويكتب أم لا ؟ فقيل انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة واختاره البغوى فى التهذيب وقال إنه الأصح ، وادعى بعضهم انه صلى الله عليه وسلم صار يعلم الكتابه بعد ان كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القران واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب(١) تعرف الكتابة حينئذ وروى ابن أبى شيبة وغيره « ما مات - صلى الله عليه وسلم - حتى كتب وقرأ » ونقل هذا للشعبى فصدقة وقال : سمعت أقواما يقولونه وليس فى الآية ماينافيه وروى ابن ماجه عن أنس قال قال صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر » ثم قال :

ويشهد للكتابة أحاديث فى صحيح البخارى وغيره كما ورد فى صلح الحديبية « فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله » الحديث(٢) وممن ذهب إلى ذلك أبو ذر عبد الله ابن أحمد الهروى ، وأبو الفتح النيسابورى ، وأبو الوليد الباجى من المغاربة وحكاه عن السمنانى وصنف فيه كتابا وسبقه إليه ابن منية

---

(١) لعل مراده ظهور فساد الارتياب وانه لم يعد له مسوغ ، وفى فتح البارى جـ٧ ص ٤٠٥ « وامن الارتياب »

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب عمرة القضاء ورواه ايضاً النسائى فى سننه ، واحمد فى مسنده ، واما مسلم فرواه بدون «وليس يحسن يكتب» ولكن فى روايته اثبات الكتابة كما هنا ، والحديث نص فى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة وانه لم يحسنها .

ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر ، ثم عقد له مجلس فأقام الحجة على مدعاه وكتب إلى علماء الأطراف ، فأجابوا بما يوافقه ، ومعرفة الكتابة بعد أميته صلى الله عليه وسلم لا ينافى المعجزة ، بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم . وقد رد بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح « إنا أمة أمية « لا نكتب ولا ولا نحسب » وقال ، كل ما ورد فى الحديث من قوله « كتب » فمعناه أمر بالكتابة كما يقال . كتب السلطان بكذا لفلان ، وتقديم قوله تعالى . « من قبله » على قوله سبحانه « ولا تخطه » كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا ، وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد ، وظن بعض الأجلة رجوعه إلى ما قبله وما بعده فقال . يفهم من ذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان قادراً على التلاوة والخط بعدإنزال الكتاب ولولا هذا الاعتبار لكان الكلام خلوا عن الفائدة ، وأنت تعلم أنه لو سلم ما ذكره من الرجوع لا يتم أمر الأفادة إلا إذا قيل بحجية المفهوم ، والظان ممن لا يقول بحجيته (ثم قال الألوسى فى تفنيد هذه الردود ما نصه .

« ولا يخفى أن قوله عليه الصلاة والسلام » إنا أمة لا نكتب ولا نحسب » ليس نصافى استمرار نفى الكتابة عنه عليه الصلاة والسلام ولعل ذلك باعتبار أنه بعث عليه الصلاة والسلام وهو وأكثر من بعث إليهم ، وهو بين ظهرانيهم من العرب أميون . لا يكتبون ولا يحسبون ، فلا يضر عدم بقاء وصف الأمية فى الأكثر بعد ، وأما ما ذكر من تأويل كتب بأمر بالكتابة فخلاف الظاهر ، وفى شرح صحيح مسلم للنووى عليه الرحمة نقلا عن القاضى عياض . أن قوله فى الرواية التى ذكرناها . ولا يحسن يكتب فكتب . كالنص فى أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه ، ثم قال . وقد طال كلام كل فرقة فى هذه المسألة ؛ وشنعت كل فرقة على الأخرى فى هذا فالله تعالى أعلم[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢١ ص ٤ ، ٥ ط منير ، وفتح البارى ج ٧ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦

والذى يترجح عندى أنه صلى الله عليه وسلم تعلم الكتابة بعد أن لم يكن يعلمها وكفى فى هذا دليلا حديث البخارى ، ومستبعد جداً من مثل رسول الله ـ فى ذكائه وفطنته ولقانته ـ أن لا يتعلم الكتابة بعد طول إملاء القرآن على الكاتبين ورؤيته لهم وهم يكتبون ، على أنه من الممكن جداً أن يكون الله سبحانه وتعالى علم نبيه القراءة والكتابة كما علمه غيرهما ـ مما لم يكن يعلم بطريق وحى من غير ضرورة إلى تعلم او كسب، وأيا كان الأمر فلا تنافى بين كونه صلى الله علية وسلم بعث وهو أمى ، وكون رسم القرآن توقيفيا ، لأنه إن كان تعلم الكتابة فالأمر ظاهر وإن لم يكن تعلمها فيكون تلقينه ، وإرشاده الكاتبين إلى طريقة كتابته بتلقين من جبريل ووحى منه .

« فوائد الرسم العثمانى »

لاتباع رسم رسم المصحف العثمانى فوائدها منها .

١ — اتصال السند بالقرآن الكريم فلا يجوز لأحد أن يقرأه أويقرئه غيره إلا بروايته بسند متصل ؛ فمن علم القواعد العربية ، ولكن لا يأخذ القرآن عن غيره لا يعرف قراءته على وجهها الصحيح ، فإن بعض ألفاظه كتبت على غير النطق بها كما أسلفنا،فواتح بعض سورة كتبت برسم الحروف لا بهيئات النطق بها وإلا فقل لى — بربك — كيف يتوصل القارىء إلى قراءة ، و « حم عسق » و « طسم » و « المص » [1] وغيرها فالذى يعلم

---

(١) إنما قطعت (حم عسق) الشورى فى الرسم دون أخواتها المذكورات معها طردا للأولى بأخواتها الستةوهى الحواميم غافر وفصلت، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف

العربية والهجاء ولكنه لا يتلقى عن غيره كيفية القراءة والأداء قد يقرؤها على غير وجهها الصحيح ، إذ النطق بها صحيحة يتوقف على التلقى والسماع من قراء القرآن وحفاظه المشتغلين به ، واتصال السند من خصائص القرآن الكريم بالنسبة لغيره من الكتب السماوية وبه ظل محفوظا كما وعد الله سبحانه وتعالى بقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وليس من شك فى أن الرسم المخصوص له أعظم الأثر فى اتصال السند إذ لو كانت جميع ألفاظه مكتوبة طبق النطق بها لتجرأ الكثيرون على قراءته بغير رواية عن غيره ، وحينئذ يفوتهم معرفة ما فيه من طرق الأداء من مد وتخفيف وإمالة وإظهار وإدغام وإخفاء إلى غير ذلك من طرق الأداء .

٢ — الدلالة على أصل الحركة ككتابة الكسرة ياء والضمة واوا نحو « وإيتاءى ذى القربى » و « سأوريكم » أو الدلالة على أصل الحرف ككتابة الصلاة والزكاة والحياة والربا بالواو بدل الألف .

٣ — الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء فى لغة طيء ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم مثل « يوم يأت » فى لغة هذيل :

٤ — الدلالة على معنى خفى دقيق كزيادة الياء فى قوله « والسماء بنيناها بأييد » بياءين وذلك للإيماء إلى قدرة الخالق جل وعلا - التى بنى بها السماء وأنها لا تشبهها قوة على حد القاعدة المشهورة زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وكزيادة الألف فى وجاىء بالنبيين» فى الزمر وجاىء يومئذ بجهنم » فى الفجر ، للتهويل والتفخيم والوعيد والتهديد .

ومن هذا القبيل كتابة هذه الأفعال بغير واو «ويدع الإنسان بالشر» [1]

---

(١) الإسراء / ١١

« ويمح الله الباطل »(١) « يوم يدع الداعى »(٢) « سندع الزبانية » (٣) « فإنها كتبت فى المصاحف العثمانية بغير واو ولذلك سر دقيق لمن أمعن النظر فالسر فى حذفها — كما قال المراكشى — التنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل وشدة قبول المنفعل المتأثر به فى الوجود، أما الحذف فى الأولى فللإشارة إلى أن الإنسان يسارع إلى الدعاء بالشر ، كما يسارع إلى الخير، بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير ، ولا سيما عند الغضب ، وأما السر فى حذفها فى الثانية فللإشارة إلى سرعة ذهاب الباطل واضمحلاله وأما السر فى حذفها فى الثالثة فللإشارة إلى سرعة الدعاء وسرعة إجابة الداعين ، وأما السر فى حذفها فى الرابعة فللإشارة إلى سرعة الفعل ، وإجابة الزبانية (٤) .

أقول : وفيه — أيضاً — تطابق بين المتجاورين فى اللفظ إذ قبلها « فليدع ناديه » ، وإشارة إلى أن إجابة الزبانية أسرع من إجابة أهل ناديه .

وعلل الشيخ العلامة المراكشى لزيادة الواو فى قوله تعالى « سأوريكم دار الفاسقين »(٥) وقوله : « سأوريكم آياتى » ، للدلالة على ظهور معنى الكلمة فى الوجود، فى أعظم رتبة للعيان قال: ويدل على ذلك أن الآيتين جاءتا للتهديد والوعيد ، أقول : فيكون فيه تطابق بين اللفظ والمعنى .

أقول : وعلى هذا اللون من الاجتهاد فى التعليل للرسم يمكن أن نقول(٦) فى زيادة الألف فى قوله تعالى : « ولأاوضعوا خلالكم(٧) » السر فيه الإيماء

---

(١) الشورى ٢٤ (٢) القمر / ٦

(٣) إقرأ / ٦ (٤) الإتقان جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٥، ٦) قد استفدت فى كثير من هذا بما ذكره العلامة الشيخ المراكشى ولكنى زدته توضيحا وبعضها مما اجتهدت فيه كما اجتهد العلماء من قبل

(٧) براءة ٤٧ .

إلى أن هؤلاء المعتذرين المتخلفين من المنافقين لو خرجوا معكم لأكثروا من الايضاع فى الفتنة ، والإفساد ـ والايضاع هو الاسراع ـ ولجاوزوا الحد فى هذا ، فتوافق الرسم والمعنى .

وفى زيادة الياء فى قوله تعالى .« بأييكم المفتون »(١) أى المجنون: الإشارة إلى أن جنون المشركين بلغ الغاية ، وتجاوز الحد ، وأنهم المجانين لا أنت ، لأن مثلك يا محمد فى رجاحة عقلك ،وعظم اخلاقك،وسمو فضائلك لا يصح أن يرمى بالجنون فمن رماك به فقد رجع على نفسه بالجنون ، وبذلك يتوافق الرسم ، والمعنى والكلام فى ظاهره ترديد بين أمرين ، وهو فى الحقيقة يراد به ما ذكرت ، وهو لون من ألوان الحجاج فى القرآن يدل على غاية النصفة مع الخصوم ، ومثله قوله سبحانه :

« وإنا أو إياكم لعلى هدى . أو فى ضلال مبين » مع اليقين أن النبى وأتباعه على الهدى . وهم الذين فى ضلال بين ظاهر .

وأن نقول فى زيادة الألف آخرا فى قوله تعالى « تالله تفتؤا تذكر يوسف(٢) » .

الدلالة على كثرة ذلك. وأن سيدنا يعقوب ماكان ينفك عن ذكر يوسف عليه السلام .

وفى قوله تعالى . أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيئوا ظلاله عن اليمين والشمائل.

سجد الله . وهم داخرون(٣) الدلالة على كثرة تفيىء الظلال وعمومها لكل ذى جرم.

وقوله تعالى : «وأنك لا تظمئوا فيها . ولا تضحى(٤) الدلالة على دوام عدم الظمأ ، واستمرار الرى لمن كان فى الجنة .

---

(١) القلم ٦ . (٢) يوسف ٨٥ . (٣) النحل ٤٨ (٤) طه ١١٩ .

وقوله تعالى : « قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم (١) أى عبادتكم . أو تضرعكم بالدعاء المبالغة فى عدم اعتناء الله بمن لا يعبده . ولا يتضرع إليه .

وكذلك زيادة الألف فى لفظ «الربوا» ليتوافق الرسم والمعنى. فالربا زيادة بلا مقابل ، وهذه الألف زيادة بلا مقابل فى التلفظ .

وكذلك نقول فى زيادة الألف بعد الفعل المضارع المعل الآخر فى قوله تعالى :

وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفوا عن كثير(٢) فيها الاشارة إلى كثرة عفو الله. واستمراره وإلا فلو أخذنا الله بمعاصينا وآثامنا لما ترك على ظهر الارض من دابة

فإن قيل : إن بعد هذه الاية بآيات قوله تعالى : أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، قلت أما على قراءة ويعف عطفاً على المجزوم قبله(٣) فحذف الواو ظاهر ؛ واما على قراءة (ويعفو) بالرفع على الاستئناف بغير ألف فذلك لانه لما كانت حالة الاهلاك بسبب تسليط الاعاصير على السفن قليلة كان ما يترتب على ذلك من العفو ليس كثيرا ايضاً فلذلك لم يؤت فيها بالألف بعد الواو على ان مجيئها بغير ألف هو الأصل فلا يسأل عنه

وكذلك زيادة الألف فى قوله تعالى ويدرءوا عنها العذاب(٤) اى يدفع للإشارة إلى قوة واستمرار درء الحد عنها ما دامت شهدت هذه الشهادات الخمس .

وكذلك زيدت الألف بعد الهمزة فى قوله تعالى « إنى أريد أن تبوء بإثمى . وإثمك .(٥)

---

(١) الفرقان ٧٧ (٢) الشورى ٣٠ .

(٣) وهو قوله تعالى «إن يشأ يسكن الريح، فيظلن روا كد على ظهره ...»

(٤) النور ٨ . (٥) المائدة ٢٩ .

وقوله لتنوء بالعصبة أولى القوة(١) للإشارة فى الأولى إلى أنه يبوء بأثمن بسبب فعل واحد ؛ وفى الثانية إلى كثرة مفاتيح قارون كثرة بها ثقلت وأثقلتهم . فكأنها ثقلان لجاء الرسم موحيا بهذا المعنى .

وأما حذف الألف من سعو فى قوله تعالى : والذين سعو فى آياتنا معاجزين (٢) .

فللإشارة إلى انه سعى بالباطل لا يصح ان يكون له ثبات فى الوجو دوانهم لن يحصلوا منه على طائل .

ومثل ذلك « وجاء وبسحر عظيم »(٣) وقوله « وجاءو ظلما وزورا »(٤) « وجاءو أباهم عشاء يبكون »(٥) « وجاءو على قميصه بدم كذب »(٦) فهو لبيان أن بجيئهم ليس على وجه صحيح ، ويغلب عليه التصنع والزور ، والتمويه فمن هنا جاء رسم الكلمات على غير المعهود المعروف .

وكذلك حذف الألف من قوله : « وعتو عتوا كبيرا » للاشارة إلى أنه باطل ولا أثر له يذكر فى الوجود .

وقالوا : حذفت الألف من معظم الألفاظ الأعجمية فى الاصل كابراهيم وإسماعيل وإسحاق وهارون ونحوها لكثرة الاستعمال ، فقد رسمت فى المصاحف بدون ألف وإنما لم تحذف من داود لانه حذفت منه الواو ، فلم يجحفوا بحذف ألف أخرى .

وأما زيادة الياء فى قوله تعالى وإيتاءى ذى القربى(٧) فللإشارة إلى الإيتاء ينبغى أن يكون ممدوداً موصولا غير منقطع ، فيكون فيه تطابق بين اللفظ

---

(١) القصص ٧٦ . (٢) سبأ آية ٥ . (٣) الاعراف ١١٦ .
(٤) الفرقان ٤ . (٥، ٦) يوسف ١٦ ، ١٨ . (٧) النحل ٩٠.

والمعنى وفى قوله تعالى ولقد جاءك من نبأى المرسلين(١) للإشارة إلى كثرة ما جاء فى القرآن من أخبار الانبياء وتحملهم الاذى البالغ والصبر الصابر حتى جاء نصر الله .

وفى قوله ومن آناءى الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى٢ للإشارة إلى أنه ينبغى أن يشغل معظم ساعات الليل بالقيام والتسبيح فجاءت هيئة رسم اللفظ موجبة بهذا المعنى وفى قوله « أو من وراءى حجاب » (٣) .

للإشارة إلى كلام من وراء وراء ، فهو وراء فسيح ممدود لاحدله .

وهكذا لا يعدم التأمل فى رسم القرآن بعقل فسيح وقلب مستنير من أن يجد فى الرسم من أسرار القرآن الشيء الكثير فلله در القرآن ما أعظم بركاته وما أكثر أسراره معنى ولفظا ورسما

(٥) إفادة بعض المعانى المختلفة بطريقة لاخفاء فيها وذلك نحو قطع كلمة أم فى قوله تعالى «أم من يكون عليهم وكيلا» ووصلها فى قوله تعالى «أمن يمشى سويا على سراط مستقيم» فقطع الأولى فى الكتابة للدلالة على أنها « أم » المنقطعة بمعنى بل ، ووصل أم الثانية للدلالة على أنها ليست المنقطعة ، وإنما هى المتصلة .

(الرأى الثانى)

إن رسم المصحف اصطلاحى لا توقيفى وممن ذهب إلى هذا ابن خلدون فى مقدمته(٤) والقاضى أبو بكر الباقلانى فى الانتصار حيث قالا إن رسم

---

(١) الانعام ٣٤

(٢) طه ١٣٠

(٣) الشورى ٥١

(٤) المقدمة ص ٣٥١ ، فقد قال : إن الكتابة من الصناعات التى تتبع الحضارة تقدماً وتأخراً فكلما كانت الحضارة قوية كانت الكتابة أحكم وأجود وكلما كانت

المصحف كان باصطلاح من الصحابة لأنهم كانوا حديثي عهد بالكتابة وإليك ماقاله القاضي ابو بكر . واما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذا لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ماعداه ؛ إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف . وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه ان رسم القرآن وضبطة لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه . ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك ولا دلت عليه القياسات الشرعية. بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ، ولم يبين لهم وجها معينا . ولا نهى أحداً عن كتابته . ولذلك اختلفت خطوط المصاحف . فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ . ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمة بأن ذلك اصطلاح وان الناس لايخفى عليهم الحال ، ولأجل هذا بعينه جاز ان يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول ، وان يجعل اللام على صورة الكاف ، وان تعوج الألفات وان يكتب على غير هذه الوجوه وجاز ان يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين ، وجاز ان يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة ، وجاز ان يكتب بين ذلك .

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وأن الناس قد أجازوا ذلك وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر ، علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص ، كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان ،

= البداوة مستحكمة كانت الأمية أغلب وأعم، وأن الصحابة لم يكونوا على درجة من إتقان الخط ، فمن ثم خالفت خطوط المصاحف ماهو معروف من القواعد الخطية فى بعض الآيات القرآنية ، وأن من جاء بعدهم . اقتدى برسمهم . اتباعا لهم وتبركا بهم إلى آخر ماقال ...

والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز فكل رسم دال على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته وتصويب الكاتب به على أى صورة كانت .

وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه ، وأنى له ذلك ؟) وقد نوقش هذا المذهب بما يأتى .

١ — بالأدلة التى ساقها جمهور العلماء لتأييد القول بالتوقيف وقدمرت بك عن كثب .

٢ — ما ادعاه من أنه ليس فى نصوص السنة الخ مردود بما روى من قوله صلى الله عليه وسلم لمعاوية (ألق الدواة ، وحرف القلم) الحديث .

وبما ذكرناه من أن النبى أقر الكاتبين على ما كتبوا والتقرير أحد أنواع السنة .

٣ — ما ذكره من قوله (ولذلك اختلفت خطوط المصاحف الخ) غير مسلم لقيام الاجماع على الرسم العثمانى وعدم وجود المخالف وتتابع الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم على ما جاء فى هذه المصاحف من غير نكير له .

٤ — أما ما ذكره ابن خلدون من أن العرب كانوا مغرقين فى البداوه .

فنقول : إنهم بعد الإسلام قد خطوا فى الحضارة العلمية ، والكتابية خطوات ملموسة ، وذلك لما بينا من أن الإسلام دين العلم ، والمعرفة ؛ وأنه دعا إلى إزالة الأمية من أول يوم ، وأما متابعة من جاء بعد الصحابة لهم فى رسم المصحف تبركا بهم . فلم يكن التبرك هو المعول عليه فى هذا العصر ، وإنما كان ديدنهم ما وافق الحق والصواب قبلوه ، وما خالف الحق والصواب نبذوه وأما أن الصحابة لم يكونوا على درجة من اتقان الخط فمردود ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم اختار كتاب القرآن من الحذاق بالكتابة ، ومنهم من كان يعرفها فى الجاهلية ، ثم جاء الإسلام ، فزاده حذقا ومعرفة بها ، وقد مرت مثل مما التزموه فى الكتابة يدل دلالة أكيدة على أن هذا أمر كان

مقصودا لهم وأنهم كانوا على درجة من الحذق بالهجاء والكتابة.

(رأى صاحب الذهب الأبريز)

ولعل مما يستحسن ذكره فى هذا المقام لنفاسته وكفايته فى الرد على القائلين بالاجتهاد ما ذكره العلامة ابن المبارك نقلا عن شيخه العارف بالله الشيخ عبد العزيز الدباغ إذ يقول فى كتابه (الذهب الأبريز) ما نصه :

(رسم القرآن سر من أسرار الله المشاهدة ، وكمال الرفعة ،قال ابن المبارك فقلت له . هل رسم الواو فى سأوريكم وأولئك ، وأولاء . وأولات ، وكالياء فى نحو (هدايهم) ، ملايه) و (بأييكم) هذا كله صادر من النبى صلى عليه وسلم أو من الصحابة ؟ فقال : هو صادر من النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى أمر الكتاب من الصحابة أن يكتبوه على هذه الهيئة . فما نقصوا ولا زادوا على ما سمعوه من النبى .

فقلت له أن جماعة من العلماء ترخصوا فى أمر الرسم وقالوا . أنما هو اصطلاح من الصحابة مشوا فيه على ما كانت قريش تكتب عليه فى الجاهلية وإنما صدر ذلك من الصحابة لأن قريشا تعلموا الكتابة من أهل الحيرة وأهل الحيرة ينطقون بالواو فى الربا فكتبوا على وفق منطقهم ينطقون فيه بالألف وكتابتهم له بالواو على منطق غيرهم وتقليد لهم حتى قال القاضى أبو بكر الباقلانى . كل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه فأنه ليس فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى الإجماع ما يدل على ذلك فقال :

(ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن ولا شعرة واحدة وإنما هو توقيف من النبى وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها لأسرار لا تهتدى إليها العقول . وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية . وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز . وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى

(مائة) دون (فئة) ؟ وإلى سر زيادة الياء فى بأييد) (وبأييكم) ؟ أم كيف تتوصل إلى زيادة الألف فى (سعوا) بالحج ونقصانها من (سعو) بسبأ ؟ وإلى سر زيادتها فى (عتوا) حيث كان ونقصانها من (عتو) فى الفرقان وإلى سر زيادتها فى (آمنوا) وإسقاطها من (باءو) و«فاءو» بالبقرة، و«جاءو» فى سورتى يوسف والنمل و«تبوءو» فى سورة الحشر وإلى سر زيادتها فى «أو يعفوا الذى» ونقصانها من «أن يعفو عنهم» فى النساء ؟ أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض كحذف الألف من «قرءنا» بيوسف والزخرف وإثباتها فى سائر المواضع ؟ وإثبات الألف بعد واو (سموات) فى فصلت وحذفها من غيرها ؟ وإثبات الألف فى «الميعاد» مطلقاً وحذفها من الموضع الذى فى الأنفال ؟ وإثبات الألف فى «سراجا» حيثما وقع وحذفه من موضع الفرقان ؟ وكيف تتوصل إلى فتح بعض التاءات وربطها فى بعض ؟ فكل ذلك لأسرار إلهية ، وأغراض نبوية ، وإنما خفيت عن الناس لأنها أسرار باطنيه

لاتدرك إلا بالفتح الربانى، فهى بمنزلة الألفاظ والحروف المتقطعة التى فى أوائل السور ، فأن لها أسرار عظيمة ، ومعانى كثيرة وأكثر الناس لايهتدون إلى أسرارها ، ولا يدركون شيئا من المعانى التى أشير إليها ، فكذلك أمر الرسم الذى فى القرآن حرفاً حرفاً .

وأما قول من قال . إن الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور فلا يخفى مافى كلامه من البطلان ، لأن القرآن كتب فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وبين يديه ، وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة ، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها ، فإن كان عينها بطل الإصلاح ، لأن سبقية النبى صلى الله عليه وسلم تنافى ذلك وتوجب الاتباع ، وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبى صلى الله عليه وسلم كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسى مثلا والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى ؟ فلا يصح ذلك لوجهين . أحدهما

نسبة الصحابة إلى المخالفة وذلك محال . ثانيهما . أن سائر الأمة من الصحابة ، وغيرهم أجمعوا على أنه لايجوز زيادة حرف فى القرأن ولا نقصان حرف منه وما بين الدفتين كلام الله عز وجل ، فاذا كان النبى صلى الله عليه وسلم أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلا ، ولم يزد الألف فى (مائة) ولا فى (ولاأوضعوا) ولا اليا فى (بأييد) ونحو ذلك والصحابة عا كسوه فى ذلك وخالفوه لزم أنهم — وحاشاهم من ذلك — تصرفوا فى القرآن بالزيادة والنقصان ، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على مالايحل لأحد فعله ، ولزم تطرق الشك إلى جميع مابين الدفتين ، لأنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة أو زائدة على مافى علم النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ماعنده ، وأنها ليست بوحى ولا من عند الله ولانعلمها بعينها ، شككنا فى الجميع ولئن جوزنا للصحابى أن يزيد فى كتابته حرفا ليس بوحى ، لزمنا أن نجوز لصحابى آخر نقصان حرف من الوحى ، إذ لا فرق بينهما ، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية ثم قال ابن المبارك بعد كلام . . فقلت له ؛ فإن كان الرسم توقيفيا بوحى الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه كألفاظ القرآن ، فلم لم ينقل تواترا حتى ترتفع عنه الريبة وتطمئن به القلوب كألفاظ القرآن ؟ فإنه ما من حرف إلا وقد نقل تواتراً لم يقع فيه اختلاف ولا اضطراب ، وأما الرسم فانه إنما نقل بالآحاد كما يعلم من الكتب الموضوعة فيه ، وما نقل بالاحاد وقع الاضطراب بين النقلة فى كثير منه وكيف تضيع الأمة شيئاً من الوحى؟ فقال « ماضيعت الأمة شيئا من الوحى والقرآن بحمد الله محفوظ ألفاظاً ورسماً ؛ فأهل العرفان والشهود والعيان حفظوا ألفاظه ورسمه ولم يضيعوا منها شعرة واحدة، وأدركوا ذلك بالشهود والعيان الذى هو فوق التواتر، وغيرهم حفظوا ألفاظه الواصلة إليهم بالتواتر واختلافهم فى بعض الحروف فى الرسم لا يقدح ولا يصير الأمة مضيعة كما لا يضر جهل العامة بالقرآن وعدم حفظهم لألفاظه » .

الرأى الثالث

وهو أنه يجوز كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة ، ليكون ابعد عن اللبس ، والخلط فى القرآن ، ولكن يجب فى الوقت ذاته المحافظة على الرسم العثمانى كأثر من الآثار الإسلامية النفيسة الموروثة عن السلف الصالح ، فلا يهمل مراعاة للجاهلين بل يجب أن يبقى فى أيدى العلماء العارفين الذين لاتخلو منهم الأرض ، وإلى هذا الرأى ذهب الإمام ابن عبد السلام وتابعه صاحب البرهان .

قال صاحب التبيان « وأما كتابته — أى المصحف — على ما أحدث الناس من الهجاء فقد جرى عليها أهل المشرق بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتحاماها أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك — وقد سئل : هل يكتب المصحف على ما أحدث الناس من الهجاء ؟فقال : لا ، إلا على الكتبة الأولى ، قال فى البرهان قلت : وهذا كان فى الصدر الأول والعلم حى غض ، وأما الآن فقد يخشى الألتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين ابن عبد السلام . لا تجوز كتابة المصحف الآن على المرسوم الأول باصطلاح الأئمة لئلا يوقع فى تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغى إجراء هذا على إطلاقه لئلا يؤدى إلى درس العلم وشىء أحكمته القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ، ولن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة(١)) وهذا الرأى وسط بين المذهبين السالفين ، ويقوم على رعاية الاحتياط للقرآن وتنزيه ساحته عن التغيير والتبديل بالإبقاء على الرسم العثمانى الذى هو الأصل ، وعلى رعاية التسهيل والتخفيف على العامة والناشئة بكتابته على حسب ما يتيسر لهم ويتسهل عليهم ، ولعله الأولى بالقبول .

---

(١) التبيان ص ١٧٨ ، البرهان فى علوم القرآن ج ١ .

(رأى جديد جدير بالبحث والنظر)

ومع أنى مقتنع بالتزام الترقيف فى المصاحف العثمانية ، وأنه لا بد من الابقاء عليه عند كتابة المصاحف وطبعها ولكنى أضع بين يدى القارىء هذا التساؤل :

أالخير فى الإبقاء على هذا الرسم فى المصاحف ، والأجزاء ، والكتب المؤلفة لطلبة المدارس ؛ والمعاهد ، والجامعات غير الدينية وفى الصحف . والمجلات ونحوها على ما فى ذلك من التعسير على القراء ولا سيما هؤلاء الطلاب ، وعدم التيسير عليهم فى قراءة القرآن ؟ !

أم الخير فى التزام الرسم العثمانى ، فى المصاحف الكاملة ، التى كتب فيها القرآن جميعه ، والتى هى الحجة والمرجع عند الاختلاف ، والاحتكام وكتابة القرآن فيما عدا هذه المصاحف من الكتب العلمية والأجزاء القرآنية , والمجلات ، والصحف ونحوها على الرسم المعروف ، الآن ، وقبل الآن والذى يتلقاه الطلاب والتلاميذ فى مدارسهم ومعاهدهم ! ؟

الذى يترجح عندى وأرى فيه الخير ، والمصلحة هو الثانى ، وبذلك يتيسر على قارىء القرآن الذى لم يتلق القراءة عن شيخ ومعلم ، قراءته ، وحفظه ، ونكون قد جذبنا طلاب المدارس إلى القرآن ، الذى هو مصدر الإيمان ، والهدى والحق ، والخير وفى الوقت نفسه حافظنا على الرسم العثمانى فى ملايين المصاحف المبثوثة فى العالمين الإسلامى والعربى .

ويمكن زيادة فى التحوط عند كتابة القرآن فى كتب العلم ، والدين . والأجزاء , والمجلات ونحوها أن ننبه فى الهامش على الكلمات التى كتبت على حسب القواعد الإملائية وأنها كتبت فى المصاحف على رسم كذا ، حتى يكون التلاميذ ، والطلاب على بينة من الأمر ، ولا يقعوا فى بلبلة وشكوك وبذلك نكون جمعنا بين الحسنيين ، وحققنا المصلحتين .

وهذا الرأى أشد توثيقاللمصاحف العثمانية ، وأرعى لحاجات المسلمين، ومصلحتهم ، وأخص من رأى الإمام العز بن عبد السلام لأنه أجاز ذلك فى المصاحف وغيرها ، وأما أنا فقصرت جواز ذلك على غير المصاحف ، واحتفظت للمصاحف بقدسيتها ، وجلالها ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

(لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية)

« الشبه التى أثيرت حول كتابة القرآن ورسمه»

من دأب القسس(١) والمبشرين والمستشرقين أن يتلمسوا المطاعن فى القرآن الكريم وكتابته ورسمه المجمع عليه فى المصاحف العثمانية ، وقد مربك ما أوردوه على جمع القرآن من شبه وترهات ، وكذلك صنعوا حول كتابة القرآن ورسمه وكل ما استندوا إليه يرجع إما إلى روايات باطلة نسبت إلى السلف الصالح كذبا وزورا ، وقد تنبه العلماء إليها من قديم الزمان ، وإما إلى اعتراضات(٢) أوردها المؤلفون فى تفسير القرآن وعلومه وأجابوا عنها بما يقنع ويشفى ، فجاء هؤلاء القسس الذين تستروا تحت اسم « المستشرقين» فاطلعوا على هذه الروايات والاعتراضات فطاروا بها فرحا ،

---

(١) حمل لواء هذا الافك قس يدعى «فندر» فألف كتاباً سماه « ميزان الحق » وأولى به أن يسمى ميزان الباطل وقس آخر مجهول تستر تحت اسم هاشم العربى فى « تذييل مقال فى الإسلام » وقس ثالث يدعى « تسدل » أنظر كتاب « أدلة اليقين » ص ٨ ، ٩ للمغفور له أستاذنا الشيخ عبد الرحمن الجزيرى .

(٢) أنظر مقدمان فى علوم القرآن ص ١٠٤ وما بعدها.

وهولوا ما شاء لهم هواهم أن يهولوا وظنوا أنهم وصلوا إلى ما يريدون من تشكيك المسلمين فى أقدس مقدساتهم وهو القرآن الكريم .

وقد قيض الله لهذه الشبه من علماء المسلمين من زيفها وبين بطلانها وسترى بعد إيرادنا هذه الشبه والرد عليها أنها سراب لاحقيقة له ، وأنهم طعنوا فى فى غير مطعن ، وطاروا فى غير مطار .

الشبهة الأولى :

قالوا روى عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ أنه حين عرض عليه المصحف قال أحسنتم وأجملتم إن فى القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها وروى عن عكرمة أنه قال . لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال . لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها ، لو الكاتب من ثقيف والمملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف ، قالوا : فكيف تكون المصاحف العثمانية مع هذا موضع إجماع من الصحابة وثقة من المسلمين ؟ بل كيف يكون رسم المصحف توقيفيا وهذا هو عثمان يقول إن فيه لحنا ؟

والجواب :

(١) أن هاتين الروايتين ضعيفتا الإسناد وإن فيهما اضطرابا وانقطاعا يذهب بالثقة بهما كما قال الإمام السخاوى فى الرواية الثانية ونقله الإمام الألوسى فى تفسيره(١) وعكرمة لم يسمع من عثمان أصلا وقد روى

---

(١) جزء ٦ ص ٥ ط منير .

الأثر الثانى عن يحيى بن يعمر عن عثمان وهو أيضا لم يسمع من عثمان وقد رد الرواية الأولى جماعة من العلماء كالإمام أبى بكر الباقلانى والحافظ أبى عمرو الدانى وأبى القاسم الشاطبى والجعبرى وغيرهم وغير خفى على المتأمل ما فى الروايتين من اضطراب وتناقض فإن قوله : أحسنتم وأجملتم مدح وثناء وقوله . أن فيه لحنا يشعر بالتقصير والتفريط فكيف يصح فى العقول أن يمدحهم على التقصير والتفريط .

وأيضاً فالغرض من كتابة المصاحف فى عهد عثمان رضى الله عنه على حرف قريش أن تكون مرجعاً عاماً يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف فى حروف القرآن وقراءاته ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكل تصحيحها إليهم ، إن هذا إن صح فسيصل بنا إلى الدور المحال ؛ إذ تكون صحة قراءتهم متوقفة على القراءة وفق المصاحف التى كتبها لهم عثمان ، وصحة المصاحف وسلامتها من اللحن متوقفة على صحة قراءتهم ، وهذا ما ننزه عنه أى عاقل فضلا عن عثمان رضى الله عنه .

٢ — إن هذين الأثرين يخالفان ما كان عليه عثمان رضى الله عنه من حفظه القرآن ، وملازمة قراءته ، ومدارسته حتى صار فى ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن وقد حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصاحف بسياج قوى من المحافظة على القرآن أن يتطرق إليه لحن أو تحريف أو تبديل وجعل من نفسه حارسا أمينا على كتاب المصاحف فى عهده ، والمرجع عند أى اختلاف فى كيفية الرسم فقد قال للرهط القرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، وقد اختلفوا فى « التابوت » أيكتبونه بالتاء أم بالهاء ؟ ورفعوا الأمر إليه . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء . فإذا كان هذا شأنه وشأنهم فى حرف لا يتغير به المعنى ولا يعتبر تحريفا ولا تبديلا لاستناده إلى الحروف التى نزل بها القرآن فكيف يعقل منه ان يرى فى المصاحف لحنا ثم يقرهم عليه؟ وإليك رواية أخرى تدل على مبلغ عنايته بالقرآن عند الكتابة .

أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانىء مولى قال : كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبى بن كعب فيها «لم يتسن» وفيها « لا تبـــديل للخلق » وفيها « فأمهل الكافرين » فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب « لخلق الله » ومحا « فأمهل » وكتب « فمهل » وكتب « لم يتسنه » فألحق فيها الهاء فهل يصح فى العقول ممن هذا شأنه أن يرى لحنا فى المصاحف ثم يقرهم عليه ويدعه للعرب تصلحه ؟ ومن أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه وهو من هو فى حفظ القرآن والحفاظ عليه ؟

ولو جوزنا فرضا أن عثمان تساهل فى إصـــلاح هذا أفيدعه جمهور المسلمين من المهاجرين والأنصار دون أن يصححوه ؟ وهم الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم ولا يقرون على باطل ، ولو صحت هذه المقالة عن عثمان لأنكروا عليه غاية الإنكار ولو أنكروا لاستفاض ونقل إلينا وأنى هو ؟ ولقد كانوا يعترضون عليه وعلى غيره فيما دون هذا فما بالك بأمر يتعلق بالقرآن الكريم ؟ الحق أن هذا لا يصدقه إلا من ألغى عقله .

٣ — على فرض صحة هذين الأثرين فيمكن أن نؤولهما بما يتفق هو والصحيح المعروف عن عثمان فى جمع القرآن ونسخ المصاحف ، وذلك بأن يحمل لفظ « لحنا » على معنى اللغة ويكون المعنى أن فى رسم القرآن وكتابته فى المصاحف وجها فى القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعا الآن ، ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعاً بالمرانة ، وكثرة تلاوة القـــرآن بهذا الوجه .

الشبهة الثانية :

قالوا : إن سعيد بن جبير كان يقرأ « والمقيمين الصلاة (١) ويقول هو من لحن الكتاب .

---

(١) هى من آية فى سورة النساء (١٦٢) ونصها « لكن الراسخون فى العلم =

والجواب . إن هذه الرواية أن صحت فابن جبير لم يرد باللحن الخطأ وإنما أراد اللغة وهو احد معانى اللحن كما فى القاموس وغيره من كتب اللغة ولو كان يريد باللحن الخطأ لما قرأ به وكيف يقرأ بحرف يرى انه خطأ؟ وقد قرئت هذه الكلمة بقراءتين سبعيتين قرأ الجمهور بالنصب وقرأ غير الجمهور بالرفع « والمقيمون الصلاة » اما الرفع فظاهر إذ هو معطوف على ماقبله ، واما النصب فوجهه النصب على المدح لبيان فضل الصلاة ومنزلتها من شرائع الدين ولهذا الأسلوب شواهد كثيرة فى لغة العرب وقد عقد له سيبويه فى الكتاب بابا فقال . « هذا باب ما ينتصب على التعظيم » ومما انشده .

لا يبعدن قومى الذين هم سم العفاة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبـــون معاقد الأزر

وإليك ما قاله إمام من أئمة العربية قال الزمخشرى فى تفسيره ج ١ ص ٣٩٧ عند تفسير هذه الآية «ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر فى «الكتاب» (١) ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان وغبى (٢) عليه ان السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه ، من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم ، وخرقا يرفوه من يلحق بهم » .

الشبهة الثالثة :

قالوا : روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم

= منهم . والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك . وما أنزل من قبلك . والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما » .

(١) مراده كتاب سيبويه . وهو علم بالغلبة عند النحويين .

(٢) أى خفى عليه . ولم يفطن له

حتى تستأنسوا و تسلموا على أهلها ، إن الـكاتب أخطأ إنما هو «تستأذنوا » فهذا يدل على أن القرآن دخله بعض التحريف والتبديل بسبب الكتابة .

والجواب :

١ — أن هذا القول غير صحيح فى نسبته إلى ابن عباس وهو مدسوس عليه دسه الملاحدة والزنادقة قال أبو حيان مانصه «أن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين وابن عباس برىء من ذلك القول» وقال الزمخشرى فى تفسيره : « وعن ابن عباس وسعيد بن جبير إنما هو : حتى تستأذنوا فأخطأ الـكاتب ولا يعول على هذه الرواية» وقال القرطبى فى تفسيره(١) بعد ذكر هذا عن ابن عباس أو سعيد بن جبير (وهذا غير صحيح عن ابن عباس وغيره فإن مصاحف الاسلام كلها قد ثبت فيها (حتى تستأذنوا) . وصح الاجماع فيها من لدن مدة عثمان . فهى التى لا يجوز خلافها . وإطلاق الخطأ والوهم على الـكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس: وقد قال عز وجل . (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . وقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقد روى هذا الخبر عن ابن عباس ابن جرير ، ولا يخلو إسناده من مدلس أو مضعف(٢) ورواه الحاكم وصححه ، وتصحيح الحاكم غير معتبر عند أئمة الحديث ، وقد تعقبه الامام الذهبى فى نحو مائة حديث موضوع ذكرها فى كتابه (المستدرك) فضلا عن الضعيف والواهى .

٢ — يؤيد رد هذه الرواية عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه ورد عنه تفسير (تستأنسوا) بقوله . تستأذنوا من يملك الإذن من أصحابها ، فثبوت هذا التفسير عنه يردما ألصق به ، وقد روى هذا التفسير عنه ابن أبى حاتم وابن الأنبارى فى المصاحف وابن جرير وابن مردويه(٣) ولعل الراوى عن ابن عباس

---

(١) ج ١٢ ص ٢١٤ (٢) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٦ ص ٩١ هامش

(٣) تفسير الآلوسى ج ١٨ ص ١٢٣ .

وهم حيث فهم من تفسير الاستئناس بالاستئذان أنه الصواب فروى الخبر على ماظن وهوواهم .

ويردها أيضا إجماع القراء السبعة على لفظ (تستأنسوا) ومن المستبعد جداً أن يقرأ ابن عباس بقراءة يكون الإجماع على خلافها ، ولاسيما وهو ممن أخذ القراءة عن زيد بن ثابت وهو عمدة الذين جمعوا القرآن فى المصاحف بأمر عثمان رضى الله عنه ، وما نقل عن ابن عباس وأبى أنهما كانا يقرءان (تستأذنوا) فمحمول على أنها قراءة تفسير وتوضيح : وأيضا فالقراءة المتواترة الثابتة (تستأنسوا) متمكنة فى باب الإعجاز من القراءة المزعومة (تستأذنوا) . فالاستئذان ينصرف إلى الاستئذان بالقول ، وأما الاستئناس فيشمل القول وغيره من الأفعال التى تؤذن بالقدوم كالتسبيح والتحميد والتنحنح وماشابه ذلك ، هذا إلى ما تشير إليه القراءة المتواترة من أن يكون الاستئذان يقصد به الأنس وإزالة الوحشة وعدم إيلام المستأذن عليه ، ولا هكذا لفظ (تستأذنوا) فقد يكون الاستئذان مصحوبا بالخشونة ، أو الإيحاش . أو الأيلام إلى غير ذلك من الأسرار والمعانى النبيلة التى تظهر لمن يمعن النظر فى القرآن .

٣ — إن صحت الرواية فيمكن أن تحمل على الخطأ فى الاختيار من الكاتب ويكون ذلك على حسب ظن ابن عباس لا بحسب الواقع ونفس الأمر قال ابن أشته فى كتاب (المصاحف) (مراد ابن عباس الخطأ فى الاختيار وترك ما هو أولى القراءتين بحسب ظنه) وتكون قراءة ابن عباس مما ترك بسبب جمع الناس على حرف واحد ، وهو حرف قريش ، فإنهم التزموا جمع ما ثبت بالتواتر دون ما روى آحادا وما ثبت نسخه .

٤ — إن هذه الرواية على فرض صحتها رواية آحادية والاحادى لا يعارض القطعى الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وقدخالفت رسم المصحف فما بالك وهى ضعيفة ومعارضه بروايات أخرى عن ابن عباس كما بينا ؟ ؟

الشبهة الرابعة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » فقيل له أنها فى المصحف « أفلم يائس الذين آمنوا » الاية[1] فقال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس وهذا القول يقلل الثقة بكتابة القرآن ورسمه ويعود على القرآن ورسمه ويعود على القرآن بالتحريف .

والجواب :

١ — أن هذا القول لم يصح عن ابن عباس وأنه مختلق عليه قال الإمام الجليل أبو حيان فى تفسير « بل هو قول ملحد زنديق » وقال الآلوسى فى تفسيره بعد نقل كلام أبى حيان « وعليه فرواية ذلك ـ كما فى الدر المنثور ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما غير صحيحه (وقال الزمخشرى فى تفسيره (ج ١ ص ٦٥٥) بعد حكاية هذا الزعم (وهذا ونحوه مما لا يصدق فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتى الإمام (٢) وكان متقلباً فى أيدى أولئك الأعلام المحتاطين فى دين الله ، المهيمنين عليه ، لا يغفلون عن جلائله ودقائقه ، خصوصاً عن القانون الذى إليه المرجع . والقاعدة التى عليها البناء هذه والله فرية ما فيها مرية .

---

(١) سورة الرعد الاية ٣١ وكتابتها هكذا فى الرسم العثمانى بزيادة ألف بعد الياء الأولى .

(٢) يريد بالإمام مصحف عثمان .

٢ — مما يرد هذه الروايه أن القراءة الصحيحة المتواترة صحت عن ابن عباس فلو كان ما نسب إليه صحيحاً لما قرأ بها قال أبو بكر الأنبارى(٢) : روى عكرمة عن ابن أبى نجيح أنه قرأ (أفلم يتبين الذين آمنوا) وبها احتج من زعم أنه الصواب فى التلاوة وهو باطل عن ابن عباس لأن مجاهداً وسعيد بن جبير حكياً الحرف عن ابن عباس (على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو ، وروايته عن مجاهد وسعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، وأيضاً لقد أخذ ابن عباس القرآن عن زيد بن ثابت فيمن أخذ عنهم ، وزيد كان كاتب الوحى ، وهو الذى جمع القرآن فى عهد أبى بكر وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن فى عهد عثمان ، فغير معقول أن يقرأ ابن عباس على خلاف قراءة زيد بن ثابت وما كتبه فى المصاحف العثمانية .

وفى مسائل نافع ابن الأزرق لابن عباس أنه سأله عن قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) فقال ابن عباس : أفلم يعلم بلغة بنى مالك قال - أى نافع - وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم أما سمعت مالك بن عوف يقول :

لقد يئس الأقوام أنى أنا ابنه   وأن كنت عن أرض العشيرة نائيا (٢)

فلو كانت غير ثابتة - كما افترى عليه - لما فسرها ولبين للسائل أنها خطأ ولما استشهد لها بكلام العرب .

٣ — على فرض صحة هذه الرواية فهى احادية فلا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ، ولا يثبت بها قرآن ولا سيما وهى مخالفة لرسم المصحف

الشبهة الخامسة :

قالوا . روى عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى (وقضى ربك

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٣٢٠ .
(٢) الإتقان ج ١ ص ١٢١ .

ألا تعبدوا إلا إياه) إنما هى (ووصى ربك) التزقت الواو بالصاد وقد ورد هذا الأثر بروايات مختلفة وفى بعضها (ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد) قالوا : وهذا يدل على وقوع تحريف القرآن والجواب على ذلك نقول .

١ - إن هذه الروايات ضعيفة ، ومدسوسة على ابن عباس ونقلها من نقلها بدون تثبيت وتحر قال ابن الأنبارى « إن هذه الروايات ضعيفة ، والضعيف لا يحتج ولا يؤخذ به فى دون هذا فما بالك فى شىء يتعلق بالقرآن الكريم.

٢ - إن ابن عباس رضى الله عنهما قد استفاض عنه انه قرأ (وقضى) وذلك دليل على أن ما نسب إليه غير صحيح قال الإمام أبو حيان فى البحر المحيط : والمتواتر هو « وقضى ، وهو المستفيض عن ابن عباس والحسن وقتادة بمعنى أمر وقال ابن مسعود وأصحابه بمعنى وصى ، وأما ما روى عن ابن مسعود من أنه كان فى مصحفه « ووصى » وأنه كان يقرأ به فمحمول على التفسير ، ولم يكن مصحفه مصحف قرآن فحسب ، وإنما مزجه بالتفسير والتأويل لبعض آياته ، وذكر بعض الأدعية والمأثورات .

٣ - ما استندوا إليه من أن اللفظ القرآنى لو كان « وقضى » لما أشرك أحد غير لازم لمن تدبر وتأمل ؛ لأن هذا الاعتراض إنما يتجه لو حملنا القضاء على التقدير الأزلى ؛ فأما لو أريد به معناه اللغوى الذى هو البت والقطع فلا يتجه ولا يرد ، ولذلك فسر الجمهور قضى بامر ، وهذا التفسير نفسه ثابت عن ابن عباس كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال أمر وهذا يرد ما نسب زورا إلى ابن عباس .

٤ - إن هذه الروايات معارضة للمتواتر القطعى وكل ما عارض القطعى فهو ساقط عن الاعتبار .

الشبهة السادسة :

قالوا إن ابن عباس كان يقرأ « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين(١) » بدون الواو قبل « ضياء » ويقول : خذوا هذه الواو واجعلوها فى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » وروى عنه أنه قال : انزعوا هذه الواو واجعلوها فى « الذين يحملون العرش ومن حوله » ونجيب على هذه الشبهة بما يأتى :

(١) إن ما روى عن ابن عباس ضعيف فلا يؤخذ به ، ثم هو مخالف للقطعى الثابت بالتواتر ، فهو مردود لا محالة .

(٢) إن ذكر الواو فى الآية هو الذى تقضى به البلاغة الفائقة لا حذفها سواء أفسر الفرقان بالتوراة أم فسر بالنصر وقد روى هذا الثانى عن ابن عباس وغيره ويشهد له قوله تعالى « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » فالمراد به يوم بدر ؛ وبيان ذلك أما على الأول فيكون المراد بالفرقان والضياء والذكر التوراة وهى فرقان لأنها تفرق بين الحق والباطل وضياء لأنها تنير الطريق للسالكين ، وهى ذكر لما فيها من التذكير والمواعظ ، ومثل هذا الأسلوب يجوز أن يأتى بدون الواو على أنه حال ويجوز أن يأتى بالواو وكل بليغ ولكن الإتيان بها أبلغ تنزيلا لتغاير الصفة ـ والحال صفة فى المعنى ـ منزلة تغاير الذوات ولذلك سر بلاغى . وهو الإشارة إلى بلوغها درجة عالية فى كونها ضياء حتى أضحت كأنها جنساً مستقلا برأسه عن سابقه ، وهذا السر لا يتم على حذف الواو ومثل هذا من كلام العرب .

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وأما على الثانى وهو تفسير الفرقان بالنصر فتكون الواو لازمة البتة لتغاير

---

(١) سورة الأنبياء الآية ص ٤٨ .

المعطوف والمعطوف عليه ويكون المراد بالضياء التوراة أو الشريعة .

الشبهة السابعة . —

قالوا : روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» النور الآية ٣٥ انه قال : هى خطأ من الكاتب ، هو اعظم من أن يكون نوره مثل نور المشكاة ، إنما هى مثل نور المؤمن كمشكاة .

وللجواب على ذلك نقول : —

(١) إن هذه الرواية معارضة للقطعى الثابت بالتواتر ، فهى مردودة وباطلة ولا يثبت بها قرآن قط .

(٢) أن هذه الرواية ضعيفة ، وأغلب الظن أنها مختلقة عليه ، وليس أدل على هذا من أنه قرأ بهذه القراءة المتواترة المعروفة ، ولم ينقل عنه أنه قرأ « مثل نور المؤمن » وأن المأثور عنه فى تفسيرها لا يتفق هو وما نقل عنه فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال : مثل نوره : مثل هداه فى قلب المؤمن وهذا التفسير لا يتأتى إلا إذا عاد الضمير فى « نوره » على لفظ الجلالة وهو أرجح الروايتين عنه فى مرجع الضمير ولو سلمنا مارواه الحاكم عنه من أن مرجع الضمير هو المؤمن فلا يلزم منه رد القراءة المتواترة ، بل هو تفسير لمرجع الضمير فيها ، وأياً كان المروى عنه فلا يشهد لهذا الدس والاختلاس ، ويضعف هذه الرواية التى رواها الحاكم عنه أن رجوع الضمير الى مذكور فى الكلام إذا لم يكن فى الكلام ما يدل عليه ، أو كان ولكن دلالته عليه خفية خلاف الظاهر جداً ، ولا سيما إذا فات المقصود من الكلام على ذلك[1] وإنما تتم الروعة فى التمثيل فى الآية لو رجع الضمير

---

(١) أنظر تفسير الألوسى ج ١٨ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

إلى المذكور ، وهو لفظ الجلالة على أن يكون المراد بالنور الحق الذى قامت عليه السموات والأرض ، وصلح به أمر الناس ، أو الهدى الذى غرسه الله فى قلب المؤمن ، وأما على الوجه الاخر ففيه تفكيك للقرآن وتفويت لروعة التمثيل .

ولو أن هذا الدس نقل عن أبى بن كعب لكان الأمر أهون إذ هو الذى نقل عنه أنه قرأ « مثل نور المؤمن » وفى رواية « مثل نور المؤمنين» وفى رواية « مثل نور من آمن »(١) وهى قراءات شاذة لا يعتد بها ولا يقرأ بها لمخالفتها لرسم المصحف وعدم تواترها ولكن شاء الله أن تتم الحبكة فى نسج هذه الرواية المكذوبة على ابن عباس ، وهكذا الباطل يكون فى طيه ما يلقى أضواء على بطلانه .

الشبهة الثامنة :

قالوا : روى عن ابن عباس أنه قال: لا تقولوا «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا (٢) » فإن الله تعالى ليس له مثل' ولكن قولوا « بالذى آمنتم به » وأنه كان يقرأ « فإن آمنوا بما آمنتم به » قالوا : فهذا ينفى القراءة المشهورة التى كتب بها المصحف ويدل على أن المصحف قد حصل فيه تغيير

والجواب :

١ ـ أن هذه الرواية آحادية مخالفة للقطعى الثابت بالتواتر ؛ والذى

---

(١) فى هذا الاختلاف دلالة قوية على أن ما روى عن أبى أنه قرأ به إنما مراده به التفسير ، وإلا فيبعد أن تكون هذه كلها قراءات ثابتة بالتلقى والسماع ، وهذه القراءات التفسيرية كثيرا ما ترد عن بعض الصحابة ، والتابعين ، فيظن من لا يعرف أنها قراءات تلاوة والحق ما ذكرنا لك .

(٢) البقرة الاية ١٣٧

أجمع عليه المسلمون من لدن الصحابة إلى وقتنا هذا ، ومخالف القطعى مردود ثم هى لا يثبت بها قرآن قط

٢ - على فرض ثبوت هذه الرواية ، فتحمل على التفسير ، وبيان المعنى للقراءة المتواترة قال ابن عطية الامام المفسر : هذا من ابن عباس على جهة التفسير أى هكذا فليتأول .

٣ - إن القراءة المتواترة التى عليها عامة القراء لها وجوه صحيحة ومحامل تحمل عليها فمنها .

(ا) إن مثل زائدة للتأكيد والمعنى فان آمنوا بما آمنتم به وذلك كما قيل فى قوله تعالى « ليس كمثله شىء »

(ب) إن معنى آمنوا صدقوا والباء زائدة للتوكيد كما زيدت فى قوله تعالى « وهزى إليك بجذع النخلة » والمعنى فإن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم فقد اهتدوا وزيادة بعض الحروف والكلمات للتوكيد مستفيض فى لغة العرب .

الشبهة التاسعة :

قالوا : روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها سئلت عن قوله تعالى : إن هذان لساحران » طه الآية ٦٣ ، وعن قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى الآية » المائدة الاية ٦٩ ، وعن قوله تعالى : « والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة » النساء الاية ١٦٢ ؛ فقالت : يا ابن أختى هذا خطأ من الكاتب ، والجواب .

١ — إن هذه الرواية غير صحيحة عن عائشة ، وعلى فرض صحتها فهى رواية آحادية لا يثبت بها قرآن « وهى معارضة القطعى الثابت بالتواتر فهى باطلة ومردودة ولا التفات إلى تصحيح من صحح هذه الرواية وأمثالها فإن من قواعد المحدثين أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروى

كأن يكون مناقضاً لنص القرآن ، أو السنة ، أو الإجماع القطعى ، أو صريح العقل حيث لا يقبل شىء من ذلك التأويل؛ أو لم يحتمل سقوط شىء منه يزول به المحذور ، وهذه الروايات مخالفة للمتواتر القطعى الذى تلقته الأمة بالقبول فهى باطلة لا محالة .

٢ — وأما آية « إن هذان لساحران » فالذى نص عليه أئمة الرسم والقراءة أن « هذان » لم تكتب فى المصحف العثمانى بالألف ولا بالياء ، وذلك ليحتمل وجوه القراءات المتواترة كلها؛ وهذا من أسرار الرسم العثمانى ، فنسبة الخطأ إلى الكاتب غير معقول ، وإنما المعقول أن تخطىء السيدة عائشة رضى الله عنها من يقرأ إن بتشديد النون ، وهذان بالألف ، وأما من يقرأ بتشديد النون فى « إن » والياء فى « هذين » أو بتخفيف النون فى « إن » والألف فى « هذان » فلا وجه فى تخطئته ، وهذا مما يلقى ضوءاً على اختلاق هذه الروايات على عائشة وغيرها ، وأنها من وضع الملاحدة . كى يشككوا المسلمين فى كتابهم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد قرىء هذا الجزء من الاية القرآنية بقراءات سبعية متواترة ، وهاك بيانها .

(ا) قرأ أبو عمرو . « إن هذين لساحران » بتشديد النون فى « إن » والياء فى «هذين» وهذه القراءة الثابتة قد سلمت من مخالفة المصحف وجارية فى الإعراب على المهيع المعروف الظاهر فلا إشكال فيها أصلا .

(ب) وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه «إن هذان» بتخفيف النون فى « إن » وبالألف فى « هذان » غير أن ابن كثير يشدد نون « هذا» وهذه القراءة أيضاً سلمت من مخالفة الرسم العثمانى ومن مخالفة العربية وتخرج على أن « إن » هى المخففة وهى مهملة وهذان مبتدأ وساحران خبره واللام هى الفارقة بين أن النافية والمخففة من الثقيلة وقيل أن « ان » نافيه ، واللام بمعنى إلا ، والتقدير ماهذان إلا ساحران ، ويشهد له قراءة أبى

«إن ذان إلا ساحران» ، وهى قراءة تفسير وتوضيح .

(ج) وقرأ الباقون «إن هذان لساحران» بتشديد نون إن وبالألف فى هذان وهى موافقة للرسم ولكنها مشكلة فى الاعراب وهذه القراءة هى التى زعم الزاعمون أنها خطأ ونسبوا ذلك زورا إلى السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وهذه القراءة لها وجوه صحيحة فى العربية وقد أفاض فى بيانها العلماء وأحسن هذه الوجوه وأجودها(١) أنها جارية على لغة بعض العرب فى الزام المثنى الألف فى جميع حالاته وهى لغة لكنانة ، ولبنى الحارث بن كعب ، ولخثعم ، وزبيد ، ومراد وغيرهم ولذلك شواهد كثيرة من مثل قول الشاعر العربى .

واها لسلمى ثم واها واها ‏ ‏ يا ليت عيناها لنا وفاها

وموضع الخلخال من رجلاها ‏ ‏ بثمن نرضى به أباها

إن أباها وأبا أباها ‏ ‏ قد بلغا فى المجد غايتاها

وقد اعتبر العلامة ابن هشام النحوى هذه القراءة أقيس إذ الأصل فى المبنى أن لا تختلف صيغته مع أن فيها مناسبة لألف «ساحران» .

٣ — وأما عن آية «والمقيمين الصلاة» فلا يصح ذلك عنها قال الإمام أبو حيان فى البحر المحيط ما نصه «وذكر عن عائشة رضى الله عنها ، وعن أبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ الكاتب ، ولا يصح ذلك عنهما ، لأنهما عربيان فصيحان وقطع النعوت أشهر فى لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره وعلى القطع خرج سيبويه ذلك» ولعلك

---

(١) من أراد استعيابا لما قاله العلماء فى توجيه هذه القراءة من الاراء وشواهده فى العربية فليرجع إلى تفسير القرطبى ج ١١ ص ٢١٦ ومابعدها وتفسير الألوسى ج ١٦ ص ٢٢٢ وما بعدها ، ومقدمتان فى علوم القرآن ص ١٠٩ وما بعدها .

على ذكر بما ذكرته آنفا عن الزمخشرى فى كشافه فى الرد على من طعن فى هذه القراءة المتواترة .

٤ - وأما قوله : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فله وجوه ومحامل صحيحة فى العربية وأحسن هذه الوجوه أن يكون « والصابئون » مقدم من تأخير وخبر أن قوله « من آمن إلى الخ ، ويكون خبر والصابئون محذوف لدلالة خبر أن عليه والتقدير والصابئون والنصارى كذلك ولعل السر فى التقديم وذكرهم بين طوائف أهل الأديان الدلالة على أن الصابئين مع ظهور ضلالهم وزيغهم عن الأديان كلها تقبل توبتهم أن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فغيرهم من أهل الأديان أحرى وأولى ومثل هذا الاستعمال العربى قول الشاعر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فانى - وقيار بها[1] - لغريب

أو يكون قوله والصابئون وما عطف عليه استئناف آخر والخبر من آمن الخ . وقد أغنى هذا الخبر عن خبر إن ، ومثل هـــذا الاستعمالى قول الشاعر العربى .

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأى مختلف

فقد حذف الخبر من الأول لدلالة الثانى عليه ، أى نحن بما عندنا راضون .

الشبهة العاشرة .

قالوا . كيف اعتمدتم المصحف وفيه من الخطأ الظاهر واللحن والاختلاط مالا يكاد يخفى على من له علم بالعربيـــة ومثلوا لذلك بما يأتى .

---

(١) قيار . اسم حماره .

(ا) قوله تعالى . « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس (والظاهر) والصابرون) ،

(ب) قوله تعالى . (وأسروا النجوى الذين ظلموا) (ثم عموا وصموا كثير منهم) والظاهر أن يقول (واسر عمى) (صم) .

(ج) قوله تعالى . (لو لا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) وكان الظاهر أن يقول (وأكون) .

والجواب : ـ أن هذه مزاعم باطلة منشؤها الجهـــل بلغات العرب ومذاهبهم فى الخطاب وأساليبهم فى البيان ، وقد شاء الله سبحانه ـ وله الحكمة البالغة ـ أن يجىء القرآن الكريم ـ عدا اللغة القرشية السائدة فيه ـ مشتملا على بعض لغات العرب واستعمالاتهم سواء فى ذلك الفصيح والأفصح ولذلك سر ذلك أن القرآن هو كتاب العربية الأكبر ، وجامعة العرب الكبرى ، ومرجعهم الأوثق فى معرفة أساليب العرب فى البيان ، ومذاهبهم فى التعبير ، فكان الأليق والأوفق أن يأتى مشتملا على المقبول السهل منها غير المستهجن والمستثقل ، ليجد العرب فيه ما يرضى أذواقهم وملكاتهم ، وإليك بيان وجه الحق فيما ذكر .

(ا) أما قوله : « والصابرين » فهو منصوب على المدح يعنى وأمدح الصابرين وإنما غاير فى الأسلوب ، ولم يأت على نسق ما سبقه ، تبيانا لفضيلة الصبر وبيان منزلته من البر ، فكأن الله سبحانه يبين لنا أنه وأن جاء فى الذكر آخرا فهو بمكان من الفضيلة والمثوبة الحسنة ، وقد قدمت عن أئمة اللغة والنحو ما للعرب من التفنن فى النصب على الاختصاص ، وغير خفى ما لتغير الأسلوب ، والتفنن فى الخطاب من أثر جليل من الناحية النفسية ، لأنه يجذب الانتباه، ويوقظ الشعور ، ويحمل العقول على التساؤل والبحث ، فتتمكن المعانى فى النفس فضل تمكن فلله در التنزيل فكم له من أسرار ولطائف.

(ب) وأما قوله (وأسروا) (ثم عموا وصموا) فهو وارد على بعض لغات العرب وهى لغة (أكلونى البراغيث) ولها شواهد كثيرة فى العربية وهذه اللغة تخرج على أن اللواحق بالأفعال ليست ضمائر وإنما هى علامات على التثنية أو الجمع وما بعدها هو الفاعل أو أن تكون اللواحق هى الفاعل والظواهر بعدها بدل منها أو فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور والتقدير فى الآية مثلا (وأسروا النجوى أسرها الذين ظلموا) .

(ج) وأما قوله تعالى (فأصدق وأكن من الصالحين) ففيها قراءتان سبعيتان الأولى (وأكون) بالنصب وبها قرأ أبو عمرو ووجهها ظاهر ، الثانية (وأكن) بالجزم وتخرج على أنها عطف على المعنى فإن الكلام فى معنى الشرط فكأنه سبحانه قال . «أن أخرتنى إلى أجل قريب أصدق وأكن» وهذا النوع يسميه النحويون العطف على التوهم وهو باب معروف فى العربية

الشبهة الحادية عشرة .

ما رواه الإمام أحمد بسنده عن إسماعيل المكى قال . حدثنا أبو خلف مولى بنى جمع أنه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضى الله عنها فقالت (مرحبا بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أو تلم بنا ؟ فقال أخشى أن أملل فقالت . ما كنت لتفعل قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ؟ قالت أية آية ؟ قال . الذين (يؤتون ما آتوا) أو (الذين يأتون ما أتوا) فقالت أيتهما أحب إليك؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحداهما أحب إلى من الدنيا جميعاً او الدنيا ومافيها قالت وما هى ؟ فقلت (الذين يأتون ما أتوا) فقالت . « أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف » فهى توهم أن القراءة الأخرى غير ثابتة وأن الرسم ليس بمجمع عليه.

والجواب :

١ — أن هذه الرواية فى سندها إسماعيل المكى وهو ضعيف[1] فلا تعارض القطعى الثابت بالتواتر ولا يثبت بها قرآن حتى ولو كانت صحيحة .

٢ — هذه الرواية على فرض صحتها لاتفيد إنكار القراءة الثابتة التى أجمع عليها السبعة وهى (يؤتون ما آتوا)[2] وقولها . أن رسول الله كان يقرأ بها وكذلك أنزلت ، لا ينافى أن تكون القراءة المتواترة منزلة وقرأ بها النبى ولاسيما وهى المتواترة التى أجمع عليها القراء السبعة . وأما القراءة الأخرى التى وافقت السيدة عائشة السائل على استحسانها فهى غير متواترة ولا يثبت بها قرآن ، وقد ذكرت فى بعض كتب الحديث ولكن لم يروها القراء من طرقهم[3] ولعلها مما نسخ من القراءات فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، أو مما ترك عند جمع القرآن لعدم ثبوتها وتواترها ، وأما قولها . أن الهجاء حرف فالمراد بالحرف اللغة أى القراءة الثابتة لغة ، ووجه من وجوه الأداء للقرآن ، ولا يصح أن تريد من الحرف الخطأ والتحريف إذ اللغة لا تشهد له .

الشبهة الثانية عشرة :

قالوا : روى عن خارجة بن زيد بن ثابت أنه قال : قالوا لزيد يا أبا سعيد أوهمت إنما هى : ثمانية أزواج من الضأن اثنين اثنين، ومن المعز اثنين اثنين ، ومن الإبل اثنين ، ومن البقر اثنين اثنين ، فقال لا إن الله تعالى يقول « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » فهما زوجان كل واحد منهما زوج الذكر زوج والأنثى زوج .

---

(١) تفسير ابن كثير والبغوى ج ٦ ص ٣٦ (٢) القراءة المتواترة من الإتيان وهو الإعطاء أى يعطون ما أعطوا ، وأما الثانية فمن الإتيان بمعنى الفعل أى يفعلون ما يفعلون . (٣) تفسير الألوسى ج ١٧ ص ٤٤ .

قالوا : فهذه تدل على تصرف النساخ فى المصحف ، واختيارهم ماشاؤا فى كتابة القرآن

والجواب : ـ إن هذه الرواية ـ على تسليم صحتها ـ لا تدل على مازعموا وأنما هى بيان وتوجيه لما كتبه ، وقرأه . وثبت عنده سماعا من النبى صلى الله عليه وسلم لا تصرفا من تلقاء نفسه وقد فهم المستشكل أن الزوج لا يطلق إلا على الاثنين المتزاوجين فبين له سيدنا زيد رضى الله تعالى عنه وأرضاه أن الزوج كما يطلق على الإثنين المتزاوجين يطلق على كل واحد منهما أنه زوج واستدل له بالقرآن الكريم الذى هو الحجة البالغة ، وقد اقتنع السائل وسكت . والصحابة الذين كتبوا القرآن ، والذين حملوه ، بلغوه لمن بعدهم كانوا الغاية فى الضبط ، والتثبت والأمانة الفائقة ، وفى الذروة منهم زيد ابن ثابت الذى كان كاتب الوحى بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم والذى حمل العبء الأكبر فى جمع القرآن فى عهد الصديق وعهد عثمان رضى الله تعالى عنهما .

« رد عام » وهنا رد عام يرد به على كل ما سبق من شبه وهو أن العمدة فى القرآن وحفظه هو التلقى ، والسماع من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو ممن سمع منه أو سمع ممن سمع منه ، وهكذا حتى وصل إلينا القرآن غضا كما أنزل ولم يكن يؤخذ القرآن من الصحف ، أو المصاحف المكتوبة ، وإنما كان القصد من المكتوب معاضدة المحفوظ ، والرجوع إليه عند الاختلاف . فى القراءة ، أو الرسم ، وأن الذين عزيت إليهم هذه الروايات ، ولاسيما ابن عباس ، وتلامذته ، قد قرؤا بالقراءات الثابتة المتواترة على خلاف مانقل عنهم من الطعن فيها مما يدل على بطلان هذه الطعون .

« وبعده » فلعلك رأيت معى أن هذه الشبه وأمثالها أو هى من بيت العنكبوت فلا تلق إليها بالا ولعلك ازددت يقيناً بأن القرآن كما هو فى المصاحف اليوم ، هو هو ما أنزل على نبينا محمد ، وأن كل ما يخالف هذا

المتواتر القطعى فهو مردود باطل ، وأن القرآن لا يثبت برواية آحادية ، ولو بلغت أعلى درجات الصحة فكن على ذكر من كل ذلك، ثبتنا الله وإياك بالقول الثابت فى الحيـاة الدنيا وفى الآخرة .

(شكل القرآن)

الشكل هو ما يدل على عوارض الحرف من حركة وسكون سواء أكان ذلك فى أول الـكلمة أو وسطها أو آخرها قال فى القاموس مادة شكل « والـكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الاشكال. أى وشكل الكتاب ولا شك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركا أو ساكنا يزيل إبهامه ، وإشكاله ، فبين المعنى اللغوى والاصطلاحى مناسبة ظاهرة .

وقد اتفق المؤرخون على أن العرب فى عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون الشكل بمعناه الاصطلاحى بل كانوا ينطقون بالألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ، ولا غلط ، لما كان متأصلا فى نفوسهم من الفصاحة والبلاغة ، واستقامة ألسنتهم على النطق بالألفاظ المؤلفة على حسب الوضع الصحيح من غير حاجة إلى معرفة القواعد ، ولذا لما كتبت المصاحف فى العهد الأول جردت من الشكل والنقط اعتماداً على هذه السليقه وعلى أن المعول عليه فى القرآن هو التلقى والرواية فلم يكن بهم حاجة إلى الشكل ، فلما اتسعت رقعة الاسلام واختلط العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية ، ودخل اللحن فى الـكلام ، وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذى هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم من أن يطرق إليه اللحن والخطأ، وكان قد ظهر فى المسلمين من عرف أصول النحو وقواعده ، وبرع فى حفظ القرآن وقراءاته ، أمثال أبى الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر العدوانى قاضى خراسان ، ونصر بن عاصم الليثى ، وقد حدث أن سمع أبو الأسود الدؤلى قارئا يقرأ « أن الله برىء المشركين ورسوله »

بجر « رسوله » فأفزعه ذلك وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله : وذهب إلى زياد والى البصرة وقال له ، قد أجبتك إلى ما سألت ، وكان زياد قد سأله أن يضع للناس علامات تدل على الحركات والسكنات فجعل للفتحة نقطة فوق الحرف وللكسرة نقطة أسفله وللضمة نقطة بين الحرف وللتنوين نقطتين ، وسار الناس على هذا النهج مدة ثم بدأوا يزيدون ويبتكرون فجعلوا علامة للحرف المشدد كالقوس ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها من فتحة ، أو كسرة ، أو ضمة حتى كان عهد عبد الملك بن مروان ، واضطروا إلى وضع النقط الذى هو الأعجام للباء والتاء والثاء الخ ، فالتبس النقط بالشكل ، فجعلوا لكل منهما مدادا مخالفا للون الآخر ، ثم وضعوا للشكل علامات أخرى وهى العلامات المعروفة اليوم للفتحه والكسرة والضمه والشدة ونحوها فجعلوا الفحة ألفا أفقية من فوق الحرف ، والكسره ألفا من تحت الحرف والضمة على هيئة رأس الواو وبذلك صار القرآن مشكولا .

(إعجام القرآن)

الأعجام هو ما يدل على ذوات الحروف ، وتمييز الحروف المتماثلة فى الرسم بعضها عن بعض قال فى القاموس وشرحه « تاج العروس » مادة عجم « وأعجم فلان الكلام أى ذهب به إلى العجمة بالضم وكل من لم يفصح بشىء فقد أعجمه وأعجم الكتاب خلاف أعربه - كما فى الصحاح - أى نقطه ، وفى النهاية أزال عجمته كعجمه عجما وعجمه تعجيما . . . وقال ابن جنى أعجمت الكتاب أزلت أستعجامه قال ابن سيده وهو عندى على السلب ... وقالوا اعجمت الكتاب فجاءت فعلت للسلب أيضا كما جاء أفعلت وله نظائر » وقد تقدم فى مادة « شكل » أن الشكل هو الإعجام فكل منهما يرادف الآخر لغة غير أن الاصطلاح فرق بينهما كما علمت فخص الشكل بالحركات ، والأعجام بالنقط .

ولم تكن المصاحف منقوطة فى مبدأ الأمر لأن الاعتماد لم يكن على القراءة من المصحف بل كان على التلقى والسماع ولتبقى صورة الكلمة الواحدة فى الخط صالحة لكل ما صح وثبت من وجوه القراءات ، ولما روى عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه «جردوا القرآن ولا تخلطوه بشىء» أخرجه أبو عبيد وغيره .

وقد اختلف المؤرخون فى النقط ، فمنهم من يرى أن الاعجام كان معروفا قبل الإسلام لتمييز الحروف المتشابهة ، غير أنه ترك عند كتابة المصاحف لما ذكرنا ومنهم من يرى أن الإعجام لم يعرف إلا من طريق أبى الأسود الدؤلى ، ثم اشتهر ووضع فى القرآن فى عهد عبد الملك بن مروان والظاهر الأول لأنه يبعد جداً أن لا يكون للحروف علامات تميز المتشابهات بعضها عن بعض ، ومهما يكن من شىء فقد اشتدت الحاجة إليه حينما اتسعت رقعة الإسلام ، واختلط العرب بالعجم وبدأ اللبس والأشكال فى قراءة المصاحف ، حتى ليشق على الكثير منهم أن يميزوا بين حروف القرآن وقراءاته فى مثل قوله تعالى «ننشرها» و«ننشزها» وقوله «فتبينوا» «فتثبتوا» فاهتم عبد الملك بن مروان بذلك وأمر الحجاج أن يعنى بهذا الأمر الجليل ، فاختار الحجاج له رجلين من خيرة المسلمين نصر بن عاصم الليثى ، ويحيى بن يعمر العدوانى ، تلميذى أبى الأسود الدؤلى ، وكانا من الورع والصلاح ؛ وبلوغ الغاية فى العربية ، والقراءات بمكان ، فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة ، وكان فى هذا توفيق عظيم للأمة إلى هذا العمل الذى يتوقف عليه حفظ القرآن الكريم وقيل أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى وأن ابن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر ، ويمكن التوفيق بين هذا وما تقدم بأن أبا الأسود أول من نقط المصحف بصفة شخصية وتبعه فى ذلك ابن سيرين ، وأما عبد الملك فأول من أمر بنقط المصحف بصفة عامة رسمية شاعت وذاعت بين الناس قاطبة .

ما استحدث فى كتابة المصاحف :

وأما ما استحدث فى كتابة المصاحف من التحزيب والتجزئة والتخميس والتعشير(١) وكتابة فواتح السور وخواتمها ونحو ذلك فكل ذلك مما زيد لغرض التيسير على القارىء ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط قال قتادة . بدأوا فنقطوا ثم خمسوا وعشروا وقال غيره : أول ما أحدثوا النقط عند آخر الآى ثم الفواتح والخواتم .

وقد جزء العلماء القرآن تجزئات شتى : منها التجزئة إلى ثلاثين جزءاً وأطلقوا على كل واحد منها اسم الجزء بحيث لا يخطر بالبال عند الإطلاق غيره . فإذا قال قائل قرأت جزءاً من القرآن تبادر للذهن أنه قرأ جزءاً من الأجزاء الثلاثين ثم جزؤا كل واحد من هذه الأجزاء الثلاثين إلى جزئين ، وقد أطلقوا على كل واحد منها اسم الحزب ؛ فصارت الأحزاب ستين حزبا ، فمثلا من أول الفاتحة إلى قوله تعالى « سيقول السفهاء » جزء ، ومن « سيقول السفهاء » إلى تلك الرسل » جزء وهكذا ، ومن أول الفاتحة إلى قوله « وما الله بغافل عما تعملون » حزب ، ومن « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » إلى « ولا تسألون عما كانوا يعملون » حزب وهكذا ، وجعلوا الجزء ثمانية أرباع ، والحزب أربعة أرباع ؛ وقد جرت عادة كثير من نساخ المصاحف أن يذكروا اسم الأجزاء ، والأحزاب ، والأرباع فى حاشية المصحف غير أنهم يكتبون ذلك بخط مخالف لخطه ومداد مخالف لمداده تحوطا من أن يظن أنه من القرآن .

حكم نقط المصحف وشكله وما شابه ذلك :

كان العلماء فى الصدر الأول يرون كراهة نقط المصحف وشكله ونحوهما

---

(١) التخميس كتابة لفظ خمس عند رأس كل خمس آيات ، والتعشير كتابة لفظ عشر عند رأس كل عشر آيات ومنهم من يكتفى بكتابة حرفى (خ) و (ع) .

مبالغة منهم فى المحافظة على القرآن من التزيد وكتابته فى المصاحف على هيئة ما كتب بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أخرج أبو عبيد عن النخعى أنه كره نقط المصاحف وأخرج ابن أبى داود عنه أنه كان يكره العواشر ، والفواتح ، وتصغير المصحف وأن يكتب فيه سورة كذا وكذا ، ولما أتى بمصحف مكتوب فيه سورة كذا . كذا آية قال . امح هذا ، فإن ابن مسعود كان يكرهه ، وعن الإمام مالك أنه كره العشور التى تكون فى المصحف بالحمرة وغيرها ، وعنه أنه قال : لا بأس بالنقط فى المصاحف التى يتعلم فيها الغلمان ، أما الأمهات فلا .

ولكن الحال قد تغيرت عما كان فى العهد الأول ؛ فاضطر المسلمون إلى نقطه وشكله للمحافظة على القرآن من اللحن والتغيير والتصحيف ، وللتيسير على الحفاظ والقارئين ، وبعد أن كانوا يكرهون ذلك صار واجباً أو مستحبا لما هو مقرر فى علم الأصول من أن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدما ، قال الإمام النووى فى التبيان مانصه : « قال العلماء : ويستحب نقط المصحف وشكله ، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه ، وأما كراهة الشعبى والنخعى النقط فإنما كرها ذلك فى ذلك الزمان خوفا من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم ، فلا منع ، ولا يمنع من ذلك لكونه محدثا ، فانه من المحدثات الحسنة فلا يمنع منه كنظائره ، مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات ، وغير ذلك والله أعلم » والخطب فى هذا ونحوه مثل التنبيه على الوقوف والسكتات سهل مادام الغرض هو التيسير والتسهيل على القارىء ، وما دام الأمر بعيداً عن اللبس والتزيد والاختلاق ومادام الأمن متوفراً .

احترام المصحف :

لا يكاد التاريخ الصادق يعرف كتابا أحيط بهالة من التقديس والتكريم مثل ماعرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا عجب فقد وصفه الحق جل وعلا

بأنه كتاب مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك مكنون ، وحكم بأنه لا يمسه إلا المطهرون ، وأقسم على ذلك حيث يقول ، « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم ، إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين »[1] ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن السفر به إلى أرض العدو إذا خيف وقوع المصحف فى أيديهم ، كما روى فى الصحيحين ، وقد أفتى العلماء بكفر من مزقه أو أهانه أو رمى به فى قاذورة ، وبحرمة من باعه لكافر ولو ذمياً ، وأوجبوا الطهارة لمسه وحمله . بل قالوا : لكل مايتصل به من خريطة[2] وغلاف ؛ وصندوق على الصحيح ، واستحبوا تحسين كتابته وإيضاحها ، وتحقيق حروفها ، وتعظيمها ، وعدم تصغيرها ، كما استحبوا تعظيمه والقيام له ، قال الإمام النووى : « ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه ، لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار فالمصحف أولى » ويجب على من عنده مصاحف أو أوراق منها غير صالحة للقراءة أن يصونها عن مواطىء الأقدام وعن عبث الصبيان ، وعليه أن يحرقها أو يدفنها فى الأرض بعيداً عن مواطىء الأقدام والقاذورات ، رزقنا الله سبحانه التأدب معه ومع كتابه .

---

(١) الواقعة الآية ٧٥ — ٨٠

(٢) الكيس من الجلد الذى يوضع فيه .

ثبوت النص القرآنى بالتواتر

المفيد للقطع واليقين

لم يعرف التاريخ فى عمره الطويل كتابا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا ثبت فى جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عرف ذلك للقرآن الكريم ، ولا كتابا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم ، ولا كتابا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم .

وقد احتاط النبى صلوات الله وسلامه عليه ، والصحابة رضوان الله عليهم لهذا الكتاب غاية الاحتياط ، فلم يكتفوا بحفظه فى الصدور ، وعلى صفحات القلوب ، وإنما جمعوا إلى الحفظ الكتابة فى الرقاع ، والعسب ، والأكتاف ، واللخاف ونحوها ، ثم فى الصحف ، ثم فى المصاحف كما بينت ذلك فيما سبق من الفصول، وبذلك اجتمع للقرآن الوجودان : الوجود فى الأذهان والصدور ، والوجود فى الكتابة والصدور .

ولم يكن المعول عليه فى حفظ القرآن وتلقيه الأخـــذ من الرقاع ، والصحف ، والمصاحف ، وإنما كان المعول عليه الأول التلقى الشفاهى، والأخذ بالسماع فالنبى صلى الله عليه وسلم أخذ عن أمين الوحى جبريل عليه السلام ، وعن النبى أخذ الكثير من الصحابة النجباء ، العدول ، الضابطين الأمناء ، وعن الصحابة أخذ الألوف من التابعين الفضلاء ، وهكذا نقله العدد الكثير ، عن العـــدد الكثير ، حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير زيادة ، ولا نقصان ، ولا تغيير ، ولا تحريف مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقد كان من أسباب توثيق

النص القرآنى ، حفظ النبى صلى الله عليه وسلم للقرآن ، وحفظ الصحابة له .

« حفظ النبى للقرآن »

قلنا فيما سبق أن أول آيات نزلت عن النبى صل الله عليه وسلم هى صدر سورة « اقرأ » إلى قوله تعالى « علم الإنسان مالم يعلم » .

ثم فتر الوحى مدة كى يشتاق إليه النبى صلى الله عليه وسلم ، وبعد فترة الوحى نزل القرآن ، وتتابع ، وكان أول آيات نزلن بعد هذه الفترة صدر سورة « المدثر » إلى قوله تعالى « والرجز فاهجر(١) .

ثم حمى الوحى وتتابع حتى نزول القرآن كله قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بواحد وعشرين يوما وقيل بأحد عشر يوما ، وقيل بتسع ليال ، وكان آخر ما نزل على الصحيح هو قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون(٢) .

« حرص النبى على القرآن » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم شديد العناية بحفظ القرآن ، وحريصا على تلقفه من جبريل عليه السلام حتى بلغ من شدة عنايته به ، وحرصه عليه أنه كان يحرك به لسانه أكثر من المعتاد عند قراءته ، ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف حتى طمأنه ربه ، ووعده أن يحفظه له فى صده ، وأن يقرئه لفظه ، وأن يفهمه معناه فأنزل عز شأنه قوله : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرءآنه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ، ثم إن علينا بيانه »(٣) أى جمعه لك فى صدرك . وإقراءه لك

---

(١) المدثر / ١ — ٥ . (٢) البقره / ٢٨١ .
(٣) القيامة ١٦ — ١٩

بوساطة أمين الوحى جبريل ، فإذا قرأه جبريل فانصت ، حتى إذا فرغ ، فاقرأ عليه ماسمعت منه، ثم إنا سنتكفل لك أيضا ببيان تفسيره ، وتوضيح ما أجمل منه ، وإزالة إشكال ما عسى أن يشتشكله منه ، وهو ضمان من الله عز وجل — بأنه لن يخشى النسيان ، أن تتفلت منه كلمة أو حرف ، وقد ورد تفسير هذه الآيات عن ابن عباس(١) رضى الله عنهما .

« معارضة جبريل النبى بالقرآن »

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبى صلى الله عليه وسلم القرآن وتثبيته فى قلبه الشريف معارضة جبريل عليه السلام النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن فى رمضان من كل عام روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسله »(٢) فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبى يسمع حينا ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ وجبريل يسمع ، حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد مشاهير كتاب الوحى لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وهو زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه.

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت « أقبلت فاطمة تمشى ، وكانت مشيتها(٣) مشى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: النبى صلى الله عليه وسلم « مرحبا يابنتى » ثم أجلسها عن يمينه ، أو(٤) عن

(١، ٢) صحيح البخارى — باب كيف كان بدء الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(٣) مشيتها - بكسر الميم - أى هيئة مشيتها .

(٤) أو للشك من الراوى .

شماله ، ثم أسر إليها حديثا فبكت ، فقلت لها . لم تبكين ؟! ثم أسر إليها حديثا فضحكت ، فقلت ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن ، فسألتها عما قال ، فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قبض النبى صلى الله عليه وسلم ، فسألتها ، فقالت . أسر إلى أن جبريل كان يعارضنى القرآن كل سنة مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه[1] إلا حضور أجلى ، وإنك أول أهل بيتى لحاقا بى فبكيت ، فقال : أما ترضين أن تكون سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين ، فضحكت »[2] .

وكان القرآن شغل النبى الشاغل فى صلاته ، وتهجده ، وفى سره ، وعلانيته وفى حضره ، وسفره ، وفى وحدته ، وبين صحابته ، وفى عسره ويسره ومنشطه ، ومكرهه . ولا يغيب عن قلبه ، ولا يألوا جهدا فى تعهده وتكراره والائتمار بأوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه ، وقصصه ، والتأثر بأمثاله ، وحكمه ، والتأدب بآدابه ، وأخلاقه ، وتبليغه إلى الناس كافة .

كما كان أعلم الناس بأسباب نزوله ، ومواقع تنزلاته ، ومدلول خطاباته وأحكامه وآدابه ، وحدوده ، ومعالمه ، وظاهره ، وباطنه ، فمن ثم كان أشد الناس حفظا له ، وإجادة لقرءاته ، ومعرفة لحـــروفه ، وقراءاته ، وكان المرجع الأول للمسلمين فى حفظ القرآن ، وفهمه ، والوقوف على معانيه ، وأسراره ومراميه والتثبت من نصوصه ، وحروفه . وقراءاته .

« الحفظ عن ظهر قلب خصيصة للقرآن » .

ومن خصائص هذا الكتاب السماوى الكريم أن الله عز وجل كلف الأمة الإسلامية بحفظه كله بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع ، وبهذا الترتيب الذى وجد ، ويوجد فى

---

(١) بضم الهمزه بمعنى أظنه .

(٢) صحيح البخارى ـ باب علامات النبوة .

المصاحف العثمانيه من لدن الصحابة إلى اليوم ، فإن لم يحفظه عدد يثبت بهم التواتر أثمت الأمة كلها .

بخلاف التوراه والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم ، وموسى وغيرها مما أنزله الله تبارك وتعالى ، فلم تكلف أممها بحفظها عن ظهر قلب ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء حفظ ، ومن شا اعتمد فى القراء على المكتوب ، وهذا الأخير هو الأعم الأغلب من شأن بنى إسرائيل وغيرهم ولم تتوفر الدواعى لحفظ هذه الكتب والصحف كما توفرت للقرآن الكريم .

فمن ثم لم يكن لها من ثبوت النص القطعى الموثوق به مثل ما للقرآن العظيم ، ومن هنا سهل التحريف ، والتبديل فى التوراة والإنجيل من الأحبار والرهبان والقسس ، وبعضها كالصحف ضاع من الزمن ، ولم يبق له وجود .

« الحكمة فى تكليف الأمة بحفظ القرآن » .

والسر فى أن الله سبحانه وتعالى كلف الأمة المحمدية بحفظ القرآن العظيم ، ولم يكلف الأمم السابقة بحفظ كتبها ، وصحفها — أن هذه الكتب لم تكن معجزة بألفاظها ولم يشأ الله ذلك لحكمة يعلمها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شاء الله سبحانه — وله الحكمة البالغة — أن يكون معجزا بلفظه فضلا عن معانيه ، فكان من الضرورى المحافظة على النص بالطريق المفيده للقطع واليقين ، وليس ذلك إلا بأن يحفظه العدد الكثير فى كل جيل وعصر الذين لا يجوز عليهم التكذيب ، ولا الغلط ، ولا السهو ، وهو ما يعرف فى علم الرواية « بالتواتر » وقد وفر الله له من الدواعى إلى حفظه ما لم يتوفر لغيره من الكتب السماوية ، بله (١) الأرضية وأيضا من الحكم

---

(١) بله اسم فعل بمعنى دع أى دع الكتب غير السماوية فأمرها مفروغ منه .

أن القرآن هو الأصل الأصيل للدين العام الخالد الباقى ما بقى إنسان على وجه هذه الأرض ، وهو سلام ، فكان لا بد من المحافظة على كتابه ، ليخلد خلود هذا الدين الذى يعتبر القرآن أصلا له .

بخلاف التوراة ، والإنجيل ، فقد كانتا كتبا لدينين يمثلان طورين خاصين محدودين بحدود الزمان والمكان، من الأطوار التى مرت بها الأديان السماوية حتى وصلت إلى الاكتمال ، فى « دين الإسلام » قال صلى الله عليه وسلم « وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » رواه البخارى .

« الأدلة على وجوب حفظ القرآن على الأمة » .

(١) ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن ربى قال لى : قم فى قـــريش فأنذرهم ، قلت : « أى ربى إذن يثلغوا رأسى ، حتى يدعوه خبزة »(١) فقال : « إنى مبتليك ، ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما(٢) ، ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق ينفق عليك » فقد أخبر سبحانه وتعالى أن القرآن لا يكتفى فى ثبوته وحفظه بصحيفة أو لوح يغسل بالماء ، وإنما محله القلوب ، والصدور وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ فى الصدور ، الكتاب فى الصحف فقد ازداد التوثق ، والاطمئنان ، وقـــوله « لا يغسله الماء » صيغة نفى ولكن النفى قد يأتى للنهى والنهى عن غسله بالماء يستلزم عادة الأمر بحفظه فهو مثل قوله : « لا يمسه إلا المطهرون » « فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

(٢) ما ورد فى وصف الأمة الإسلامية « أناجيلهم فى صدورهم » أى

---

(١) أى مهشما كالقطعة من الخبز .

(٢) أى مستلقيا أو مضطجعا كهيئة النائم .

كتابهم المقدس ، المعول عليه فى بقائه وسلامته من التحريف والتبديل ، الحفظ فى الصدور بخلاف أهل الكتاب ، فإنهم لا يحفظون كتابهم إلا من الصحف ، ولا يقرؤنه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن فى جمهرة المسلمين ، وذكر هذا الوصف فى معرض المفاضلة بينهم وبين غيرهم يدل على أن هذا أمر مختص بهم .

(٣) ما رواه البخارى فى صحيحه فى قصة الرجل الذى أراد أن يتزوج المرأة التى عرضت نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن له بها حاجة ولم يكن يملك شيئا ليكون مهرا لها فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « فما معك من القرآن » ، قال : سورة كذا ، وكذا ، قال « اتقرؤهن عن ظهر قلب » ؟ قال نعم قال « فاذهب فقدزوجتكها بمامعك من القرآن »(١) وهذا الحديث وإن لم يدل على الوجوب ولكنه يدل على أن الحفظ عن ظهر قلب أمر مرغوب فيه ، ومستحب ، وفضيلة من الفضائل التى يختص بها المسلمون .

« حفظ الصحابة للقرآن الكريم »

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزلت عليه الآية ، أو الآيتان ، أو الخمس أو العشر ، أو السورة ، يقرأها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ، ويفقههم بها ويبين لهم طريقة أدائها ، وآداب تلاوتها ، كى يحفظوا اللفظ ، ويفقهوا المعنى ، ويلتزموا ما نزل عملا ، وسلوكا ؛ ويستقيموا عليه .

وقد أحل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ القرآن فى المحل الأول من نفوسهم ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به يتنافسون فى حفظ لفظه ، ويتسابقون فى فقه معناه ، وجعلوه متعبدهم فى ليلهم ، ومسلاتهم فى فراغهم ، وصاحبهم

---

(١) صحيح البخارى — كتاب فضائل القرآن — باب القراءة عن ظهر قلب .

فى أسفارهم ، وأنيسهم فى وحدتهم . وصديقهم الصدوق ، فى منشطهم . ومكرههم . ومستشارهم الأمين فى شئون دينهم . ودنياهم وما ظنك بكتاب يعتقدون ـ وحق لهم ذلك ـ أن تلاوته عبادة ، والاستغلال به من أعظم القربات إلى الله ؛ وأن عزهم لن يكون إلا به ، وسعادتهم فى الدنيا والآخرة لن تتحقق إلا بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه ، والتخلق بأخلاقه ، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بعث بعثا جعل إمامهم فى صلاتهم أكثرهم أخذا للقرآن ، بل إذا جمع بين اثنين ، أو أكثر فى قبر لضرورة ـ كما حدث فى شهداء أحد ـ سأل . « أيهم أخذا للقرآن » ؟ فإذا أشير إليه قدميه فى اللحد (١) .

ولم يكن همهم من القراءة مجرد الحفظ من غير تدبر وفهم كما هو الشأن فى كثير من الحفاظ اليوم ، وإنما المراد الحفظ ، والفهم ، فالعلم ، فالعمل بما حفظوا وعلموا ، روى عن أبى عبد الرحمن السلمى (٢) قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم ، والعمل جميعا » فالقراء فى الصدر الأول كانوا فقهاء فاهمين ، وعلماء عاملين « اعتمادهم فى الحفظ على التلقى الشفاهى » .

وكان اعتمادهم ـ رضون الله عليهم ـ فى الحفظ على التلقى والسماع من

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ باب من قتل من المسلمين يوم أحد .

(٢) هو عبد الله بن حبيب السلمى ، من خيار التابعين ، وثقاتهم أخذ القراءة عن عثمان بن عفان ، وغيره من القراء المعروفين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

النبى صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه من النبى من الصحابة ، ولا سيما القارئين المجيدين منهم كعثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله ابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأمثالهم.

وما كانوا يعتمدون فى حفظه على المكتوب فى عهد النبى ، ولا على النقل من الصحف ، والمصاحف بعد كتابتها فى عهد ذى النورين عثمان رضى الله عنه .

وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين ، وتابع التابعين ومن بعدهم ، كان اعتمادهم على التلقى الشفاهى من الشيوخ أو العرض ، والقراءة عليهم ، وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة فى حفظ القرآن متبعة ، وملتزمة لدى القراء المجيدين إلى عصرنا هذا ، وبذلك بقيت سلسلة الإسناد متصلة بالقرآن ، وستبقى بإذن الله حتى يرث الله الأرض وما عليها .

« تفاوت الصحابة فى الحفظ » .

وقد كان الصحابة متفاوتين فى الحفظ قلة ، وكثرة ، وإتقانا وتجويدا ، فمنهم من كان يحفظه كله ، ومنهم من كان يحفظ جله ، ومنهم من كان يحفظ بعضه ، ومنهم من كان يحفظ السورة ، ومنهم من كان يحفظ السورتين ، والثلاث ، والخمس ، والعشر ، والأكثر ولكن مما لا ينبغى أن يشك فيه أن القرآن كله كان محفوظا عند الكثرة الكاثرة منهم ، التى تفيد التواتر المفيد للقطع واليقين بحيث كان مجموع القرآن عند مجموعهم .

« المشتهرون بالحفظ والإقراء من الصحابة » .

وقد اشتهر بحفظ القرآن الكريم ، وإقرائه من الصحابة من المهاجرين أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى وطلحة بن عبد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأبو هريرة ، وعبد الله بن السائب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ،

وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير وعبدالله بن أم مكتوم ، ومصعب بن عمير .... وغيرهم كثير .

ومن الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد قيس بن السكن أحد عمومة أنس ابن مالك ، ومجمع بن حارثة ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مسلمة ، وغيرهم كثير .

ومن النساء : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وأم ورقة وغيرهن وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثنى على بعض أصحابه القراء المجيدين ، حتى يقرأ عنهم ، أو ينهج منهجهم من يريد أن يلحق بهم ، وذلك أسلوب تربوى عظيم ففى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »(١) وابن أم عبد هو عبدالله ابن مسعود كان يعرف بذلك.

كما كان صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمعه من بعض أصحابه كابن مسعود(٢)، فى صحيح البخارى رضى الله عنه قال . «قال لى النبى صلى الله عليه وسلم « اقرأ على » ! قلت . يارسول الله ، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ ! قال : « نعم » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا »(٣) قال . « حسبك الآن » فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان ، يعنى بالدموع إما فرحا بهذه المنزلة التى تفرد بها ؛ وإما حزنا وأسفا لأنه سيشهد على أمته ؛ وفيهم المسىء والعاصى وعن الصحابة حفظه الألوف من التابعين ثم ألوف الألوف ممن جاء بعدهم حتى وصل إلينا القرآن كما أنزله الله من غير زيادة . ولا نقصان . ولا تغيير ولا تبديل . وتحققت كلمة الله « إنا نحن نزلنا الذكر . وإناله لحافظون » صدق الله العظيم .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة ، ورواه أيضاً عن عمر ، ورواه الترمذى والنسائى ، وصححه الدارقطنى .

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير من ص ٤٣ - ٤٨ . (٣) النساء ٤١ .

(العوامل المساعدة على حفظ القرآن)

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا هيأ له الأسباب، وهذا من رحمته بخلقه. فقد أوجب على الأمة الإسلامية حفظ القرآن، وجعل لهم الدواعى والحوافز ما أعانهم على حفظه، ومداومة قراءته، وتلاوته فمن هذه العوامل:

العامل الأول التعبد بالقرآن الكريم فى الصلاة وخارجها:

وقد اتفق الفقهاء قاطبة على أن الصلاة سواء أكانت فرضا أم نفلا، جماعة، أو غيرها لا تصح إلا بالقرآن، ولا تصح بالأحاديث القدسية، ولا النبوية، ولا بالأذكار المأثورة، فالقراءة ركن فى الصلاة وهذا محل إجماع، إلا أن منهم من جعل قراءة الفاتحة ركنا لا تصح الصلاة إلا به وهم الأئمة مالك، والشافعى، وأحمد فى المشهور عنه.

ومنهم من لم يجعل الفاتحة ركنا، فالصلاة تصح بالفاتحة وغيرها وهو الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلا أن الصلاة عندهم ناقصة الثواب غير كاملة؛ لأنهم جعلوا قراءة الفاتحه واجبا لا ركنا، فمن ترك قراءتها عمدا أساء، وعليه إعادتها، ومن تركها سهوا جبر بسجود السهو. ومن ذلك يتبين أن الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يحفظ من القرآن مايصحح به صلاته.

وأيضا فقد كان قيام الليل واجبا فى صدر الإسلام على النبى، وقيل عليه. وعلى أصحابه. وعماد القيام بالصلاة. ومن أركانها قراءة القرآن. قال تعالى: «يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا: نصفه(1) أو انقص منه قليلا

---

(1) نصفه بدل من الليل أو من قليلا فكان الواجب إما النصف، أو الثلث، أو الثلثان.

أوزد عليه ، ورتل القرآن ترتيلا »(١) وكانوا مخيرين فى هذ الوجوب بين الثلث، أو النصف ، أو الثلثين ، وقد مكثوا على هـــذا عاما أو عامين « وقيل عشر سنين حتى كانت تنتفخ أقدام بعضهم من طول القيام فخفف الله عنهم ، وصار مستحبا ، ونسخ الفرضية بقوله سبحانه فى آخر السورة « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل، ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار(٢) علم أن لن تحصوه فتاب عليهم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن(٣) ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا ، وأعظم أجرا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »(٤) وبذلك صار مستحبا مرغوبا فيه ووكل إلى كل ما يستطيعه من ساعاته .

وقد كان النبى ،والصحابة ملازمين للقيـــام وقراءة القرآن حتى بعد التخفيف ونسخ الفرضية حتى استحقوا الثناء من الله عز وجل قال سبحانه « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون ،فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون»(٥)

---

(١) المزمل / ١ — ٤ .

(٢) أى ساعاتهما ، ويعلم القدر الذى تقومون منه وأنكم لا يمكنكم المواظبة على هذا ، لأن لكم طاقة ، كما أنه منكم المرضى ، ومنكم من يسعى على رزقه ، كما أنه سيفرض عليكم الجهاد فيما بعد ، فكان من حكمتى ورحمتى التخفيف عليكم .

(٣) بهذا الجزء من الآية استدل أبو حنيفة وأصحابه على صحة الصلاة بالفاتحة وغيرها .

(٤) المزمل / ٢٠ .　　(٥) السجدة ١٦ ، ١٧ .

وقال سبحانه : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »[1] .

وقد كان هذا القيام لونا من ألوان التربية الإسلامية حتى تصفو نفوسهم وتتبدل أخلاقهم ، وتقوى عزائمهم وتتربى فيهم ملكات الصبر ، والتحمل ، وعدم الخضوع لأهواء النفس وشهواتها ، ويكونوا على استعداد للتضحية والكفاح فى سبيل عقيدتهم ودينهم رضوان الله عليهم ، فلا سهر فى لهو ، ولا فى شرب خمر ، ولا فى متابعة للجوارى والحسان ولا فى قمار ، ولا ميسر إلى غير ذلك من مباذل الجاهلية .

وإنما هو سهر فى حب الله ، وفى مدارسة كتاب الله ، وفى الصلاة ، والذكر ، والدعاء خلوات ما أحلاها من خلوات ، وسمو بالأرواح إلى معارج القدس الأعلى .

فلا تعجب إذا كانوا كتب الله لهم النصر والعزة على قلتهم ، وأن حملوا رسالة نبيهم فبلغوها إلى الدنيا كلها ، وأنهم لم يمض عليهم نصف قرن من الزمان حتى دانت لهم فارس ، والروم بل لم يمض قرن على الدعوة حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار .

وما ظنك برجال كان بعضهم يختم القرآن فى ركعة يحيى بها ليله كذى النورين عثمان رضى الله عنه وتميم الدارى ، بل روى عن سليم بن عتر التجيبى أنه كان يقرأ القرآن فى الليلة ثلاث مرات ! وروى عن الإمام الشافعى أنه كان يختم فى اليوم ، والليلة من شهر رمضان ختمتين ، وفى غيره ختمة ، وروى عن أبى عبد الله البخارى صاحب الصحيح أنه كان يختم القرآن فى الليلة ويومها من رمضان (٢) إلى غير ذلك مما ذكر عن بعض

---

(١) الذاريات ١٧ — ١٩ .

(٢) كتاب فضائل القرآن لابن كثير ص ٨١ ، ٨٢ .

السلف ، وقد كان الإمام أبو حنيفة ممن يختم القرآن فى ليلة ، وذلك أنه مر على قوم ، فسمعهم يقولون : هذا يختم القرآن فى ليلة ، فأبت عليه نفسه وأخلاقه إلا أن يكون كما يقولون فواظب على ذلك .

(العامل الثانى)

(٣) « الترغيب فى قراءة القرآن ، وحفظه » .

وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم مالا يحصى من الأحاديث فى الترغيب فى قراءة القرآن ، وتلاوته كما ينبغى ، وحفظه ، والوصاية به .

فالقرآن الكريم أصدق الحديث وأحسنه روى الامام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبدالله قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمدالله، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال . « أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » ورواه مسلم أيضاً فى صحيحه .

والقرآن افضل الكلام وأشرفه روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم . « إن فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » وراوه البيهقى فى الأسماء والصفات من حديث .

والقرآن أحب إلى الله من كل شىء ، روى الدارمى من حديث عبدالله ابن عمرو مرفوعا « القرآن أحب إلى الله من السماوات والأرض ، ومن فيهن » .

وأهل القرآن : هم أهل الله وخاصته ، روى الإمام أحمد يسنده عن أنس بن مالك قال . قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين[1] من الناس

---

(١) أى ناسا من خلقه يرعاهم ، ويكرمهم ، ويبجلهم كما يرعى ، ويكرم الملك أهله وخاصته الملتصقين به الملازمين له ، فالكلام من قبيل التمثيل والمجاز

قيل : من هم يارسول الله ؟ قال : « أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته » وبحسبهم شرفا هذه النسبة إلى الله .

وأهل القرآن . وحفظته هم عرفاء الجنة فنى الحديث الذى رواه الطبرانى « حملة القرآن عرفاء(١) أهل الجنة .

وتعلم القرآن ، وتعليمه يجعل صاحبه خير الناس وأفضلهم روى الشيخان عن عثمان بن عفان — رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه » والاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة النوافل ، روى ابن ماجه فى سننه من حديث أبى ذر : « لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة » .

وقارىء القرآن مأجور على قراءته عمل به أو لم يعلم . فهم معناه ؛ أم لم يفهم ، وإن كان من فهم ؛ وعمل أعظم أجرا ، وأكثر ثوابا روى الشيخان فى صحيحيهما بسندهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ، ويعمل به كالأترجة(٢) طعمها طيب ، وريحها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن ، ويعمل به . كالثمرة . طعمها طيب ، ولا ريح لها ومثل المنافق(٣) الذى يقرأ القرآن كالريحانة : ريحها طيب ، وطعمها مر ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث . وريحها مر » وفى رواية أخرى « ولا ريح لها » ، وهى أصح من جهة المعنى .

والقرآن الكريم حبل ممدود بين السماء والأرض ، يصل الإنسان

---

(١) رؤساء.

(٢) نوع من الفاكهة الجيدة كالتفاح ولكنها أكبر .

(٣) المراد نفاق العمل والخلق لانفاق العقيدة ، وقيل : نفاق العقيدة ، وفى بعض الروايات « الفاجر » .

الحافظ له ، والعامل به بالله تعالى روى ابن أبى شيبة من حديث أبى شريح الخزاعى « إن هذا القرآن سبب (١) طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ، ولن تهلكوا بعده أبدا » وروى ابن جرير مرفوعا « إن هذا القرآن هو حبل الله الممدود من السماء والأرض » .

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه — قال قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » وفى حديث الترمذى الذى رواه عن الحارث الأعور ، عن على رضى الله عنه عن النبى ﷺ « ... وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم » .

والاشتغال بحفظ القرآن عن الذكر ، وسؤال الله يعطيه الله أفضل مما يعطى السائلين ففى الحديث الذى رواه الترمذى بسنده عن النبى ﷺ قال : يقول الرب — عز وجل من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » .

وقراءة القرآن ومدارسته ، تستنزل الملائكة ، والسكينة ، والرحمة ، ففى حديث : أسيد بن حضير : أنه قرأ سورة البقرة ذات ليلة ، فاضطربت فرسه ، فسكت ، فسكنت ، ثم قرأ فاضطربت ، فسكت فسكنت . .

فلما فرغ من قراءته رفع رأسه إلى السماء ، فإذا هو بمثل الظلة (٢) فيها أمثال المصابيح ، عرجت إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدث النبى ﷺ بذلك فقال له : « تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت — أى استمررت فى قراءتك — لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم » وفى حديث

---

(١) حبل .

(٢) السحابة .

الصحابى الذى كان يقرأ سورة « الكهف » فتغشته مثل السحابة ، فجعلت تدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فعجب من ذلك فلما أصبح أتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فقال : « تلك السكينة(١) تنزلت للقرآن » متفق عليه

وروى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(٢)

وقارىء القرآن ، وحافظه ، العامل به ، يغبطه الناس ، ويتمنون أن يكونوا مثله روى البخارى وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد(٣) إلا فى اثنتين: رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل ، وآناء النهار ، فسمعه جار له ، فقال : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه(٤) فى الحق ، فقال رجل : ليتنى أوتيت مثل ما أوتى فلان فعملت مثل ما يعمل » .

وحافظ القرآن ، وصاحبه الملازم لقراءته له بكل آية درجة يرقاها

---

(١) السكينة هى الطمأنينة ، وراحة القلب والنفس والمراد بها هنا الملائكة التى نزلت بها لسماع القرآن .

(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ـ باب الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر .

(٣) المراد بالحسد . الغبطة ، وهى تمنى المرء أن يكون له مثل ما للغير من غير أن يتمنى زواله ، بخلاف الحسد ، ففيه زوال النعمة ، وكأنه ﷺ أطلق الحسد على الغبطة المشابهة من وجه ، وللمبالغة فى تحصيل الخصلتين كأنه قيل : لو لم يمكنا إلا بالحسد المذموم لترخص فيه ، فكيف وتحصيلهما ممكن بالطريق المحمود المشروع .

(٤) ينفقه .

يوم القيامة ، فانظر — أيها القارىء — كم يرقى من الدرجات ؟

عن أبي سعيد الخدري قال : « قال نبي الله ﷺ . « يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة . اقرأ ، وارق ، واصعد فيقرأ ، ويصعد ، بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه » رواه الإمام أحمد فى مسنده .

والقرآن أحد الشفعاء الذين تقبل شهادتهم يوم القيامة، روى أبو عبيد عن أنس مرفوعا : « القرآن شافع مشفّع (١) ، وما جد مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »

وروى مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : « اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » .

وروى أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعنى فيه قال - فيُشَفَّعَان »

وحافظ القرآن عن ظهر قلب ، والعامل بما فيه يشفعه الله فى أهله يوم القيامة أخرج الترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد من حديث على « من قرأ القرآن ، فاستظهره (٢) فأحل حلاله ، وحرم حرامه أدخله الله الجنة ، وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار » وحافظ القرآن الذى لا يغلط فيه ، ولا يغيب عنه شيء مع السفرة الكرام ، البررة من الملائكة، روى الشيخان ، وغيرهما من حديث عائشة مرفوعا « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ، ويتعتع فيه (٣) ، وهو

---

(١) شفع - بضم الميم ، وفتح الشين ، ثم فاء مشددة مفتوحة - أى مقبول الشفاعة .

(٢) حفظه عن ظهر قلب . (٣) أى يتعثر فى قراءته .

عليه شاق له أجران ، أما الأول فأجره أكثر ، وأضعاف مضاعفة .

وما من أحد يقرأ شيئا من القرآن حين يأخذ مضجعه إلا حفظ حتى يصبح أخرج أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه من حديث شداد بن أوس « مامن مسلم يأخذ مضجعه ، فيقرأ سورة من كتاب الله تعالى إلا وكل الله به ملكا يحفظه ، فلا يقر به شىء يؤذيه حتى يهب متى هب » .

وفى حديث أبى هريرة وقصته مع الشيطان الذى كان يسرق من الزكاة وقوله له . « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، لم يزل معك من الله حافظ ؛ ولا يقربك شيطان حتى تصبح » فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صدقك ، وهو كذوب(١) ، ذاك شيطان » رواه البخارى .

والبيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، ويقل شره روى البزار من حديث أنس مرفوعا « البيت الذى يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والبيت الذى لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره » .

والقلب الذى ليس فيه شىء من القرآن كالبيت الخرب روى الإمام أحمد والترمذى بسندهما عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى عليه وسلم « إن الرجل الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » ومن ذا الذى يرضى أن يكون قلبه خرابا ؟ .

والقرآن هو الغنى الحقيقى ، فمن رزقه رزق الغنى كله ، ومن حرمه فلا غنى له وإن كان عنده مال قارون ، روى الطبرانى بسنده عن أنس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى دونه » (٢) .

---

(١) هذا تقرير من النبى لما أخبره به الشيطان ، ولعل الشيطان عرف ذلك من الرسول فأخبره أبا هريرة ، ومعنى صدقك . . أنه صدق فى هذه وإن كان الشأن فى قوله الكذب .

(٢) أى لا غنى فى غيره .

وقارىء القرآن له بكل حرف حسنة ، عن ابن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنه ، والحسنة بعشر أمثالها ، ولا أقول « ألم حرف ولكن ألف ؛ حرف ؛ ولام حرف وميم حرف » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى فضل القرآن ، وفضل آيات أو سور خاصة كالفاتحة ، وخواتيم سورة البقرة ، والبقرة ، وآل عمران ، والكهف والإخلاص ، والمعوذتين وغيرها.

فمن ذا الذى يسمع ، أو يصل إليه كل هذا الترغيب الحبيب ، والوعد الجميل ولا يسارع إلى حفظ القرآن وتفهمه ، والعمل به ، فلا تعجب إذا كان الصحابة تنافسوا فى هذا المضمار الشريف ، وكذلك تنافس فيه من جاء بعدهم ، حتى حفظ الألوف ، بل وألوف الألوف .

(العامل الثالث)

٣ — الأمر بتعهد القرآن والتحذير من نسيانه.

وكذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وكل من يجىء من الأمة بعدهم بتعهد القرآن وممارسة قراءته حتى لا يتفلت منهم. وضرب لهم فى ذلك المثل النوابغ ، والكلم الجوامع الزواجر .

فى الصحيحين وغيرهما عن أبى موسى — رضى الله عنه — عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« تعاهدوا القرآن(١) فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد تفصيا من الإبل فى عقلها(٢).

---

(١) تعاهدوا القرآن . أى حافظوا على قراءته ، وداوموا على تلاوته

(٢) التفصى : التخلص والتفلت ، عقلها جمع عقال وهو حبل يعقل به البعير أى يشد به وسط ذراعه وإنما ضرب المثل بالإبل ، لأنها أشد الحيوانات نفوراً وشرودا ، ويصعب إرجاعها بعد استمكان نفورها .

ويزيد النبي صلى الله عليه وسلم الأمر توضيحا فيقول: «إنما مثل صاحب القرآن(١) كمثل الإبل المعقلة(٢) إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» رواه الشيخان وفى الأمر بالتعهد. والمواظبة عليه تحذير من نسيانه أو ذهابه .

وقد جاء الترهيب من نسيان القرآن أو شيء منه وذم من يهمل حتى ينساه وذلك فى غير ما حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا لا يفكه منها إلا عدله . وما من رجل تعلم القرآن ثم نسيه إلا لقى الله يوم القيامة أجذم(٣) » ولأبى داود عن سعد بن عبادة مرفوعا(٤) من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله وهو أجذم » قال الحافظ وفى إسناده مقال .

وروى أبو عبيد بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عرضت على أجور أمتى حتى القذاة والبعرة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتى ، فلم أر ذنبا أكبر من آية أو سورة من كتاب الله أوتيها رجل فنسيها .

وروى أبو داود والترمذى . وأبو يعلى والبزار وغيرهم من حديث ابن أبى داود عن ابن جريج ، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب . عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرضت على أجور أمتى حتى

---

(١) أى الحافظ له . والمتمكن من حفظه والملازم له .

(٢) أى ربطت بالعقال

(٣) أى مقطوع اليد كناية عن نقصان الأجر ، وارتكاب الإثم وقيل مقطوع السبب من الخير. وقيل صفر اليدين من الخير. ومعانيها متقاربة وقيل يحشر هكذا يوم القيامة ليكون علامة عليه .

(٤) أى منسوبا إلى النبي من قوله ، أو فعله ،أو تقرير، وهذا من قوله.

القذاة يخرجها الرجل من المسجد وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن. أو آية من القرآن أوتيها رجل ثم نسيها قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وذاكرت به البخارى فاستغربه. وقال الحافظ فى الفتح فى إسناده ضعف ولكن إيراده له فى الفتح. وإيراد بن كثير له فى كتاب «فضائل القرآن يدل على أنه ضعف محتمل يحتج به فى مثل هذا.

« نسيان القرآن كبيرة »

وقد اعتبر كثير من السلف نسيان القرآن كبيرة من الكبائر لما قدمنا من الأحاديث وغيرها وقد أخرج أبو عبيد — رحمه الله — من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفاً قال:

«ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحدثه لان الله يقول: وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» ونسيان القرآن من أعظم المصائب.

وروى عن أبى العالية موقوفاً أى عليه «كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن، ثم ينام عنه حتى ينساه» قال الحافظ ابن حجر: وإسناده جيد ومن طرق ابن سيرين بإسناد صحيح فى الذى ينسى القرآن» كانوا يكرهونه ويقولون فيه قولا شديداً(١).

قال ابن كثير؛ وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى» وهذا الذى قاله هذا. وإن لم يكن هو المراد جميعه.

---

(١) أنظر فضائل القرآن لابن كثير ص ٦٧ — ٧٠. وفتح البارى ج ٩ ص ٧٠ - ٧١ وكتاب فضائل القرآن فى صحيح البخارى وفضائل القرآن فى رياض الصالحين وفضائل القرآن فى الاتقان ج ٢ ص ١٥١ — ١٥٣.

فهو بعضه . فإن الإعراض عن تلاوة القرآن وتعريضه للنسيان. وعدم الاعتناء فيه تهاون كبير وتفريط شديد نعوذ بالله منه . ولهذا قال عليه السلام تعاهدوا القرآن وفي لفظ استذكروا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم . . أى أن القرآن أشد تفلتا من الصدور من النعم إذ أرسلت من غير عقال ثم قال : ولهذا قال إسحاق بن راهويه . وغيره : يكره للرجل أن يمر عليه أربعون يوما ؛ لا يقرأ فيها القرآن . كما يكره له أن يقرأه فى أقل من ثلاثه أيام .

(العامل الرابع)

(٤) ارتباط بعض الوظائف الدينية والدنيوية بحفظ القرآن

الإمامة فى الصلاة بجميع أنواعها من المناصب الدينية الهامة، ولا يتولاها إلا أولو الفقه ، والعلم ، والفضل ، وقد كانت وظيفة رسول ﷺ طيلة حياته ، ولم يتولها أحد فى حياته إلا بإذن منه أو باستخلاف إذا سافر أو خرج فى غزوة أو نحوها، وكذلك تولى الإمامة فى الصلاة الخلفاء الراشدون من بعده رضوان الله عليهم ، وتولاها الولاة ، والأمراء فى الأمصار ، والأقاليم ، وكذلك تولاها أمراء المؤمنين بعد الخلافة الراشدة

وقد كان حفظ القرآن ، واستظهاره ، وإجادته ، والعلم به ، والتفقه فيه المرشح الأول لهذا المنصب الدينى الخطير ، فكان الأحق بها أقرؤ(٣) الناس لكتاب الله .

---

(٣) ليس المراد بالقراءة مجرد الحفظ من غير فقه وعلم ، وإنما المراد بالأقرأ الأحفظ ، والأفقه ، والأعلم وقد كان القراء هكذا فى الصدر الأول وقد مر بك عن قرب ما قاله التابعى عن القراء من أصحاب رسول الله ﷺ

روى الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله ﷺ : « يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة . فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سلماً — أى إسلاما — ولا يَؤُمَّنَّ الرجلُ الرجلَ فى سلطانه (١) ولا يقعد فى بيته على تكرمته (٢) إلا بإذنه » قال الأشج فى روايته مكان سلما « سناً » أى أكبرهم سناً

وكذلك كان حفظ القرآن وفقهه من الأسباب المرشحة لتولى الإمامة العظمى كالصديق أبى بكر ، والولاية والقضاء ، وقيادة السرايا ، والجيوش كأبى موسى الأشعرى ، وسالم مولى أبى حذيفة وقد كان يحمل اللواء يوم اليمامة ، فقيل له : إنا نخاف أن نؤتى من قبلك ؟؟ فقال هذه الكلمة التى تنم عن إيمان عميق ، وقوة حفظ وفقه للقرآن الكريم « بئس أنا حامل القرآن إذاً »

نعم — والله — فما كان لحامل القرآن من أمثال سالم — رضى الله تعالى عنه — أن يفر ، أو ينكص على عقبيه ، أو لا يرغب عن الشهادة ، وقد صدق فيما عاهد الله عليه فصار يتقدم باللواء ويقاتل حتى قطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضنه بعضديه وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى

---

(١) معناه أن صاحب البيت ، والمجلس ، وإمام المسجد أحق من غيره وإن كان ذلك الغير أفقه ، وأقرأ ، وأروع ، وأفضل منه ، فإن حضر السلطان أو نائبه قدم على صاحب البيت ، وإمام المسجد وغيرهما لأن ولايته وسلطنته عامة ، وتستحب لصاحب البيت ، أو إمام المسجد ، أن يأذن ويقدم من هو أفضل منه .

(٢) بفتح التاء وكسر الراء الفراش أو نحوه كالسرير ، الكرسى مثلا مما يبسط ويعد لصاحب المنزل ويخص به وهذا من آداب الإسلام الاجتماعية الراقية التى تتفق والأذواق العالية

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . »(١) وقوله : « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين »(٢)

وهكذا كان حفاظ القرآن وقراؤه ، لقد كانوا أسبق الناس إلى نشر دعوة الإسلام وأرغب الناس فى الجهاد ، والاستشهاد ، وأهل البطولات والتضحيات والفداء ، وما كان حفظ القرآن ليمنعهم من الخروج فى السرايا والغزوات

فأصحاب « بئر معونة »(٣) كانوا من القراء ، وقد استشهدوا جميعاً فى سبيل الله بنفس راضية ، فلا تعجب إذا كان النبي ﷺ حزن عليهم حزناً شديداً، حتى لقد مكث شهراً يدعو على « رعل وذكوان ، وعصية » وهى القبائل التى غدرت بهم ، وليس أدل على رضائهم بالشهادة مارواه البخارى فى صحيحه أن النبي ﷺ لما نعى القراء قال : « إن أصحابكم قد أصيبوا ، وأنهم قد سألوا ربهم ، فقالوا : ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ، ورضيت عنا ، فأخبرهم عنهم فأنزل الله فيهم قرآناً كان يتلى: « بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا » ثم نسخ بعد (٤)

وحتى بعد الوفاة كان الفضل والتقدمة لحفاظ القرآن ، وقرائه ، ففى الصحيح أن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين والثلاثة من شهداء أحد فى قبر واحد ، وكان يسأل : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن » أى حفظاً له فيقدمه فى اللحد ، رواه البخارى فمن ثم عنى المسلمون عناية فائقة بحفظ القرآن وأجادته ، فقد كان وسيلة من الوسائل للدرجات الدينية ، والدنيوية وقد

(١، ٢) آل عمران ١٤٤ ، ١٤٦

(٣) اسم موضع من بلاد هذيل ، بين مكة ، وعسفان وفى هذا المكان كان الغدر والخيانة بأصحاب السرية

(٤) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ـ باب سرية الرجيع، وبئر معونة

روى الفاروق رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « إن الله يرفع بهذا الكتاب قواما ويضع به آخرين » رواه مسلم

« العامل الخامس »

(٥) تفرغ بعض الصحابة ومن بعدهم لحفظ القرآن وضبطه

وقد تفرغ لحفظ القرآن، والتفقه فيه أناس فى عهد النبى ﷺ وهم أهل الصفة[٢] وهم أضياف الله، وأضياف الإسلام، كانوا يحتطبون بالنهار، ويقومون الليل ويقرأون القرآن، ويحفظونه، ويتدارسونه، ويعلمونه غيرهم، ولم يكونوا رضوان الله عليهم - كسالى ولا خاملين، ولا ينأون بأنفسهم عن العمل والكدح كما يزعم بعض المتخرصين عليهم، وإنما كانوا إذا وجدوا عملا عند أحد عملوا، وإذا لم يجدوا احتطبوا، وأطعموا إخوانهم، وجعلوا همهم حفظ القرآن، واعدوا أنفسهم للجهاد، فكان إذا دعاهم النبى ﷺ إلى الجهاد ابوا سراعا، وليس هذا قولا حملنى عليه حبهم، أو الدفاع عنهم وإنما هو ما جاءت به الروايات الصحيحة الثابتة فى الصحيحين وغيرهما، قصدت تجليته للرد على هؤلاء الذين يشنعون بهم، ويتجنون عليهم.

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال « ... وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل . ولا مال، ولا إلى أحد، إذا أتته، أى النبى صلى الله عليه وسلم - صدقة بعث بها اليهم، ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل اليهم، وأصاب منها، وأشركهم فيها »[١] وكان أبو هريرة منهم .

---

(٢) مكان مظلل كان فى مسجد النبى ﷺ، كان يأوى إليه، من لا دار له، ولا أهل، ولا مال فكانوا يبيتون فيه، ويطعمون، ويعانون

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب كيف كان عيش النبى صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وتخليهم عن الدنيا

وفى مرسل يزيد بن عبدالله بن قسيط عند ابن سعد «كان أهل الصفة ناسا فقراء، لا منازل لهم، فكانوا ينامون فى المسجد لا مأوى لهم غيره»(١).

وفى حديث عبد الرحمن بن أبى بكر؛ أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع .....» الحديث(٢).

وفى صحيح البخارى أيضاً عن أنس بن مالك رضى الله عنه «أن رعلا، وذكوان، وعصية، وبنى لحيان استمدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عدو، فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم «القراء» فى زمانهم كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة فقتلوهم وغدروا بهم»(٣).

وفى رواية ثابت عند مسلم «ويشترون الطعام لأهـــل الصفة، ويتدارسون القرآن»(٤) وفى صحيح البخارى أيضاً عن أبى هريرة قال «رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء(٥)، إما إزار(٦)، وإما كساء قد ربطوا - أى الأكسية - فى أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»(٧).

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح: «يشعر بأنهم كانوا أكثر من سبعين»

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٣٨ (٢) صحيح البخارى - باب علامات النبوة
(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الرجيع .. وبئر معونة ..
(٤) فتح البارى جـ ٧ ص ٣٠٩ (٥) هو ما يستر أعالى البدن (٦) ما يشد فى الوسط فيستر النصف الأسفل (٧) صحيح البخارى - كتاب الصلاة - باب نوم الرجال فى المسجد.

وهؤلاء الذين رآهم أبو هريرة غير السبعين الذين بعثهم النبي صلى الله عليه وسلم فى غزوة بئر معونة ، وكانوا من أهل الصفة أيضاً لكنهم استشهدوا قبل إسلام أبي هريرة ، وقد اعتنى بجمع أصحاب الصفة ابن الأعرابى ، والسلمى ، والحاكم ، وأبو نعيم ، وعند كل منهم ما ليس عند الآخر ؛ وفي بعض ما ذكروه اعتراض ومناقشة ، لكن لا يسع هذا المختصر تفصيل ذلك »(١) .

وقال فى موضع آخر من الفتح : « ولم أقف على عددهم - يعني أهل الصفة - إذ ذاك وقد تقدم فى أبواب المساجد ، في أوائل كتاب الصلاة من طريق أبي حازم عن أبي هريرة « رأيت سبعين من أصحاب الصفة ... » الحديث وفيه أشعار بأنهم كانوا أكثر من ذلك وذكرت أن أبا عبد الرحمن السلمى ، وأبا سعيد بن الأعرابى ، والحاكم اعتنوا بجمع أسمائهم ، فذكر كل منهم من لم يذكر الآخر ، وجمع الجميع أبو نعيم فى الحلية ، وعدتهم تقرب من المائة ، لكن الكثير من ذلك لا يثبت ؛ وقد بين كثيراً من ذلك أبو نعيم ، وقد قال أبو نعيم : كان عدد أهل الصفة يختلف بحسب اختلاف الحال ، فربما اجتمعوا فكثروا ، وربما تفرقوا إما لغزو ، أو سفر ، أو استغناء ، فقلوا ، ووقع فى عوارف السهروردي أنهم كانوا أربعمائة (٢) .

أقول والذى يظهر أنهم كانوا كثيرين ، وأنهم كانوا يقلون ويكثرون بحسب اختلاف الأحوال كما قال أبو نعيم

ومهما يكن من شيء فقد كان أهل الصفة ثروة عظيمة للقرآن الكريم وكانوا ركائز ودعائم لحفظ القرآن ، وإشاعته ، ونشره بين المسلمين ، كما كانوا جند الله ، وجند الإسلام ، كلما سمعوا هيعة(٣) طاروا إليها ،

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٤٢٤ (٢) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٤١

(٣) الصيحة إلى الجهاد

وهكذا تبين أنهم برءاء مما رموا به وكذلك كان المشتغلون من الصحابة بزراعاتهم ، وتجاراتهم شديدى الحرص على الوحى ، ولا سيما القرآن ، وحفظ ما نزل منه روى البخارى فى صحيحه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه — أنه قال : كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد — أى ناحية — وهى من عوالى المدينة ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينزل يوما ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى ، وغيره وإذا نزل فعل مثل ذلك . . . . » الحديث (١) .

وهكذا نجد أنهم ما كان يشغلهم دينهم عن دنياهم ، ولا تشغلهم دنياهم عن أمور دينهم ، وحفظ كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، ولا عجب فهم رأس الأمة الخيرة ، الوسط .

وقد اشتهر باقراء القرآن من الصحابة سبعة . عثمان ، وعلى ؛ وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى كما ذكر الذهبى فى طبقة القراء .

« التفرغ للقرآن بعد عصر الصحابة » .

ثم تفرغ لحفظ القرآن ، وإقرائه كثير من التابعين بالأمصار الإسلامية فمنهم من كان بالمدينة . سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعمر بن عبد العزيز ، وسليمان ، وعطاء ابن يسار ، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارىء ، وعبد الرحمن بن هرمز المشهور بالأعرج ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهرى القرشى عالم الحجاز والشام ، وجندب بن مسلم ، وزيد بن أسلم .

وكان بمكة عبيد بن عمير ، وعطاء بن أبى رباح ، وطاوس بن كيسان

---

(١) صحيح البخارى — كتاب العلم — باب التناوب فى العلم

اليمانى ، ومجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وابن أبى مليكة .

وكان بالكوفة علقمه ، والأسود ، ومسروق بين الأجدع ، وعبيده بن عمرو السلمانى وعمرو بن شرحبيل والحارث بن قيس والربيع بن خثيم وعمرو بن ميمون وأبو عبد الرحمن السلمى ، وزر بن حبيش ، وعبيد بن نضيلة ، وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى ، والشعبى.

وبالبصرة . أبو العالية ، وأبو رجاء ، ونصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر والحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين ، وقتادة بن دعامة السدوسى وبالشام . المغيرة بن أبى شهاب المخزومى صاحب عثمان ، وخليفة بن سعد صاحب أبى الدرداء .

ثم تجرد أقوام لحفظ القرآن ، وضبط قراءاته ، وعنوا بذلك أتم عناية حتى صاروا أئمة فى القرآن ، والقراءة ، يقتدى بهم ، ويرحل اليهم .

فكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ثم شيبة بن نصاح ، ثم نافع بن أبى نعيم .

وبمكة : عبد الله بن كثير ، وحميد بن قيس الأعرج ، ومحمد بن أبى محيص .

وبالكوفة : يحيى بن وثاب ، وعاصم بن أبى النجود ، وسليمان بن مهران المعروف بالأعمش ، ثم حمزة ، ثم الكسائى .

وبالبصرة : عبد الله بن أبى اسحق ، وعيسى بن عمر ، وأبو عمر بن العلاء وعاصم الجحدرى ، ثم يعقوب الحضرمى .

وبالشام : عبد الله بن عامر ، وعطية بن قيس الكلابى ، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر ، ثم يحيى بن الحارث الذمارى ، ثم شريح بن يزيد الحضرمى.

« الأئمة القراء السبعة »

واشتهر من هؤلاء فى الآفاق الأئمة السبعة

(١) نافع : قد أخذ عن سبعين من التابعين منهم : أبو جعفر ، وابن كثير ، وأخذ عن عبد الله بن السائب الصحابى .

(٣) وابن عامر : وأخذ عن أبى الدرداء الصحابى الجليل ، وأصحاب عثمان رضى الله عنه .

(٤) وعاصم . وأخذ عن كثير من التابعين .

(٥) وحمزة . وأخذ عن عاصم ، والأعمش ، والسبيعى ، ومنصور بن المعتمر ، وغيرهم .

(٦) والكسائى . وأخذ عن حمزة ، وأبى بكر بن عباس(١) .

ثم انتشرت القراءات فى الأمصار ، وكثر القراء كثرة تجاوزت الحصر وصار حفاظ القرآن ، المتقنون له ، المتفرغـــون لإقرائه فى الأقطار الإسلامية يعدون بألوف الألوف فلله الحمد والمنه على ما أنعم به ، وعلى توفيق الأمة الإسلامية لحفظ كتابه .

العامل السادس

(٦) اشتهار العرب بقوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وصفاء الفطرة لقد كان العرب تغلب عليهم البداوة والأمية ، فكان من الطبعى أن يكون معتمدهم فى حفظ أنسابهم ، وأشعـــارهم ، وخطبهم ، ومفاخرهم ، ومفاخر آبائهم ، وأجدادهم وكل ما يتصل بهم على حوافظهم ، وذاكراتهم فقد كانوا يعنون غاية العناية بالأنساب ، والأحساب ، والأشعار ، والخطب ومن اعتز بشىء فلابد أن يسجله ، ويقيده ، ولما كانوا أمة أمية فقد قامت

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ٧٢ ، ٧٣

الحافظة ، والذاكرة مقام التسجيل بالكتابة ، فمن ثم كان من خصائصهم التي فاقوا بها كل الشعوب المعاصرة لهم قوة الحافظة ، وسيلان الأذهان ، وقد كان الواحد منهم كـ « الشريط المسجل » الذي لا يضل ، ولا ينسى ، وكان منهم من يحفظ أنساب قبيلته ، وأشعارها ، ومفاخرها ؛ ومنهم من كان يحفظ أنساب القبائل كلها . وأشعار العرب وخطبهم . ومفاخرهم ، ومثالبهم . وقد اشتملت كتب التواريخ والأدب على أمثال عجيبة في هذا .

وقد أعانهم على هذا ذكاء العقول . وصفاء النفوس ، وسلامة الفطرة وقلة شواغل الحياة وتكاليفها ، ولا يزال أهل البوادي والقرى إلى وقتنا هذا جل اعتمادهم على حوافظهم . وذاكراتهم تجلس للواحد منهم وهو أمي فيقص عليك من قصص الماضين من قبيهم ، ومن لم يلقهم . الكثير من الأخبار ، بل قد وجدنا من أهل القرى عندنا في مصر من يعرف تاريخ كل أسرة وعدد أفرادها . ومن مات منها . ومن بقي . وقد يذكر لك حكاية عن كل من تذكره له . وعمن غبر . وعمن لا يزال حيا . ومع هذا فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب وما من أحد منا إلا وقد جلس إلى جده . وجداته وسمع منهن الكثير مما حفظوا . ووعوا فما أثر عن العرب ليس بالأمر المستغرب في تاريخ البشر .

وقد كان وجود هذه الخصائص العقلية . والذهنية . والنفسية عند العرب قبل الإسلام من المقدمات بين يدي النبوة المحمدية . لأن الله تبارك وتعالى يعلم أنه سيكلف هذه الأمة المحمدية بحفظ كتاب ربها ، وسنة نبيها وأنهم هم أول من يقومون بحمل هذا الدين ، ونشر رسالته ، وتلقي الوحي قرآنا ، أو سنة من النبي صلى الله عليه وسلم . وأنهم هم الذين سيضطلعون بهذا العبء حين يبلغوه إلى الناس كافة ، والعرب هم حملة هذا الكتاب الكريم

وهم الذين بلغوه إلى كل أبيض ، وأسود حتى صار الإسلام مقترنا بهم ، وصدق المبلغ عن رب العالمين حيث قال : « إذا ذل العرب ، ذل الإسلام » رواه أبو يعلى ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته »

العامل السابع

القرآن هو أصل الدين ، ومنبع الصراط المستقيم ، وهو الأصل الأول من أصول التشريع فى الإسلام ، الذى يرجع إليه فى الأحكام ، ومعرفة الحلال من الحرام ، وهو دستور المسلمين الأكبر ، إليه يرجعون فى الحكم والسياسة ، والولاية ، والإدارة ، والاقتصاديات ، والإخلاقيات ، والأحلاف ، والمعاهدات والمصالحات ، والمهادنات ومعرفة حقوق الإنسان، وعلاقات الأفراد ، والجماعات، فالقرآن هو الذى يضع الخطوط العريضة ، والقواعد الدقيقة ، والأصول الأصيلة لكل ذلك ، وإنه ليحسن فى هذا المقام أن نذكر بالحديث الجامع فى وصف القرآن الذى سقته فى صدر الكتاب روى الترمذى فى سننه عن الحارث الأعور قال : « مررت فى المسجد ، فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث ، فقلت : يا أمير المؤمنين، ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث ؟ ! قال : أو قد فعلوها ؟ : قلت: نعم قال : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما المخرج منها يارسول الله ؟ قال .. « كتاب الله . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، هو الذى كان لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ـ وفى رواية عن ـ ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا

قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » خذها إليك يا أعور » قال الترمذى : حديث غريب ، وإسناده مجهول ، وفى حديث الحارث فقال إن كتابا هذا بعض شأنه لابد أن يحفظه المسلمون ، وأن يتنافسوا فيه « وفى ذلك فليتنا فى المتنافسون »

إننا نجد فى القديم والحديث أصحاب الدساتير ، وأصحاب القوانين يعنون غاية العناية بدساتيرهم ، وأصول قوانينهم ، ويضعون لها التفاسير ، والشروح فما بالك بالقرآن ، وهو دستور الدساتير ، والقانون الذى لا يدانيه قانون ،والتشريع الذى لا يساميه تشريع و صدق الحكيم العليم « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ومن ذا الذى يسمع من نبيه الأكرم هذا الحديث ـ وأمثاله كثير ـ ثم لا يحفظه عن ظهر قلب ، ولا يفنى عمره فيه إن هـذا الكتاب العظيم أحق ما يفنى فيه الشباب ، وأجدر ما تنفق فيه الأعمار فلا تعجب إذا كان المسلمون حفظوه غاية الحفظ، وفهموه غاية الفهم ، وتدبروه غاية التدبر ، وهذا هو ما كان وهذا هو ما شهد به تاريخ الأجيال،وارجع إلى كتاب التواريخ والرجال والطبقات تقف على ما يقنع العقل ، ويثلج الصدر ، ويطمئن القلب .

العامل الثامن

(٨) إعجاز القرآن ، وسحر بيانه ، وعجائب أسلوبه ، وحلاوة كلامه وهذه خصائص القرآن الكريم ، وقد كانت من أعظم العوامل ، وأقوى الدوافع إلى حفظ القرآن الكريم .

والعرب كانوا أرباب الفصاحة ، والبلاغة وفرسان البيان ، فن ثم كانت معجزة النبى العظمى القرآن الكريم وكان العربى تستهويه الكلمة

الفصيحة ، ويكاد يخر ساجداً للكلام البليغ ، ويملك ناصيته البيان المعجز والأساليب العجيبه ويجد فى الكلام الفصيح البليغ حلاوة ليس بعدها حلاوة لأن فيه إشباعا لغريزته ، وإرضاء لفطرته ، وتنمية لمواهبه .

وإليك ما ذكره ابن إسحاق فى سيرته عن ثلاثة من فصحاء العرب وبلغائهم روى عن الزهرى قال . حدثت أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا ، فيستمع منه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا !! وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه . فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ، ثم انصرفوا . .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد أن لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها . . فقال الأخنس : أنا — والذى حلفت به — كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال له : يا أبا الحكم فما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟ ! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا

فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان .

قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ؛ فمتى ندرك هذه؟ ! فوالله لا نؤمن به أبداً ؛ ولا نصدقه !(١) وهو يدل على استلذاذ العرب لسماع القرآن ، استجابة لفطرتهم العربية وإذا كان تأثير القرآن فى أهل الشرك ، فكيف يكون تأثيره فى أهل الإيمان ؟

وهذا هو الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنما رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال : يا عم ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ، قال : لم ؟ قال ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله ! قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ، قال : فقل فى القرآن قولا يبلغ قومك أنك منكر له ، قال : وماذا أقول؟ ! فوالله ما منكم أحد أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة منى ، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة(٢) ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله(٣) ، وإنه ليعلو ويحطم ما تحته ! !

فإذ كان هذا تأثير القرآن فى مشرك عنيد حتى استشعر هذه الطلاوة وتلك الحلاوة فكيف بمسلم عمر قلبه بالإيمان ، وأشرقت نفسه بنور القرآن؟

---

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة جـ ١ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

(٢) بضم الطاء وفتحها : بهجة وحسن شكل .

(٣) أى كثير الغرق أى الماء ، والشجرة إذا كان أصلها غدقاً كانت نامية مخضرة مثمرة .

وفى الحديث الذى ذكرته آنفاً « لايخلق على كثرة الرد » إى لايبلى ، ولا تسأمه النفوس مهما تكرر ، وكلما كررته لايزداد إلا حلاوة ، وكلما أجلت فيه الفكر والنظر لايزداد إلا طلاوة ، ومن قرأ القرآن غضا طريا كما أنزل ، وبخشوع ، وتدبر استشعر هذه الحلاوة ، فأنها تسرى فى لعابه ويجدها فى لسانه

وهذه الخاصية القرآنية لا تجدها عند قراءة أى كتاب آخر مهما كان نعم قد يجد المسلم حلاوة ، ولكنها دون هذه الحلاوة ، حينما يقرأ كلام الرسول ﷺ ، ولاسيما فى جوامع كلمه التى رويت بلفظها ، ولم يدخلها الرواية بالمعنى

فمن ثم كانت هذه الخصائص البيانية ، والأسلوبية ، والوجدانية من أكبر العوامل المساعدة على مداومة تلاوته ، وإجادة حفظه والمحافظة على نصوصه .

العامل التاسع

(٩) تيسير الوسائل لحفظه فى المساجد ، والكتاتيب ، والبيوت ، وغيرها ومن العوامل أيضاً تيسير الوسائل لحفظه فهذا المسجد الحرام ، وهذا المسجد النبوى ومئات غيرهما فى العهد النبوى ، ثم ألوف ، وألوف فيما بعد ذلك كانت عامرة بتلاوة القرآن ، وبقراءة القرآن المجيدين له ، يتورعون عن أخذ الأجرة على تعليمه ، ويرون فى قيامهم بالإقراء حسبة لله منزلة ليس فوقها منزلة

وقد ثبت فى الصحيح أن الصديق بنى له مسجدا فى بيته ، فكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن حتى كاد يفتتن بقراءته نساء المشركين وأولادهم ، وكان قد أجاده ابن الدغنة فذهبوا إليه واشتكوا من فعل الصديق ، فنقض مابينه وبين ابن الدغنة ، ورضى بجوار الله عز وجل

وهؤلاء هم أهل الصفة بالمسجد النبوى ، كان من مهماتهم قراءة القرآن وحفظه ، وإقرائه لغيرهم وقد قدمت طرفا من ذلك

وكان الصحابة قليلا من الليل ماينامون ، ولاسيما فى رمضان ؛ فلا عجب أن كان يسمع لهم دوى بالقرآن بالليل كدوى النحل فى المساجد والبيوت وكان النبى صلوات الله عليه وسلم يشجعهم ويرغبهم فى التلاوة روى أبو عبيد بسنده عن عقبة ابن عامر قال . خرج علينا رسـول الله ﷺ يوما ونحن فى المسجد نتدارس القرآن قال . « تعلموا كتاب الله واقتنوه (١) قال وحسبت أنه قال . وتغنوا به (٢) فو الذى نفسى بيده لهو أشد تفلتا من المخاض (٣) من العُقُل

وكذلك كانت بيوت الصحابة ومن جاء بعدهم معاهد علم ؛ ومدارس قرآن فما من بيت إلا ويقرأ فيه القرآن ؛ ويتدارس ؛ وسواء فى ذلك الكبار ؛ والصغار ؛ والرجال والنساء.

وكذلك كانت توجد الكتاتيب (٤) لتحفيظ القرآن ، وتعليم القراءة والكتابة ؛ وقد أنشئت هذه الكتاتيب فى عهد مبكر ، وكان لها آثارها العظيمة فى حفظ القرآن الكريم فقد ثبت وصح أن النبى ﷺ أخذ من القادرين من أسرى بدر الفداء ؛ ومن لم يكن قادرا قبل منه تعليم عشرة

---

(١) اقتنوه كما تقتنوا الأموال ، واجعلوه رأس مالكم (٢) أى استغنوا به عن الناس (٣) الإبل (٤) الكتاتيب: جمع كتاب ، والمراد به هنا المكتب الذى يحفظ فيه القرآن ، والأصل فيه جمع كاتب ثم أطلق على المكان مجازا وقد غلط صاحب القاموس الجوهرى فى صحاحه فى جعله الكتاب بمعنى بمعنى المكتب ؛ ولا أرى داعياً لتغليطه فهو اطلاق مجـازى من إطلاق الحال وإرادة المحل

من صبيان المسلمين القراءة ؛ والكتابة وطبعى أنهم كانوا يزاولون ذلك فى مكان غير المسجد النبوى لأن المشرك ممنوع من دخوله يدل على ذلك ماروواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة فجاء غلام يبكى إلى أمه فقالت : ماشأنك ؟ قال . ضربنى معلمى ؛ فقالت . الخبيث يطلب بدخل بدر ؛ والله لا تأتيه أبدا »

ثم أنشئت الكتاتيب بعد ذلك ؛ وكثرت كثرة خارجة عن الحصر حتى لاتجد مصرا أو بلدا إلا وفيه كتاب ؛ وكتاتيب

وقد كانت مصر — حرسها الله — بمدنها؛ وقراها ، وكفورها ودساكرها ونجوعها غاصة بالكتاتيب ؛ وفى هذه الكتاتيب حفظ ألوف الألوف القرآن الكريم وقد كانت هذه الكتاتيب هى الروافد التى تمد الأزهر الشريف بألوف الطلاب كل عام ؛ والكثيرون من هؤلاء صاروا أئمة فى الفقه ؛ والفتوى ، وفى التفسير ؛ والحديث وعلوم اللغة واللسان ، والعلوم العقلية والكونية ، ومنهم من أثر فى إصلاح حياة مصر، بل إصلاح حياة الدول الإسلامية والعربية دينيا وسياسيا ، واجتماعيا فى العصر الأخير وكان له الفضل الكبير فى إزالة كابوس الاستعمار ، والحكام الظالمين المستبدين كعرابى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول وغيرهم كثير .

«وبعد» هذا المطاف الطويل نصل إلى هذه النتيجة وهى أن القرآن الكريم توفر له من دواعى الحفظ له والمحافظة عليه مالم يتوفر لكتاب قط لا فى القديم ، ولا فى الحديث ، ولا سماويا ، ولا أرضيا والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

« وجوب إحياء الكتاتيب »

مما ذكرت يتبين أن الكتاتيب كانت تؤدى خدمة عظمى فى سبيل تحفظ القرآن الكريم ، ولم تكن فائدتها تقف عند حد تحفيظ القرآن الكريم فحسب ، بل كانت من أعظم الوسائل فى تعليم القراءة والكتابة ، لأن التحفيظ فيها لم يكن عن طريق التشافة والحفظ فى الصدور فحسب ، وإنما كان عن طريق كتابة جزء من القرآن خمس آيات أو عشر آيات ، أو عشرين آية فى اللوح (١) كل على حسب إستعداده ، وعلى قدر طاقته ، وطريقة الحفظ عن طريق الكتابة أولا ، ثم الحفظ لا تجعل الصبى ينسى شيئاً من القرآن فيما بعد ، ومن ثم نرى أن الكتاتيب كانت أيضاً من أعظم وسائل إزالة الأمية ، لأن الصبى لكى يكتب لوحه ، لابد من تعلمه القراءة والكتابة أولا ، وقد كانت الكتابة فى اللوح تمرينا عمليا على إجادة القراءة والكتابة ، وقد أجدت الكتابة فى الكتاب من هذا الطريق ولله الحمد والمنه .

وكذلك كانت تعلم فيها مبادىء الدين الإسلامى ولاأنسى قط درس الدين من يوم الخميس كل أسبوع يلقننا فيه الفقية أو العريف(٢) أركان الإسلام المذكورة فى الحديث المشهور الصحيح « بنى الإسلام على خمس » . ونسب

---

(١) عبارة عن قطعة مستطيلة من الخشب أو نحوه مطلية بطلاء أبيض . يكتب فيها كل صبى ما يريد حفظه . فإذا حفظه أزاله . وكتب غيره وهكذا .

(٢) الفقيه : وينطقها العامة الفقى هو رئيس الكتاب والعماد فى تحفيظ القرآن . والعريف — ومن معانيه فى اللغة العربية رئيس الجماعة — هو مساعدالفقيه .

النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، وأبنائه وبناته ، وفرائض الوضوء ، وأركان الصلاة ، والتشهد ونحو ذلك ، وكذلك كنا نتعلم فيها مبادىء الحساب ولكن كان ذلك بقدر

فلما أنشئت المدارس الأولية ، ثم الإلزامية . . . بدأت الكتاتيب تضمحل شيئاً فشيئاً حتى أوشكت على الزوال ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأحب أن أقول إن جمعيات المحافظة على القرآن الكريم وإن كانت منتشرة فى طول البلاد وعرضها . إلا أنها - والحق يقال - لم تغن غناء الكتاتيب فى تحفيظ القرآن ، لأن المنهاج المدرسى غلب عليها ، وأصبح التحفيظ فيها عن طريق الحفظ فى المصاحف ، لا الكتابة فى الألواح كما كان أسلوب التحفيظ فى الكتاتيب ، وتكاد تكون هذه الطريقة مندثرة اليوم فى الديار المصرية بعد أن كانت هى المجلية والسابقة فى هذا المضمار .

فى البلاد السودانية .

ومما يذكر بالاعتزاز والإكبار أن طريقة تحفيظ القرآن الكريم عن طريق الكتابة فى الألواح ، والتصحيح على الفقيه ، والعرض عليه مراراً ، حتى يسمح له بالانتقال إلى كتابة جزء آخر من القرآن وحفظه ، لا تزال فى كثير من البلاد السودانية الشقيقة ، ولا يزال كثير من إخواننا السودانيين يحتفظون بألواحهم للذكرى والتاريخ ، ويعرضونها على الزائر لهم وهم فى غاية الغبطة والسرور ، ويعتبرون ذلك من المفاخر لهم .

وهناك كثيرون من أهل الصلاح ، والتقوى ، والقرآن يجمعون المئات من الصبيان فى كتاتيبهم التى يسمونها « نار القرآن الكريم » ويحفظونهم القرآن ، ويتكفلون بهم طعاما ، وسكنى . وكسوة . وقد زرت بعض هذه البيوت القرآنية وأنا بالجامعة الإسلامية بأم درمان أستاذا بها نسأل الله سبحانه أن تدوم هذه الكتاتيب القرآنية لتكون ناراً محرقة لأعداء الله .

وأعداء القرآن . ونوراً يملأ قلوب حفاظ القرآن الكريم وطلابه . وأنه يجزى القائمين عليها خير الجزاء . كفاء ما قدموه للقرآن .

« أمل ورجاء »

وقد كانت الديار المصرية زعيمة العالم الإسلامى فى حفظ القرآن الكريم . وحذق قراءاته وفى الكثرة الكاثرة من حفاظه وأهله وكل ذلك كان بفضل الكتاتيب التى كانت تنتشر فى كل مكان .

فهل يعمل القائمون على الشئون الدينية فى الأزهر بكلياته ومعاهده . وبمجمع البحوث الإسلاميـــة . وفى وزارة الأوقاف . وفى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على إحياء هذه الكتاتيب ولا سيما فى القرى التى كانت ـ ولا تزال . المورد الأكبر لحفاظ القرآن الكريم ؟ وعلى النهوض بجمعيات المحافظة على القرآن الكريم . والإكثار من دروس تحفيظ القرآن الكريم وإنصاف القائمين على التحفيظ بهـــا وسد حاجتهم حتى يقوموا بمهمتهم خير قيام ؟ .

إن ما يؤسف له أن المدارس التى كان يعتبر حفظ القرآن أساسا لدخولها « كمدارس المعلمين » أصبحت لا تشترط ذلك ، ولم يبق اشتراط الحفظ إلا فى الأزهر الشريف بمعاهده . وكلياته على تساهل كبير فى هذا . فبعد أن كان الطالب الأزهرى لا يلتحق بالفرقة الأولى الإبتدائية إلا بعد حفظ القرآن كله وتجويده . أصبح الآن يكتفى بما دون حفظه كله . قد يكتفى بالربع . وقد يكتفى بالأجزاء الثلاثة الأخيرة فى المصحف وهى مصيبة من أعظم المصائب . لأنها تمس أصل الدين الإسلامى . ومنبع الصراط المستقيم .

إن فى أوقاف المسلمين ـ وما أكثرها ـ التى وقفت على إنشاء الكتاتيب وتحفيظ القرآن الكريم ما يقوم ماليا بما يحتاجه إنشاء هذه الكتاتيب، والنهوض بجمعيات المحافظة على القرآن حتى تؤدى رسالتها كاملة .

بل فى خزانة الدولة فى بلد اسلامى عريق ، وأهله مسلمون مايقوم بذلك وإن الانفاق فى مثل هذا لخير ألف مرة مما ينفق بغير حساب فى بعض الأبواب الأخرى التى لا تفيد الشعب بقدر ماتضره .

بل فى أريحية الخيرين من أبناء هذا البلد الاسلامى العريق مايقوم بذلك ولو دعوا دعوة جادة صادقة إلى هذا المشروع القرآنى العظيم للبـّوا سراعا عن طيب نفس .

لقد كان من التشريعات الموفقة فى التعليم جعل الدين مادة أساسية من مواد التعليم يترتب عليها نجاح الطالب أوسقوطه ، ولكن التشريعات لاتثمر ثمرتها إلا بالعمل، والتطبيق ، والتنفيذ ثم إن القدر المقرر حفظه على الطالب من القرآن الكريم شىء قليل مع التساهل فى حفظه ، ولو جعل لتحفيظ القرآن حصص خاصة لكان أجدى وأنفع ، ولو كلف التلميذ فى الابتدائى والإعدادى والثانوى(١) بجزء من القرآن كل عام - وليس حفظ الجزء بالأمر المعجز - لوصل التلميذ إلى الكليات الجامعية والمعاهد العليا وقد حفظ قسطا كبيرا من القرآن ثم يتم الباقى فى الجامعة .

وللانصاف للتلاميذ أرى أنه لابد لكى يمكن تحقيق ذلك أن يزاح عن كاهلهم بعض مايكلفون به من علوم لاتفيد عشر معشار مايفيده القرآن الكريم فى بناء الأمة دينيا ، ودنيويا ، وخلقيا واجتماعيا .

تُرى أيها القارى المنصف لو أن هذا الاقتراح نفذ فى الأقطار الإسلامية والعربية لأرضت ربها ، ورسولها ، ولكانت الأمة الاسلامية بحق خير أمة أخرجت للناس إنها لآمال وأمانى ، فهل تتحقق ؟ ذلك مانرجو ، وماذلك على الله بعزيز .

---

(١) مدة الابتدائى فى جمهورية مصر العربية ست سنوات، والإعدادى ثلاثة والثانوى ثلاثة يعنى اثنى عشر جزءا

(مسائل فى آدب تلاوة القرآن ، وحفظته)

لقد أفرد هذه الآداب بعض العلماء منهم الإمام النووى فى كتابه « التبيان » وقد ذكر فيه ، وفى شرح « المهذب » وفى كتابه « الأذكار » جملة كبيرة منها ، وقد لخصها ، وفصلها ، وزاد عليها أضعافا مضاعفة الإمام جلال الدين السيوطى فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن (١) » .

وسأذكر فى هذا الفصل خلاصة ماذكره السيوطى ، وربما زدت عليها زيادات وتعقبات وتوضيحات لما أجمل وإزالة إشكال مايشكل ، فأقول وبالله التوفيق :

(١) قراءة القرآن من أفضل القربات إلى الله وأعظمها بركة ، وأجلها نفعا ، والقرآن الكريم هو الكتاب المتعبد بتلاوته ، ويستحب الإكثار من قراءته لأنه يرقق القلوب ، ويشرح الصدور ، ويزيل الهموم ، ويكشف الغموم وقد روى فى الصحيحين عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال لاحسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . » وروى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، « يقول الرب سبحانه وتعالى من شغله القرآن ، وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » إلى غير ذلك من الأحاديث التى سقناها فى الدواعى والأسباب الحاملة على حفظ القرآن .

وقد كان للسلف فى قدر القراءة عادات ، فأكثر ماورد فى كثرة القراءة من كان يختم فى اليوم والليلة ثمان ختمات أربعا فى الليل وأربعا فى النهار

---

(١) حـ ١ ص ١٠٥ وما بعدها

ويليه من كان يختم في اليوم والليلة أربعا ، ويليه ثلاثا(١) ، ويليه ختمتين ، ويليه ختمة ، وقد ذمت السيدة عائشة ذلك فأخرج ابن أبي داود عن مسلم ابن مخراق :قال . قلت لعائشة أن رجالا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثة فقالت : «قرءوا أولم يقرءوا كنت أقوم مع رسول الله صلى الله عليه ليلة التمام فيقرأ بالبقرة وآل عمران والنساء، فلا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا ورغب ، ولا بآية فيها تخويف إلا دعا ، واستعاذ » .

ويلي ذلك من كان يختم في ليلتين ، ويليه من كان يختم في كل ثلاث وهو حسن ،وكره جماعات الختم في أقل من ذلك لما روى أبو داود والترمذي وصححه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا « لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » وأخرج ابن أبي داود ، وسعيد بن منصور عن ابن مسعود موقوفا عليه قال « اقرءوا القرآن في سبع ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث » وأخرج أبو عبيد عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث

ويليه من ختم في أربع ، ثم في خمس ، ثم في ست ، ثم في سبع ، وهذا أوسط الأمور وأحسنها ؛ وهو فعل الأكثرين من الصحابة وغيرهم ،أخرج الشيخان عن عبد الله بن عمرو قال : « قال رسول الله ﷺ اقرأ القرآن في شهر قلت : إني أجد قوة ، قال : اقرأه في عشر قلت : إني أجد قوة قال . اقرأه في سبع ولا تزد (٢) على ذلك (٣)» وفي بعض الروايات مراجعات منه للنبي فيما كان يشير به عليه حتى انتهى الأمر إلى السبع ، قال الحافظ في الفتح ، وكأن النهي عن الزيادة ليس على التحريم كما أن الأمر ليس على الوجوب

(١) لعل المراد بذلك إمراره على القلب واستعراضه في الذهن ،أما النطق بالالفاظ ولو على سبيل الإسراع فغير ممكن أن يحدث هذا العدد من الختمات في اليوم والليلة حتى ولو لم ينم « فما بالك لو أنه قرأه بتؤدة وتمهل ونام ولو جزءا قليلا من الليل والنهار ؟ . (٢) أي لا تنقص عن ذلك فالمراد بالزيادة بطريق التدلي أي لا يقرؤه في أقل من سبع

(٣) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب في كم يقرأ القرآن

وفى الصحيح أيضاً أنه ندم على ذلك لما كبر وقال . « فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ ، وذلك أنى كبرت ، وضعفت »

ويلى ذلك من ختم فى ثمان ، ثم فى عشر ، ثم فى شهر ، ثم فى شهرين أخرج ابن داود عن مكحول قال . «كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤن القرآن فى سبع ، وبعضهم فى شهر ، وبعضهم فى شهرين ، وبعضهم فى أكثر من ذلك » وقد روى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة أنه قال ، من قرأ القرآن فى كل سنة مرتين فقد أدى حقه ، لأن النبى ﷺ عرض القرآن على جبريل فى السنة التى قبض فيها مرتين ، أقول : ولكن عرض القرآن على جبريل لا ينافى أنه كان يقرؤه وحده من غير عرض

وكره بعض العلماء تأخير ختمه أكثر من أربعين يوما بلا عذر ، نص على ذلك الإمام أحمد لأن عبدالله بن عمر سأل النبى ﷺ فى كم تختم القرآن ؟ قال . « فى أربعين يوما » رواه أبو داود

أقول . وليس فى الحديث مايدل على كراهة الختم فى أكثر من أربعين والعبارة ليست حاصرة حتى يكون ما عداها ليس من سنته ، وغاية ما يدل عليه أن ذلك كان حالة من حالاته ، أو أنه كان الغالب منها

ويعجبنى فى هذا ماقاله الإمام النووى فى «الأذكار» . أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، فمن كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ، ومعارف فليقتصر على قدر يحصل له معه كمال فهم ما يقرأ ، وكذلك من كان مشغولا بنشر العلم ، أو فصل الحكومات ، أو غير ذلك من مهمات الدين والمصالح فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له ، ولا فوات كماله وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين فليكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل أو الهذرمة (١) فى القراءة وهو تفصيل حسن

---

(١) الإسراع إلى حد عدم تبيين مخارج الحروف ؛ وعدم مراعاة قواعد تجويد قراءته

(٢) نسيانه كما قلنا سابقا كبيرة صرح بذلك الإمام النووى فى «الروضة» وغيرها للحديث الذى رواه أبو داود وغيره عن النبى ﷺ «عرضت على ذنوب أمتى ، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن ، أو آية أوتيها رجل ثم نسيها » وروى أيضاً « من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله يوم القيامة أجذم» وفى الصحيحين مرفوعا « تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها »

(٣) يستحب الوضوء لقراءة القرآن لأنه أفضل الأذكار ؛ وقد كان النبى ﷺ يكره أن يذكر الله إلا على طهر ؛ كما ثبت فى الحديث .

قال امام الحرمين . ولا تكره القراءة للمحدث ؛ لأنه صح أن النبى ﷺ كان يقرأ مع الحدث ، قال فى شرح المهذب . وإذا كان يقرأ فعرضت له ريح أمسك عن القراءة حتى يستتم خروجها

وأما الجنب ، والحائض والنفساء فتحرم عليهم القراءة ، نعم يجوز لهم النظر وإمراره على القلب ، وأما متنجس الفم فتكره له القراءة ، وقيل : تحرم كمس المصحف باليد النجسة ، وأما مس المصحف بغير حائل فيحرم على الجنب ، والحائض والنفساء ، أما حملهم له فى حقيبة ، أو كيس من غير ملامسة فجوزه الجمهور سلفا وخلفا وشذ بعض العلماء فأجاز مسه للجنب والحائض ، وطعن فى الأحاديث الواردة فى ذلك بأنها لم يصح منها شىء وقد رد عليه بعض الأئمة بأن أكثرها صحاح فمن ذلك ما رواه الدارقطنى بسنده عن النبى ﷺ « لا يمس القرآن إلا طاهر » ومنها قصـــة فاطمة بنت الخطاب مع أخيها عمر فى طلبه منها الصحيفة التى فيها قرآن فأبت وقالت له إنك نجس ولا يمسه إلا المطهرون . . » رواها الدارقطنى وأصحاب السير[1]

---

(١) عمدة القارى شرح صحيح البخارى حـ ٣ ص ٨٥ ، ٨٩

(٤) تسن القراءة فى مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وكره قوم القراءة فى الحمام والطريق ، قال النووى : ومذهبنا لا تكره فيهما ، قال : وكرهها الشعبى فى الحش(١) ، وبيت الرحا وهى تدور قال : وهو مقتضى مذهبنا .

ولعل مراد الشعبى بالكراهة، الكراهة التحريمية ، وأحربها أن تكون فى الحش محرمة .

(٥) يستحب لقارىء القرآن أن يجلس مستقبلا القبلة ، متخشعا ، متحليا بالسكينة والوقار ، مطرقا رأسه كما هو شأن الخاشع المتذلل بين يدى ربه .

كما يسن أن يستاك تعظيما للقرآن الكريم وتطهيراً لفمه لأنه وسيلة النطق به ، والمعبر الذى تخرج منه ، وقد روى ابن ماجه عن على موقوفا ، والبزار بسند جيد عنه ، مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن أفواهكم طرق القرآن فطيبوها بالسواك » : قال السيوطى : ولو قطع القراءة ، وعاد من قرب فمقتضى استحباب التعوذ ، إعادة السواك أيضاً .

(٦) يسن التعوذ قبل القراءة ، قال تعالى . « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» أى أردت قراءته ، وشذ البعض فذهب إلى أنه يتعوذ بعدها لظاهر الآية ،وذهب قوم إلى وجوبها لظاهر الأمر قال الإمام النووى : فلو مر على قوم سلم عليهم ، وعاد إلى القراءة ، فإن أعاد إلى التعوذ كان حسنا .

وصفته المختارة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ،وكان جماعة من السلف يزيدون السميع العليم ، وعن حمزة القارىء : أستعيذ ،ونستعيذ واستعذت، واختاره صاحب الهداية من الحنفية لمطابقة لفظ القرآن .

---

(١) الحش : مكان قضاء الحاجة فلذلك نزه القرآن عن أن يقرأ فيه .

وعن حميد بن قيس : أعوذ بالله القادر من الشيطان الغادر ، وعن أبى السمال : أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الغوى ، وعن قوم أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم ، وعن آخرين : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، وفيها ألفاظ أخر ... قال الحلوانى فى جامعه : ليس للاستعاذة حد ينتهى إليه ، من شاء زاد ، ومن شاء نقص .

وفى النشر لابن الجزرى : المختار عند أئمة القراءة، الجهر بها،وقيل يسر مطلقا ، وقيل : فيما عدا الفاتحة ، قال: وقد أطلقوا اختيار الجهر بها،وقيده أبو شامة بقيد لابد منه ، وهو أن يكون بحضرة من يسمعه ، قال: لأن الجهر بالتعوذ إظهار شعار القراءة كالجهر بالتلبية ، وتكبيرات العيدين أقول : والشيء إذا صار شعارا من شعارات الإسلام ، فالأفضل إعلانه ومن فوائد الجهر أن السامع ينصت للقراءة من أولها لا يفوته منها شيء ، وإذا أخفى التعوذ لم يعلم السامع بها إلا بعد أن فاته من المقروء شيء وهذا هو الفارق بين القراءة فى الصلاة ، وخارجها

واختلف المتأخرون فى المراد بإخفائها، فالجمهور على أن المراد به الإسرار فلا بد من التلفظ ، وإسماع نفسه ، وقيل : ، الكتمان بأن يذكرها بقلبه بلا تلفظ .

وإذا قطع القراءة إعراضاً ، أو لكلام أجنبى ، ولو برد السلام ، استأنفها فان كان يتعلق بالقراءة فلا ، قال ابن الجزرى وهل هى سنة كفاية أو عين حتى لو قرأ جماعة جملة فهل يكفى استعاذة واحد منهم كالتسمية على الأكل أولا ؟ لم أر فيه نصا . والظاهر الثانى لأن المقصود اعتصام القارىء ، والتجاؤه إلى الله واعتصامه به من شر الشيطان فلا يكون تعوذ واحد كافياً عن آخر .

أقول إن ظاهر الأحاديث الصحيحة فى الصحيحين وغيرهما أن التسمية على الأكل سنة عين ، وانما ذهب إلى أنها سنة كفاية الإمام الشافعى قال : الامام النووى فى الأذكار .

« وينبغى أن يسمى كل واحد من الآكلين ، فلو سمى واحد منهم أجزأ عن الباقين نص عليه الشافعى - رضى الله عنه - وقد ذكرته عن جماعة فى كتاب « الطبقات » فى ترجمة الإمام الشافعى ، وهو شبيه برد السلام ، وتشميت العاطس(١) فإنه يجرى فيه قول أحد الجماعة(٢) .

والذى يظهر لى أن تشبيهه بالسلام ، والتشميت غير ظاهر ولا مسلم لأن المقصود يحصل بدعاء واحد، أما التسمية ففائدتها تعود على المسمى لله ، فلا يكتفى بتسمية غيره عنه ، وكذلك ينبغى أن يكون الشأن فى الاستعاذة . فلا يكفى فيها استعاذة غيره .

(٧) قراءة البسملة . على القارىء أن يحافظ على قراءة البسملة ، أول كل سورة غير براءة ؛ لأن أكثر العلماء على أنها آية فإذا أخل بها كان تاركا لبعض الختمة عند الأكثرين فان قرأ من أثناء سورة استحب له أيضاً ، نص عليه الشافعى فيما نقله العبادى ؛ قال القراء ويتأكد عند قراءة نحو « اليه يرد علم الساعة » وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ....» لما فى ذكر ذلك بعد الاستعاذة من البشاعة، وإيهام رجوع الضمير الى الشيطان قال ابن الجزرى . والابتداء بالآى وسط براءة قل من تعرض له ، وقد صرح بالبسملة فيه أبو الحسن السخاوى ، ورد عليه الجعبرى .

(٨) هل تحتاج قراءة القرآن إلى نية ؟

لا تحتاج قراءة القرآن إلى نية كسائر الأذكار الا إذا نذرها خارج الصلاة فلابد من نية النذر أو الفرض ، ولو عين الزمان ، فلو تركها لم تجز نقله القمولى فى الجواهر .

---

(١) إزالة الشماتة عنه بقوله . يرحمك الله .

(٢) الأذكار للنووى ص ١٠٢ ط دار الكتب .

(٩) ترتيل القرآن.

الترتيل تبيين حروف القرآن عند القراءة ، والتأنى فى أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها ، وقد روى الطبرى بسند صحيح عن مجاهد فى قوله تعالى . « ورتل القرآن » قال ؛ بعضه فى أثر بعض على تؤدة ، وعن قتادة بينه بيانا(١) .

ويسن الترتيل فى قراءة القرآن لقول الله سبحانه . « ورتل القرآن ترتيلا » (٢) وقوله تعالى . « وقرآنا فرقناه لتقرأة على الناس على مكث ، ونزلناه تنزيلا(٣) »أى على تؤده وتمهل .

وروى أبو داوود وغيره عن أم سلمة أنها نعتت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم قراءة مفسرة حرفا حرفا ، وروى البخارى فى صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال « كانت مدا ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم»

وفى الصحيحين عن ابن مسعود أن رجلا قال له : إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدةفقال ، هذًّا كهذّ الشِّعر(٤) انا قد سمعنا القراءة،وأنى لأحفظ القرناء التى كان يقرأ بهن النبى صلى الله عليه وسلم ثمانى عشرة سورة من المفصل ، وسورتين من آل حم(٥) .

---

(١) فتح البارى جـ١٠ ص٤٦٥ ط الحلبى

(٢) المزمل٤ (٣) الإسراء١٠٦

(٤) الهذّ هو الاسراع المفرط بحيث يخفى كثير من الحروف أو لاتخرج من مخارجها وهو المكروه وأما الاسراع فى القراءمن غير وصول إلى حد الهذّ فلا شىء فيه

(٥) صحيح البخارى كتاب فضائل القران —

باب الترتيل فى القراءة ، والمراد بآل حم السور التى بدئت بحم ، أو المراد بآل حم نفسها كقوله ﷺ لأبى موسى : « لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » أى داود نفسه .

وأخرج الآجرى فى «حملة القرآن» عن ابن مسعود «لا تنثروه نثر الدقل(١) ولا تهذّوه هذّ الشّعر ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكون هم أحدكم آخر السورة » .

وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعا يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق فى الدرجات ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها »

قال فى شرح المهذب : واتفقوا على كراهة الإفراط فى الإسراع ، قالوا : وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزأين فى قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، قالوا . واستحباب الترتيل للتدبر ، لأنه أقرب إلى الإجلال ، والتوقير ، وأشد تأثيراً فى القلب ، ولهذا يستحب للاعجمى الذى لا يفهم معناه .

وفى « النشر » اختلف هل الأفضل الترتيب ، وقلة القراءة ؛ أو السرعة مع كثرتها ؟

وأحسن بعض أئمتنا فقال : إن ثواب قراءة الترتيل أجل قدرا ، وثواب الكثرة أكثر عددا ، لأن بكل حرف عشر حسنات .

وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح : والتحقيق أن لكل من الإسراع والترتيل جهة فضل ، بشرط أن يكون المسرع لا يخل بشىء من الحروف ، والحركات ، والسكون والواجبات فلا يمتنع أن يفضل أحدهما الاخر ، وأن يستويا ، فان من رتل ، وتأمل ، كمن تصدق بجوهرة واحدة مثمنة . ومن أسرع كمن تصدق بعدة جواهر لكن قيمتها قيمة الواحدة . وقد تكون قيمة الواحدة أكبر من قيمة الأخريات . وقد يكون بالعكس وفى البرهان للزركشى كمال الترتيل تفخيم ألفاظه ، والإبانة عن حروفه ، وأن لا يدغم حرف فى حرف ، وقيل : هذا أقله وأكمله أن يقرأ على منازله ، فان قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيما لفظ به لفظ التعظيم .

---

(١) الدقل — بفتح الدال والقاف — : أردأ التمر .

وأزيد فأقول: أو ترحيما .وترقيقا لفظ به لفظ الترحيم والترقيق . أو تعجبا لفظ به لفظ التعجب . أو تيئيسا لفظ به لفظ التأييس ، أو توبيخاً لفظ به لفظ التوبيخ أو إنابة وتوبة لفظ به لفظ الإنابة والتوبة. أو تندما نطق به نطق المتندم أو خشوعا وتذللا نطق به نطق الخاشع المتذلل . أو فرحا وسرور لفظ به لفظ الفرح المسرور وهكذا وبذلك يفسر المعانى بالجرس . ونغم الكلام .

(١٠) تدبر القرآن وتفهمه :

وتسن القراءة بالتدبر . والتفهم . فهو المقصود الأعظم . والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستنير القلوب . قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . وليتذكر أولو الألباب »(١) وقال : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٢) وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر فى معنى ما يلفظ به فيعرف معنى كل آية . ويتأمل الأوامر والنواهى . ويعتقد قبول ذلك . فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر . وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل . أو عذاب أشفق وتعوذ أو تنزيه نزه وعظم . أودعاء تضرع وطلب . أخرج مسلم عن حذيفة قال « صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فافتتح البقرة فقرأها . ثم النساء فقرأها . ثم آل عمران فقرأها . يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح . وإذا مر بسؤال سأل . وإذا مر بتعوذ تعوذ » .

وروى أبو داود . والنسائى . وغيرهما عن عوف بن مالك قال: « قمت مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلة فقام . فقرأ سورة البقرة . لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل . ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ » وأخرج أبو داود. والترمذى حديث « من قرأ » والتين . والزيتون فانتهى إلى آخرها . فليقل: « بلى(٣) . وأنا على ذلك من الشاهدين » .

---

(١) ص/٢٩ (٢) محمد/٢٤

(٣) بلى حرف يجاب به النفى ، وهى تنفى النفى فيصير ما بعده مثبتاً فصار الكلام بعد الإثبات « الله أحكم الحاكمين » ثم يزيد الأمر توكيدا بأنه على هذه القضية من الشاهدين

ومن قرأ « لا أقسم بيوم القيامة » فانتهى إلى آخرها « أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى » فليقل . « بلى » ومن قرأ « والمرسلات » فبلغ « فبأى حديث بعده يؤمنون » فليقل : آمنا بالله .

وأخرج أحمد ، وأبو داود عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى » قال : « سبحان ربى الأعلى » :

وأخرج الترمذى ؛ والحاكم عن جابر قال : «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها فسكنوا ، فقال . « لقد قرأتها على الجن ، فكانوا أحسن مردودا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله . « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا . ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » وأخرج أبو داود ، وغيره عن وائل ابن حجر قال . « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « ولا الضالين » فقال « آمين »(١) يمد بها صوته ، وأخرجه الطبرانى بلفظ « قال . آمين ثلاث مرات » وأخرجه البيهقى بلفظ قال « رب اغفرلى آمين » وأخرج أبو عبيد عن أبى ميسرة أن جبريل لقن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خاتمة البقرة آمين » وأخرج عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم سورة البقرة قال : آمين » وهى بالإجماع ليست من القرآن .

قال النووى ، ومن الآداب إذا قرأ نحو « وقالت اليهود عزيرا بن الله »(٢) « وقالت اليهود يد الله مغلولة »(٣) أن يخفض بها صوته كذا كان النخعى يفعل .

---

(١) آمين . اسم فعل أمر معناها استجب

(٢) التوبة / ٣٠

(٣) المائدة / ٦٤

أقول : وينبغى أن يراعى هذا الأدب فى الآيات التى عرضت لرسول الله ﷺ مثل « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ومثل : « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

ولا بأس بتكرير الآية وترديدها ، روى النسائى وغيره عن أبى ذر أن النبى ﷺ قام بآية يرددها حتى أصبح ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »[١] .

ويستحب البكاء عند قراءة القرآن ، والتباكى لمن لا يقدر عليه ، والحزن والخشوع قال تعالى « ويخرون للأذقان يبكون ، ويزيدهم خشوعا »[٢] وفى الصحيحين حديث قراءة ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ القرآن على النبى ﷺ حتى بلغ قوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » وفيه « فإذا عيناه تذرفان » أى تجريان بالدموع ، قيل : إنما بكى رسول الله رحمة لأمته ، وشفقة عليهم لأنه علم أنه لا بد أنه يشهد عليهم بعملهم ، وعملهم قد لا يكون مستقيما ، فقد يفضى إلى تعذيبهم ، وقيل : لأنه تمثل أهوال يوم القيامة ، وشدة الحال الداعية له إلى شهادته لأمته بالتصديق ، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف ، وهو أمر يحق له البكاء وقيل : بكى فرحا بهذه المنزلة العالية التى لم يعطها أحد من الأنبياء .

وفى شعب الإيمان للبيهقى عن سعد ابن مالك مرفوعا : إن هذا القرآن نزل بحزن ، وكآبة[٣] ، فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا » .

وفيه من مرسل عبد الملك بن عمير أن رسول الله ﷺ قال : إنى قارىء عليكم سورة . فمن بكى فله الجنة ، فإن لم تبكوا فتباكوا » .

وفى مسند أبى يعلى حديث « اقرءوا القرآن بالحزن ، فإنه نزل بالحزن »

---

(١) المائدة رقم ١١٨ .

(٢) الإسراء رقم ١٠٩ .

(٣) يعنى نزل فى ظروف كانت مثار أحزان ، وآلام وشدائد .

وعند الطبرانى « أحسن الناس قراءة من إذا قرأ القرآن يتحزن » .

قال النووى فى شرح المهذب ، وطريقه تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرأ من التهديد والوعيد الشديد ، والمواثيق والعهود ، ثم يفكر فى تقصيره فيها ، فإن لم يحضره عند ذلك حزن ، وبكاء ، فليبك على فقد ذلك فإنه من المصائب وقد سبق إلى ذلك الغزالى ، والبكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين ، وشعار الصالحين .

وقد كان الصديق الأكبر - رضى الله عنه - بكاءاً بالقرآن ، لا يملك عينيه عند قراءته كما فى حديث الهجرة فى صحيح البخارى .

(١١) تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها .

يسن تحسين الصوت بقراءة القرآن وتزيينها وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى . وكان حسن الصوت بالقرآن . وكان النبى ﷺ قد سمعه يقرأ القرآن . فأعجبه . فقال له : « لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » المراد داود نفسه ، لأنه لم ينقل أن أحدا من أولاد داود . ولا من أقاربه كان أعطى من حسن الصوت ما أعطى . والمراد بالمزمار الصوت الحسن . وأصله الآلة أطلق على الصوت الحسن للمشابهة .

وروى ابن حيان وغيره : « زينوا القرآن بأصواتكم » وفى لفظ عند الدارمى «حسنوا القرآن بأصواتكم . فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا » وأخرج البزار وغيره حديث « حسن الصوت زينة القرآن » وفيه أحاديث صحيحة كثيرة . فإن لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط .

« القراءة بالألحان » والتطريب ، والترنم ، والنغم » وإليك الحكم فى هذا قال الإمام النووى : وأما القراءة بالألحان فنص الشافعى فى المختصر أنه لا بأس بها . وعن رواية الربيع الجيزى أنها مكروهة . فقال أصحابه : ليس الأمر على اختلاف قولين بل على اختلاف حالين . فإن لم يخرج

بالألحان على المنهج القويم جاز ، وإلا حرم . وحكى الماوردى عن الشافعى أن القراءة بالألحان إذا انتهت إلى إخراج بعض الألفاظ عن مخارجها حرم . وكذا حكى ابن حمدان الحنبلى فى « الرعاية » وقال الغزالى والبندنيجى . وصاحب الذخيرة من الحنفية : إن لم يفرط فى التمطيط الذى يشوش النظم إستحب وإلا فلا .

وأغرب الرافعى فحكى عن أمالى السرخسى أنه لا يضر التمطيط مطلقا. وحكاه ابن حمدان رواية عن الحنابلة . وهو شذوذ لا يعرج عليه .

والذى يتحصل من الأدلة أن حسن الصوت بالقرآن مطلوب ، فإن لم يكن حسنا فليحسنه ما استطاع كما قال ابن أبى مليكة أحد رواة الحديث ، وقد أخرج ذلك عنه أبو داود بإسناد صحيح ؛ ومن جملة تحسينه أن يراعى فيه قوانين النغم فإن حسن الصوت يزداد حسنا بذلك وإن خرج عنها أثر ذلك فى حسنه ، وغير الحسن ربما أنجبر بمراعاتها ، مالم يخرج عن شرط الأداء المعتبر عند أهل القراءات فان خرج عنها لم يف تحسين الصوت بقبح الأداء ولعل هذا مستند من كره القراءة بالانغام لان الغالب على من راعى الانغام أن لا يراعى الاداء ؛ فأن وجد من يراعيهما معا فلا شك فى أنه ارجح من غيره ؛ لانه يأتى بالمطلوب من تحسين الصوت ، ويجتنب الممنوع من حرمة الاداء.(١)

وهو كلام من التحقيق والتدقيق بمكان وقد فصل القول غايته التفصيل وأحسنه وفيه الكفاية لمن يريد معرفة الحكم الشرعى فى هذه المسألة التى كثر فيها الكلام وقد ورد فى هذا المعنى حديث مرفوع إلى النبى صلى الله عليه عليه وسلم . قال « أقرؤا القرآن بلحون العرب وأصواتها (٢) وإياكم ولحون أهل الكتابين (٣) وأهل الفسق ، فإنه سيجئ أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع

(١) فتح البارى حـ ١٠ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ (٢) أى طريقتهم فى الترنم والأداء

(٣) يعنى كما يفعل اليهود والنصارى فى قراءة كتبهم فإنها إلى الغناء والترنيم

الغناء والرهبانية ، لايجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم » وقلوب من يعجبهم شأنهم » أخرجه الطبرانى والبيهقى ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والاصغاء إليها ، وذلك لحديث أبى موسى الذى ذكرناه آنفا ففى رواية مسلم فى صحيحه وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى موسى «لو رأيتنى وأنا أسمع قراءتك البارحة» «فقال أبو موسى: أما إنى لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيرا ، أى لزينته ، وحسنته تحسينا .

ولابأس باجتماع الجماعة فى القراءة ولابإدارتها ، وهى أن يقرأ بعض الجماعة قطعة ثم البعض قطعة بعدها ، ويستحب قراءته بالتفخيم لحديث الحاكم «نزل القرآن بالتفخيم. قال الحلبى ومعناه أن يقرأه على قراءة الرجال ، ولايخضع الصوت فيه ككلام النساء

(١٢) الجهر بقراءة القرآن ، والإسرار أيهما أفضل ؟

وردت أحاديث تقتضى استحباب رفع الصوت بالقراءة ، وأحاديث تقتضى الاسرار وخفض الصوت، فمن الاول حديث الصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أذن الله (١) لشىء ماأذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به »وقوله يجهر به تفسير من أبى سلمة بن أبى عبدالرحمن ليتغنى ادرج فى الحديث وفى رواية ابن عيينة تفسيره بيستغنى به(٢) وقد

= أقرب منها إلى تحسين الصوت وحسن الاداء وإلى التعمية والخفاء أقرب منها إلى الظهور والوضوح .

(١)أذن بفتح الهمزة وكسر الذال فى الماضى وكذا فى المضارع مشترك بين الاباحة والاستماع الا أن مصدر الاول الإذن بكسرة الهمزة، وسكون الذال ومصدر الثانى الأذن بفتح الهمزة والذال والمراد بالأذن على الثانى فى حق الله تعالى اكرام القارىء وإجزال ثوابه والرضا عن فعله لأن ذلك ثمرة الاصغاء والاستماع .

(٢) صحيح البخارى كتاب فضائل القرآن باب من لم يتغن بالقرآن

اختلفت العلماء فى معنى يتغنى على اقوال : احدها تحسين الصوت بقراءته والجهر به ثانيها الاستغناء ثالثها : التحزن رابعها التشاغل ، وإنما يتم الاستدلال به على المعنى الاول (١)وهو يشهدايضا لتحسين الصوت بالقرآن

ومن الثانى ، حديث أبى داود والترمذى والنسائى « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة ،قال النووى :والجمع بينهما ان الاخفاء أفضل حيث خاف الرياء ، أو تأذى مصلون ، أو نيام بجهره ، والجهر أفضل فى غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ، ولأن يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه اليه ، ويطرد النوم ويزيد فى النشاط ويدل لهذا الجمع حديث أبى داود بسند صحيح عن أبى سعيد قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة ، فكشف الستر وقال . ألاأن كلكم مناج ربه فلايؤذين بعضكم بعضا .ولا يرفع بعضكم على بعض فى القراءة »وقال بعضهم يستحب الجهر ببعض القراءة، والاسرار . ببعض لأن المسر قد يمل فيأنس بالجهر ، والجاهر قد يكل فيستريح بالاسرار .

(١٣) أيهما أفضل القراءة من المصحف أم من الحفظ؟

قال السيوطي القراءة فى المصحف أفضل من القراءة من حفظه ، لأن النظر فيه عبادة ، وقال النووى : هكذا قال أصحابنا ، والسلف أيضاً ، ولم أر فيه خلافا ثم قال : ولو قيل إنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فيه لمن استوى خشوعه ، وتدبره فى حالتي القراءة فيه ، ومن الحفظ ، ويختار القراءة من الحفظ لمن يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على

---

(١) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٤٤ و٤٤٦

خشوعه، وتدبره لو قرأ من المصحف ـ لكان هذا قولا حسنا قال السيوطى: ومن أدلة القراءة فى المصحف ما أخرجه الطبرانى، والبيهقى فى «شعب الإيمان» «من حديث أوس الثقفى مرفوعا «قراءة الرجل فى غير المصحف ألف درجة؛ وقراءته فى المصحف (١) تضاعف ألفى درجة».

وأخرج أبو عبيد بسند صحيح «فضل قراءة القرآن نظراً على ما يقرؤه ظاهراً، كفضل الفريضة على النافلة» وأخرج البيهقى عن ابن مسعود مرفوعا «من سره أن يحب الله ورسوله فليقرأ فى المصحف» وقال. إنه منكر، أقول..والمنكر لا يحتج به وأخرج بسند حسن عنه موقوفا «أديموا النظر فى المصحف».

وحكى الزركشى فى البرهان ما بحثه النووى قولا؛ وحكى معه قولا ثالثا أن من الحفظ أفضل مطلقا. وأن ابن عبد السلام اختاره لأن فيه من التدبر مالا يحصل بالقراءة من المصحف، وأنا أميل إلى هذا القول، وأرجحه لما فيه أيضاً من تثبيت المحفوظ والتأكد منه ولا كذلك لو قرأ من المصحف.

(١٤) قال فى التبيان. إذا ارتج على القارىء فلم يدر ما بعد الموضع الذى انتهى إليه. فسأل عنه غيره فينبغى له أن يتأدب بما جاء عن ابن مسعود والنخعى، وبشير بن أبى مسعود قالوا. إذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرر ما قبلها ثم يسكت ولا يقول. كيف كذا، وكذا فإنه

---

(١) لعل المراد بالمصحف أى قراءته من المكتوب لأن تسميه ما فيه القرآن بالمصحف إنما كان بعد وفاة النبى ﷺ وإنما كان القرآن مكتوبا فى العهد النبوى مفرقا لما أسلفنا ولم يبين لنا السيوطى درجة هذا الحديث من الصحة أو الحسن أو الضعف.

يلبس عليه وقال ابن مجاهد . إذا شك القارىء فى حرف هل هو بالتاء ، أو باليـــاء فليقرأه بالياء ، فإن القرآن مذكر ، وإن شك فى حرف هل هو مهموز ، أو غير مهموز فليترك الهمزة(١) وإن شك فى حرف هل يكون موصولا ، أو مقطوعا فليقرأ بالوصل (٢) وإن شك فى حرف هل هو ممدود ، أو مقصود ، فليقرأ بالقصر وإن شك فى حرف هل هو مفتوح أو مكسور ، فليقرأ بالفتح لأن الأول غير لحن فى موضوع والثانى لحن فى بعض المواضع .

قال السيوطى ، أخرج عبد الرازق عن ابن مسعود قال : «إذا اختلفتم فى ياء وتاء فاجعلوها ياء ، ذكروا القرآن » فهم من ثعلب أن ما احتمل تذكيره وتأنيثه كان تذكيره أجود ، ورد بأنه يمتنع إرادة تذكير غير الحقيق التأنيث لكثرة ما فى القرآن منه بالتأنيث نحو «النار وعدها الله» «التفت الساق بالساق» «قالت لهم رسلهم» وإذا امتنع إرادة غير الحقيق ، فالحقيقى أولى قالوا : ولا يستقيم إرادة أن ما احتمل التذكير والتأنيث غلب فيه التذكير كقوله تعالى « والنخل باسقات » أعجاز نخل خاوية ، فأنت من جواز التذكير قال تعالى « أعجاز نخل منقعر » «من الشجر الاخضر » قالوا : فليس المراد ما فهم بل المراد يذكروا بالموعظة والدعاء كما قال تعالى . «فذكر بالقرآن من يخاف وعيد»

إلا انه حذف الجار والمقصود ذكروا الناس بالقران اى ابعثوهم على حفظه كيلا ينسوه قال السيوطى اول الأثر يمنع هذا الحمل .

وقال الواحدى الامر ماذهب اليه ثعلب والمراد انه إذا احتمل اللفظ التذكير والتأنيث ولم يحتج فى التذكير إلى مخالفة المصحف ذكر نحو «ولا تقبل

---

(١) لان الهمزة قد تخفف

(٢) لان الاصل الوصل .

منها شفاعة » قال: ويدل على إرادة هذا أن أصحاب عبد الله بن مسعود من قراء الكوفة كحمزة والكسائى ، ذهبوا إلى هذا، فقرؤا ما كان من هذا القبيل بالتذكير نحو «يوم يشهد عليهم ألسنتهم» وهذا فى غير الحقيقى .

أقول : ولست من هذا الذى ذكروه على ثلج ، ولا اطمئنان ، فالنص القرآن لا يجوز فيه الاجتهاد ، ولا إبدال حرف منه بآخر . ولا كلمة بأخرى ولا يجوز التصرف فى حروفه إلا فى حدود ما تلقى عن النبى ﷺ . وتلقاه النبى عن رب العزة عن طريق جبريل . ومن شك فى حرف أهو بالياء أم بالتاء ، وأهو بالتذكر أم بالتأنيث ؟ فليمسك عن قراءته . وليرجع إلى المصحف . أو إلى حافظ ليتأكد من النص القرآن ، نعم : ما فيه قراءتان أو أكثر فله أن يقرأه بإحداهما . ولعل أثر بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ إن صح محمول على ما فيه أكثر من قراءة من هذا القبيل فيؤثر قراءة التذكير على التأنيث . لا أنه يقول ذلك ما دام يجوز لغة . لأن كثيرا مما جاز لغة لم يجز قراءة وإنما القراءات فى حدود المأثور . المنقول بالتواتر . وما من قراءة إلا ولها وجه فى اللغة العربية .

(١٥) هل يجوز قطع القراءة لمكالمة أحد ؟

يكره قطع القراءة لمكالمة أحد . وعلل ذلك الحليمى بأن كلام الله لا ينبغى أن يؤثر عليه كلام غيره ، وأيده البيهقى بما روى فى الصحيح : «كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه» ويكره أيضا الضحك والعبث . والنظر إلى ما يلهى فإن اضطر إلى مكالمة أحد . أو إلى أى عمل فليختم فإذا فرغ تعوذ وبدأ من حيث انتهى .

(١٦) لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية[1] مطلقا سواء أحسن العربية أم لا . فى الصلاة أم خارجها . وعن أبى حنيفة أنه يجوز مطلقا . وعن أبى

---

(١) العجمية كل ما عدا اللغة العربية التى نزل بها القرآن.

يوسف ومحمد لمن لا يحسن العربية لكن فى شارح البزدوى أن أباحنيفة رجع عن ذلك . أقول . نعم ما صنع الامام ابو حنيفه حينما رجع عن ذلك والرجوع إلى الحق فضيلة وهو اللائق بالامام الجليل

ووجه المنع وعدم الجواز أنه يذهب إعجازه المقصود منه والذى هو من أخص خصائص القرآن ، والله سبحانه الذى وحد المسلمين تحت راية القرآن يجب أن تتوحد ألسنتهم بلغة القرآن ، اللغة العربية الشريفة ، ولو جوزنا ذلك لغات هذا الغرض الشريف .

وإلى المنع ذهب الإمام القفال من الشافعية ، وكان يقول إن القراءة بالفارسية لا تتصور ؛ فقيل له : فاذا لا يقدر أحد أن يفسر القرآن !!.

فقال : ليس كذلك، لأن المفسر يجوز أن يأتى ببعض مراد الله، ويعجز عن البعض ، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله تعالى لأن الترجمة إبدال لفظه بلفظ تقوم مقامها وذلك غير ممكن ، بخلاف التفسير .

أقول . وما ذكره القفال هو الحق والذى يجب أن يفتى به ، فالترجمة الحرفية للقرآن غير ممكنة ، أما الترجمة التفسيرية . أو إن شئت الدقة فقل ترجمة تفسيره فهى ممكنة ، وجائزة .

(١٧) لا تجوز القراءة بالشاذ من القراءات . وهو مالم يصح سنده وذلك مثل القراءة الشاذة « ملك يوم الدين » على أن ملك فعل ماض ، ونصب يوم . وقد نقل ابن عبد البر الإجماع على ذلك لكن ذكر موهوب الجزرى جوازها فى غير الصلاة قياساً على جواز رواية الحديث بالمعنى .

أقول . وما قاله موهوب غير مسلم . والقياس على الرواية بالمعنى قياس مع الفاروق ، فان اللفظ فى القرآن ركن من أركانه ، ولا يتحقق كونه قرآنا إلا به ولا كذلك الأحاديث فان لفظها ليس معجزاً والمعول عليه فيها المعنى دون اللفظ . وإن كانت الرواية باللفظ أولى وأفضل عند الجمهور لمن يتيقن منه وحفظه

(١٨) الأولى والأفضل أن يقرأ القارىء على ترتيب المصحف لأن

لأن هذا الترتيب ارتضاه الصحابة والسلف الصالح - رضوان الله عليهم

قال فى شرح المهذب . لأن ترتيبه لحكمة فلايتركها إلا فيم ورد فيه الشرع كصلاة صبح يوم الجمعة بألم تنزيل يعنى السجدة و«هل أتى» يعنى سورة الانسان ، ونظائره ، فلو فرق السور ، أو عكسها جاز ، ولكن قد ترك الأفضل .

وقال أيضاً . أما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه لأنه يذهب بعض أنواع الإعجاز - يعنى التناسب البلاغى بين الآيات ويزيل حكمة الترتيب

قال السيوطى ؛ وفيه أثر ، أخرج الطبرانى بسند جيد عن ابن مسعود أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوسا . قال . ذاك منكوس القلب .

وأما خلط سورة بسورة فعدا الحليمى تركه من الآداب لما أخرجه أبو عبيده عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر ببلال . وهو يقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة فقال يابلال مررت بك . وأنت تقرأ من هذه السورة . ومن هذه السورة ، قال . خلطت الطيب بالطيب . فقال .

« اقرأ السورة على وجهها ، أو قال على نحوها » مرسل صحيح . وهو عند أبى داود موصول عن أبى هريرة بدون آخره . وأخرجه أبو عبيدة من وجه آخر عن عمر بن عفرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « إذا قرأت السورة فانفذها » وقال ، حدثنا معاذ عن ابن عوف قال . سألت ابن سيرين عن الرجل يقرأ من السورة آيتين ثم يدعها ويأخذ فى غيرها ؟ قال ليتق أحدكم أن يأثم إثماً كبيرا وهو لا يشعر . وأخرج عن ابن مسعود قال . إذا ابتدأت فى سورة فأردت أن تتحول منها إلى غيرها فتحول إلى

«قل هو الله أحد» فإذا ابتدأت فيها فلا تتحول حتى تختمها. وأخرج عن ابن أبي الهذيل قال. كانوا يكرهون أن يقرأوا بعض الآية ويدعوا بعضها قال أبو عبيد: الأمر عندنا على قراءة الآيات المختلفة كما أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على بلال، وكما أنكره ابن سيرين على من سأله

وأما حديث عبد الله بن مسعود فوجهه عندى أن يبتدىء الرجل فى السورة يريد اتمامها، ثم يبدو له فى أخرى، فأما من ابتـــدأ القراءة وهو يريد التنقل من آية إلى آية، وترك التأليف لآى القرآن فانما يفعله من لا علم له لأن الله لو شاء لأنزله على ذلك

وقد نقل القاضى أبو بكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة.

قال البيهقى، وأحسن ما يحتج به أن يقال إن هذا التأليف لكتاب الله مأخوذ من جهة النبى صلى الله عليه وسلم، وأخذه عن جبريل فالأولى للقارىء أن يقرأه على التأليف المنقول، وقد قال ابن سيرين «تأليف الله خير من تأليفكم»

أقول والتنقل من آية إلى أخرى ومن سورة إلى أخرى من غير داع يفعله بعض القراء اليوم وبعضهم قد يترك آية تخويف أو زجر و يقرأ ما بعدها، وبعضهم يترك آية السجدة ويستمر فى القراءة والبعض حيث لا ينبغى البدء أو يقف حيث لا يتم الكلام ومن ذلك أن بعضهم إذا قرأ سورة «مريم» يبدأ بقوله تعالى «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» ويدع «كهيعص» ولا أدرى لم هذا؟!

ولعل فيما ذكرناه عن السلف وأهل العلم ما يكون فيه مدكر لهم.

ووازع يزعهم

(١٩) قال الحليمى : يسن استيفاء كل حرف — أى قراءة — أثبته قارىء ليكون قد أتى على جميع ما هو قرآن .

وقال ابن الصلاح والنووى . إذا ابتدأ بقراءة أحد من القراء فينبغى أن لا يزال على تلك القراءة مادام الكلام مرتبطا ، فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة أخرى والأولى دوامه على الأولى فى هذا المجلس.

وقال غيرها : بالمنع مطلقا يعنى سواء أكان الكلام مرتبطا بعضه ببعض فى المعنى أم لا ، قال ابن الجزرى : والصواب أن يقال إن كانت إحدى القراءتين منع ذلك منع تحريم كمن يقرأ « فتلقى آدم من ربه كلمات . برفعهما أو نصبهما أخذ رفع آدم من قراءة غير ابن كثير ، وأخذ رفع كلمات من قراءته(١) ، ونحو ذلك مما لا يجوز فى العربية واللغة .

ومالم يكن كذلك فرق فيه بين مقام الرواية ، وغيرها ، فإن كان على سبيل الرواية حرم أيضاً لأنه كذب فى الرواية ، وتخليط ؛ وإن كان على سبيل التلاوة جاز .

أقول . ولعل فى هذا زاجراً ، وواعظاً لبعض القراء الذين يذهبون جمال القرآن بذكر القراءات فى اللفظة الواحدة من غير فصل بين قراءة وأخرى ، ويريدون إظهار المهارة فى القراءات ؛ وما هو — علم الله — من المهارة فى شىء ، وإنما هو إغراب ؛ وإشكال على السامعين ، وعدم مراعاة لما يليق بالقرآن ، والتأدب فى قراءته .

(٢٠) يسن الاستماع لقراءة القرآن وترك الكلام والحديث مع الغير واللغط ، عند القراءة والأصل فى ذلك قوله تعالى ، « وإذا قرىء القرآن

---

(١) وأما نصبهما فأخذ نصب آدم من قراءة ابن كثير . ونصب كلمات =

فاستمعوا له ، وأنصتوا لعلكم ترحمون »(١) .

وظاهر الأمر للوجوب وإلى هذا ذهب بعض السلف والعلماء، والجمهور على أنه سنة وليس بواجب فى غير الصلاة . وذلك لأن الآية نزلت فى استماع المأموم عند قراءة الإمام منهم من عمم ذلك فى الجهرية . والسرية ومنهم من فرق بين السرية والجهرية فأوجب القراءة فى الأولى دون الثانية ومنهم من لم يفرق بينهما وأوجب القراءة فيهما والمراد بالإستماع التأمل والتفكير فيه . ولما كان الاستماع قد يكون مع السكوت . وقد يكون مع النطق بكلام آخر لا يحول بين المتكلم وبين فهم ما يسمع عقب الله سبحانه ذلك بالأمر بالإنصات وهو عدم الكلام .

وكذلك الإنصات قد يكون مع الاستماع أى التدبر فيما يسمع والتفكر فيه . وقد يكون مع عدم الإستماع كان يكون مفكراً فى أمر آخر فمن ثم جمع الله سبحانه بينهما لأن المراد الإنصات . مع التدبر والتفكر . فلا يغنى أحدهما عن الآخر ؛ وقيل المراد بالاستماع الاجابة والعمل ، فعلى سامع القرآن أن ينصت ؛ ثم يكون العلم والعمل .

ومهما يكن من شيء فالإصغاء والاستماع عند قراءة القرآن من الآداب التى ينبغى مراعاتها على كل مسلم تجاه القرآن الذى هو كلام .

وعسى أن يكون فى هذا وازع يزع هؤلاء الذين يرفعون أصواتهم بألفاظ الاستحسان عند سماع القرآن كأنما يستمعون إلى مغن أو مغنية ، والله يعلم أنهم لا يعون شيئاً مما يسمعون ، ومما يزيد الطين بلة أنهم يرفعون أصواتهم المنكرة فى المساجد التى هى بيوت الله ؛ فلا يراعون لبيوت الله حرمة ، كما لا يراعون لكلامه حرمة .

= من قراءة غيره . وهو تلفيق لا يليق . ولا يمكن توجيه هذا التلفيق لغة ونحواً أبداً

(١) الأعراف ٢٠٤ .

(٢١) السجود عند قراءة آية سجدة .

يسن السجود عند قراءة آية من آيات السجدة فى القرآن الكريم .

وإلى هذا ذهب الجمهور من العلماء على اختلاف بينهم فى أعداد هذه الآيات التى يسجد عندها وذهب الامام أبو حنيفة إلى وجوب السجود للتلاوة والواجب عنده فوق السنة ، ودون الفرض على ما هو اصطلاحه فى هذا .

وآيات السجدة ذكرت فى خمسة عشر موضعاً وهى(١) فى الأعراف (٣)والرعد (٣)والنحل (٤) والاسراء (٥) ومريم (٦،٧) وفى الحج سجدتان (٨) والفرقان (٩) والنمل (١٠) وألم تنزيل (١١) وص (١٢) وحم فصلت (١٣) والنجم (١٤) و « إذا السماء انشقت » (١٥) و « اقرأ باسم ربك »

وقد اختلفت أقوال العلما فى مواضع السجود من هذه المواضع

فذهب الامام أحمد وآخرون إلى السجود فى هذه المواضع الخمسة عشر وذهب الامام أبو حنيفة وآخرون إلى السجودفى أربعة عشر موضعاً فعدها كلها إلا سجدة الحج الثانية ؛ واعتبر سجدة ص من عزائم السجود .

وذهب إلى الامام الشافعى وطائفة إلى السجود فى أربعة عشر موضعاً أيضاً غير أنه عد آيتى الحج وترك آية (ص) وقالوا أنها سجدة شكر وليس من عزائم السجود

وذهب الإمام مالك وآخرون إلى السجود فى أحد عشر موضعاً فأسقط سجدات المفصل - النجم ، والانشقاق ، واقرأ - وسجدة (ص) ومواضع السجدات معروفة ومشار إليها فى معظم المصاحف إن لم يكن كلها واختلفوا فى موضع سجدة (حم فصلت) فقال مالك وطائفة من السلف هى عقب قوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » وقال أبوحنيفة والشافعى - رحمهما الله - والجمهور إلى أنها عقب قوله تعالى : « وهم لا يسئمون » وسجود التلاوة

واجباً كان أم سنة ـ على القارىء ، والمستمع له ويستحب أيضاً للسامع الذى لا يسمع لكن لا يتأكد فى حقه تأكده فى حق المستمع المصغى(١)

(٢٢) قال الإمام النووى :

« الأوقات المختارة للقراءة أفضلها ماكان فى الصلاة ، ثم الليل ، ثم نصفه الأخير ، وهى بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأفضل النهار بعدالصبح ولا تكره فى شىء من الأوقات لمعنى فيه ، وأما ما رواه ابن أبى داود عن معاذ بن رفاعة عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا: هودراسة يهود فغير مقبول ، ولا أصل له ، ونختار من الأيام يوم عرفة ، ثم الجمعة ، الأثنين ، والخميس ، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة ، ومن الشهور رمضان ، ونختار لابتدائه ليلة الجمعة ، ونختمه ليلة الخميس ، فقد روى ابن أبى داود عن عثمان بن عفان أنه كان يفعل ذلك ، والأفضل الختم أول النهار ، أو أول الليل لما رواه الدارمى بسند حسن عن سعد بن أبى وقاص قال ـ « إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وإن وفيق ختمه أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى قال فى الإحياء : ويكون الختم أول النهار فى ركعتى الفجر وأول الليل فى ركعتى سنة المغرب ، وعن ابن المبارك يستحب الختم فى الشتاء أول الليـــل ، وفى الصيف اول النهار ، وهى آراء على سبيل الاستحباب لا على سبيل الإلزام، ولا أدرى ماوجه تفرقة ابن المبارك بين الشتاء والصيف ويسن صوم يوم الختم ، أخرجه ابن أبى داود عن جماعة من التابعين ؛ ويستحب أن يحضر أهله وأصدقاءه ؛ أخرج الطبرانى عن أنس - أنه كان إذا ختم القرآن جمع أهله ، ودعا ، وأخرج ابن أبى داود عن الحكم بن عتيبة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٥ ص ٧٤ ، ٧٧

قال : أرسل إلى مجاهد ، وعنده ابن أبى أمامة وقالا : إنا أرسلنا إليك ، لأنا أردنا أن نختم القرآن ، ويقول : عنده تنزل الرحمة

(٢٣) التكبير عند قراءة السور القصار من القرآن

يستحب التكبير من الضحى إلى آخر القرآن ، وهى قراءة المكيين ، والدليل على هذا ما أخرجه البيهقى فى « شعب الإيمان » وابن خزيمة من طريق ابن أبى بزة قال : سمعت عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل ابن عبد الله المكى فلما بلغت الضحى قال أكبر حتى تختم ، فإنى قرأت على عبد الله بن كثير فأمرنى بذلك ، وقال . قرأت على مجاهد فأمرنى بذلك ، وأخبر مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبى بن كعب ، فأمره بذلك ، كذا أخرجناه موقوفا ، ثم أخرجه البيهقى من وجه آخر عن ابن أبى بزة مرفوعا ، وأخرجه من هذا الوجه - أعنى المرفوع - الحاكم فى مستدركه ، وصححه ، وله طرق كثيرة عن البزى وعن موسى بن هارون قال . قال لى البزى قال لى محمد بن إدريس الشافعى . ان تركت التكبير فقدت سنة من سنن نبيك ، قال الحافظ عماد الدين بن كثير . وهذا يقتضى تصحيحه للحديث

وقد اختلفت وجهة العلماء فى السر فى هذا التكبير ، فروى أبو العلاء الهمدانى عن البزى ، أن الأصل فى ذلك أن النبى ﷺ انقطع عنه الوحى فقال المشركون ، قلا محمد ربه ، فنزلت سورة الضحى ، فكبر النبى ﷺ قال ابن كثير . ولم يرد ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف

وقال الحليمى . نكتة التكبير التشبيه للقراءة بصوم رمضان ، إذا أكمل عدته يكبر ، فكذا هنا يكبر إذا أكمل عدة السورة ، قال . وصفته أن يقف بعد كل سورة وقفة قصيرة ، ويقول . « الله أكبر » وكذا قال سليم الرازى من الشافعية فى تفسيره . يكبر بين كل سورتين تكبيرة ، ولا يصل

آخر السورة بالتكبير بل يفصل بينهما بسكتة ، قال : ومن لايكبر من القراء حجتهم أن فى ذلك ذريعة إلى الزيادة فى القرآن ، بأن يداوم عليه فيتوهم أنه منه

وكذلك اختلفوا فى ابتدائه ، أهو من أول الضحى ، أم من آخرها وفى انتهائه . أهو أول سورة الناس أم آخرها ، وفى وصله بأولها ، أو آخرها وقطعه والخلاف فى الكل مبنى على أصل وهو أهو لأول السورة أم لآخرها وفى لفظه . فقيل . « الله أكبر » وقيل . « لا إله إلا الله ، والله أكبر » وسواء فى التكبير فى الصلاة ، وخارجها ، صرح به السخاوى وأبو شامة

(٢٤) يسن الدعاء عقب الختم ، وذلك لحديث الطبرانى ، وغيره عن العرباض بن سارية مرفوعا «من ختم القرآن فله دعوة مستجابة» وفى شعب الإيمان» من حديث أنس مرفوعا إلى النبى ﷺ « من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبى ﷺ ، واستغفر ربه ، فقد طلب الخير مكانه »

(٢٥) يسن إذا فرغ من الختمة أن يشرع فى أخرى عقب الختم لحديث الترمذى وغيره مرفوعا « أحب الأعمال إلى الله الحال ، المرتحل الذى يضرب من أول القرآن إلى آخره ، كلما أحل ارتحل

وأخرج الدارمى بسند حسن عن ابن عباس عن أبى بن كعب « أن النبى ﷺ كان إذا قرأ « قل أعوذ برب الناس » افتتح من الحمد ، ثم قرأ من البقرة إلى وأولئك هم المفلحون » ثم دعا بدعاء الختمة ، ثم قام وقد جرى عمل الناس أنهم إذا وصلوا إلى سورة الإخلاص كرروها ثلاثا وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه منع من تكريرها عند الختم.
أقول ولعل وجهة نظر الإمام أن لايظن ظان أنها نزلت هكذا مكررة وقال بعضهم : الحكمة فيه ماورد أنها تعدل ثلث القرآن(١) رواه البخارى

---

(١) قيل فى تعليل كونها تعدل ثلث القرآن أن القرآن عقائد وأحكام ؛ ومواعظ وأخبار ورأس العقائد مايتعلق بالله وتوحيده . وصفاته وقد =

فيحصل بذلك ختمة فإن قيل كان ينبغى أن تقرأ أربعا ليحصل له ختمتان قلنا المقصود أن يكون على يقين من ختمة إما التى قرأها . وإما التى حصل على ثوابها بتكرار قال السيوطى .وحاصل ذلك يرجع إلى جبر مالعله حصل فى القرأة من خلل وكما قاس الحليمى التكبير عند الختم على التكبير عند إكمال رمضان فينبغى أن يقاس تكرير سورة الإخلاص على اتباع رمضان بست من شوال :

(٢٦) حكم التكسب بالقرآن .

يكره إتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها أى بقراءته أن لايكون له عمل غيره أو بالتسول به كما يفعل بعض الناس والدليل على هذا ماأخرجه الآجرى من حديث عمران بن الحصين مرفوعا « من قرأ القرآن ، فليسأل الله به فإنه سيأتى قوم يقرؤن القرآن يسألون الناس به » وقد أخرج أبو عبيد ، فى فضائل القرآن » عن أبى سعيد وصححه الحاكم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تعلموا القرآن . وأسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا ، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر ، رجل يباهى به ورجل يستأكل به(١) ورجل يقرأه لله» وأخرج أحمد وأبو يعلى من حديث عبد الرحمن ابن شبل رفعه اقرؤا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به الحديث وسنده قوى كما قال الحافظ وأخرج أبو عبيد عن عبد الله ابن مسعود ، سيجىء زمان يسأل فيه بالقرآن فإذا سألوكم فلا تعطوهم(٢) وروى البخارى فى تاريخه الكبير بسند صالح

= اشتملت السورة على هذا ، وقيل معنى ذلك أن ثواب قراءتها يحصل للقارىء مثل ثواب من قرأ ثلث القرآن ، وقيل ثواب الثلث من غير تضعيف .

(١) أى يطلب الأكل والمعيشة بقراءته .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٧٨ .

حديث من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع منه لعن بكل حرف عشر لعنات ، وذلك لأنه يريد أن يصيب به دنيا من مال أو جاه أو زلفى .

ومن ثم نرى أن قراءة القرآن بأجر كما يفعل بعض القارئين اليوم ، أو للتسول به حرام، أما أخذ الأجر على تحفيظ القرآن وتعليمه للناس أو بيان ما فيه من عقاب وأحكام وحكم فهذا لا شيء فيه، بل فاعله مأجور وذو منزلة عند الله، وإن كان من لا يأخذ عليه أجرا أعظم أجرا، وأعلى منزلة عند الله ، وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن عثمان - رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : خيركم من تعلم القرآن وعلمه(١) ورواه أيضا أصحاب السنن الأربعة .

وقد كان بعض السلف يكرهون أخذ الأجرة على إقراء القرآن ، وتجويده وتعليم العلم ولكن جمهور العلماء على جواز أخذ الأجرة على تعليم العلم والقراءة وسائر الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة والوعظ والتذكير لأنه لو لم يعطوا أجراً لتعطلت هذه الوظائف ، ولما وجد من يقوم بها فيدرس العلم ويندر - إن لم ينعدم - العلماء ، وحفظة القرآن .

(٢٧) يكره أن يقول نسيت آية كذا ، بل يقول أنسيتها، لأن الأولى تفيد التقصير فى حق القرآن ، بخلاف الثانيه فإنها لا تشعر بذلك والأصل فى ذلك ما رواه الشيخان فى صحيحيهما عن عبد الله بن مسعود قال : قال

---

(١) أى خير المعلمين من قام بتعليم القرآن وتعليمه لغيره ؛ أو المراد تعلمه والفقه فيه كما كان الشأن فى الصدر الأول للاسلام فإن لم يكن متفقها فيه فهو دون الأول ويكون غيره خيرا منه ، أو أن من مقدرة فى الحديث أى من خيركم ، ولابد فى كل هؤلاء من مراعاة الإخلاص الذى هو أساس الخيرية .

النبى صلى الله عليه وسلم « بئس ما لأحدهم أن يقول نسيت آية كيت وكيت (١) بل نسى » ، أى بضم النون وتشديد السين المكسورة مبينا للمجهول وهو الذى وقع فى جميع الروايات فى البخارى ، وكذا فى اكثر الروايات فى غيره ؛ ويؤيده ماوقع فى رواية ابى عبيد فى الغريب بعدقوله « كيت وكيت ليس هو نسى ولكنه نسى الأول بفتح النون ، وتخفيف السين ، والثانى بضم النون وتثقيل السين ، هكذا قال الحافظ فى الفتح ، وذكر القرطبى أنه رواه بعض رواة مسلم مخففا وقال رواية التثقيل معناه انه عوقب بوقوع النسيان عليه لتفريطه فى معاهدته ، واستذكاره ، ومعنى التخفيف أن الرجل ترك غير ملتفت إليه وهو كقوله تعـــالى « نسوا الله فنسيهم » ، اى تركهم فى العذاب ، أو تركهم من الرحمة (٢) .

وقد بين الحافظ فى الفتح أن النهى عن قول نسيت آية كذا وكذا ليس للزجر عن هذا اللفظ ، بل للزجر عن أسباب تعاطى النسيان المقتضية لقول هذا اللفظ ، أقول ، أى أنه من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب وهو أسلوب معروف فى اللغة العربية ، قال الحافظ . ويحتمل أن ينزل المنع والإباحة على حالتين .

(١) فمن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دينى كالجهاد لم يمتنع عليه قول ذلك لأن النسيان لم ينشأ عن إهمال دينى ، وعلى ذلك يحمل ما ورد من ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم من نسبة النسيان إلى نفسه كما ورد فى الحديث الصحيح (٣) ويكون النهى للتنزيه .

---

(١) كناية عن الجمل الكثيرة ، والحديث الطويل فهى مثل ذيت ، وذيت وكذا وكذا .

(٢) فتح البارى ج ١٠ ص ٤٥٦ ٤٥٧

(٣) المرجع السابق ص ٤٦٣

(٢) ومن نشأ نسيانه عن اشتغاله بأمر دنيوى ، ولا سيما إن كان محظورا امتنع عليه لتعاطى أسباب النسيان .

(٢٨) اختلف العلماء فى وصول ثواب قراءة القرآن للميت قال السيوطى الأئمة الثلاثة على وصول ثواب القراء للميت ، ومذهبنا - أى الشافعية - خلافه لقوله تعالى . وأن ليس للانسان إلا ما سعى(١) .

وإليك ماذكره الإمام الآلوسى فى تفسيره لهذه الآية فقد ذكر كلاما حسنا فى هذا المقام قال « ويعلم من مجموع ما تقدم أن استدلال المعتزلة بالآية على أن العبد إذا جعل ثواب عمله أى عمل كان لغيره لا ينجعل ، ويلغو جعله - غير تام(٢).

وكذا استدلال الإمام الشافعى بها على أن ثواب القراءة لا تلحق الأموات ، وهو مذهب الإمام مالك ، بل قال الإمام بن الهمام - هو من أئمة الحنفية ، أن مالكا ، والشافعى ، لا يقولان بوصول العبادات البدنية المحضة كالصلاة والتلاوة ، بل غيرها كالصدقة والحج ،وفى الأذكار للنووى عليه الرحمة — المشهور من مذهب الشافعى — رضى الله عنه - وجماعة أنها لا تصل ، وذهب أحمد بن حنبل ،وجماعة من العلماء،ومن أصحاب الشافعى إلى أنها تصل ، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه اللهم أوصل ثواب ما قرأته إلى فلان ، والظاهر أنه إذا قال ذلك ونحوه كوهبت ثواب ما قرأته لفلان بقلبه كفى ، وعن بعضهم اشتراط نية النيابة أول القراءة قال الآلوسى :

وفى القلب منه شىء ، ثم الظاهر أن ذلك إذا لم تكن القراءة بأجرة ،

---

(١) النجم ٣٩

(٢) هذا خبره أن استدلال ..»

أما إذا كانت بها كما يفعل الناس اليوم ، فإنهم يعطون حفظة القرآن أجرة ليقرؤا لموتاهم : فيقرؤن لتلك الأجرة — فلا يصل ثوابها ، إذ لا ثواب لها ليصل ، لحرمة أخذ الأجرة على قراءة القرآن ، وإن لم يحرم لتعليمه ، كما حققه خاتمة الفقهاء ، المحققين الشيخ محمد الأمين بن عابدين الدمشقى رحمه الله تعالى ، قال ، وفى الهداية من كتاب « الحج عن الغير » إطلاق صحة جعل الإنسان عمله لغيره ، ولو صلاة ، وصوما عند أهل السنة والجماعة ، وفيه ما علمت مما مر آنفا ، وقال الخفاجى هو - أن كلام صاحب الهداية - محتاج إلى التحرير ، وتحريره أن محل الخلاف العبادة البدنية هل تقبل النيابة فتسقط عن لزمته بفعل غيره سواء كان بإذنه أم لا بعد حياته ، أم لا ، فهذا وقع فى الحج كما ورد فى الأحاديث الصحيحة ، أما الصوم فلا ، وما ورد فى حديث « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » ، وكذا غيره من العبادات فقال الطحاوى - هو من محدثى فقهاء الحنفية - إنه كان فى صدر الإسلام ثم نسخ ، وليس الكلام فى الفدية ، واطعام الطعام فإنه بدل ، وكذا إهداء الثواب سواء أكان بعينه أو مثله ، فانه دعاء ، وقبوله بفضل الله - عزوجل كالصدقة فاعرفه انتهى ما ذكره الآلوسى(١) ، وفى هذا القدر كفاية فى هذه المسألة التى يكثر فيها السؤال دائما

والحق أنه لا خلاف فى الدعاء والصدقة لورود الأحاديث الصحيحة الكثيرة فيهما ، وكذلك الحج عند الجمهـــور وأما الصوم ففيه الخلاف وكذا الصلاة

(حكم الاقتباس وما جرى مجراه)

ومن المسائل المهمة معرفة حكم الاقتباس من القرآن واليك خلاصة ما ذكره العلماء فى هذا

---

(١) تفسير الالوسى جـ ٢٧ ص ٥٨ ط منير

قال الامام السيوطى فى الاتقان الاقتباس تضمين الشعر أو النثر بعض القرآن لا على أنه منه بأن لا يقال فيه . قال الله تعالى ونحوه فإن ذلك حينئذ لا يكون اقتباسا وقد اشتهر عن المالكية تحريمه ، وتشديد النكير على فاعله ، وأما أهل مذهبنا يريد الشافعية فلم يتعرض له الأقدمون ولا أكثر المتأخرين مع شيوع الاقتباس فى أعصارهم واستعمال الشعراء قديما وحديثاً

وقد تعرض له جماعة من المتأخرين فسئل عنه الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأجازه واستدل له بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله فى الصلاة وغيرها وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين(١) ، وقوله اللهم فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسبانا أقض عنى الدين ، وأغننى من الفقر(٢) .

وفى سياق كلام لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(٣) وفى آخر حديث لابن عمر « قد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة(٤) .

وهذا كله يدل على جوازه فى مقام المواعظ ، والثناء على الله ،

---

(١) هو مقتبس من قوله تعالى «إنى وجهت وجهى ... » الآية ٧٩ من سورة الانعام .

(٢) هو مقتبس من قوله تعالى « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا . الآية ٩٦ من سورة الأنعام

(٣) هو مقتبس من قوله تعالى « وسيعلم الذين ظلموا ... » الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

(٤) هو مقتبس من قوله تعالى « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » الآية ٢١ من الأحزاب

والدعاء وفى النثر ، ولا دلالة فيه على جوازه فى الشعر ، وبينهما فرق : فإن القاضى أبا بكر من المالكية صرح بأن تضمينه فى الشعر مكروه ، وفى النثر جائز .

واستعمله أيضاً فى النثر الإمام القاضى عياض فى مواضع من خطبة كتابه « الشفا » .

وقال الشرف إسماعيل ابن المقرى اليمنى صاحب مختصر الروضة ، فى شرح بديعته ، ما كان منه فى الخطب ، والمواعظ ، ومدحه صلى الله عليه وسلم وآله ، وصحبه ، ولو فى النظم فهو مقبول ، وغيره مردود .

أقول وينبغى أن يلحق بذلك مدح الخلفاء الراشدين ، والصحابة والتابعين والسلف الصالحين ، والعلماء العاملين .

وقال فى شرح « بديعته » الاقتباس ثلاثة أقسام : مقبول ، ومباح ، ومردود ، فالأول : ما كان فى الخطب ، والمواعظ ، والعهود ، والثانى ما كان فى الغـــزل ، والرسائل ، والقصص ، والثالث على ضربين أحدهما ، ما نسبه الله إلى نفسه ، ونعوذ بالله ممن ينقله إلى نفسه كما قيل عن أحد بنى مروان أنه وقع على مطالعة فيها شكاية عماله فكتب «إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم(١) .

والآخر : تضمين آية فى معنى هزل ونعوذ بالله من ذلك كقول أحد الشعراء

أرخى إلى عشاقه طرفه	هيهات ، هيهات لما توعدون(٢)
وردفه ينطق من خلفه	لمثل هذا فليعمل العاملون(٣)

---

(١) أخذ من قوله تعالى فى آخر سورة الغاشية الاية ٢٥ و ٢٦

(٢) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لكلام منكرى البعث « هيهات هيهات ... الاية ٣٦ من سورة المؤمنون

(٣) أخذ هذا من قوله تعالى حكاية لمثل هذا فليعمل العاملون ، الاية ٦١ من سورة الصافات

قال السيوطى . وهذا التقسيم حسن جدا ، وبه أقول، وأنا أيضاً أستحسنه جد الاستحسان ، وبه أقول

وقد ذكر الشيخ تاج الدين ابن السبكى فى «طبقاته» فى ترجمة الامام أبى منصور عبد القاهر بن طاهر التميمى البغدادى من كبار الشافعية ، وأجلائهم أن من شعره قوله

يامن عدى ، ثم اعتدى ، ثم اقترف   ثم انتهى ، ثم ارعوى ، ثم اعترف
أبشر فى قول الله فى آيــة   «إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف»(١)

ثم عقب فقال . استعمال مثل الأستاذ أبى منصور مثل هذا الاقتباس فى شعره له فائدة فإنه جليل القدر ، والناس ينهون عن هذا ، وربما أدى بحث بعضهم إلى أنه لا يجوز ، وقيل إن ذلك إنما يفعله الشعراء الذين هم فى كل واد يهيمون ويثبون على الألفاظ وثبة من لا يبالى ، وهذا هو الأستاذ أبو منصور من أئمة الدين ، وقد فعل هذا ، وأسند عنه هذين البيتين الأستاذ أبو القاسم بن عساكر

قال الإمام السيوطى معقبا . ليس هذان البيتان من الاقتباس لتصريحه بقول الله ، وقد قدمنا أن ذلك خارج عنه

وأما أخوه الشيخ بهاء الدين فقال فى «عروس الأفراح» . الورع اجتناب ذلك كله ، وأن ينزه عن مثله كلام الله ورسوله

ثم قال السيوطى . رأيت استعمال الاقتباس لأئمة أجلاء منهم الإمام أبو القاسم الرافعى ؛ وأنشده فى أماليه ، ورواه عنه أئمة كبار

الملك لله الذى عنت الوجو   ه له ، وذلت عنده الأرباب
متفرد بالملك والسلطان قد   خسر الذين تجاذبوه وخابوا

---

(١) هو مأخوذ من قوله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ... » الآية ٣٨ من الأنفال

دعهم،وزعم الملك يوم غرورهم فسيعلمون غدا من الكذاب(١)

وروى البيهقى فى شعب الإيمان عن شيخه أبى عبد الرحمن السلمى قال أنشدنا أحمد بن يزيد لنفسه

سل الله من فضله ، واتقه فإن التقى خير ما تكتسب
ومن يتق الله يصنع له ويرزقه من حيث لا يحتسب(٢)

وأنا أميل إلى عدم استعماله فى الشعر حتى لا يتوهم متوهم أن فى القرآن شعراً وإن كان فعله هؤلاء الأئمة الكبار.

وأختم هذا الفصل القيم الذى أمتعنا به الإمام السيوطى فى إتقانه (٣) بأن الكلمة من القرآن الكريم أو الآية يقتبسها المقتبس فى كلامه مهما بلغ هذا الكلام من الفصاحة والبلاغة ، فتضفى على الكلام نوراً وبهاء، وروعة وفخامة ، وتكون متميزة عما قبلها ، وما بعدها تميز الدرة اليتيمة الثمينة بين حبات العقد ، والجوهرة المتلألئة بين الحصى وحبات الرمل ،وكالشمس إذا طلعت كسفت بقوة ضوئها ضوء النجوم والكواكب ، وهذا سر من أسرار كتاب الله الذى لا تنقضى عجائبه ، ولا تفنى أسراره

مايجرى مجرى الاقتباس

ويقرب من الاقتباس شيئان

أحدهما : قراءة القرآن يراد بها الكلام إجابة لسائل .أو رداعلى متكلم، أو إفحاما لخصم ، أو إشارة إلى مايراد من معانيه قال الإمام النووى فى التبيان،

---

(١) هو مأخوذ من قوله تعالى . « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر» الآية ٢٦ من سورة القمر

(٢) هو مأخوذ من قوله تعالى . « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ،ويرزقه من حيث لا يحتسب » الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) جـ ٢ ص ١١٣ ، ١١٤

ذكر ابن أبى داوود فى هذا اختلافا ، فروى عن النخعى أنه كان يكره أن يتأول القرآن بشىء يعرض من أمر الدنيا ، وأخرج عن عمر بن الخطاب أنه قرأ فى صلاة المغرب بمكة « والتين والزيتون وطورسينين» ثم رفع صوته وقال : « وهذا البلد الأمين » يريد بيان أن المراد به مكة

وأخرج حكيم بن سعد أن رجلا من المحكمة أتى عليا ، وهو فى صلاة الصبح فقال . «لئن أشركت ليحبطنك عملك »(١) فأجابه فى الصلاة « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون »(٢)

وقال غيره : يكره ضرب الأمثال من القرآن صرح به من الشافعية العماد البيهقى تلميذ البغوى كما نقله ابن الصلاح فى فوائد رحلته

الثانى : التوجيه بالألفاظ القرآنية فى الشعر وغيره ، والتلويح بها إلى معانيها القرآنية وهو جائز — كما قال السيوطى — بلا شك ، قال . وروينا عن الشريف تقى الدين الحسينى أنه لما نظم قوله

مجــاز حقيقتها فاعبروا	ولا تعمروا هونوها تهن
وماحسن بيت له زخرف	تراه إذا زلزلت لم يكن

خشى أن يكون ارتكب حراما لاستعماله « الألفاظ القرآنية فى الشعر فجاء إلى شيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد يسأله عن ذلك ، فأنشده إياهما ، فقال له . قل وما حسن كهف ... فقال ياسيدى أفدتنى ، وأفتيتنى

« خاتمة » قال الزركشى فى كتابه « البرهان» : لا يجوز تعدى أمثلة القرآن ولذلك أنكر على الحريرى قوله . « فأدخلنى بيتا أحرج من التابوت وأوهى من بيت العنكبوت» ، وأى معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه حيث قال « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » فأدخل إن ، وبنى أفعل التفضيل وبناه من الوهن ، وأضافه إلى الجمع، وعرف الجمع باللام وأتى فى خبر إن باللام

---

(١) هو من قوله تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين » الآية ٦٥ من سورة الزمر

(٢) هو من قوله تعالى « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون الآية ٦٠ من سورة الروم

والإنكار على الحريري غير متجه فقد قال الله تعالى «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما فوقها » والآية تحتمل معنيين أحدها . فما فوقها في الحجم والمقدار ، وثانيهما . فما فوقها أي في الخسة والقدر يعني فما دونها في الحجم ، ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المثل بما دون البعوضة ، فقال« لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء »

وبهذا انتهينا من هذه المسائل والفوائد التي لا يستغني مسلم عن معرفتها والتأدب بها .

نسأل الله سبحانه أن يرزقنا الأدب معه ومع كتابه ، ومع نبيه

« لا يجوز كتابة القرآن بغير الحروف العربية »

كنت قد كتبت هذا العنوان ريثما أكتب تحته ما أريد ثم طبع العنوان ص ٣٦٦ من غير شيء وها أنذا أستدرك ما فات فأقول وبالله التوفيق :

من المجمع عليه أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير اللغة العربية لا في الصلاة ولا في خارجها لأن الله أنزله قرآناً عربيا قال تعالى« إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (١)وقال إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(٢)» وقال« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين(٣)» ولم يقل قرآنا أعجميا ، وركنا القرآن اللفظ والمعنى معا، فإذا قرأ بغير العربية لا يسمى قرآنا وما روى عن الإمام الأعظم أبي حنيفة أنه جوز القرآن بالفارسية في الصلاة للعاجزين عن العربية قد نقل بعض المحققين من أتباعه أنه رجع

---

(١) يوسف / ٢

(٢) الزخرف / ٣

(٣) الشعراء / ١٩٣ - ١٩٥

عنه(١) وبذلك صار الأمر إجماعا من الفقهاء، والقرآن كما ذكرت فى مقدمة الكتاب - هو الذى وحد بين المسلمين فى اللسان كما وحد بينهم فى العقيدة والشريعة . وبفضل القرآن كان المسلمون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم يتكلمون اللغة العربية من المحيط إلى المحيط بل من الفرس، والرومان، وغيرهم من أجاد اللغة العربية إجادة العرب الخلص لها، ومؤلفاتهم التى لا يحصيها العد أكبر دليل على هذا وهذا أمر لم يكن لغير القرآن، وهو سر من أسرار الإعجاز والبيان وصدق الله تعالى فى قوله «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»(٢)

وكما لا يجوز قراءة القرآن بغير اللفظ العربى المبين الذى نزل به، لا يجوز بالاجماع كتابته بغير الحروف العربية لا باللاتينية ولا بغيرها من اللغات، لأن القرآن عربى فى لفظه وعربى فى حروفه وكتابته ، ورسم القرآن كما رجحنا سابقا توقيفى وسنة متبعة لا تجوز مخالفته ، والصحابة رضوان الله عليهم لما كتبوا المصاحف لم يكتبوها إلا بالحروف العربية ، وهذا إجماع لا تجوز مخالفته ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما كاتب الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية كاتبهم باللغة العربية(٣) حتى فيما ليس بقرآن فإذا كان هذا فى غير القرآن فما بالك بالقرآن ؟ ونصوص الكتب مدونة فى كتب السير والحديث والتاريخ ولم أقف على كتاب منها كتب بغير اللغة العربية ، والحروف العربية ومن ادعى خلاف ذلك فعليه البيان :....

فالدعوة إلى كتابة القران الكريم بالحروف اللاتينية أو بغيرها دعوة آثمة ملحدة هدامة تدعو إلى فصم العروة الوثقى التى تربط بين المسلمين جميعا عربا ، وغير عرب ، وهى القرآن ولغة القرآن .

---

(١) حدث الأحداث فى الاسلام الاقدام على ترجمة القرآن ص ٦ ط الثانية

(٢) سورة القمر وقد تكررت فيها أربع مرات .

(٣) أنظر صورة كتاب رسول الله إلى المقوقس عظيم الروم فى كتاب الوسيط فى الأدب العربى ص ١٢٢ ط اولى .

وكما أن اللغة العربية شعار الإسلام والمسلمين. فكذلك الحروف العربية شعارهم ومن منذ نصف قرن قام بعض المصريين وغيرهم يدعون إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، ولكن الله قيض لها من المخلصين من علماء هذه الأمة من قبرها فى مهدها، ورد كيد أهلها فى نحورهم، وباءوا بغضب من الله والناس .

إننا لو جوزناها هذا فى كتابة القرآن الكريم لفتح باب شر مستطير، فسيكتب كل أصحاب لغة من المسلمين القرآن بحروفهم وحينئذ تكون الطامة الكبرى فسيكون وسيلة لتحريف القرآن الكريم ولزوال الوحدة العربية اللسانية الممثلة فى لغة القرآن بين المسلمين ،وما من دولة إسلامية غير عربية إلا وهى لا تحفظ القران إلا بلفظه العربى المبين، ولا تكتبه إلا بحروفه العربية التى أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم واجمع عليها المسلمون، بل بعض هذه الدول الاسلامية جعلت تدريس اللغة العربية فى مدارسها ، وجامعاتها ومعاهدها أمر لزاما ؛ بل بعضها يسعى فى جعل اللغة العربية هى اللغه الرسمية للبلاد .

إن الدعوة إلى كتابة اللغة العربية أو القرآن بالحروف اللاتينية أو غيرها هى جناية فى حق الوطن العربى ، بل فى حق الوطن الاسلامى ،فضلا عن كونها جريمة فى حق الدين الاسلامى ، وقد كانت دسيسة استعمارية أو اثر من آثار الصليبية ، ولكن الله وقى الوطن العربى والاسلامى شرورها ، فلله الحمد والمنة .

والحمد لله فى البداية كما حمدناه فى النهاية، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم الدين ؟

كتبه الفقير إلى عفو ربه
محمد بن محمد أبو شهبه
عضو [illegible] الأزهر الشريف

« أهم مراجع الكتاب »

(١) القرآن الكريم .
(٢) تفسير ابن جرير ، والبغوى ، والزمخشرى ، والرازى ، والقرطبى وابن كثير ، والآلوسى ، والمنار ، وغيرهم .
(٣) أسباب النزول : للواحدى والسيوطى وغيرهما .
(٤) سنن أبى داود ، والنسائى والترمذى . وابن ماجه . ومسند الإمام أحمد
(٥) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى : للحافظ ابن حجر .
(٦) صحيح مسلم بشرحه للإمام محيى الدين النووى .
(٧) البرهان فى علوم القرآن : للزركشى .
(٨) الإتقان فى علوم القرآن . للسيوطى .
(٩) مناهل القران فى علوم القرآن لأستاذنا الشيخ عبد العظيم الزرقانى
(١٠) منهج القرآن فى علوم القرآن : للعالم الشيخ محمد على سلامة .
(١١) التبيان ، لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن ، الشيخ طاهر الجزائرى .
(١٢) نقض مطاعن القرآن : للعلامة الشيخ محمد عرفة .
(١٣) كتاب الوحى المحمدى . للعلامة السيد محمد رشيد رضا .
(١٤) النبأ العظيم للعلامة الدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز .
(١٥) رسالة فى أصول التفسير للإمام تقى الدين أحمد بن تيمية
(١٦) إيقاظ الأعلام فى اتباع رسم المصحف الإمام : الشيخ محمد الشنقيطى
(١٧) القراءات واللهجات . الأستاذ عبد الوهاب حمودة
(١٨) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة الدكتور محمد محمد أبو شهبه
(١٩) تاريخ القرآن للزنجانى
(٢٠) مدخل إلى القرآن للمستشرق الفرنسى « بلاشير »
(٢١) رسالة فى القراءات الشواذ للدكتور مصطفى مندور
(٢٢) تاريخ القرآن للمستشرق . نولدكه ،
(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة « قرآن
(٢٤) كتب اللغة : لسان العرب ، القاموس المحيط ، المصباح المنير

فهرس الكتاب

رجوعهم إلى لغة العرب إذا غاب عنهم بعض معانيه اللغوية - جمع الصحابة بين الحفظ ، والعلم ، والعمل - عصر التدوين :

بدء التدوين فى علوم القرآن بمعناه العام أشهر المؤلفين فى التفسير - أشهر المؤلفين فى أسباب النزول، وفى الناسخ والمنسوخ . وفى مشكله وفى غريبه ومفرداته ، وفى إعرابه وفى إعجازه . وفى مجازه . وفى قراءاته وفى أقسامه . وفى أمثاله . وفى فضائله - منهج هؤلاء فى تأليف كتبهم .

٣٣ - ٤١ علوم القرآن بمعنى الفن المدون : متى ظهر هذا الاصطلاح ؟ - رأى السيوطى - رأى المؤلف ودليله ، رأى أستاذنا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى - رحمه الله - والتعقيب عليه ببيان الحق - المؤلفات فى القرن السادس - المؤلفات فى القرن السابع - المؤلفات فى القرن الثامن - المؤلفات فى القرن التاسع وهو القرن الذهبى فى تدوين علوم القرآن - فارس الحلبة السيوطى - جمعه خلاصة الكتب السابقة فى كتابه ، الإتقان فى علوم القرآن - الإتقان فى الميزان ، محاسن الكتاب - مآخذى على الكتاب - محاولة المؤلف الاعتذار عن صاحب الاتقان .

٤١ - ٤٥ عصر نهضة العلوم : إدخال الدراسات العليا التخصصية فى علوم القرآن فى الأزهر الشريف جامعة المسلمين الكبرى - جدت مباحث أخرى أضيفت إلى ماذكره العلماء المتقدمون - الرد على الشبه التى أثارها المبشرون . والمستشرقون ومتابعوهم على القران الكريم أشهر المؤلفات فى العصر الأخير - رسائل وكتب فى بعض علوم القران لعلماء ، وأدباء - كتب ورسائل حول ترجمة القران الكريم - استمرار التأليف فى علوم القران ، أو بعض أنواعه .

الصحيفة	الموضوع
	الشبهة الحادية عشر : روايات يوهم ظاهرها سقوط شيء من القرآن وبيان الحق فيها
	رد عام عن الشبهه بعد الردود الخاصة
٣١٢ - ٣٢٠	المبحث الثامن : ترتيب آيات القرآن وسوره
	الآية فى اللغة ، وفى الاصطلاح ، معنى الفاصلة ، اختلاف الآيات طولا وقصراً
	فوائد معرفة الآيات، عدد آيات القران، السبب فى الاختلاف فى عــــدد الاى ، لمعرفة رؤوس الاى طريقان : توقيفى ، وقياسى ، معرفة الايات توقيفية . أى لامجال للرأى فيها، عدد كلمات القران وحروفه ، ترتيب الايات توقيفى بالإجماع، ترتيب آيات القرآن ليس بحسب النزول وإنما يرجــع إلى المناسبات والروابط البلاغية
٣٢٠ - ٣٣٤	السور وترتيبها : معنى السورة لغة ، واصطلاحا ، معرفة السور توقيفى ، هل يقال سورة البقرة مثلا ؟ الحكمة فى جعل القرآن الكريم سوراً - عدد سور القران - لا يجوز إطلاق السورة والاية على إصحاحات التوراة والإنجيل وفقراتها - أسامى السور، التسمية توقيفية أم اجتهادية - كلام حسن جيد للزركشى فى هذا المقام ، تعقيب للإمام السيوطى على كلام الزركشى صاحب البرهان ، لم لم يفرد لموسى عليــه السلام سورة تسمى به ؟ وكذلك ادم عليه السلام ؟ وداود عليه السلام ؟ جواب للمؤلف لم يسبق إليه ، تقسيم السور باعتبار الطول والقصر ، الطول ، والمئون ، والمثانى ، والمفصل ، وبيان أقسام المفصل ، تقسيم السور من حيث عدد الايات اتفاقا واختلافا ، ترتيب سور القرآن ، مذاهب العلماء فى هذا

(استدراك)

فى ص ٦١ سقط سطر ١٦ « هامش رقم١ » ونصه ، دحية بكسر الدال
رجل من الصحابة كان معروفا بجمال الشكل والصورة ،
السطران الأخيران فى ص١٤٠ موضعهما فى نهاية الفائدة الثالثة ص١٤١
وهامش ص ٢١٢ مكرر من هامش ص ٢٠٧ ،
وفى ض ٣٢٣ سطر ١٦ وقع سقط ونصه ، لأنه جعل سورة الفيل
وسورة لايلاف قريش
وفى ص ٣٤٩ سقط فى منتصف السطر الثالث ونصه،
« كلمة الربا تكتب بالواو والألف ، كما جاء فى الرسم العثمانى ،
ولا تكتب فى القرآن بالياء أو الألف ، لأن رسمه سنة متبعة »
وفى كتاب المحيط البرهانى فى فقه الحنفية مانصه ،
«وهناك بعض أخطاء أخرى لاتخفى على القارىء الفطن»

مطابع اللواء بالرياض

« التعريف بالمؤلف »

(١) أسرة « أبو شهبة » من الأسر العربية العريقة ، التى اشتهرت بالفروسية ، وحب الجهاد فى سبيل الله كما ينبىء عن ذلك لقبها ، تركزت أصولها فى عدة قرى من محافظة البحيرة ، ثم نزح بعض فروعها قديما إلى بعض قرى محافظة كفر الشيخ ، ومحافظة الغربية

(٢) ولد فى ١٥/٩/١٩١٤ فى قرية « منية جناج » مركز دسوق .

(٣) وقد نذره والده من يوم ولادته للقرآن الكريم ، وحضور العلم بالأزهر الشريف، فما أن بلغ الرابعة حتى ذُهب به إلى كتاب القرية وقد ربى هذا الكتاب أجيالا بالقرية منهم جيل والده رحمه الله

(٤) أتم حفظ نصف القرآن فى الكتاب فى سن التاسعة ، إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة ، وأصول الدين والسيرة ثم فتحت المدارس الأولية فدخل مدرسة بلده فأتم حفظ القرآن بها وأخذ الشهادة الأولية فى سن الثانية عشرة تقريباً .

(٥) وفى عام ١٩٢٥ دخل معهد دسوق العلمى الدينى ، فأخذ الشهادة الابتدائية منه ، وفى عام ١٩٣٠ دخل معهد طنطا الثانوى وأخذ منه الشهادة الثانوية وفى عام ١٩٣٥ دخل كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر المعمور

(٦) وفى عام ١٩٣٩ أخذ الشهادة العالية وكان من الأوائل فدخل قسم الدراسات العليا شعبة التفسير والحديث ، وبعد دراسة خمس سنوات دراسة لا تعرف الكلل ، ولا الملل نجح فى الامتحان التمهيدى لشهادة العالمية من درجة أستاذ سنة ١٩٤٤ أمام لجنة من كبار العلماء ثم اشتغل بتأليف رسالة « الدكتوراة »

(٧) وفى نوفمبر عام ١٩٤٦ نوقش فى رسالة العالمية من درجة أستاذ « الدكتوراة » مناقشة علنية أمام لجنة خماسية من كبار العلماء فحصل عليها بدرجة الإمتياز .

(٨) وفى ديسمبر من هذه السنة عين مدرسا بكلية أصول الدين ، ومازال يترقى من مدرس إلى أستاذ مساعد ، إلى أستاذ حتى وصل إلى مرتبة العمادة

(٩) وفى أكتوبر ١٩٦٩ عين أول عميد لكلية أصول الدين ، أول كلية فى أول فرع أنشىء لجامعة الأزهر بأسيوط . وما زال يسير بالكلية قدما حتى

اكتملت سنواتها الأربع عام ١٩٧٢ — ١٩٧٣ . ومازال يسعى حتى أنشئت بفرع الجامعة كليتان أخريان. كلية اللغة العربية وكلية الشريعة الإسلامية والقانون

(١٠) فى مطلع حياته العلمية أعير إلى المملكة العربية السعودية للتدريس بالمعهد العالى السعودى بمكة المكرمة، وللمشاركة فى إصلاح التعليم الدينى ووضع مناهجه وقد قضى أربع سنوات بجوار بيت الله الحرام هى ربيع عمره ، وفى سنة ١٩٦٣ أعير إلى كلية الشريعة بجامعة بغداد فمكث فيها عاما، وفى عام ١٩٦٦ أعير إلى الجامعة الاسلامية بأم درمان بالسودان فمكث فيها نحو ثلاث سنوات

(١١) يكتب فى كبرى المجلات العلمية والدينية فى مصر وفى غيرها من بلاد الاسلام والعروبة ، من منذ ربع قرن أو يزيد، وألقى محاضرات وحضر ندوات فى مصر ، وفى غير مصر

(١٢) أذاع فى الإذاعة والتلفزيون فى مصر، وفى المملكة العربية السعودية وفى العراق ، وفى السودان .

(١٣) عنى بالتأليف فى القرآن وعلومه، والسنة وعلومها والدفاع عنهما ضد المبشرين ، والمستشرقين وأتباعهم ، وألف فى ذلك كتبا كثيرة

(١٤) كون مدرسة علمية من تلاميذه ومريديه فى مصر وغيرها من البلاد الإسلامية والعربية تعتز بالقرآن وعلومه ، والسنن وعلومها، والتأليف فيهما وإجلاء محاسنها وما أكثرها . وتقديم هذه العلوم والمعارف فى لغة سهلة مستساغة ، وفى عرض حسن جذاب .

المؤلفات المطبوعة

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم (٢) أعلام المحدثين (٣) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة « جزآن » (٤) فى أصول الحديث (٥) علوم الحديث (٦) دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين (٧) شرح المختار من صحيح مسلم بن الحجاج (٨) رسالة فى الإسراء والمعراج (٩) فى رحاب السنة : الصحاح الستة (١٠) الربا فى نظر الاسلام وحلول للمشكلة

« وهناك كتب أخرى تحت الطبع »

رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٣٩ لسنة ١٩٧٢ . القاهرة الحديثة للطباعة